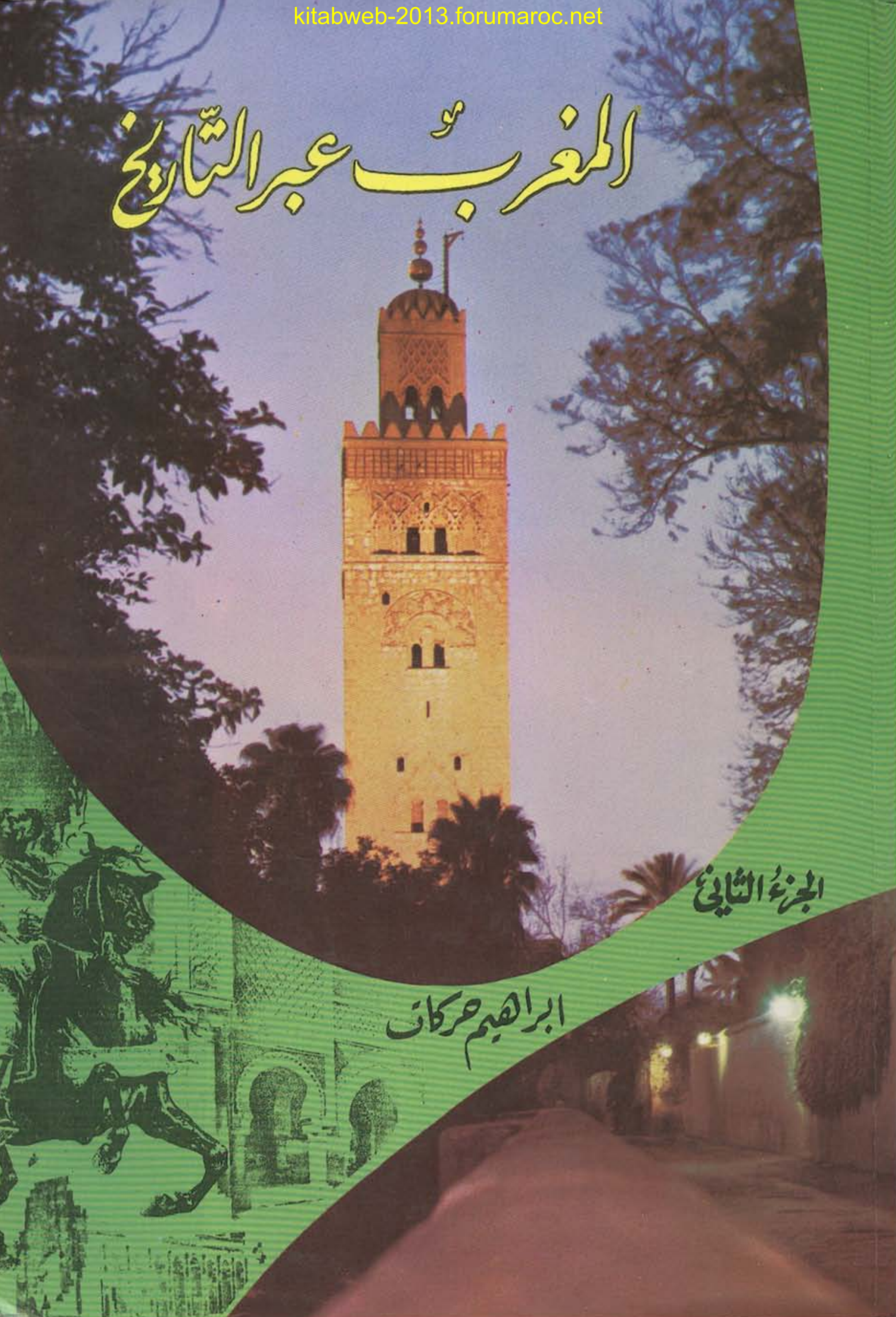
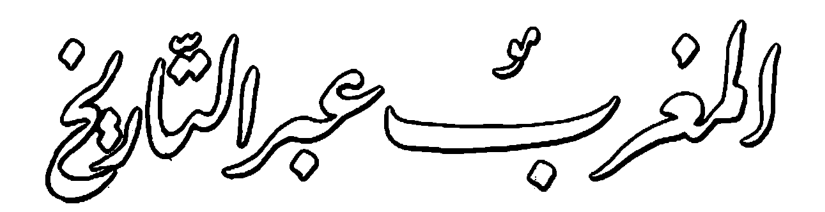


kitabweb-2013.forumaroc.net
المغرب عبر التاريخ
الجزء الثاني
ابراهيم حركات

المغرب عبر التاريخ

ابراهيم حركات



عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر

الجزء الثاني

من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين

نشر وتوزيع
دار الرشاد الحديثة
98 شارع فيكتور هيكو
الهاتف : 2732.56-2748.17
الدارالبيضاء (03)



طبعة 1420-2000

بنو مرين

1 – العالم في هذا العصر

1 – العالم الغربي

عرف عصر بني مرين دولاً أوربية تكونت أو سارت في طريق الوحدة السياسية حيث بدأت تسودها مظاهر الحضارة التي تأثر بها الأفونج عن طريق الاحتكاك بأهل الأندلس أو بالمسلمين في الشرق وخلال الحروب الصليبية ، وهكذا ظهر خلال نشأة الدولة المرينية أو قبلها بقليل ملوك مشهورون كالقديس لويس بفرنسا (1226 ــ 1270) وريشار قلب الأسد بأنجلترا (1133 ــ 1157) وتشكلت مملكة القبطيين وبينهم القديس المذكور وفليب الجسور (1270 ــ 1285) وظهرت بعد ذلك دولة الفاليين **Les Valois** التي امتد ملكها في فرنسا من (1328 ــ 1483) وأثناء ذلك ظهرت على مسرح السياسة الوطنية الفرنسية شخصية جان دارك التي حاربت الانجليز بعد استيلائهم على فرنسا سنة 1420 ولكنهم قبضوا عليها أخيرا وأحرقوها سنة 1431هـ وفي القرن الرابع عشر بدأ تنظيم البرلمان الفرنسي على يد فليب الرابع وأخذت فرنسا تعرف الطريق إلى الحضارة بواسطة التقدم الفلاحي وتقليد الفن الغوطي وظهور الآثار الأدبية المتمثلة في أغاني رولان ، وأنشأت فرنسا لأول مرة أسطولاً في أيام لويس الحادي عشر وظهر بعض المؤرخين الفرنسيين كجوان فيل مؤرخ القديس لويس وساعد إنشاء المطبعة الفرنسية على رواج الآثار الفكرية .

أما انجلترا فقد عرفت تقدماً سياسياً عظيماً خلال القرن الرابع عشر حيث أعطي برلمانها صلاحيات واسعة كحق التصويت على الضرائب وتغيير القوانين وكانت الطبقة الشعبية الفقيرة قد بدأ يسودها الوعي السياسي ، فاستعدت لمقاومة ظلم الطبقة الأرستقراطية ، ولكن الملكية المطلقة التي فرضت على البلاد فيما بين (1485 ــ 1603) أوقفت إلى حين هذا الوعي الديموقراطي لتسير البلاد بعد ذلك حثيثا نحو الديموقراطية الحقة .

2 – العالم الاسلامي :

لم يخلُ الشرق الاسلامي في هذا العصر من دول تحمي ظهره وترد عنه كيد الغاصبين ، فقد نشأت دول المماليك البحرية بمصر على أنقاض الأيوبيين وقام الظاهر بيبرس بصد هجوم المغول في معركة عين جالوت سنة 1253 ولولا هذه الهزيمة التي لقيها المغول في هذه المعركة لكانت مصر ولاشك طعمة لطغيانهم ، ولكنه لم يوفّق في انتزاع بغداد منهم ، ثم نشأت دولة المماليك البرجية على يد القائد قلاوون سنة 1273م وجعل ابنه برقوق مقر قيادته في أبراج القاهرة ، وفي أيامهما كان ابن خلدون قد استوطن مصر ولعب دوره السياسي المعروف أثناء استيلاء تيمورلنك على الشام وقد عاصر كل من الفقيه خليل الصدفي وابن تيمية ، المؤرخ ابن خلدون مع تفاوت بينهم في السن .

وفي أواسط عهد الدولة المرينية تأسست الدولة العثمانية بالأناضول واتخذت بروسة في البداية عاصمة لها وظهر بينها كثير من الملوك العظام الذين عاصروا بني مرين كأورخان الذي كان أول من نظم الجيش العثماني ، وبايزيد الذي قضى على النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى وجابه في آن واحد خطر الصليبيين الذين تجمعوا من دول أوروبا الغربية وبلاد البلقان تحت رعاية ملك المجر سنة 1336 فسحق جيوشهم بايزيد ، ثم خطر المغول الذين تمكنوا في الأخير من اقتحام بلاده واعتقاله بقيادة تيمور لنك ، وكانت دولة بني مرين يؤمئذ قد بدأت تدب نحو الضعف ثم الاضمحلال ، حتّى إذا اقتربت من نهايتها بنحو عقدين من السنين كان محمد الثاني قد تمكنَ من اقتحام القسطنطينيّة سنة 1453م. ليقضي نهائياً على دولة بيزنطية التي كانت امتداداً لدولة الرومان العتيقة، والحق أن البيزنطيين قد تركوا آنارا رائعة في القسطنطينية هي ثمرة من ثمرات مدنيتهم.

ويمثل عصر بني مرين بداية فترة تحول النفوذ الأسلامي من غرب البحر المتوسط إلى شرقيه حيث أضحت الدولة العثمانية تتحكم في مصير العالم ومع ذلك فلم تتمكن مطلقاً من بسط نفوذها المباشر على المغرب مما يسر لدولة بني مرين وخلفائها أن يرْعوا إلى حدٍّ كبير الحركة العلمية وما يتصل منها بالدين الإسلامي على الخصوص ، فيما كانت دول الشرق الإسلامي تعاني من ضغط العثمانيين محنة عظيمة بالإضافة إلى أن هؤلاء كانوا دولة عسكرية قليلة الاهتمام بتخليد الثقافة العربية .

أما في افريقية فإن جيوش الصليبيين التي تحاشت المغرب لتحط بأثقالها في

التراب التونسي بقيادة القديس لويس لم تلبث أن وقعت فريسة وباء فتك بقسم عظيم منها وكان الجوع والعطش وشدة الحر من أكبر عوامل هذا الوباء الذي مات منه الملك المذكور نفسه وبذلك أتيح للمستنصر الحفصي أن يعقد صلحا مع الصليبيين سنة 1270 م يتعهد الفريقان بموجبه بالمحافظة على حقوق رعايا كل فريق لدى الآخر ويؤدي المستنصر جزية لشارل دانجو.

وفي الأندلس ظهر منذ أواخر عهد الموحدين محمد بن هود الذي ينتسب إلى المستعين بن هود وكان ظهوره في نواحي مرسيه سنة 625هـ بينما كانت قشتالة وليون قد اتحدتا بقصد مضايقة مسلمي الأندلس ورغم هذا الاتحاد الذي كان من آثاره هزيمة ابن هود في شريش فإنه تمكن من رد هجوم آخر بناحية وادي آش حيث قضى على جنود العدو وتمكن ابن هود مع هذا من بسط نفوذه على مرسيه والمرية ومالقه وغرناطة واشبيلية وقرطبة ، ولكن سرعان ما ظهر منافس جديد هو محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الملقب بابن الأحمر ، والحق أن أعقابه لم يتمكنوا من المحافظة على النفوذ الإسلامي بهذه البلاد كما أنهم لم يتعاونوا بإخلاص مع بني مرين شأن كثير من ثوار الأندلس مع المرابطين والموحدين قبلهم.

☆

2 – نشأة الدولة

بنو مرين – أصلهم – مواطنهم – عوامل تأسيس دولتهم – الأمراء الأولون – يعقوب المنصور

أصل بني مرين ومواطنهم :

عالج صاحب الذخيرة السنية نسب بني مرين معتمداً على مصادر سابقة فأرجعهم إلى قيس عَيلان بن مضر ؛ والجدير بالذكر أن عبد المؤمن بن علي كان ينتسب إلى قيس بن مضر ربما ليبرر صحة خلافته. ونفس السبب قد يكون دعا بني مرين إلى انتحال الأصل العربي . ومهما يكن من شئ فإن بني مرين قد أجمعت المراجع على أنهم من زناتة التي عدد صاحب الكتاب المذكور منها قبائل عديدة أرى أن أنقل أسماءها هنا لما لهذا التعداد نفسه من أهمية تاريخية .

قال صاحب الذخيرة :

«ومن زانات بن يحيَى بن جانا تفرقت قبائل زناتة كلها وهم أمم كثيرة وقبائل جمة منهم مغراوة وبنو يفرن إخوتهم وزواغة وجديجة وبنو فاتن ومغيلة ومطغرة ومديونة وكشانة وملزوزة ومطاطة ولهاصة ولواته ومريسة وبنو دمر ونفوسة وبنو يصولت وبنو يخفش وبطُّوية وكزناية وبنو ورتطغير وبنو يزونت وملكيشه وعشعاشة وسدريكة ونفزة وجراوة ولماية وبنو مسارت وسدراته وبنو واسين وزحيلة وسوماته وورسيفة وبنو تاجرة وبنو مرين وبنو عبد الواد وإخوتهم بنو توجين».

ونقل ابن خلدون في المجلد الأخير من تاريخه آراء كثيرة في نسب زناتة على العموم وردهم في النهاية إلى أصل بربري وبالتالي إلى كنعان[1] ؛ وتبرّر بعض الروايات[2] التي ترد زناته إلى أصل عربي صحة هذا الانتساب بما أخبر عن حسان

---

(1) ابن خلدون مجلد 7، الصفحات من 1 إلى 8.

(2) الذخيرة السنية ص 13. لمؤلف مجهول.

ابن النعمان أن جيشه كان أكثره من قيس فلما حل بجبال الأوراس وجد زناتة قد اجتمعت لقتاله فعاتبهم على ذلك قائلاً : لم تخالفوننا وتعينون علينا أعداءها؟ أليس أبوكم قيس بن عَيلان؟ قالوا بلَى ، ولكنكم تنكرون علينا ذلك فإذا أقررتم بالحق فاشهدوا به على أنفسكم ، ثم اجتمعت أشراف قيس وزناتة ورؤساء البربر والروم وكتبوا وثيقة نسب زناتة إلى قيس عَيلان وقد جاء فيها[3] :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أشهد به أنجاد قيس عيلان لاخوانهم زناتة بن بُر بن قيس عَيلان : انا أقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بر بن قيس عيلان فلكم ما لنا وعليكم ما علينا[4] الخ ..»

وإذا صحت هذه الوثيقة التي لا يعرف من أين نقلها راويها ، فتكون إثباتاً لعروبة زناتة لما يعرف عن قدماء العرب من حرصهم الشديد على حفظ الانساب أباً عن جد . على أن الزياني[5] يرفض انتماء بني مرين إلى قيس بن عيلان ، ويقول إن ذلك من عمل طلبة وقتهم وكتاب دولتهم ، وانهم من زناته.

وقد قسم ابن خلدون زناتة إلى طبقتين : أولاهما يدخل فيها بنو يفرن ومغراوة ، والثانية يدخل فيها بنو مرين وبنو عبد الواد وتوجين . والفخذتان الأخيرتان من قبائل المغرب الأوسط .

أما مرين ، فهو أحد جدود القبائل التي تفرعت عن زناتة ، ومنه تفرعت فخذات كثيرة تجتمع كلها في ورتاجن بن مرين . ومن هذه الفخذات بنو نعمان وبنو مزال وبنو زنطار ، الخ ...

وكانت رياسة بني مرين في أول أيام الموحدين لبني عسكر . وكانوا يقطنون الزاب إلى تلمسان ، وعندما بدأ عبد المومن يكتسح المغرب الأوسط ، استعان على بني مرين بإخوانهم بني عبد الواد الذين بددوا جموعهم سنة 540هـ فنزلوا جنوبا إلى الصحراء يعيشون عيشة البداوة والترحل ، وينتقلون خلال الربيع والصيف إلى أعالي ملوية حتَّى ناحية تازا وكرسيف ، فيتزودون بالحبوب الزراعية التي يقتاتون بها شتاء في صحرائهم .

(3) الذخيرة ص 14.

(4) الذخيرة السنية ص 13 — 14.

(5) الزياني ، الترجمان المعرب . ص 306.

وقد أبلَى المرينيون بزعامة أميرهم محيو بن أبي بكر بن حمامة بلاء حسناً في وقعة الأرك التي انتصرت فيها جيوش المنصور الموحدي سنة 591هـ ، وأصيب محيو بجراح قاتلة في هذه المعركة ، حيث توفي سنة 591 ؛ وهو جد ملوك بني مرين جميعاً .

عوامل تأسيس الدولة

تختلف العوامل التي أدت إلى تأسيس دولة بني مرين عنها في تأسيس الدُّول المغربية السابقة ، فإذا كانت هناك عوامل دينية أو مذهبية حدتْ بهذه الدول إلى إقامة حكومة ملكية ، إلى جانب عوامل اقتصادية وسياسية ، فإن العامل الديني والمذهبي لم يكن له أثر في تكوين دولة بني مرين فلم يكن ثمت من إقامة مذهب جديد أو عقائد مستحدثة ، حيث أن مذهب مالك قد تركز بالمغرب منذ المرابطين وفشلت جهود الموحدين بعدهم في إرغام الناس على اعتناق مبادئ المهدي بن تومرت بصورة نهائية ، فعوامل قيام الدولة المرينية هي :

1 – العامل الاقتصادي :

فالمرينيون قد لاقوا كسائر زناتة الرحل مشاكل المجاعة والجدب في الأراضي الصحراوية منذ أواسط القرن السادس هـ ولم يكن عدد بني مرين قليلاً كما يزعم طيراس. فقد انتشروا في سباسب وصحارى الشمال الافريقي من القيروان إلى بلاد السودان[6] منذ أوائل دولة الموحدين ولم تكن مواردهم المحدودة مما يساعدهم على أداء الأتاوات والضرائب الباهظة التي أثقل بها الموحدون كاهل الشعب المغربي وكانت ولا شك من الأسباب التي عجلت بخراب دولتهم ، وما كاد ضعف الموحدين يتجلَّى منذ هزيمة العقاب حتَّى بدأ بنو مرين يستقرون بالشمال الشرقي من المغرب مستأنسين ببقايا زناته من مكناسة وغيرهم ، وكان أول ما جاهروا به الموحدين من العداء ان بدأوا يتعرضون لقوافل التجار ويتسلطون على القرى والمزارع ويصدون كل قوة اعترضت سبيلهم .

2 – العامل السياسي.

من الطبيعي أن يكون ضعف الموحدين السياسي بعد هزيمة العقاب 610 واندحاراتهم المتوالية أمام بني مرين مشجعاً كبيراً لهؤلاء على إقامة دولتهم ، كما أن العناية بتقوية الجيش ضعفت كثيراً بعد موت الناصر الموحدي .

(6) الذخيرة السنية- ص 23.

3 – العامل القبلي :

من العبث إنكار العامل القبلي في معاداة بني مرين لدولة الموحدين وإنشاء دولة جديدة، فإذا كان الموحدون ضربوا المرينيين بإخوانهم بني عبد الواد فإن زناتة المغرب الأوسط وبينها مغراوة وبنو مرين وبنو بادين لم تنس هزيمتها الساحقة أمام عبد المؤمن أثناء مطاردته لتاشفين بن علي. وبنو مرين لم يحاربوا الموحدين كدولة بل حاربوهم ككتلة قبلية ضمن المجموعة. ولا ينكر مع هذا أن حلفاً هاماً قد انعقد بين قبيلة رياح العربية وبين مرين سنة 613 وكان لهذا الحِلْف الذي امتد مفعوله لأجل طويل أثر في انتصارات بني مرين على الموحدين.

عبد الحق بن محيو (592 – 614) (1195 – 1217) (بداية المناوشات)

هو أكبرأبناء محيو الذي تقدم ذكره، وفي أيام امارته على بني مرين بدأ ضعف الموحدين وزحف المرينيين نحو الشمال فتصدى لهم أبو علي بن وانودين فدحروا جيوشه بوادي النكور سنة 613[7] وتقدموا إلى رباط تازا حيث اعترضهم عاملها الذي قتلوه واستولوا على أسلاب جيشه، وأحدثت هذه الانتصارات حقداً في نفوس بني عسكر على بني عمهم حمامة. مما أدى بالأولين إلى محالفة عرب رياح، فالتحمت الحرب بين الفريقين قرب تافرطاست عند وادي سبو وهلك خلالها الأمير عبد الحق سنة 614، وأثناء ذلك كانت الأوضاع الاقتصادية والسياسية تسير إلى الانهيار حيث اعتصم العمال بنواحيهم واندلعت الثورات في مختلف الجهات كما سادت روح التمرد لدى عامة السكان ضد الدولة فيما يخص أداء الضرائب ومن ثم ضعف أهم مورد للدولة الحاكمة.

وكان عبد الحق بن محيو من أتقياء بني مرين وزهادهم كثير الصدقة عطوفاً على المساكين عفاً في أخلاقه وسلوكه.

أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (614 – 638) (1217 – 1240) (خضوع بعض القبائل)

دامت إمارته حوالي 25 سنة وكان ينهج سيرة والده في العطف على الفقراء وملازمة الصوم وتعظيم العلماء، أمه بربرية زناتية هي النَّوار بنت تاصليت

---

(7) حسب الزركشي. أخبار الدولتين. ص 14. بدأ ظهور بني مرين سنة 610هـ وكانوا حينئذ 400 فارس.

الورتاجنّي . وكان أول عمل بدأ ه بعد ترشيحه رئيساً على بني مرين أن حارب عرب رياح وطارهم في بلاد الغرب حتّى أذعنوا لطاعته وظلوا بعد ذلك أوفياء لخلفائه يؤدون لهم ضريبة سنوية ويناصرونهم في حروبهم . وقد استطاع أبو سعيد أن يضمن إلى ذلك طاعة عدة قبائل أخرى كمكناسة وهوارة ، وفشتالة وبهلولة وزكارة وبطوية وتسول ومديونة وسدراته ؛ وعين على النواحي الخاضعة لسلطته عمالاً وفرض عليها ضرائب معلومة ولكنه اغتيل على يد علج كان تحت كفالته سنة 638 وذلك بوادي ردات .

أبو معرف محمد بن عبد الحق (638 – 642) (1240 – 1244) (الزحف نحو فاس)

شقيق عثمان بن عبد الحق ، كان على سنن والده وأخيه في التخلق بالكرم ومحامد الأخلاق ، كما سار على نهجهما في إضعاف قوة الموحدين بواسطة الحرب الاقتصادية . وفي سنة 638 تلقى بَيعة جماعة من عرب سفيان برئاسة جرمون بن رياح ، ثم زحف إلى مكناسة التي دافع عنها ابن وانودين بمساعدة قوة من النصارى دفاعاً يائساً حتّى طرده أهلها ، وتمكن بنو مرين من استخلاص مغارم باهظة فرضوها على سكان مكناس حتّى وفاة الرشيد الموحدي سنة 640 ، وتولى أخوه السعيد فهيأ جيشا قوامه عشرة آلاف مقاتل لحرب بني مرين وكان اللقاء بأغلان قرب فاس ومريوم على نشوب المعركة ثم عاجل نصراني أبا مُعرف بطعنة قاتلة توفي على إثرها مباشرة وانسحب بنو مرين في الظلام نحو الشمال ، وتقول رواية صاحب الاستقصا[8] أن جيش الموحدين كان يبلغ عشرين ألف مقاتل وأن اللقاء كان بموضع يعرف بصخرة أبي بياش قرب فاس سنة 642.

أبو بكر بن عبد الحق (642 – 656) (1244 – 1258)
(الاستيلاء على فاس واسترجاع مكناس والحرب ضد يغمراسن)

هو ثالث أبناء عبد الحق بن محيو من الذين تولوا رئاسة بني مرين ويكنيه ابن خلدون بأبي يحيى . أمه بربرية تدعى عرونت وكان كما وصفه صاحب الذخيرة أبيض اللون مشرباً بحمره تام القد بسط الجسم حسن الوجه والعينين مطلق اليدين يقاتل بكلتا يديه وكان شجاعاً كريماً موصوفاً بالحلم والشهامة وقد دشن عهده بتوزيع الأراضي المفتوحة على بني مرين فأخذ كل فريق منهم ما استولى عليه ، وأثر ذلك

(8) ج 3 ص 11 .

في نفوس بني عسكر تأثيراً سيئاً فحالفوا ضده السعيد الموحدي ثم استصرخوا بيغمراسن أمير بني عبد الواد الذي حالف السعيد ثم غدر به وقتله فعاد بنو عسكر يحالفون مرة أخرى بني عمهم . وقبل موت السعيد تقدمت جيوش بني مرين تغزو مكناسة وتوسط يعقوب المنصور لدى شيخها علي بن أبي العافية الذي سلم المدينة إلى أبي بكر سنة 643 ولما كانت سنة 645 تقدم السعيد لاسترجاع فاس في حشد هائل فانسحب أمامه بنو مرين إلى تازا والريف واعتذر إليه أهل مكناسة عن إسلامهم المدينة إلى المرينيين ، ثم سار يقصد بني مرين فلم يسع أبا بكر إلا أن يعلن بيعته للسعيد وتعهد بالقضاء على يغمراسن لقاء امدادات من الموحدين ، ولكن أشياخ الموحدين نصحوه برفض هذه المساعدة وتقدم بنفسه إلى تلمسان بصحبة جيش فيه خمسمائة من بني مرين إلى جانب فرق الموحدين إلا أن الأقدار لم تمهل السعيد الذي قتل غدراً أمام حصن اعتصم به يغمراسن ، وكان مقتله سنة 646.

وسنحت الفرصة لأبي بكر بن عبد الحق حيث تقدم إلى مكناسة ليسترجعها بعد أن أستولى على حصون ملوية ، ثم زحف إلى فاس واستولى عليها سنة 646 وألزم أهلها بمبايعة بني أبي حفص الذين انقاد المرينيون في البداية لخلافتهم ثم عين أخاه يعقوب عاملاً على تازا ونواحيها واستقر هو بفاس بعد أن أمن عاملها الموحدي وأرسله مكرماً إلى أهله ، ثم نهض لفتح مواطن زناتة واستخلف مولاه السعود بن خرباش في جماعة من الحشم ، وسرعان ما انقلب أهل فاس ضد بني مرين ورجعوا إلى طاعة الموحدين بواسطة بقايا من حامية الموحدين النصارى بها . وانتهى الأمر بقتل السعود وتنصيب شريد الفرنجي عاملاً مؤقتاً على فاس ، واستنجد الفاسيون بالمرتضى الذي استصرخ بدوره بيغمراسن . وفي ايسلي قرب وجدة التحم القتال بين جيوش يغمراسن وأبي بكر وكانت الهزيمة على الأول وعاد الثاني إلى فاس يشدد عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان وسلموا إليه المدينة سنة 648هـ وفي سنة 649هـ تقدم للاستيلاء على سلا والرباط فاعترضه جيش الموحدين فهزمهم واستولى على المدينتين وعين عليهما ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق .

وأعد بالمرتضى جيشاً قوامه 80 ألف مقاتل وكان اللقاء عند جبال بهلولة قرب فاس وانهزم المرتضى تاركاً لبني مرين غنائم عظيمة. وكان هذا اللقاء سنة 653هـ وهو يمثل إحدى المعارك الفاصلة بين الموحدين وبني مرين وإثره زحف أبو بكر إلى بلاد تادلا ثم سجلماسة ودرعة اللتين سقطتا في يده سنة 655 وكان يغمراسن يطمع في ضمها إلى ملكه فسبقه إليهما أبو بكر وعين عليهما يوسف بن يزكاسن ، كما

أستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي وعلى قيادة الجيش المحلي أبا يحيى القطراني ، وأصيب أبو بكر بعد ذلك بمرض مات على إثره سنة 656 حيث دفن بباب الفتوح بفاس وتولى الأمر بعده ولده عمر ، ولكن أشياخ بني مرين فضلوا تولية يعقوب أخي أبي بكر ، ونشبت الحرب بين العم وابن أخيه فانهزم عمر ثم قتله بعض عشيرته ، فسلم الأمر ليعقوب .

يعقوب بن عبد الحق (656 – 685) (1258 – 1286)

(شخصيته – الاصطدام بيغمراسن – محاربة الاسبان بسلا – مشكلة العرش – فتح مراكش – تولية أبي مالك العهد – محاولة فتح تلمسان – فتح ما بقي من المغرب – أعمال يعقوب بالأندلس – جوازه أربع مرات – وفاته)

شخصيته : يعقوب بن عبد الحق بن محيو من أم حرّة اسمها زاكية مباركة بنت محلى البطيوي الزناتي . ولد سنة 607 وكان معتدل القامة جميل الصورة أبيض اللون كريماً محباً للعلماء والفقراء متواضعاً ، وكان شديد التدين كثير الصوم ، بويع له بالخلافة بفاس سنة 656 وتابع طريق أسلافه في الاستيلاء على مناطق المغرب شيئاً فشيئاً من يد الموحدين . ويعتبر المنصور أول ملوك بني مرين حيث تمكن من إخضاع مجموع التراب المغربي والاستيلاء على عاصمة الموحدين .

أعماله في المغرب :

الاصطدام بيغمراسن : بعد وفاة أبي بكر بن عبد الحق انتهز يغمراسن الفرصة ليتوغل في المغرب واستعان في ذلك بمغراوة وبني توجين . ولكن يعقوب المنصور تصدى له في كلدامان ، فرجع إلى تلمسان بعد أن أحرق في طريقه المزارع التي صادفها .

محاربة الاسبان في سلا سنة 1260/658 :

في شوال 658 حدثت ثورة اسبانية بسلا ، وتفصيل الحادث أن يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق كان قد عينه أبو بكر عاملاً عليها وكان ينوي الخروج على عمه يعقوب عن طريق تملك الرباط وسلا التي تمكن المرتضى من استرجاعها وتعيين ابن أبي يعلى عليها ، وكان في سلا عدد كبير من أبناء الجالية الاسبانية أكثرهم تجار ، فتآمر يعقوب بن عبد الله معهم حيث كان أهل سلا يحتفلون بعيد الفطر ، فوضعوا السيف في رقاب أهلها ، ثم هب المنصور لنجدتها واستمر محاصراً لها أربعة

وعشرين يوماً ، وأخيراً استولى عليها ، وبنى بها السور المقابل للوادي ، أما الاسبان فقد غادروها في سفنهم .

ثم توجه يعقوب إلى أنفا (الدار البيضاء) فاستولى عليها كما ضم إليه تامَسْنا ، وأمام هذه الانتصارات المتتالية لم يجد المرتضَى بداً من مهادنة يعقوب وطلب منه الوقوف عند أم الربيع كحد يفصل بين ممتلكاتهما وقبل يعقوب عن رضَى ولكن الجو توتر بينهما من جديد سنة 659 فنشب القتال بينهما في وادي أم الربيع حيث التحم الجيشان في معركة أم الرجلين التي استعان فيها المرتضَى بالروم والأغزاز وقبائل مختلفة من العرب ولكن جيشه انهزم شر هزيمة .

مشكلة العرش 660 — 668 (1261 — 1269) :

بعد الاستيلاء على سلا ، خرج يعقوب بن عبد الله إلى غمارة ، فبعث يعقوب المنصور جيشاً لقتاله ، ثم ظل يتنقل بين مناطق المغرب حتَّى اغتاله أحد شيعة السلطان سنة 668 وقد حاول هذا الثائر الخطير أن يستولي على الملك بمساعدة بني عمه أبناء ادريس بن عبد الحق ولكن أبا يوسف استمالهم وبعث ببعضهم إلى الأندلس على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فشغلوا بالحرب هنا وكانوا أول جيش وجه إلى الأندلس في دولة بني مرين سنة 662 بقيادة محمد وعامر ابني ادريس بن عبد الحق وقد تمكنا من استرجاع كثير من المعاقل كشريش وغيرها .

وبينما كان يعقوب أبو يوسف في خضم هذه الأحداث كان يعمل في نفس الوقت على مهاجمة الموحدين في عقر دارهم بمراكش .

فتح مراكش سنة 1269/668 :

بدأت أول محاولة لفتح مراكش سنة 663 حيث بلغ يعقوب أحواز مراكش دون أن يلقى مقاومة تذكر ، وكان يحطم في طريقه الزروع وينهب ويسفك الدماء[9] ولأمرٍ ما عاد إلى فاس من غير اقتحام مراكش ، والظاهر أن «غزوته» هذه كانت استطلاعية أكثر منها هجوما يقصد به الاستيلاء على عاصمة الموحدين ، وما كاد يستقر بفاس حتَّى زاره أبو دبوس يستنصره على المرتضَى ويعده بمشاطرته ملك مراكش! وكان أبو دبوس يعجل بذلك بنهاية دولة الموحدين عن قصد أو غير قصد ، فأمده يعقوب بخمسة آلاف مقاتل بعُدَدهم ومؤونتهم وتمكن أبو دبوس

(9) ابن خلدون ، العبر ، 7 ، 375.

بذلك من طرد المرتضى الذي التجأ إلى صهره ابن عطوش والي أزمور ، ولكن هذا غدر به وقتله ، أو أسلمه إلى أبي دبوس على رواية الذخيرة.

على أن أبا دبوس لم يف بما وعد به يعقوب ، فهب أبو يوسف إلى مراكش يحاصرها بينما استنجد أبو دبوس بيغمراسن ، وارتأى أبو يوسف أن يبدأ بصد هجوم يغمراسن وإرغامه على الانسحاب ، وفي وادي تلاغ قرب وادي ملوية التقى الجمعان وكانت الدائرة على يغمراسن حيث فر منهزما بعد أن قتل جماعة من حاشيته كما قتل ولي عهده عمر، وكانت وقعة تلاغ هذه سنة 666 ولم يكن يغمراسن يقصد من وراء مساعدة أبي دبوس أكثر من البحث عن فرصة يصير فيها ملك المغرب إليه دون بني عمومته المرينيين.

ثم عاد أبو يوسف يهلك الحرث والنسل في أحواز مراكش حتّى اضطر أبو دبوس إلى الخروج من الحصار الذي ضربه على نفسه وسار لِلقاء أبي يوسف الذي أظهر الانهزام أمامه ليبعده عن العاصمة مركز امداداته حتّى استدرجه إلى وادي غفو حيث كرّ عليه في هجوم مباغت وبادر أبو دبوس بالفرار ولكن الرماح تقاذفته فقتل في ميدان الحرب ، وانتهت به دولة الموحدين سنة 668 .

ثم دخل يعقوب مراكش وقتل فيها جماعة من وجوه الموحدين على عادة الفاتحين عند محاولة إقامة دولة جديدة ، واتخذ على الفور لقب أمير المسلمين وكان بنو مرين في بداية أمرهم يدعون للحفصيين حتّى يتألفوا بذلك قلوب أهل المغرب حيث كان الحفصيون كما يقول الناصري يعتقدون أنهم أحق بتملك المغرب من الموحدين لأن أصلهم من هنتاتة التي هي من صميم المصامدة ، ويبدو أن الحفصيين قد اكتسبوا من العطف والتقدير لدى سكان المغرب أكثر مما اكتسبه الموحدون في أواخر دولتهم.

وقد أوفد يعقوب إلى المستنصر الحفصي وفداً برئاسة ابن أخيه عامر بن ادريس يبلغه بيعته ، فسر المستنصر بذلك وبعث إليه بهدية سنية وقرئت بيعة يعقوب للمستنصر بمساجد تونس سنة 668 [10] ، ولكن أبا يوسف سرعان ما قطع الدعوة للحفصيين بعد أن ملك زمام الأمر بالمغرب وأصبح الحفصيون أنفسهم يحسبون له حسابه ويهادونه ومع ذلك فقد ظلت العلاقات طيبة بين أبي يوسف والحفصيين.

---

(10) الزركشي ، أخبار ص 29.

تولية أبي مالك العهد 1270/669 :

في سنة 669 قام يعقوب المريني بحملة قوية في منطقة درعة التي تحصن العرب ببعض حصونها فأخضعهم يعقوب لطاعة الدولة ، وبعد شهرين من المقام بمراكش أخذ البيعة لولده أبي مالك عبد الواحد وهو أكبر أولاده وأكثرهم استحقاقاً لولاية العهد ، وبينما يذكر صاحب الذخيرة أن البيعة كانت بالرباط يثبت ابن خلدون والناصري أنها كانت بسلا . بيد أن جماعة من أولاد عبد الحق بن محيو وعلى رأسهم عبد الله وادريس تأخروا عن البيعة وثاروا بجبل علوان من غمارة وهي ثاني ثورة تقوم ضد عرش أبي يوسف من جهة قرابته ، ولكن أبا يوسف جرد إليهم جيشاً بقيادة ولديه يوسف وأبي مالك ، يساعدهما مسعود بن كانون شيخ سفيان وانهزم الثوار أمام جيش يعقوب ثم عفا السلطان عنهم والتحق بعضهم بالأندلس وبقي عامر ابن ادريس بتلمسان ، ويذكر صاحب الذخيرة السنية أن المعركة كانت بجبل أمركو 669.

محاولة فتح تلمسان وموقعة ايسلي 1271/670 :

بعد أن صفَت جُلُّ المناطق المغربية لأبي يوسف هم بالقضاء على يغمراسن في عقر داره بتلمسان ، وفي الواقع كان يغمراسن على جانب عظيم من الفطنة والخبرة بشؤون الحرب ، وقد أعد أبو يوسف جيشاً عظيما سنة 670 اشتركت فيه عناصر مختلفة من بني مرين وأغزاز وعرب وصنهاجة ومصامدة وغيرهم ، وخرج هذا الحشد من فاس ثم التحقت به وحدات أخرى بقيادة ابي مالك عند وادي ملوية وبلغ مجموع الجيش حوالي 30 ألفاً ، وفي أنكاد وفدت عليه سفارة من ابن الأحمر تطلب إليه التدخل في حرب الأندلس ورأى أبو يوسف أن يتجهز للقتال بالأندلس ويستميل يغمراسن بواسطة صلح طويل الأمد ولكن يغمراسن رفض بكل شدة صارخاً بالانتقام لولده عمر وتم اللقاء بين الجيشين في وادي ايسلي ، وكانت الهزيمة مرة أخرى على يغمراسن الذي قتل ولده فارس أثناء هذه المعركة العنيفة التي لم تكن في صالحه ، ثم سار أبو يوسف يحاصر تلمسان بعد أن ترك مدينة وجدة قاعاً صفصفاً ، ويبدو أنها كانت إلى ذلك الوقت تابعة ليغمراسن ، وأثناء حصار تلمسان وردت على أبي يوسف قوات من بني توجين أصحاب ونشريس بقيادة أميرهم أبي زياد بن عبد القوي الذي شفى غيظه بتحطيم المزارع والقرى المجاورة لتلمسان ! وبعد مقام استغرق ثلاثة أشهر لم يتمكن أبو يوسف من اقتحام تلمسان . فانسحب إلى

فاس بعد أن انسحبت قوات بني توجين إلى ونشريس في مطلع سنة 671 حيث توفي أبو مالك عن سن الثانية والثلاثين فأخذ أبو يوسف البيعة لولده أبي يعقوب .

فتح ما بقي من المغرب 672ـ 1273/673ـ 1274 :

بعد أن تم الاستيلاء على معظم أجزاء المغرب وبقيت سبتة وطنجة وسجلماسة خارجة عن حكم أبي يوسف عزم على تصفية حسابها قبل الإقدام على الجهاد في الأندلس حتّى لا تمتد الثورة من هذه المعاقل إلى باقي المغرب الذي قضى أبو يوسف وقتاً طويلاً في إخضاعه .

وكان في سبتة أيام المرتضى الموحدي أسرة العزفي التي سنتتبع نشاطها خلال الأحداث المقبلة . وجدّ هذه الأسرة أبو القاسم العزفي الفقيه المشهور واحد أعيان المدينة ، خرج عن طاعة الموحدين بعد أن رأى ما وصلوا إليه من ضعف ثم ضم إليه طنجة التي كان عليها أبو الحجاج الهمذاني المعروف بابن الأمير وكان تابعا له ثم انشق عنه واستقل بنفسه ودعا لابن حفص ثم للخليفة العباسي وأخيرا لنفسه ، ثم دخلت طنجة في طاعة العزفي سنة 665 ، وبعد أن رجع أبو يوسف من حصار تلمسان نهض يحاصر طنجة سنة 672 وساعده على فتحها سهولة مسلكها ومساعدة بعض جنودها . أما سبتة فقد صمدت للحصار ثم وقع الصلح بين أبي العباس العزفي ويعقوب المريني على أن يحتفظ الأول بحكم المدينة لقاء خراج سنوي يؤديه الثاني ، وبعد بضعة أشهر من نفس السنة توجه للاستيلاء على سجلماسة التي كانت تحت حكم بني عبد الواد بعد أن خضعت زمناً لأبي بكر ابن عبد الحق على يد أبي يحيى القطراني كما تقدم . وكان دخولها في طاعة يغمراسن بمساعدة عرب المنيات من ذوي عبيد الله إحدى فرق بني معقل ، وقد استعمل المرينيون هذه المرة في حصار سبتة البارود[11] الذي يبدو أنه استعمل قبلهم أو في أيامهم على أقل تقدير ، وكان اقتحام سجلماسة في صفر 673 وبالاستيلاء على سجلماسة أصبح المغرب كله خاضعاً لسلطة الدولة المرينية بعد صراع عنيف استغرق ما لا يقل عن نصف قرن وقد بدأ في شكل مناوشات ثم تطور إلى حرب منظمة .

أعمال أبي يوسف في الأندلس

بعد أن فرغ أبو يوسف من تصفية شؤون المغرب التي استغرقت منه كملك

---

(11) ابن خلدون . العبر 7 . 388.

حوالي سبع عشرة سنة رغب في التدخل لصالح مسلمي الأندلس ، ولم يكن هذا التدخل لطموح شخصي أو رغبة في توسيع امبراطورية وإنما كان لأسباب اقتضتها الحالة السياسية بالأندلس نفسها ، حتّى إن موقف المرينيين بالأندلس في جملته موقف دفاعي أكثر منه هجومياً ، ولسوء الحظ فإن الفترة الطويلة التي استغرقها الانحطاط الموحدي بعد هزيمة العقاب ، والتي تجاوزت نصف قرن لم تترك فرصة طيبة ليعقوب المريني وخلفائه ، حتّى يستعيد المجد الإسلامي بالأندلس فإذا كان للمغرب مسؤولية ما في تدهور الأحوال بالأندلس فليس المرينيون هم الذين يتحملونها ، وإنما يتحملها الموحدون الذين فشلت سياستهم بعد هزيمة العقاب كما يتحملها بنو الأحمر الذين كادوا مراراً لبني مرين حرصاً على نفوذهم حتّى فقدوا في النهاية هذا النفوذ الفارغ .

وقد فقد المسلمون بين سنة 622 ــ 670 كثيراً من المدن والمراكز الهامة بالأندلس كقرطبة سنة 636 وجيان 644 واشبيلية 646 وبلنسية ، وتنازل ابن الأحمر للعدو عن كثير من المراكز التي كانت بيده عجزاً عن حمايتها واحتفظ من أرض الأندلس بالجنوب الغربي متخذاً غرناطة عاصمة له ، وأثناء ذلك كان يوفد الرسل إلى بني مرين يطالبهم بحماية الأندلس ، وكان أبو يوسف منشغلاً بحرب الموحدين ويغمراسن ولم يصف له أمر بالمغرب إلا سنة 673 مع أنه كان يرى إنجاد بني الأحمر منذ أيام أخيه أبي يحيَى وفي هذه السنة بالذات وردت بيعة ابن شقيولة وكتاب من ابن الأحمر يستصرخه على النصارى ، وكان ليعقوب أربعة جوازات إلى الأندلس وفي أثناء تفكيره في العبور إلى هذه البلاد ، ورد عليه رسول يغمراسن الذي عرض عليه الصلح فقبله عن رضَى .

الجواز الأول 674 (1275) ــ **غارات استطلاعية** :

كان هذا الجواز إثر اتصال وفد ابن الأحمر بأبي يوسف الذي اشترط في مقابل عبوره إلى الأندلس التنازل له عن بعض الحصون في أقصَى الجنوب من الأندلس كطريف ورندة ثم جهز جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل بقيادة منديل وأمده العزفي بعشرين قطعة من أسطوله ، وعبر الجيش في البداية من غير حضور أبي يوسف ، وقام بغارات بسيطة في أحواز شريش ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء التي اتخذها مركزا للتجمع ، ومن رواية ابن خلدون نفهم أن دخول هذا الجيش بقيادة منديل كان قبل توصل أبي يوسف بكتاب ابن الأحمر ، وعلى كل حال فإن أبا يوسف قد

التحق بطلائعه سنة 674 وكان أبو محمد بن شقيولة صهر ابن الأحمر تابعاً له بمالقة ، ثم ساءت العلاقة بينهما فخطب ابن شقيولة ود أبي يوسف سنة 673 كما تقدم وقد التحقت امدادات ابن الأحمر وابن شقيولة بجيش أبي يوسف الذي اشتركت فيه عناصر من كل قبائل المغرب كغمارة وزناتة ومصمودة وصنهاجة والعرب ، وكان مروره من طريق طنجة حيث كان التجمع بساحة طريف وكانت الحرب ضد النصارى في هذه المرة تكتسي صبغة هجمات وغارات خاطفة حصل أبو يوسف خلالها على كثير من السبي والغنائم وكان أبو يوسف يهدف من ذلك إلى فتح الطريق نحو اشبيلية عبر استجة بينما تذهب قوات ابن الأحمر إلى جيان.وبادر دننه (**Don Nuno**) إلى مهاجمة قوات أبي يوسف الاستطلاعية ولكنه اصطدم بها اصطداماً عنيفاً وقتل هو نفسه خلال المعركة التي بلغ عدد القتلى فيها من النصارى ستة آلاف حسب رواية ابن خلدون و 500 على رواية غيره ، أما قتلَى المسلمين فكانوا حوالي ثلاثين ، وقد بعث برأس دنّنه « **Don Nuno** » إلى ابن الأحمر الذي حفظه وبعث به الى قومه ثم زحف يعقوب إلى أحواز اشبيلية حيث قام بغارة عابرة وقام ببناء مدينة البنية بجانب الجزيرة ، أما قوات ابن الأحمر فقد كانت بدورها تهدد قرطبة وإشبيلية ، وأثناء هذه الغارات السريعة قتل أسقف طليطله ، وانهزمت النجدات القتشاليه أمام المسلمين ولكن هؤلاء وقفوا عند هذه المعارك الشبيهة بالمناوشات ، من غير أن يضربوا على المدن الكبرى حصاراً طويل الأمد وأن يحاولوا زحزحة العدو عن مراكزه ، واستغرقت غيبة أبي يوسف هذه المرة حوالي ستة أشهر ثم عبر إلى قصر مصمودة وأمر بتسوير بادس ميناء غمارة .

وفي أثناء غيبة أبي يوسف اشتغل عامل مراكش محمد بن علي بن محلي بمحاربة بقايا الموحدين المعتصمين بتينمل وكانوا قد بايعوا إسحق أخا المرتضى سنة 669 فاعتقلهم العامل وضرب أعناقهم كما قتل خليفتهم .

وبمجرد استقرار أبي يوسف بفاس شرع في بناء المدينة البيضاء بها من شوال 674 ثم بناء قصبة مكناس واستوزر في هذه الأثناء فتح الله السدراتي وتوصل بهدية ثمينة من ابن عبد القوي أمير توجين .

الجواز الثاني 676 (1277) ــعقد الصلح مع الفونس العاشر :

في سنة 676 توغلت جيوش أبي يوسف في منطقة السوس ثم قام السلطان يعد الشعب المغربي للجهاد بالأندلس ، وخرج من طريق القصر الصغير إلى طريف ثم

الجزيرة الخضراء فرُندة حيث التحق به أبو محمد ابن شقيولة أمير مالقه ، وكان محمد الثاني ابن الأحمر قد حالف القشتاليين بعد انشغال أبي يوسف بحملته في منطقة السوس ، وأعد القشتاليون جيشاً بحرياً لحصار الجزيرة الخضراء[12] ، حتّى إذا عبر أبو يوسف للمرة الثانية حطَّم أسطولهم ثم اصطدم بهم من جديد على ضفاف الوادي الكبير وسحق جيوشهم حتّى أغرق كثيراً منهم في الوادي.

ثم احتل حصن جليانة وحصن القليعة وحصن قطنيانة وعاد إلى الجزيرة الخضراء مثقلا بالسبي والغنائم وكان يقطع الأشجار والثمار بيده ، وبعد استراحة قصيرة توجهت جيوش المرينيين إلى اشبيلية ولكن أبا يوسف فضل أن يحاصر قرطبة التي كانت مورداً اقتصادياً هاماً بالنسبة للمسيحيين ثم أقلع فجأة ليخرب نواحيها ، فلجأ هؤلاء إلى طلب الصلح ولكن أبا يوسف سلك طريقاً دبلوماسياً فأحالهم على ابن الأحمر ، وانتهَى الأمر بعقد هدنة مع الفونس العاشر ، وما كاد أبو يوسف يعود إلى الجزيرة الخضراء حتّى التحق به محمد بن اشقيولة يغرض عليه مالقه فتسلمها منه وولى عليها ابنه منديل ثم استبدله بعمر بن يحيي فقام يحالف مرة أخرى الفونس الذي نقض عهده ، وحاصر الجزيرة الخضراء ، بينما تنازل عمر بن يحيي عن مالقه لابن الأحمر وأرسل هذا إلى يغمراسن يطلب إليه الوقوف معه جبهة واحدة ضد يعقوب فقبل ، وكان أبو يوسف خلال ذلك بمراكش وحدثت ثورة ضده بنفيس ، فحاول القضاء عليها ، ثم قصد جيشه الأندلس بمساعدة 45 قطعة من أسطول أبي القاسم العزفي ومتطوعي سبتة وطنجة وغيرهم ، واجتمع لدى يعقوب اثنتان وسبعون قطعة ثم جاءته امدادات ابن الأحمر الذي خشي عاقبة تهوره . وكان المسيحيون قد بدأوا يفقدون أساطيلهم. وفي مرسَى جبل الفتح اصطدمت جيوشهم بالجيوش الإسلامية ، وكان يعقوب يتابع تطور القتال عن كثب وتمكن المسلمون من الظفر بخصومهم والاستيلاء على كثير من قطع أسطولهم رغم تفوقه في العدد على الأسطول المغربي ، ثم التحق يعقوب بالمسلمين في الأندلس ، ورغب في توقيف القتال مدة فانعقدت بينه وبين الفونس هدنة جديدة كان يعقوب يهدف من ورائها إلى إتاحة الفرصة لمنازلة الفونس لغرناطة ، انتقاماً من ابن الأحمر . ومع أن هذه سياسة غير حكيمة فقد كان يعقوب يرى أن عداوة ابن الأحمر ويغمراسن لن تشكل خطراً عظيماً على دولته ، وما كادَ يعود إلى فاس حتّى انتهز الفونس الفرصة

(12) طيراس . 2 . 37 . أما الرواية الاسلامية فتثبت أن ابن الأحمر لم يلجأ الى الغدر إلا بعد أن تنازل بنو شقيولة للمنصور المريني عن مالقة .

لينازل غرناطة ، فاضطر ابن الأحمر إلى مهادنته وتنازل له عن كثير من حصونه ثم التزم أن يؤدي إليه ثلث دخل مملكته وامتنع مع ذلك عن إعادة مالقه إلى أبي يوسف الذي اضطر إلى رد عدوان يغمراسن قبل التفكير في تسوية خلافه مع ابن الأحمر. وهكذا قام من فاس في نهاية 679هـ للقاء يغمراسن في ناحية تازة ثم تعقبه إلى تلمسان بعد عراك عنيف بأحوازها ولكنه لم يظفر بفتحها ، فعاد إلى فاس سنة 680هـ.

الجواز الثالث 681هـ (1282)ـ الحرب ضد سانشو وابن الأحمر :

في سنة 681 طلب الفونس العاشر تدخل يعقوب من أجل قمع ثورة قام بها ابنه دون سانشو الذي التجأ إلى ابن الأحمر ، وعبأ أبو يوسف جيوشه بينما دخل سانشو إلى قرطبة ، ولكن جيوش يعقوب وألفونس لم تستطع اقتحام المدينة وإنما قامت بتخريب عدد من الأماكن شمالاً حول طليطلة ومجريط ثم ورد الخبر بوفاة يغمراسن بينما كان يعقوب في طريقه إلى الجزيرة الخضراء وقد خلفه ابنه عثمان.

أما ابن الأحمر فقد هب إليه أبو يوسف من الجزيرة الخضراء مَطْلع 682 بعد أن تأكدت صلته بسانشو ، وحاصر أبو يوسف مالقه فاستغاث ابن الأحمر بولي عهد أبي يوسف وهو يومئذ بالمغرب فعبر بنفسه إلى الأندلس وسعَى في الصلح بين الملكين ، وبعد غزوات عابرة بنواحي طليطلة وجيان وابدة وغيرها عاد أبو يوسف في نفس السنة إلى بلاده ، وما كاد يدخل مراكش في مطلع 683 حتَّى بلغته وفاة ألفونس العاشر بينما كان ولي العهد يقوم بإخضاع ثوار معقل والسوس التي رفضت فيما مضي سلطة الموحدين في مرحلة انهيارهم ثم حاولت التملص من السلطة المرينية أيضا

الجواز الرابع 684 (1285) ـ معاهدة مع سانشو- وفاة أبي يوسف :

في 684 استفسر أبو يوسف سانشو ملك قتشالة الجديد عن سياسته تجاه المسلمين فرد عليه سانشو رداً قاسياً[13] ، وقام أبو يوسف يعبئ جيشاً لمحاربته وشارك في هذا الجيش متطوعة ومرتزقة ثم عبر إلى طريف فالتحقت به امدادات من سبتة وغيرها، وقام بغارات على ناحية شريس وقرمونة واشبيلية ووزع الجيوش بين عدة مناطق لتشغل العدو في واجهات مختلفة، وهكذا قاد محمد بن عطّو وابن عمران

(13) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 38

فرقة استطلاعية جهة حصن القناطر ، وقاد عمر بن عبد الواحد فرقة من الفرسان لتخريب نواحي وادي لكّ ، كما قاد منصور بن عبد الواحد فرقة اشترك فيها العرب والغزّ وبنو مرين لغزو اشبيلية والتحق بهذه الفرقة كتيبة بقيادة ابنه أبي معرف نظراً لأهمية اشبيلية يومئذ ، ثم وردت امدادات عظيمة من المغرب بقيادة ولي العهد أبي يعقوب ، وبلغ عدد الجيوش أزيد من عشرين ألفا عهد بقيادتها العامة لولي العهد نفسه ، وبينما تمكن يعقوب من اقتحام قرمونة والاستيلاء على حصن قريب منها فإنه لم يستطع فتح اشبيلية ولا شريش ، وقد بعث بجواسيس من اليهود والنصارى يستطلعون له أخبار العدو[14] ، وفيما كان يحاصر شريش كان سانشو (شانجة) قد حاصر بحر الزقاق (البحر الأبيض المتوسط) عند جبل طارق حتّى يمنع بذلك انسحاب يعقوب إلى المغرب ، وكانت الأقوات قد نفدت لدى الجيش المغربي ، وأمام هذه الحالة العصيبة لم يسع السلطان إلا أن يستنجد على التوّ بأسطوله بالمغرب ، فوردت عليه امدادات من موانئ الريف والرباط وطنجة وسبتة ، زيادة على امدادات الجزيرة والمنكب وطريف ، وتمكن هذا الأسطول البالغ عدده ستاً وثلاثين قطعة من ردّ أساطيل العدو ، ممّا مكّن السلطان من الرجوع إلى الجزيرة الخضراء ليستعرض أسطوله الذي قام بمناورات حربية أمامه[15] ، وأثناء مقام أبي يوسف بالجزيرة وردت عليه سفارة من سانشو يطلب إليه عقد هدنة ، فقبل بعد تلكؤ وبعث بترجمانه أبي محمد عبد الحق ليضع شروط أبي يوسف في اقرار السلم مع سانشو فعقد الصلح في اشبيلية على هذه الأسس :

1 — ترفع الضرائب عن المسلمين الذين يعايشون القشتاليين.
2 — يكف سانشو عن التدخل في علاقات أبي يوسف مع ابن الأحمر.
3 — يعامل تجار المسلمين لدى المسيحيين معاملة تليق بكرامتهم.

4 — تدفع إلى السلطان الكتب التي حصل عليها المسيحيون منذ استيلائهم على مدن الأندلس ، وفيما يخص الشرط الأخير فإن يعقوب قد توصل بثلاثة عشر حمل من الكتب وهي بدون شك لا تشكل إلا قليلا جداً من الكتب التي تبقّت بين أيدي المسيحيين.

أما ابن الأحمر فإن السلطان لم يتعرض له بشئ أثناء هذه الحملة رغم أن ابن الأحمر حاول أن يعقد مع سانشو حلفاً ثنائياً رفضه هذا.

---

(14) ابن خلدون مجلد 7 ص 431.

(15) الاستقصا ج 3 — ص 62.

وسعَى سفير أبي يوسف حتَّى يتم لقاء الملكين في مكان وسط بين الجزيرة واشبيلية ، وتم اللقاء فعلاً قرب شريش حيث احتفل أبو يوسف بسانشو احتفالاً يليق بمقامه.

ثم رتب السلطان حاميات بقيادة ابنه منديل الذي استقر بذكوان قرب مالقه ، وفي الجزيرة الخضراء اعتل أمير المسلمين ، ثم لبى داعي ربه في أواخر سنة 685.

والواقع أن عهد أبي يوسف يمثل في آن واحد الدور الأخير من نشأة الدولة المرينية ثم بداية عهد الازدهار والعظمة في عهد هذه الدولة.

وقد أخطأ جوليان وطيراس ومن تابعهما في التقليل من أهمية عمل يعقوب : إن مجرد تدخل هذا السلطان في وقت فقد فيه مسلمو الأندلس كل قوة أو ثقة بأنفسهم حتَّى أصبحوا أذلاء بين أيدي ملوك قشتاله يتلاعبون بأمرائهم من بني الأحمر ، يكفي في حد ذاته ليبرهن عن خطورة العمل الذي قام به أبو يوسف.

ثم لا ننس أنه إذا لم يوفق أبو يوسف في استرداد المدن التي اغتصبها المسيحيون فذلك لأنه وقف في أغلب الأحيان وحده ضدهم من غير أن يحظَى بعون يستحق الذكر من بني الأحمر إلا نادراً ، وكان القشتاليون قد بدأوا يقوون أساطيلهم وجيوشهم البرية بعد فترة من الزمن قلت فيها عنايتهم بتجديد الأسطول.

ثم أن أبا يوسف كان يجابه خطراً أضعف كثيراً من قوة جيشه وهو خطر يغمراسن خصمه العنيد ، بالإضافة إلى بعض الثورات الداخلية التي كانت تهدف إلى الإطاحة بعرشه ، فمجرد الحكم على عمل يعقوب المريني في الأندلس من غير نظر إلى الظروف والملابسات التي أحاطت به ، فيه شيء كثير من التجني وعدم التدبر كما نرى.

ولم يكن أبو يوسف مشغولاً بالحرب فقط ، فقد بنَى مارستانات ومدارس ، واهتم بطلبة العلم والفقراء ، كما بنَى أساطيل وموانئ جديدة بالمغرب.

وقد نقل أبو يوسف بعد وفاته إلى الرباط حيث دفن بشالة ولكن قبره غير معروف بها.

3 - دور العظمة

أبو يعقوب يوسف

(685 - 706هـ/1286 - 1306)

شخصيته :

يوسف الناصر بن يعقوب من أم عربية الأصل شريفة النسب ، كان أبيض اللون كث اللحية والحاجبين معتدل القامة ، وكان فارساً بارعاً كما كان صارماً ، وفي أول عهده بالملك اشتهر بتعاطيه للملذات ولكنه انصرف بعد ذلك إلى توطيد أركان ملكه وقد أجمع وزراء وأكابر الدولة على مبايعته بعد وفاة أبيه .

أعماله في المغرب

القضاء على الثورات :

قبل أن يلتحق يوسف الناصر بالمغرب استدعى ابن الأحمر للاجتماع به في مرْبالة ثم تنازل له عن الأراضي التي كانت تحت حكم والده في الأندلس باستثناء رندة والجزيرة وطريف ، وما كاد يوسف يدخل إلى المغرب حتّى قام محمد بن ادريس ابن عبد الحق يدعو لنفسه وشايعه أخو السلطان أبو معرف ولكن أبا يعقوب حاربهم وطاردهم حتّى اعتقلهم وقتلهم خارج باب الشريعة والتحق جماعة من الناجين ببني ادريس بالأندلس في غرناطة .

وظهر ثائر آخر بقلعة قندلاوة هو عمر بن عثمان العسكري وبعد أن أوشك أن يقع في قبضة أبي يعقوب أمنه حتّى التحق بتلمسان .

وفي نفس السنة خرج ثائر آخر بالسوس وهو طلحة بن مُحلّي فبعث السلطان ابن أخيه منصور بن أبي مالك الذي قضى على ثورة بني معقل كما قتل طلحة المذكور سنة 686 . ولم يكتف السلطان بهذا الانتصار على الثوار بل هب إليهم

---

(1) ابن خلدون، 1، 438.

بنفسه من 12 ألف مقاتل فأثخن فيهم بالقتل والنهب والسبي ثم عين على مراكش عاملاً هو محمد بن عطو الجاناتي وترك معه ابنه أبا عامر.

وفي سنة 687 تلقى السلطان زيارة أسرة بني اشقيلولة الذين استقروا نهائياً بالمغرب ومنحهم السلطان حق التصرف في ولاية القصر الكبير بينما سلمت ممتلكاتهم في الأندلس إلى ابن الأحمر، ثم ثار بمراكش أبو عامر بمساعدة العامل ابن عطو. ولكن أبا يعقوب حاصره بمراكش التي فر منها مع العامل إلى تلمسان مستجيراً بعثمان ابن يغمراسن ولم يدم سخط الوالد على ابنه طويلاً فقد أمنه وعاد إليه مكرماً؛ أما ابن عطو فقد بقي في جوار عثمان وطالبه به أبو يعقوب فامتنع وحدثت من أجل ذلك أزمة بينهما.

حصار تلمسان :

تولى عثمان بن يغمراسن سنة 681 بعد وفاة والده وكان يغمراسن قد أوصاه في حياته أن لا يتحرش ببني مرين بعد أن قاسَى هو نفسه الأمرين من عداوتهم، إلا أنه بعد امتناعه عن تسليم ابن عطو إلى أبي يعقوب أصبح لا مناص له أن يتصدى لهجوم السلطان المريني الذي ارتحل إليه سنة 689 وظل يحاصر تلمسان أربعين يوماً من غير طائل ولكنه خرب مزارعها وضواحيها ثم رجع يقضي عيد الأضحى بتازا بعد أن ترك أخاه أبا بكر بوجدة يغير على قبائل بني زيان.

ثورة عمر بن يحيَى الوطاسي 1291/691

كان بنو وطاس وعلى رأسهم بنو الوزير ينتمون إلى لمتونة وكانوا قد التحقوا بعد تغلب الموحدين على المغرب ببني مرين حتَّى أصبحت لهم كلمة مسموعة فيهم وظل المرينيون يرتابون في ولائهم وفي أيام يوسف كانوا مستقرين بحصن تازوطا في نواحي الريف وعين عليهم السلطان عاملاً هو ابن أخيه منصور بن عبد الواحد، وعمر وعامر ابنا يحيَى بن الوزير يومئذ رئيسان عليهم. ثم ثار الأخوان على العامل وطرداه سنة 691 فتدخل السلطان بنفسه لوضع حد لهذه الثورة، وبينما فر عمر إلى تلمسان قاد أخوه جماعة المتمردين من اخوانه ثم تنازل عن الحصن للسلطان بعد أن تشفع بأبي سعيد بن الأحمر والي مالقة الذي كان في مهمة خاصة بالمغرب، واشترط عليه السلطان مغادرة المغرب إلى الأندلس فأظهر القبول وقصد ليلاً تلمسان فتبعه جماعة من جند السلطان فلم يلحقوه ولكن أدركوا ولده أبا الخيل الذي قبضوا عليه وقتل

فداء لوالده بفاس . أما حصن تازوطا فقد احتله الجيش المريني سنة 692 وقتل كل من حاول الفرار أو الالتجاء إلى الأندلس .

وأثناء هذه الأحداث تحرك بنو أبي بكر بن عبد الحق للثورة ولما أدركوا ضعفهم التجأوا إلى تلمسان فأمنهم السلطان يوسف وفيما كانوا راجعين تعرض لهم أبو عامر وقتلهم عن آخرهم فأغضب هذا التصرف والده وعاش أبو عامر بقية حياته شريداً في نواحي الريف حتّى توفي سنة 698 ونقل جثمانه إلى فاس .

الحصار الثاني لتلمسان 698 — 706 ومهلك السلطان :

منذ الحصار الأول لتلمسان في عهد يوسف ترك السلطان أخاه أبا بكر يتولى مضايقة بني زيان فيما بين وجدة وتلمسان حتّى تمكن من إخضاع ندرومة إلى الحكم المريني سنة 698 وفي ندرومة تشكل وفد إلى السلطان يطلب التدخل للقضاء على ابن يغمراسن ، والواقع أن يوسف غزا تلمسان عدة مرات حيث تردد عليها فيما بين سنة 689 — 698 ، ولكن مكثه لم يطل كما طال في حصاره الأخير. وهكذا ارتحل من فاس ثم نزل بجيوشه حول تلمسان وأحاط بها سوراً حفر وراءه خندقاً بعيد الغور وأثناء ذلك كانت عساكره تتردد على النواحي المجاورة حتّى دخل في طاعته مدن كثيرة منها شرشال ومليانة ووانشريس ومستغانم والبطحاء وتافركينت والمدية والقصبات ومازونة ووهران وهنين والجزائر ، وخشي موحدو تونس على ملكهم فتقربوا إليه بالهدايا ووفد عليه أشراف مكة من بني أبي نمى ، وبنى لمقامه قصراً لسكناه ومنازل بما رافقها من حمامات ومارستان ومسجد جامع وغير ذلك ممَّا كون مدينة سماها المنصورة وذلك سنة 702 وقد تمكنت جيوش بني مرين من إخضاع مغراوة الجزائر بعد معارك عنيفة ، وفي سنة 703 بعث ركب الحاج المغربي محملا بخطاب إلى ملك مصر محمد بن قلاوون مع هدية ثمينة ضمنها عِراب الخيل وغيرها . وقد أهداه ابن قلاوون بدوره سنة 706 طوقاً وهدايا مناسبة بينها حيوانات كالفيل والزرافة . وفي هذه السنة لقي أبو يعقوب حتفه على يد خصي من غلمانه وهو في حصار تلمسان ثم نقل شلوه إلى شالة حيث دفن هناك . وفيما كان السلطان يحاصر تلمسان كان بنو وقاصة وهم يهود من فاس قد تفاقم خطرهم على الدولة وكانوا ينادمون السلطان في صباه وظل على مخالطتهم حتّى فاق نفوذهم لديه نفوذ وزرائه ولكن ابن أبي مدْين كاتبه تمكن من إقناعه بضرورة وضع حدّ لسوء تصرفهم فاعتقلهم ثم قتلوا بمحضر السلطان وأبقى على أحدهم وهو خليفة الصغير وكان ذلك سنة 701 .

أعماله في الأندلس

مهاجمة القشتاليين سنة 1291/690 :

تقدم أن السلطان يوسف الناصر قد قابل في الأندلس بعد توليته بقليل ، ابن الأحمر خارج مربالة سنة 685هـ . وفي سنة 690 (1291) نقض شانجة العهد وأغار على الحدود الإسلامية فتلقَّى القائد المريني علي بن يوسف بن يزكاسن الأمر برد العدوان القشتالي والهجوم على شريش . وأثناء ذلك كان السلطان قد خرج من تازا إلى قصر المجاز لحشد الجنود وتجهيز أسطوله الذي اجتمعت قطع منه في طنجة وكان عددها 27 قطعة واختار القشتاليون أن يهاجموا المغاربة بقرب بلادهم فتعرض قائد أسطولهم الجنْوي لـلأسطول المغربي في بحر الزقاق حيث انهزم المسلمون بالرغم من قلة بواخر العدو التي لم يكن عددها يتجاوز 12 باخرة ، إلا أن القشتاليين عادوا اثر ذلك إلى الأندلس بينما جهز الناصر أسطوله من جديد واعترض أسطول العدو في بحر الزقاق فاستولى عليه ثم نزل بطريف وحاول الاستيلاء على حصن بحيرة « Vejer » فلم يتمكن من ذلك بعد حصار ثلاثة أشهر ، ثم عاد إلى المغرب في مطلع سنة 691هـ .

استيلاء سانجة على طريف 691هـ :

لم يكد يوسف الناصر يعود إلى المغرب حتَّى فاوض سانجة ابن الأحمر في منازلة طريف والاستيلاء عليها ، وكما اعتاد بنو الأحمر مع ملوك المغرب حيث كانوا يقابلون إحسانهم بالإساءة فقد وافق على منازلة هذا المعسكر الذي كان يحمي الواجهة المغربية ويقوي مملكة الأندلس بالامدادات ، وعمد سانجة إلى حصار طريف براً وبحراً حتَّى يقطع بذلك المدد عن حاميتها ثم جاءته امدادات من السلاح والرجال من قبل ابن الأحمر الذي كان ينظر إلى مركزه الشخصي مجرداً عن كل روح تعاونية مع زميله المغربي ، وبعد أربعة أشهر من الحصار استسلمت المدينة إلى الجيش القشتالي . وكان ابن الأحمر يظن أن سانجة سيسلم إليه طريف بدوره ولكن سانجة استأثر بها بإضافة ستة حصون كان ابن الأحمر قد سلمها إليه طمعاً في أن يتنازل له عن طريف . وقد علق الناصري على ذلك بقوله : «فخرج من يده الجميع ولم يحصل على طائل فكانت حاله كحال صاحب النعامة المضروب بها المثل عند العرب ».

مصافاة ابن الأحمر 692 - (1293) :

بعد أن يئس ابن الأحمر من استرجاع طريف بعث إلى الناصر وفداً يرأسه ابن عمه أبو سعيد فرج بن اسماعيل ومعه وزيره عزيز الداني ليعتذر باسمه عن الأخطاء السياسية التي ارتكبها ابن الأحمر . وقد اتصل الوفد بالناصر في تازوطا فجدد معه عهداً بالمصالحة وأثناء ذلك توفي علي بن يزكاسن سنة 692 فخلفه أبو عامر ابن السلطان كقائد عسكري على الثغور المرينية بالأندلس .

وليكفر ابن الأحمر عن جريمته لم يكتف بالوفد الذي بعثه إلى الناصر بل توجه بنفسه لمقابلته بطنجة فاحتفل السلطان بمقدمه في ذي القعدة سنة 692هـ . وقدم إليه ابن الأحمر هدايا جليلة القدر منها مصحف من مصاحف عثمان الأربعة ثم تنازل له عن عشرين حصنا وعن الجزيرة ورندة والغربية . ووجه معه جيشاً لمنازلة طريف ولكنه أخفق في استردادها .

محاربة بني الأحمر بسبتة 703 (1304) :

استمر الوئام بين بني الأحمر المذكور وبين يوسف الناصر منذ تصالحها بطنجة إلى أن هلك الأول سنة 701 هـ فخلفه ابنه محمد المعروف بالمخلوع الذي ظل محافظاً على عهده للناصر ، إلى أن تحول عنه إلى هرَاندة بن شانجة حيث عقد معه معاهدة سنة 703 هـ (1304م) ، ولم يكتف بإثارة متاعب جديدة في الأندلس بل أمر عامله في مالقة أبا سعيد فرج بالاستيلاء على سبتة التي كان بها بنو العزفي فظفر بالمدينة ونقل بني العزفي إلى الأندلس . أما يوسف الناصر الذي غضب لهذه الاهانة فقد فشل جيشه الذي قاده ابنه أبو سالم في استردادها وقد بقيت في يد بني الأحمر الى سنة 709 كما سيأتي ، وذلك بعد مهلك أبي يعقوب بثلاث سنوات .

سيرة أبي يعقوب وعهده :

كان أبو يعقوب قوي العزيمة مرناً في سياسته ، وقد وجه همه من البداية للدفاع عن حوزة الاسلام في الأندلس ولكن بني الأحمر سلكوا نحوه سياسة المراوغة والتقلب ، فيكونون معه إذا خشوا أمره وينقلبون عليه إذا واتتهم الفرصة . وكان مع ذلك كثير التسامح نحوهم، وكوالده يعقوب لم يوفق في الاستيلاء على تلمسان ولكنه مع ذلك كان حازماً سريعاً إلى القضاء على أطماع الثوار، وكانت الأحوال الاقتصادية في عهد حسنة بوجه عام، وقد نسب إليه سن الاحتفال بعيد المولد النبوي في المغرب كله منذ سنة 691هـ بعد أن سبقه إلى ذلك بنو العزفي بسبتة وملوك المشرق قبل قرن تقريباً.

أبو ثابت 706 – 708 (1307 – 1308)

شخصيته :

عامر أبو ثابت حفيد السلطان أبي يعقوب أمه بربرية تدعى بزو بنت عثمان بن محمد بن عبد الحق، بويع في ذي القعدة بتلمسان الجديدة سنة 706 وكان كما وصفه صاحب روضة النسرين دري اللون تعلوه صفرة معتدل القامة عالي الأنف ضامر الخدين خفيف العارضين في رأسه طول، وكان فارسا شجاعاً محبوباً من لدن جده أبي يعقوب. على أن بيعته تمت على يد بني ورتاجن في بداية الأمر بينما بايع بعض رجال الدولة أبا سالم. وبعد أن عجز الأخير عن مقاومته التي القبض عليه بندرومة ونفذ فيه القتل مع جماعة من قرابته الثائرين ثم أمر أبو ثابت بتسريح السجناء وتفريق المال على الضعفاء.

أعماله (القضاء على ثورة ابن أبي عياد ومحاصرة سبتة) :

بعد القضاء على الثوار من قرابة أبي ثابت تمت بيعة السلطان باعتراف سائر أهل الحل والعقد الذين جمعهم أبو ثابت واستشارهم في شأن متابعة حصار تلمسان فأشاروا عليه بالرجوع الى العاصمة التي كان يتوقع مهاجمتها من قبل عثمان بن أبي العلاء مما اضطره إلى عقد الصلح مع أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن وتخلى له عن المواقع التي كان يحتلها جده باستثناء المنصورة[3] التي اشترط عليه أن لا يتعرض لها بسوء. ثم بعث بالقائد الحسن بن عامر لحماية فاس كما عقد لابن عمه يوسف بن محمد بن أبي عياد على مراكش ونواحيها فاستبد بها من فوره ودعا لنفسه فوجه إليه أبو ثابت جيشاً بقيادة يوسف الحكمي فانهزم ابن أبي عياد عند وادي أم الربيع والتجأ إلى هسكورة عند الشيخ مخلوف بن عبو[4] الذي لم يقبل حمايته وكبّله ثم قاده إلى السلطان فقتله مع مئات من اتباعه وتابع السلطان نشر الامن في ربوع المغرب فقضى على ثورة بحاحا في ناحية تامسنا، ثم التحق به عدد من عرب الخلط فأعدم كثيراً من شيوخهم ورجالهم بتهمة افساد أملاك الدولة وقطع الطريق[5].

وفي نهاية 707 استعد لحصار سبتة التي كان عليها عثمان بن أبي العلاء ومكث

(2) ابن الأحمر. روضة النسرين. ص 17.
(3) روض القرطاس. ترجمة بومبي.
(4) في ترجمة روض القرطاس لبومبي، ص 551 ذكر خلوف بن هنو.
(5) روضة النسرين. ص 17.

ثلاثة أيام بقصر عبد الكريم لحشد جنود بني مرين والعرب واستولى على حصن علودان . وفي مطلع محرم 708هـ قام الجيش بغارات على نواحي سبته والتضييق عليها وبعث الفقيه أبا يحيَى بن أبي الجن إلى ابن الأحمر ليفاوضه في افراغ المدينة وأثناء ذلك كان أبو ثابت يختط مدينة تطاوين حيث يتخذ منها معسكراً ضخماً يهاجم منه سبتة والظاهر أن أبا ثابت قد قلَّد في ذلك جده الذي بنى المنصورة قرب تلمسان كما أنه كان يعلم جيداً الصعوبات التي تكبدها الفاتحون قبله من أجل الاستيلاء على سبتة .

وفيما كان أبو ثابت ينتظر جواب ابن الأحمر مَرضَ مَرَض موته في طنجة وقيل مُات مسموماً سنة 708. ولا ريب أنه لو طال عمر أبي ثابت لخلد أعمالاً جليلة في تاريخ الدولة المرينية ومع ذلك فقد كان من أحزم الملوك وأخبرهم بمقتضيات السياسة .

أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف (708 ــ 710) (1308 ــ 1310)

عندما تولى أبو الربيع أخو أبي ثابت كان عمره لا يتجاوز تسع عشرة سنة . ويبدو أن بني مرين أجمعوا على بيعته إلا عمه ابن زريقاء الذي اعتقل وسجن بطنجة حيث هلك في سجنه سنة 710 وقام أبو الربيع بعد توليته بتوزيع الأموال على الفقراء والأجانب من عرب وبني مرين وحشم ونصارى[6] ثم توجه نحو فاس من طنجة التي تمت بها بيعته ، وبينما كان في الطريق بلغه أن عسكر ابن أبي العلاء يريد مهاجمته فاستعد لحربه وانهزم عثمان بن أبي العلاء وكان سعَى إلى المُلك والنفوذ فأيس منه أخيراً وقصد الأندلس يتولى مشيخة الغزاة حيث ساهم بدور بطولي رائع هناك .

ثم دخل أبو الربيع مدينة فاس التي احتفل فيها بعيد المولد وأثناء ذلك جدد معاهدة الصلح مع أبي حمو حفيد يغمراسن سنة 708هـ.

القضاء على بني وقاصة وقتل الوزير ابن أبي مدين

كان أبو مدين شعيب بن مخلوف من أهل كتامه أحد كبار رجال الدين من الذين التحقوا بصفوف المرينيين في عهد يعقوب بن عبد الحق ، وقد حظي عندهم بشرف المقام وعظيم الاحترام حتَّى هلك فخلفه في هذه الحظوة ولده عبد الله الذي

(6) روض القرطاس ، ترجمة بومي . ص 554.

رقي إلى رتبة الوزارة منذ عهد يوسف وبقي مسموع الكلمة عزيز الجانب في عهد أبي ثابت وأبي الربيع ، وكان ابن أبي مدين هو الذي عمل على نكبة بني وقاصة اليهود الذين استفحل شرهم في بلاط يوسف وترك منهم خليفة الأصغر الذي فكر في الانتقام لاخوانه من الوزير المذكور فأوعز إلى السلطان ان ابن أبي مدين يحدث الناس باعتداء الملك على عرض ابنته (أي ابنة الوزير) فأغضب ذلك السلطان ودس إليه قائد اللفيف الأجنبي الذي اغتاله بمقبرة الشيخ ابي بكر ابن العربي ، ثم تحقق السلطان أنها حيلة من اليهودي فقتله واستأصل من كان في خدمته من اليهود وقد تعجل أبو الربيع قتل وزيره من غير اجراء تحقيق سابق .

استرداد سبتة سنة 1309/709 :

ضاق أهل سبتة بحكم بني الأحمر خصوصاً بعد ذهاب عثمان بن أبي العلاء إلى الأندلس فجهز السلطان أبو الربيع جيشاً قوياً بقيادة تاشفين الوطاسي للاستيلاء على سبتة التي هب أهلها إلى الحامية الأندلسية فطردوهم سنة 709 ودخلوا في طاعة أبي الربيع من غير اكراه ، فخشي ابن الأحمر عواقب استرداد سبتة وبعث إلى أبي الربيع يسترضيه بالتنازل عن رندة والجزيرة ووطد السلطان المريني صلته بابن الأحمر فتزوج من أخته وبعث جيشاً لمساعدة بني الأحمر بقيادة عثمان بن عيسَى اليرنياني ، وأثناء ذلك انتقل بنو العزفي من الأندلس إلى فاس بإذن أبي الربيع .

أزمـة ملكيـة :

أثناء اتصالات وفود ابن الأحمر بأبي الربيع بفاس جاهر أحدهم بمعاقرة الخمر ، واستحضره القاضي أبو الحسن الزرويلي وتأكد من حاله فأمر بجلده ثم اتصل هذا الأندلسي بالوزير عبد الرحمن الوطاسي واحتج على ما لحقه من الأذى بوصفه مندوب دولته وهمّ الوزير بالفتك بالقاضي فقتل أبو الربيع الجنود الذين تعرضوا له فعدها الوزير اهانة لشخصه واتصل بالقائد الأفرنجي غنصالو وحرضه على الثورة ومبايعة عبد الحق بن عثمان ثم راسل السلطان أبا حمو في شأن امداده فلم يسعفه وكادت تنشب الحرب بين الوزير وولي نعمته في ناحية سبو لولا أن قوات السلطان الشرعي كانت أكثر عدداً وأقوى سلاحاً فالتجأ الوزير عبد الحق بن عثمان إلى الأندلس وأثخن السلطان قتلا في أشياعهما ثم مرض بتازا حيث توفي ودفن سنة 710 بالجامع الأعظم .

وفي عهد أبي الربيع تطور شأن العمران وفن البناء بفاس واتخذت مظاهر الحياة

الاجتماعية شكلاً راقياً بالعاصمة ، وندع ابن خلدون يصف لنا هذا التطور في السطور التالية :

«وفي أيامه (أي في أيام أبي الربيع) تغالى الناس في أثمان العقار فبلغت قيمتها فوق المعتاد حتّى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين وتنافس الناس في البناء فعالوا الصروح واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالزليج والنقوش وتناغوا في لبس الحرير وركوب الفاره وأكل الطيب واقتناء الحلى من الذهب والفضة واستبْحر العمران وظهرت الزينة والترف».

أبو سعيد عثمان بن يعقوب (710 — 731) (1310 — 1331)

شخصيــتــه :

أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق من أم عربية تدعَى عائشة بنت الأمير مهلهل بن يحيَى الخلطي ، وكان أبيض اللون أسود العينين واللحية كما كان قصير القامة عالماً متواضعاً ذا سخاء وعطف على العلم ورجاله . وقد لعبت أخته عَربية دوراً في تنصيبه عن طريق الأموال التي أغدقتها على كبار رجال الدولة ترغيباً لهم في تنصيب أخيها عثمان ، وتمت له البيعة الخاصة في قصر تازا أما البيعة العامة فتمت بظاهرها ، وقد برهن أبو سعيد منذ البداية عن نضجه السياسي بإرسال ابنه ابي الحسن عاجلاً إلى فاس ليضع يده على الأموال والذخائر التي تركها سلفه ثم سرح السجناء على العادة وفرق الأموال على الفقراء ودخل العاصمة في رجب 710هـ ، ثم وجه هَمَّه لتقوية أسطوله حتّى يجابه المسيحيين بالأندلس، وقد عين على ثغور الجزيرة ورندة وحصونهما أخاه يعيش أبا البقاء ، ثم نازل الثائر عدي بن هنو الهسكوري الذي خرج بمراكش سنة 713هـ .

محاربة بني زيان 714 (1314):

كان من جملة الشروط التي تضمنتها معاهدة الصلح بين أبي الربيع وأبي حمو الزياني أن يسلم اليه عبد الحق بن عثمان والوزير رحُّو (عبد الرحمن) الوطاسي غير أنه سهل سفرهما إلى الأندلس فخرج أبو سعيد لحربه سنة 714هـ ، ولكنه لم يستطع أن يقتحمُ تلمسان فاكتفَى بتحطيم قراها ومزارعها المجاورة وكان يصحبه أخوه يعيش الذي التجأ إلى بني زيان ثم رجع إلى تازا .

ثورة الأمير أبي علي 714– 715 و 720هـ :

كان الأمير عمر أبو علي أحد نجلي السلطان وكان من أم اسبانية وكان أصغر من أخيه أبي الحسن علي الذي كان من أم حبشية، وكان أبو سعيد قد رشح عمر لولاية العهد وفوض إليه سلطات واسعة وعين له وزيرا ذا مكانة عالية في الدولة هو ابراهيم بن عيسَى اليرنياني ، إلا أن أبا علي الذي أمره والده أن يستقر بالعاصمة ليسير الشؤون نيابة عن والده من سنة 714 ، حدثته نفسه بالاستبداد دون أبيه وتجهز لمحاربته وكادت الحرب تنشب بينهما فعلاً لولا أن أبا علي أصيب بمرض كاد يهلك منه وبعد أن اتفق الوالد وابنه على أن يحتفظ الأول بتازا وناحيتها سعَى وجوه الدولة إلى أبي سعيد حتَّى يأخذ الأمر لنفسه ، فعسكر أمام فاس واضطر أبو علي إلى طلب الصلح وتعويضه بسجلماسة فقبل والده الذي كان يحبه كثيراً ، بينما أذن أبو سعيد لأبي الحسن في تصفية أمر منديل بن محمد الكناني الذي كان كاتباً لأبي علي وكان بينه وبين أبي الحسن عداوة وتم قتل هذا الكاتب في محبسه سنة 718 على أن أبا علي الذي توجه إلى سجلماسة سنة 715 عاد مرة أخرى إلى الاستبداد فاستولى على مراكش سنة 720هـ وقتل عاملها كندوز بن عثمان ثم تابع زحفه حتَّى اعترض جيش والده عند ملوية فانهزم بعد أن افترق جيشه بين أوعار جبال الأطلس ورجع يطلب الصفح من جديد فعفا عنه والده، وفي هذه السنة بالذات تم بناء مدرسة فاس الجديدة.

الحالة في سبتة ومحاربة بني العزفي :

كان بنو الأحمر قد نقلوا أسرة بني العزفي إلى الأندلس منذ سنة 705 ثم انتقل بنو العزفي إلى فاس في عهد أبي الربيع ، وكان أبو زكرياء يحيَى وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب منهم يتلقيان العلم في القرويين وكان أبو سعيد يومئذ رفيقاً لهما في الطلب وانعقدت بينه وبينهم صلة ودية حتَّى تولى الملك ، فعين أبا زكرياء على سبتة سنة 710 وبعد ثورة أبي علي بفاس التجأ الاخوان إلى أبي سعيد الذي رد أبا زكرياء من جديد سنة 714 ولكن أبا زكرياء خلع طاعة المرينيين من سنة 716 فزحفت اليه جيوش السلطان أبي سعيد ، ثم رجع الثائر العزفي في نفس السنة إلى طاعة المرينيين وبعد موته سنة 720 حدثت أزمة في سبتة بسبب الامارة فزحف اليها جيش بني مرين بقيادة السلطان نفسه سنة 728 وأخضعها لحكم الدولة وعين على ادارتها موظفين جددا .

الحالة في الأندلس :

كان لوجود بني عثمان بالأندلس وتسييرهم للعمليات العسكرية بالثغور أثر كبير في ايقاف زحف المسيحيين على عدة نقط اسلامية ، وهكذا فقد وُفق عثمان بن أبي العلاء إلى رفع الحصار عن المرية في سنة 709 (1309) ، ودافع بكل شجاعة عن الحدود الغربية ، ولكن طريف ظلت في يد العدو من سنة 691 ، ولما كانت سنة 718 (1318) تقدمت الجيوش القشتالية لفتح غرناطة تصحبها قوات صليبية جاءت على إثر نداء وجهه البابا . وتشكل وفد أندلسي يدعو الملك المغربي لانجاد اخوانه فاشترط عليهم تسليمه عثمان بن أبي العلاء مقدماً ، ولما كان هذا البطل قد فرض شخصيته هناك كزعيم حربي فإن الوفد لم يستطع أن يعد بالوفاء بهذا الشرط وليس ثمت ما يؤكد أن أبا سعيد كان يرغب فعلاً في الجهاد بالأندلس فقد كانت ثورة ابنه الخطيرة كافية وحدها لرده عن التدخل في الأندلس ، وقد استطاع عثمان أن يرد العدوان الصليبي عن غرناطة ، ويروي بعض المؤرخين حول هذا الانتصار روايات لا تخلو من مبالغات ولا محل لسردها هنا .

مصاهرة السلطان الحفصي ووفاة أبي سعيد :

بعد أن أمن الزيانيون تدخل بني مرين ، قاموا بدورهم يضايقون الحفصيين في افريقية وكان ملكهم يومئذ أبا بكر بن أبي زكرياء الذي انهزم انهزاماً مريعاً أمام جيش أبي تاشفين سنة 729هـ . واستولى الزيانيون على تونس حتّى همّ أبو بكر أن يتوجه بنفسه لاستصراخ أبي سعيد ثم بعث ابنه مكانه إلا أن الحفصيين سرعان ما استعادوا عرشهم بينما كان أبو سعيد يزحف نحو تلمسان ليهاجم الزيانيين في عقر دارهم ، وفي هذه الأثناء خطب أبو سعيد ابنة الملك الحفصي فاطمة لولده أبي الحسن وانعقدت المصاهرة سنة 731 وعندما وصلت العروس إلى مرسى غساسة وتأكد أبو سعيد من استعادة أبي بكر لعرشه خرج نحو تازا ليشرف على شؤون الزفاف بنفسه ولكنه هلك في الطريق ونقل جثمانه إلى شالة حسبما يثبته ابن الأحمر في روضة النسرين ، وكانت وفاته في ذي القعدة سنة 731هـ.

عهد أبي سعيد :

وبموت أبي سعيد تنطوي صفحة من تاريخ المغرب الحافل لم يكن يكدرها إلا ثورة عمه أبي علي ولم يطل ملك أبي سعيد عبثاً ، فقد تفوق الجيش المغربي في عهده ونشطت صناعة السفن الحربية وازدهر العمران والاقتصاد مما هيأ لأبي الحسن

ظروفاً مواتية لبسط نفوذه نحو الشرق لولا ثورة ابنه أبي عنان التي أوقفت انتصاراته..

وفي عهد هذا السلطان كثرت المدارس بالمغرب خصوصا بفاس حيث بنيت مدرسة بفاس الجديدة سنة 720 ومدرسة جامع الأندلس سنة 721 ومدرسة العطارين سنة 723.

أبو الحسن علي بن عثمان (731 – 752 (1331 – 1351)

شخصيته :

أبو الحسن علي بن عثمان الملقب بالمنصور، ولد بتفرديون سنة 697، وهو من أم حبشية تدعى العنبر وكان طويل القامة معتدل اللحية قوي البدن جميل الصورة، وكان متمسكا بأهداب الدين ميالاً إلى أعمال الخير لم يتناول الخمر قط فيما عرف عنه وكان أسمر اللون لقب بالسلطان الأكحل عند العامة ولم يكن أسود، ومن حسناته الأخلاقية الطموح والشجاعة مع حزم ورغبة صادقة في خدمة شعبه وكان يهدف إلى ضم أقطار المغرب العربي تحت سلطة موحدة نظراً للضعف الخطير الذي آلت إليه في عهده كل من مملكة افريقية وبني عبد الواد.

ومنذ عهد والده قام بدور مجيد في خدمة الدولة مع امتثال تام لأوامر والده وكان أشرف عمل أداه لصالح الدولة وقوفه بجانب أبيه يوم كادت ثورة أخيه أبي علي تطيح بعرش الدولة أو تؤدي بها إلى الانقسام.

وكان أبو الحسن شديد الحنو على الفقراء والضعفاء كثير الاهتمام بخدمة شعبه مما تؤكده المآثر ذات الصبغة الاجتماعية التي سجلها التاريخ كالمارستانات والزوايا والقناطر والمدارس...

وقد بويع أبو الحسن البيعة الخاصة إثر مهلك أبيه بتازا ثم بويع البيعة العامة بناحية فاس على يد المزوار عبد الله بن قاسم وفي نفس الليلة التي تلقى فيها البيعة العامة احتفل بزفاف زوجته الحفصية إليه.

نشاطه بالمغرب العربي

كان أول عمل قام به أبو الحسن أن قصد بنفسه إلى سجلماسة حيث يوجد أخوه أبو علي وذلك ليظهر لسكان هذه الناحية أن النفوذ الأعلى يرجع إليه كملك وقد خشي أبو علي أمر هذا التحرك المفاجئ نحو سجلماسة فبعث بيعته اليه واستجاب أبو

الحسن لوصية والده في البر بأخيه فثبته والياً على سجلماسة ثم عرج إلى الشرق يقصد تلمسان من أجل تصفية أمر بني عبد الواد وانتقاماً لصهره أبي بكر الحفصي الذي كان يقاتل بني زيان في بجاية وأثناء ذلك اتفق أبو تاشفين مع أبي علي على أن يهيأ للإطاحة بعرش أبي الحسن لصالح أخيه أبي علي ، وهكذا خرج أبو علي بجيشه يستولي على درعة ويزحف نحو مراكش ، بينما كان أبو الحسن قد تجاوز تلمسان إلى تاسالة ليتصل بأبي يحيَى الحفصي حتَّى إذا بلغه ثورة أخيه انكفأ راجعاً إلى سجلماسة وتحرك أبو تاشفين بدوره نحو المغرب الشرقي حيث هزم جيشا مرينيا بقيادة ابن أبي الحسن .

وفضل أبو الحسن أن يصفي أمر أخيه أولاً ، فحاصره نحو سنة كاملة إلى أن استولى على سجلماسة سنة 733 ثم اعتقل أخاه وقتله بعد أشهر وبذلك سلمت له مقاليد الحكم بالمغرب لعدة سنوات من عهده ، وقبل أن يشرع أبو الحسن في حصار سجلماسة تلقى زيارة ابن الأحمر ملك غرناطة الذي جاء يستنجد به على الفونس الحادي عشر ، وسأفصل هذه النقطة في موضوع التدخل بالأندلس .

فتح تلمسان 735 ــ 737 (1334 ــ 1336).

بعد تصفية أمر أبي علي بعث أبو الحسن إلى أمير بني زيان يطلب منه سحب جيوشه من المناطق الحفصية التي انتزعها بنو زيان من افريقية فرد عليه أسوأ رد ، وتهيأ أبو الحسن لحربه سنة 735 فافتتح وجده وندرومة ووهران ثم عسكر بالمنصورة التي رممها وقد كان خربها بنو زيان كما بنى بإزائها أحياء جديدة ، وتوافدت عليه أثناء ذلك عدة شخصيات عسكرية من بني زيان خصوصا قائدهم العام يحيَى بن موسَى واستمر الحصار مدة عامين انتهَى بعدها بفتح البلد الذي عجز عنه ملوك بني مرين قبل أبي الحسن ولكن الجيش المريني قتل من سكان تلمسان عدداً عظيماً وانتهك حرماتهم ، وقد وصف ابن خلدون والناصري هذا الفتح وصفاً كافياً لا طائل تحت تكراره هنا ، وقد قتل أبو تاشفين نفسه أثناءه ومعه عدد من أفراد أسرته ، وتدخل أبو الحسن لإيقاف الجنود عن الفساد .

وينبغي أن أشير هنا إلى العمل المبرور الذي قام به أبو الحسن أثناء حصار تلمسان[7] وهو إيفاد والدته إلى الحج مع رسالة توصية بعثها إلى الناصر بن قلاوون

(7) يراجع بشأن فتح تلمسان : ابن خلدون ، العبر ج 7 ، الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 72 ــ 73.

لهذا الغرض سنة 736 ، ثم جدد أبو الحسن صلته بزميله الشرقي اثر فتح تلمسان مباشرة وذلك بواسطة سفارة تبودلت بين الملكين.

بوادر أزمة حول العرش (738 – 1337):

حدثت أزمة دبلوماسية بينما كان السلطان أبو الحسن يقيم بتلمسان حيث أبلغه وزير حفصي أن ملك افريقيه سيزوره ليهنئه ، بيد أن بعض الشخصيات في حكومة أبي يحيى أظهرت له عدم لياقة هذه الزيارة بوصفه قريناً لأبي الحسن. وبقي هذا ينتظر قدوم أبي بكر من متيجة من غير طائل سنة 738 وأصيب بمرض ألزمه الفراش بينما كان ابناه أبو مالك وأبو عبد الرحمن المتنافسان على ولاية العهد يدبر كل منهما انقلاباً لصالحه حتَّى إذا بلغ الخبر أبا الحسن انتزع منهما كل ما كان لهما من امتيازات وسلطات والتحق زيان الوطاسي ووزير أبي عبد الرحمن بالحفصيين بينما اعتقل أبو عبد الرحمن نفسه بوجدة ورضي السلطان عن أبي مالك الذي عينه على ثغور الأندلس ، وبقي أبو عبد الرحمن في السجن إلى أن قتل بأمر من السلطان سنة 742 وذلك بعد أن قتل الأمير سجانه وكان لأبي عبد الرحمن طباخ يدعى أبو هيدور وكان شبيهاً به في الصورة فخرج بعد اعتقال مخدومه يدعي بين الأعراب أنه الأمير ابن عبد الرحمن حتَّى إذا افتضح أمره خرج إلى افريقية فظفر به أبو بكر الحفصي وبعث به إلى أبي الحسن فقتله بسبتة.

أما أبو مالك فقد لقي حتفه في جهاد المسيحيين سنة 740 بالأندلس فعبر أبو الحسن إلى طريف يحاصرها في جيش ضخم فني لأول مرة بهزيمة منكرة بوصفه قائداً مباشراً سنة 741 وعاد المسيحيون يستولون على الجزيرة الخضراء سنة 743.

نفي أولاد أبي العلاء إلى المغرب (742 – 1341) :

بعد وفاة عثمان بن أبي العلاء خلفه أبو ثابت عامر في رياسة أسرته التي كانت تتولى مشيخة الغزاة بالأندلس حيث ضايقت بني الأحمر في عقر دارهم حتَّى قتلت سلطانهم محمد بن الأصم وولت مكانه أخاه أبا الحجاج الذي اعتقلهم جميعاً وبعث بهم إلى تونس حتَّى طلبهم أبو الحسن فتشفع فيهم السلطان الحفصي ووجه بهم إليه وقبل أبو الحسن شفاعة ملك تونس إكراماً له بوصفه صهره ثم بلغه أنهم يدبرون له مكيدة فاعتقلهم بمكناس.

تدخل أبي الحسن بتونس[8] (747 – 750 (1346 – 1349) :

توفي أبو يحيَى الحفصي في رجب 747 فاستبد بالأمر ابنه عمر الذي قتل إخاه أحمد ولي العهد وكان ابن تافراكين وزير الحفصيين بعد هذه الحادثة يرغب أبا الحسن في تملك افريقية التي كان هو نفسه يطمع في ضمها إلى مملكته حتَّى يجدد بذلك وحدة المغرب العربي ، ولكنه كان يحترم جانب صهره حتَّى إذا توفي أبو يحيَى واغتصب العرش ابنه عمر رأى أبو الحسن الفرصة مواتية للتدخل في تونس وذلك بعد أن زفت إليه عروسه الجديدة أخت زوجته الحفصية فاطمة التي ماتت خلال معركة طريف وتم الزفاف بمحضر أخيها الفضل الذي بعثه السلطان الحفصي وفاته .

وانطلق الجيش المريني من تلمسان سنة 747 (1346) يخضع منطقة الزاب وبسكرة ويتسلم من أيدي الأمراء الحفصيين بجاية وقسطنطينة ولم يكن أبو الحسن يسلك سياسة التعصب في تعيين ولاته فقد عوض أبا زيد الحفصي عن قسنطينة بولاية ندرومة وثبت الفضل أميراً على بونة .

وفي باجة تسلم أبو الحسن رأس السلطان الحفصي الجديد الذي اعتقل قرب فابس ثم دخل تونس سنة 748 في موكب رسمي رائع حتَّى قال عنه ابن خلدون : «وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه»[9]، ثم زار أبو الحسن القصر الملكي وآثار قرطاجنه وتونس، وعين عمالا في مختلف أقاليم افريقية إلى مسراته من ليبيا اليوم.

ولم ينظر سكان افريقية إلى المغاربة كغزاة كما زعم ذلك طيراس[10] الذي عاد ليؤكد أن الخطر الحقيقي كان يكمن في وجود العرب أو على الأصح في بدو العرب الذين كان الحفصيون يخشون خطرهم حتَّى اقطعوهم اقطاعات واسعة وضربوا الأتاوة على المسافرين ، فانتزع منهم أبو الحسن كل ذلك وعوضهم بأعطيات كسائر الجند فقامت قيامتهم وقاموا يهيئون لإعادة عرش الحفصيين فنصبوا أحد سوقتهم من توزر ويدعى أحمد بن عثمان بن أبي دبوس ثم هاجموا القيروان . وكان ضمن الجيش المريني عدد وافر من بني عبد الواد خصوم المرينيين فاتحدوا مع الأعراب وانهزم جيش السلطان أمامهم حتَّى استولوا على فسطاطه وخيامه وسبَوا كثيرا من حرمه وقام ابن تافراكين بدوره يناصر السلطان الذي نصبه العرب وذلك بعد أن يئس من الحصول على نفوذ قوي في بلاط الدولة مثلما كان الأمر في عهد الحفصيين

---

(8). يراجع ابن خلدون . م . س . والزركشي ص 81 – 90.

(9) ابن خلدون ، عبر ، 7 ، 562.

(10) Terrasse, Histoire du Maroc. 2,59

ثم انسل بنفسه إلى الاسكندرية وقد خشي من أن يقع في قبضة أبي الحسن فآواه بعض امراء مصر، ولم تجد مراسلة أبي الحسن لسلطان مصر شيئاً في سبيل اعتقاله.

وفيما كان أبو الحسن ملتجئاً إلى القيروان عند تجمع غوغاء العرب وبني عبد الواد لحصاره ارجف الناس بموته حتّى قام أبو عنان ينصب نفسه ملكاً واسترد بنو عبد الواد ملكهم وتمكن أبو الحسن من مغادرة القيروان بفضل تدخل جماعة أولاد مهلهل من قبائل العرب، ثم استقر مؤقتا بتونس ماراً بالبحر عن طريق سوسه.

وأثناء هذه الأحداث كان الفضل الحفصي عامل بونة يعمل لاسترداد مُلك أجداده فاستولى على توزور وقفصة وبلاد الجريد وقام بمحاصرة تونس فتحرك أبو الحسن يقصد المغرب خشية من هزيمة تلحقه ولكنه ترك ابنه أبا الفضل نائباً عنه ولم يلبث الفضل الحفصي أن استرد تونس سنة 750 فالتحق ابن أبي الحسن بوالده في الجزائر.

وفي المغرب الأوسط توقف وفد قدم من مالي لتهنئة أبي الحسن بفتح افريقية ووفد آخر قدم من قشتالة لنفس الغرض وفي لجة الفتنة قام الغوغاء بالاستيلاء على ما كان يحمله الوفدان من متاع وهدايا ولم ينجوا منهم إلا بشق الأنفس.

وتوالت الفتن في مختلف أطراف المملكة وعملت قلة المواصلات وصعوبتها على تعمية أخبار السلطان عن شعبه وولاته فخرج من تونس سنة 750 عازماً على أن يستعيد امبراطوريته بكل ما يتوفر عليه من وسائل.

بيد أن سنة 750 تمهيد لآخر تدخل عسكري قامت به دولة مغربية في تونس فلم يكتب للملك بعد أبي الحسن وأبي عنان أن تطأ أقدامه أرض افريقية كفاتح وقد بدأ أول تدخل قبل ذلك بقرنين وربع تقريباً أي منذ عهد بني غانية.

فالتدخل المريني بافريقية والذي لم يستغرق أكثر من بضع سنوات لا يمكن أن يضع هذه المنطقة في اطار الامبراطورية المرينية إلا لهذه الفترة فقط وقد ترك الوجود المريني هناك بعض الآثار من بينها تلقي عدد من طلبة افريقية العلم على يد الفقهاء والعلماء الذين صحبهم أبو الحسن ومن بين المستفيدين من هؤلاء العلماء ابن خلدون، كما أن أبا الحسن أنشأ تحصينات هامة بتونس بعد أن التجأ اليها.

وقبل التحدث عن مصير أبي الحسن بعد إبحاره من تونس ينبغي التحدث عن التدخل المريني بالأندلس.

تدخل أبي الحسن بالأندلس

استولى القشتاليون على جبل طارق من سنة 1309 (709) وظل في أيديهم أكثر من عشرين سنة حتَّى هددوا غرناطة . وكان ابن الأحمر يخشَى نفوذ عثمان بن أبي العلاء فطلب تدخل أبي الحسن وشجعه على استرجاع جبل طارق. وكان ابن الأحمر قد اتصل مباشرة بأبي الحسن في فاس حيث خصص له استقبالا طيباً سنة (739) ثم أمده بجيش تحت قيادة ابنه أبي مالك وكان عدده خمسة آلاف مقاتل وقد تمكن من استرجاع جبل طارق سنة 733 وأعاد تحصينها بيد أن أبا مالك اغتر بهذا الانتصار وراح يناوش القشتاليين في عقر دارهم حيث قارب شريش سنة 740 فأحاطت به جيوشهم ووقع في أيديهم فقتلوه ثم حمل إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى المغرب وتقول الروايات العربية إن دخول أبي مالك في الأراضي المسيحية كان بأمر من أبي الحسن.

معركة طريف (741 — 1340):

ولم يتأخر أبو الحسن عن مواصلة عمل ابنه فهيأ أسطولا شاركت فيه قطع من أسطول الحفصيين وبلغ مجموع القطع نحو مائة تجمعت بميناء سبتة تحت قيادة محمد العزفي . وفي بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) التحم الأسطولان في معركة سريعة انتهت باندحار الأسطول المسيحي وقتل قائده ثم نظم أبو الحسن أسطوله من جديد وانتقل بنفسه إلى الأندلس في ستين ألف جندي حيث شرع في محاصرة طريف من مطلع سنة 741 بمساعدة جيش بني الأحمر، وأمكن حصار طريف براً وبحراً ، بيد أن القشتاليين استعانوا بدورهم بقوات من جنوة والبرتغال وتسربت فرقة منهم ليلاً إلى المدينة ثم التحم القتال غداة تلك الليلة وخرجت الفرقة المذكورة تنهب فسطاط السلطان وتستولي على المؤن والذخائر ثم تقتل النساء والصبيان وكل من وصل إلى أيديها واعتقلت تاشفين ابن السلطان ولم ينتبه المسلمون إلى ما حل بهم إلا مؤخرا وأثر ذلك في معنويتهم واضطربت صفوفهم فتمت الهزيمة عليه في 7 جمادي الآخرة 741 (28 نوفمبر 1340) وخرج السلطان إلى الجزيرة الخضراء ثم إلى جبل طارق حيث أبحر إلى المغرب ،. ويسمي المسيحيون هذه الواقعة باسم المكان الذي وقعت فيه وهو **Rio Salado** .

احتلال القشتاليين للجزيرة الخضراء (742 — 743) :

وانتهز القشتاليون فرصة اندحار الجيش المريني ورجوعه إلى المغرب فزحفوا إلى

الجزيرة الخضراء وبعث أبو الحسن بأسطوله لحمايتها فاعترضه الأسطول المسيحي واستولى عليه وظل أبو الحسن يوجه المدد إلى الجزيرة الخضراء من غير طائل حيث ضاق الأمر بأهلها واجتاز ابن الأحمر إلى سبتة لمفاوضة أبي الحسن في تسليمها إلى المسيحيين وأثناء ذلك عمد السكان إلى تسليم البلدة بأنفسهم سنة 723هـ ، ثم هاجر قسم عظيم إلى المغرب تحت رعاية ملكه ، وقد بقيت بعد ذلك مواقع في أيدي المسلمين تحت اشراف كل من بني مرين وبني الأحمر وخصوصاً جبل طارق وأشطبونه وماربيلا ، وقد كاد انهزام المسلمين في وقعة طريف يؤدي إلى استيلاء القشتاليين على كل الأندلس لولا وفاة الفونس سنة 751هـ[11].

والحق أن فشل أبي الحسن في خطته الحربية بالأندلس لم يكن يرجع إلى شيء بقدر ما كان يرجع إلى انشغال الجيوش المرينية بالحرب في عدة واجهات أو على الأصح إلى توزعها في عدة واجهات من الشمال الافريقي ، بالإضافة إلى أن القشتاليين كانوا يتلقون على الدوام امدادات بحرية من جنوه وبرية من البرتغال ، وكانت الجيوش المرينية التي تنتقل إلى الأندلس قليلة العدد ثم يرجع أكثرها إلى المغرب بمجرد انتهاء مهمتها الحربية ، وكان مسلمو الأندلس أنفسهم قد ضعفت معنويتهم بتوالي النكبات فكان صمودهم أمام العدو قصير الأمد وكانت سياسة المداهنة التي اعتاد ملوك بني الأحمر أن يسلكوها تجاه المسيحيين تزيد في إضعاف هذه المعنوية وفي فشل التدخل المريني.

نهاية أبي الحسن (752) :

بعد أن طال مقام أبي الحسن بالمغرب الأدنى كما تقدم وأشيع نبأ موته قام أبو عنان يدعو لنفسه سنة 749 ولم يبق مخلصا لأبي الحسن إلا شخصيات قليلة من بينها الوزير الحسن بن سليمان وعامل فاس منصور بن أبي مالك الذي عجز عن مقاومة أبي عنان فسلم إليه المدينة ثم قتله أبو عنان بمحبسه، حتى إذا تحرك أبو الحسن من تونس سنة 750 وبلغ ميناء بجاية للتزود بالماء منعه أسطول أميرها الحفصي وقاتل الأسطول المريني حتى حصل على الماء ثم خاض البحر فاشتدت الريح عاصفة وغرقت أكثر السفن المرينية بمن فيها من العلماء والخاصة وكان عدد العلماء الذين صحبهم أبو الحسن فيما هو معلوم حوالي أربعمائة[12] وعدد قطع الأسطول ستمائة وقد

---

(11) ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص 95 .
(12) المقري ، نفح الطيب ، 8 ، 320.

نجا أبو الحسن بفضل جفن أدركه ثم حمله إلى الجزائر التي تمسكت بطاعته وجمع جيشاً من الأعراب حاول أن يدخل به تلمسان فانهزم وقتل ابنه ثم توجه نحو الصحراء صحبة ونزمار رئيس سويد وقصد سجلماسة فتوجه أبو عنان لطرده منها وخذله الأعراب فذهب إلى مراكش حيث تمكن من تنصيب نواة لحكومته وبفضل هنتاته وعرب جشم تمكن من اعداد جيش لمجابهة أبي عنان ولكن هذا الجيش انهزم سنة 751 عند أم الربيع حيث تقابل الوالد وابنه في نفس المعركة ولم ير الوالد بعد هذا من ملجأ سوى هنتاتة الذين قرروا أن يدافعوا عنه حتّى النهاية ، وزحف أبو عنان مرة أخرى لحصار والده وطلب أبو الحسن الابقاء عليه ثم أقر له بولاية عهده، ولم يمكث غير قليل حتّى اختاره الله لجواره سنة 752 من ربيع الثاني بعد مرض طارىء، وقيل إن أبا عنان قد تفجع عليه وتلقاه حافياً حاسراً ولكن وقت التوبة عن جريمته المنكرة كان قد فاته، وقد دفن أبو الحسن بمقبرة شالة.

عهد أبي الحسن

كان عهد أبي الحسن مليئا بالنشاط السياسي والعمراني والاجتماعي والفكري فقد امتد ملك أبي الحسن كما تقدم إلى مسراته شرقاً وحدود مالي جنوباً ، ومع أن أبا الحسن كان يحيط نفسه بحكومة أغلب رجالها من الشخصيات الممتازة كعامر السدراتي وأبي مجاهد غازي وأبي محمد الهسكوري فقد كانت الكلمة العليا له هو نفسه غير أنه كثيرا ما كان يكل القيادة العسكرية في واجهة ما إلى أحد وزرائه .

وعرف عهد أبي الحسن نشاطاً عمرانياً شاملاً ، من ذلك توسيع المنصورة وتسوير تونس وتحصين جبل طارق والمدارس العديدة التي أنشئت بعدة مدن كالمدرسة المصباحية ومدرسة الصهريج بفاس والمدرسة الجديدة بمكناس ومدرسة الطالعة بسلا ، ومن القناطر التي أنشأها قنطرة الوادي وقنطرة الرصيف بفاس وقنطرة وادي سطيف بتلمسان ، هذا بالإضافة إلى المارستانات والحصون والأبراج والزوايا ومختلف المباني العامة .

وفي عهد أبي الحسن اتسع النشاط الفكري في مختلف فروع المعرفة وظهر علماء كأبي عبد الله بن الصباغ المكناسي الذي وصفه ابن خلدون بأنه كان مبرزاً في المنقول والمعقول وأحمد بن شعيب المتخصص في الطب والعلوم العقلية وابن هلال العالم الرياضي .

وكانت سمعة أبي الحسن طيبة في البلاد الاسلامية والمسيحية على السواء وكان

لأبي الحسن رغبة في توطيد صلاته بملوك الدولة الاسلامية فبادلهم السفارات والوفود وهكذا أوفد إلى الناصر بن قلاوون أول سفاراته سنة 736 (1336) برئاسة محمد الجراح ثم بعث سفارة أخرى سنة 737 برئاسة فارس بن ميمون يخبره فيها بفتح تلمسان ، وكان فارس بن ميمون من كبار الموظفين ثم صار وزيراً لأبي عنان ، وفي سنة (735) وجهت سفارة مع ركب إحدى الأميرات من قصر أبي الحسن ومعها هدايا جليلة للناصر رد عليها بهدايا أخرى نفيسة ، وفي عام 745هـ توجهت سفارة أخرى من المغرب ضمن ركب الحجيج الذي كانت فيه مريم أخت أبي الحسن وأدت هذه السفارة تعازيها للملك الصالح في والده الناصر كما هنأته بخلافته ، ثم بعث سفارة أخرى إلى الشرق عام (747) وتبادل السفارة مع سلطان مالي منسا موسَى الذي بعث يهنئه بفتوحاته وقد أكرم أبو الحسن هذا الوفد ورده بهدايا قيمة .

أبو عنان فارس بن أبي الحسن 752 ــ 759 (1351 ــ 1357)

شخصيته :

أبو عنانَ المتوكل على الله من أم رومية تدعى شمس الضحَى ، ولد سنة 729 وتولى الملك بطريق غير مشروع سنة 749 ثم خلص له الأمر باعتراف والده سنة 752هـ ، وكان كما وصفه صاحب روضة النسرين : «أبيض تعلوه صفرة قوية طويل القامة يشرف الناس بطوله نحيف البدن عالي الأنف حسنَه جهوري الصوت في كلامه عجلة وتوقف حيث لا يكاد يفهم ما يقول. وكان أهدب الأشفار جميل الوجه بارع الحسن عظيم اللحية كما كان فارساً شجاعاً عالماً مطلعاً يناظر العلماء ويخطئهم في كثير من الأحيان ، وكان يحفظ القرآن الكريم ويتمثل به ، وقد مات وله من العمر 29 سنة وكان أول من تلقب بالخلافة من بني مرين ، وبالرغم من الموقف الغير اللائق الذي وقفه ازاء والده أبي الحسن حيث انتزع منه المُلك غصباً فقد كان متديناً يعظم الصلحاء حتَّى اغتم كثيرا عندما امتنع الشيخ أحمد بن عاشر عن استقباله سنة 757هـ.

نشاطه بالمغرب العربي[13]

استرجاع المغرب الأوسط 753 ــ 754/ 1353 ــ 1354 :

كان بنو عبد الواد والحفصيون قد استردوا ممتلكاتهم أثناء النكبات التي توالت

(13) ابن خلدون، العبر، ج 7. الزركشي أخبار الدولتين ص 93 ــ 99.

على أبي الحسن بافريقية لذلك بادر أبو عنان إلى تجهيز جيوشه لاخضاع هذه المناطق من جديد ، فقاد بنفسه حملة للاستيلاء على تلمسان من مطلع سنة 753 حيث اصطدمت جيوشه بجيوش بني عبد الواد التي كان يقودها السلطان أبو سعيد عثمان وقد سقط هذا السلطان أسيراً في يد أبي عنان فأعدمه في سجنه ثم سقط أخوه أبو ثابت في يد أمير بجاية فسلمه إلى أبي عنان وكان هذا الأمير (محمد بن أبي زكرياء الحفصي) قد حضر بنفسه لتسليم أبي ثابت ثم تنازل بمحض رغبته عن امارة بجاية التي عوضها عنه أبو عنان بمكناسة ، وهكذا استرجع أبو عنان في ظرف قصير كلا من تلمسان وبجاية التي عين عليها عمر الوطاسي ، بيد أن سكان بجاية لم يلبثوا أن ثاروا بالعامل الجديد وقتلوه بتحريض من حاجب الأمير الحفصي ثم دخلت المدينة من جديد في طاعة أبي عنان في أول سنة 754.

مقتل أبي الفضل أخي السلطان سنة 1354/755 :

بعد طرد أبي الفضل بن أبي الحسن من تونس على يد سكانها رجع إلى المغرب ثم دخل في طاعة أخيه بعد وفاة والده ولكن أبا عنان لم ير في بقائه بالمغرب مصلحة له فبعث به مع أخيه أبي سالم إلى الأندلس من أجل الاشراف على العمليات الحربية هناك ثم بدا لأبي عنان في استقدامهما مرة أخرى ولكن أبا الحجاج أمير غرناطة تركهما تحت حمايته خوفا عليهما من بطش أبي عنان ، وقد غضب السلطان المغربي لهذا الموقف وأرسل له خطاباً شديد اللهجة مما أدى بأبي الحجاج إلى التدخل لدى ملك قشتالة حتّى يساعد أبا الفضل بأسطول يمكنه من فرض نفسه ملكاً عوض أخيه ، وحمل الأسطول أبا الفضل إلى ساحل السوس من غير أن يدنو من الساحل الشمالي الذي كانت الأساطيل المغربية منبثة فيه. على أن الأسطول المسيحي لم يلبث أن انهزم انهزاماً شنيعاً أمام الأسطول المغربي وقد شعر ابن الأحمر بخطورة موقفه فبعث ابن الخطيب برسالة باسمه إلى أبي عنان يلتمس الأعذار ويؤكد ولاءه .

ثم التجأ أبو الفضل إلى عبد الله السكسيوي رئيس سكسيوة الذي لم يستطع أن يقاوم المرينيين فتخلّى عنه ، والتجأ أبو الفضل إلى درعة حيث تمكن منه عاملها عبد الله الزردالي الذي سلمه على الفور إلى أبي عنان فقتله خنقاً سنة 755 ، وينبغي أن نلاحظ أن عملية الاعدام خنقاً كانت جارية في عهد المرينيين خصوصاً بالنسبة للملوك وكبار رجال الدولة ، أما أبو سالم فإن أبا عنان لم يمسه بسوء.

وقد انتقض عيسَى بن الحسين عامل جبل طارق الذي كانت له رتبة الوزير سنة 756 فثار به السكان بمساعدة خصمه عامل رندة وقبضوا عليه ثم قادته سفينة إلى سبتة وتم قتله بعد ذلك في نهاية السنة المذكورة.

فتح قسنطينة وتونس :

عين السلطان وزيره عبد الله بن علي والياً وقائداً عاماً على بجاية وما وراءها من بلاد افريقية سنة 757 . ولما كان هذا الوزير لم يوفق في سياسته واسترجاع قسنطينة التي كلفه أبو عنان بالاستيلاء عليها فقد عزل عن القيادة وخرج السلطان بنفسه لفتح قسنطينة سنة 758 بعد أن سفه وزيره فارس بن ميمون . وأمام الحشد الهائل الذي صحب أبا عنان إلى قسنطينة لم يجد السكان بداً من تسليم سلطانهم الحفصي أبي العباس الى المرينيين الذين اعتقلوه بسبتة ثم دخل أبو عنان قسنطينة دخول الظافر وتوالت عليه البيعات من سكان النواحي حتَّى تمكن من فتح تونس بفضل مساعدة العرب من أولاد مهلهل بينما تحصن ابن تافراكين الوزير القديم بمهدية ومنع ابو عنان على العرب تحصيل الأتاوة من السكان ثم توجه إلى قسنطينه آملاً أن يعد العدة لتتمة فتح افريقية حتَّى إذا همَّ بالعودة إلى تونس تآمر شيوخ القبائل مع الوزير فارس بن ميمون حتَّى يصدوا السلطان عن هذه الحملة متعللين ببعد الديار وعجز الاعتمادات العسكرية عن ضمان نجاح الحملة فاضطر إلى العودة إلى المغرب بعد أن كان قد قطع مرحلتين في طريقه إلى تونس ثم أتَى قتلاً على المتآمرين من القادة وعلى رأسهم وزيره فارس.

وفي سنة 759 عين القائد سليمان بن داوود وزيراً وتولى قيادة حملة جديدة نحو افريقية وتكفل بإحداث الاضطراب في صفوف عرب الدواوده الذين كانوا يرهقون السكان بالضرائب في المغرب الأوسط خصوصاً في ضواحي قسنطينة. وهكذا عزل عن قيادتهم يعقوب بن علي وولى مكانه أخاه ميمون ثم شرد المتمردين منهم في المناطق الصحراوية وأثناء ذلك قدم أبو عنان بنفسه إلى تلمسان للإشراف على الحملة بيد أن الجيوش المرينية لم تستطع اقتحام افريقية مرة أخرى وكانت هذه المنطقة تشهد اضطرابات خطيرة منذ عودة أبي عنان منها إلى المغرب حيث ثار السكان بالحاميات المرينية التي نجت بنفسها إلى المغرب وحيث أن الحملة الثانية لم تصادف نجاحاً فعلياً فقد عاد أبو عنان من تلمسان إلى العاصمة المغربية.

نهاية ابي عنان 759 — 1357

احتفل أبو عنان عند عودته إلى المغرب بعيد الأضحى ، ثم أصيب بمرض ألزمه الفراش حوالي أسبوعين ودخل عليه وزيره الحسن بن عمر الفودودي فخنقه حتّى مات سنة 759 من أواخر ذي الحجة كما خنق ولي عهده أبا زيان ونصب ابا بكر السعيد وهو بعد في الخامسة من عمره .

علاقة المغرب بالأندلس :

لم تشهد أيام أبي عنان أحداثاً سياسية تذكر بالأندلس فقد ظلت المناطق التي كانت بيد والده من قبل تخضع لإشرافه وأهمها جبل طارق الذي كان يستقر فيه عامل الثغور كما أنه لم تحدث اشتباكات ذات أثر حاسم مع الجيوش المسيحية. على أنه ينبغي الاعتراف بأن القشتاليين الذين كانوا يواجهون الصراع ضد المسلمين كانوا هم أنفسهم منشقين على أنفسهم بسبب الخلاف حول العرش الذي كان يدعي أحقيته كثير من الأشخاص. وهكذا نعم المسلمون بحقبة قصيرة من السلم بالأندلس في عهد أبي عنان الذي كان يولي على الثغور شخصيات سياسية كالوزير عيسَى ابن الحسين وسليمان بن داوود وأبي بكر السعيد الذي خلفه في الملك وكان يتولى اسماً ، ويقوم بمراقبة الثغور بعض مساعديه .

أما العلاقات مع بني الأحمر فقد كانت حسنة في جملتها وقد لعب ابن الخطيب وزير غرناطة دوراً فعالاً في توطيد هذه العلاقات وكتب عدة مراسلات إلى أبي عنان باسم أبي الحجاج ثم ابنه الغني بالله الذي بعثه سفيراً عنه سنة 756 إلى المغرب فأكرم أبو عنان وفادته ، وقد أثبت صاحب نفح الطيب في كتابه هذا كثيرا من المراسلات التي جرت بين بني الأحمر وأبي عنان .

☆

4 - دور الضعف

أبو بكر السعيد
(759 - 760هـ/1357 - 1358م)

صفاته :

أبو بكر السعيد بن أبي عنان ، من أم مولدة اسمها الياسمين ، بويع يوم 25 من ذي الحجة 759هـ . وكان أبيض اللون أسود الشعر جميل الوجه مستديره براق الثنايا أدعج أعين. وقد بويع بتدبير الوزير حسن بن عمر الفودودي ، وهو ما يزال صبياً .

النزاع حول العرش :

حاول الوزير الفودوي أن يجمع على بيعة السلطان إخوته ، فلجأ المعتمد منهم إلى عامر الهنتاتي رئيس هنتاتة فحاصره الوزير سليمان بن داود في مطلع سنة 760 . وفي هذه الأثناء كان أبو حمو الزياني يعد الحملة لاسترداد تلمسان ، ولكن جيوش بني مرين بقيادة مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي تداركت الموقف بعد أن أحتل أبو حمو المدينة فعلا ، فطردته عنها إلى الصحراء ليعود مرة أخرى إلى تلمسان أثناء ثورة أبي سالم .

وكان ضمن هذه الحملة المرينية إلى تلمسان منصور بن سليمان من سلالة السلطان يعقوب ، فاستغل أثناء ذلك سخط الجيش على استبداد الوزير الفودودي ونادى بالبيعة لنفسه وأيده قائد النصاري ، ثم زحف نحو فاس الجديد والتحق به الوزير سليمان بن داود، وبقي محاصراً لفاس مدة شهر ونصف إلى أن ثار أبو سالم بجبال غمارة، فانتفض الناس عن منصور وعن السلطان السعيد ، والتجأ الأول إلى بادس ثم ألقي عليه القبض وقتله أبو سالم. أما السعيد فقد أغرقه الفودودي في البحر مع جماعة من إخوته في شهر شعبان 760هـ. وبذلك خلص الأمر لأبي سالم .

أبو سالم إبراهيم (760 ـ 762هـ/ 1358 ـ 1360م)

بيعته :

أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن الملقب بالمستعين ، من أم رومية تدعى قمر ، وكان معتدل القامة آدم اللون رحب الوجه واسع الجبين بادن الجسم معتدل اللحية أسودها حسن الوجه كثير الحياء جم العطاء ، وكان قد استقر بالأندلس بعد موت والده أبي الحسن ، فنشأت بينه وبين بني الأحمر صلات ودية إلا أن استبداد الحاجب رضوان لم يمكنه من مساعدة بني الأحمر حتَّى يتولى الملك بعد موت أخيه أبي عنان وهكذا لجأ إلى ملك قشتالة الذي أمده بأسطول عبر به إلى المحيط الأطلسي حيث طمع في مساعدة عامر الهنتاتي من غير طائل. وحينئذ عاد إلى ناحية غمارة فبادروا إلى بيعته واصطحب معه أمير قسنطينة السابق أبا العباس الحفصي الذي كان قد تحرر من الاعتقال بسبتة ثم استوزر الحسن بن يوسف الورتاجني ومسعود بن رحُّو ابن ماساي وتوالت عليه البيعات من كل جلنب حتَّى الأندلس ، ثم زحف إلى فاس حيث تلقى بيعة الحسن بن عمر الفودودي الذي عينه على الفور عاملاً على مراكش إبعاداً لتدخله. ومن كبار الشخصيات التي ظهرت في بلاط أبي سالم عندئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق الذي كان له نفوذ عظيم على السلطان ، وابن خلدون الذي كان كاتب سره .

التجاء الغني بالله وابن الخطيب إلى أبي سالم 261 هـ :

كان الغني بالله محمد بن يوسف قد خلف والده في ملك غرناطة سنة 755هـ ، وكان له أخ يدعى إسماعيل فسجنه الغني بالله بعد توليته ، ثم انتهز الفرصة بعض شيعته فأخرجوه من سجنه ونصبوه عوض أخيه سنة 760 ، ثم اعتقلوا الوزير ابن الخطيب ، فبادر أبو سالم يستقدم الغني بالله ويتدخل لإطلاق سراح ابن الخطيب والسماح له بمرافقة ابن الأحمر إلى المغرب ، وكان السفير في ذلك هو أبو القاسم الشريف التلمساني ، ثم قدم الغني بالله ووزيره ابن الخطيب ، فاستقبل أبو سالم السلطان المخلوع استقبالاً فخماً ، وأنشد ابن الخطيب قصيدة طويلة يستنصر فيها بالسلطان المغربي لصالح ابن الأحمر . وقد أثبت ابن خلدون هذه القصيدة في المجلد السابع من ديوان العبر ، ومطلعها :

سلا هل لديها من مخبِّرة ذكر وهل أعشب الوادي ونم به الدهر؟

ثم خصص أبو سالم لابن الأحمر قصوراً وميزانية ضخمة تجرى عليه كملك .

قضية تلمسان 761:

لم يبق لأبي سالم بعد تسويته أمور المغرب إلا أن يلتحق بتلمسان من أجل استعادتها من جديد ، وذلك بعد أن صفى أمر الحسن الفودودي الذي ثار بتادلا ، وتمكن السلطان من القبض عليه وقتله ، وبينما كان أبو سالم يقتحم تلمسان كان أبو حمو الزياني يحطم قرى المغرب الشرقي حتّى يصرف بذلك أبا سالم عن تلمسان . وحاول أبو سالم أن ينصب أبا زيان محمد بن عثمان أحد أحفاد أبي تاشفين ، إلا أن أبا حمو سرعان ما طرده ودخل إلى تلمسان ثم عقد صلحاً مع أبي سالم .

قتل أبي سالم سنة 762هـ :

كان الخطيب بن مرزوق قد بلغ نفوذه في بلاط أبي سالم مبلغاً عظيماً ، الشيء الذي جعل أمين القصر الملكي بفاس القديم، وهو عمر بن عبد الله الفودودي يهيء للإحاطة بعرش ولي نعمته بغضاً لمكان ابن مرزوق . وبفضل تأييد قائد النصارى غرسية وشيخ الحامية بفاس محمد بن الزرقاء ، أعلن خلع أبي سالم وتنصيب تاشفين ابن أبي الحسن، ثم انفض عن أبي سالم وجوه دولته ومن بينهم ابن مرزوق فخرج ينجو بنفسه في نواحي فاس عند وادي ورغة ، ولكن متعقبيه قبضوا عليه ثم ذبحه أحدهم وهو نصراني ودفن بجبل الزعفران خارج باب عجيسة في أواخر ذي القعدة سنة 762 .

أبو عمر تاشفين الموسوس (762 ـ 763هـ/1360 ـ 1361م)

صفاتـه :

أبو عمر تاشفين بن أبي الحسن من أم مولدة تدعى ميمونة . وكان طويل القامة عظيم الجسم بعيد ما بين المنكبين أعين أدعج ، وكان فارساً شجاعاً قوي الساعد ، نصبه الوزير عمر بن عبد الله وكان يعلم أنه ناقص عقل بسبب وسواس نتج عن أسره أيام والده أبي الحسن .

قتل جند النصارى واستبداد الوزير عمر :

كان غرسية قائد الجيش النصراني يخشَى سطوة الوزير عمر ، فدبر اغتياله ، ولكن عمر كان أسبق منه إلى الاحتياط لنفسه ، فقبض عليه ثم قتله مع كثير من جند النصارى وشارك العامة في قتلهم ، أما الوزير القديم سليمان بن داود فقد اعتقله بأحد القصور الملكية ثم راسل عامر الهنتاتي الذي كان ذا نفوذ عظيم في نواحي مراكش ، وذلك ليتقاسما السلطة بالمغرب .

وفي مطلع سنة 763هـ قدم عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد من تلمسان حيث كان لاجئا عند أبي حمو، وذلك باستدعاء من شيوخ بني مرين الذين سخطوا سلطة الوزير عمر، وبعد إشتباك قصير جرى بين جيش تاشفين وبين شيعة هذا الأمير، قام عمر بتدبير خطة جديدة يحفظ بها نفسه من سطوة بني مرين: فخلع تاشفين الموسوس بعد ثلاثة أشهر من توليته، ثم نصب أبا زيان من سلالة أبي الحسن.

أبو زيان الأول محمد بن يعقوب بن أبي الحسن (763 – 767هـ/1361 – 1365م)

صفاته وبيعته :

المتوكل على الله أبو زيان من أم مولدة تدعَى فضة، بويع في 21 صفر 763، وكان آدم اللون معتدل القامة منفرج الأنف دقيق العينين، كما كان قليل الكلام هادئ الطبع، وكان قد التجأ إلى ملك قشتالة منذ أول ولاية أبي سالم، فراراً بنفسه من بطش البلاط المريني. على أن الملك القشتالي لم يتخل عنه إلا بعد التزامات أكيدة من جانب المرينيين.

وبعد بيعته تلقى تهانئ الوفود وأنشأ ابن الخطيب قصيدة في تهنئته، كما استقبل عامر بن محمد الهنتاتي الذي ثبته عمر الفودودي رئيساً على نواحي مراكش بينما عين أبا الفضل بن أبي سالم أميراً صورياً على هذه المنطقة. أما مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي فقد شغل منصب الوزارة تحت إشراف عمر الفودودي. وكانت هذه التعيينات في أواسط سنة 763هـ.

ثورات جديدة :

بعد أن اقتسم الوزراء النفوذ بالمغرب ثار الأمير عبد الحليم بسجلماسة، ثم ثار بعده مسعود بن عبد الرحمن الذي نصب سلطاناً جديداً هو عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، ولكنهما لم يصمدا أمام نفوذ عمر الفودودي، فدخلا الأندلس في أول سنة 767هـ.

قتل أبي زيان :

شعر أبو زيان بضغط الوزير عمر واستبداده فأعد العدة لاغتياله بقصره، ولكن الوزير بلغه خبر المؤامرة عليه ثم قتله خنقا وألقى به في بئر تابع لحدائق قصره، وذلك في أواخر ذي الحجة 767 (1366).

أبو فارس عبد العزيز (767 — 774هـ/ 1365 — 1372م)

صفـاتـه

أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن من أم مولدة اسمها مريم ، وكان آدم اللون . طويل القامة والساقين نحيف الجسم كبير الأنف في وجهه أثر جدري كما كان عفيفاً لين الكلام . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد جعله تحت رقابته في أحد قصور العاصمة ، حتَّى إذا قتل سلفه أبو زيان ، استدعاه الوزير المذكور ليتولى الملك .

القضاء على المستبدين 767 — 770 :

نجح أبو فارس في قتل الوزير عمر ، من حيث فشل سابقوه ، وتم ذلك في قصر السلطان نفسه . كما جرد أبو فارس حملة للقضاء على كل من الأمير أبي الفضل بمراكش وعامر بن محمد الهنتاتي سنة 769 — 770 . وبينما سهل على السلطان الظفر بأبي الفضل ثم قتله خنقاً سنة 769هـ ، فإن محاربة الهنتاتي كلفته غالياً ، ولكنه ظفر به بواسطة عيونه ثم قتله جلداً واستصفَى أمواله ثم عين على هنتاتة ابن أخيه فارس الهنتاتي .

ارتجاع الجزيرة والمغرب الأوسط :

كان النزاع على العرش على أشده بين ورثة ألفونس العاشر خصوصا بين بطرة وأخيه القمط **Pierre le Cruel, (Bâtard) في عهد أبي فارس عبد العزيز، مما هيأ الفرصة للمرينيين حتَّى يعملوا على استرجاع الجزيرة الخضراء. فأمد السلطان أبو فارس زميله الأندلسي بأسطول وسلاح كاف حيث تمكن بسهولة من اقتحام الجزيرة الخضراء التي صعب على الحامية المسيحية الصمود فيها وقد كانت الفتنة بين الأمراء المسيحيين على أشدها، وكان افتتاحها سنة 770.**

أما في المغرب الأوسط ، فإن أبا حمو الزياني خرق الهدنة التي عقدها سابقاً مع أبي سالم ، فأجار عاملاً ثائراً من المغرب ، ثم زحف بجيشه إلى دبدو سنة 766 وحالف عرب معقل ، حتَّى إذا دخلت سنة 772 تقدمت طلائع أبي فارس إلى تلمسان بقيادة الوزير أبي بكر بن غازي ، وتمكنت من احتلالها قبل التحاق السلطان بها ، بينما نجا أبو حمو بنفسه إلى صحراء الجزائر ، وقد كلف إخضاع المغرب الأوسط أبا فارس زهاء سنتين من الحرب ضد العرب الذين فقدوا ما كانوا ينعمون به من امتيازات مجحفة تحت ظل بني زيان .

وفيما كان أبو فارس يقيم بتلمسان استأذنه ابن الخطيب في القدوم عليه لاجئاً. وكان قدْ رجع إلى بلاط الغني بالله الذي استرجع ملكه سنة 763هـ، إلا أن رجال الدولة نغصوا عليه ما كان ينعم به من سلطة وجاه في بلاد ابن الأحمر، فخشي بطشه تحت تأثير سعايتهم، وجاء إلى أبي فارس الذي أكرم مثواه بعد أن بعث بقطع من أسطوله لاستقدامه، وقد حاول بعض حساده من الفقهاء أن يتهموه بالزندقة لدى أبي فارس، فلم ترض نفسه أن يخفر ذمته، وبقي مكرماً لديه، وكان مقدمه سنة 773هـ.

وفاة أبي فارس

أصيب أبو فارس بمرض مزمن منذ صباه، فاشتد عليه وهو بتلمسان حتَّى هلك بظاهرها فحمل إلى فاس حيث دفن بالجامع الملحق بقصره. وكانت وفاته في ربيع الثاني 774هـ (1372) والحق أنه لو طال ملك هذا السلطان لأحيَى مجد أجداده الأولين، فقد كان رغم صغر سنه حازما سريع التنفيذ لما يقرره مع تدبير صائب.

السعيد بالله أبو زيان الثاني محمد بن عبد العزيز (774ـ 776 / 1372ـ 1374م)

أبو زيان محمد السعيد بن أبي فارس عبد العزيز، بويع صبياً لم يحتلم بعد، وتولى الوزير أبو بكر الوصاية عليه. وقد تمكن أبو حمو من دخول تلمسان بمجرد دعوة أبي فارس إلى المغرب ثم طرده بني مغراوة الموالين لبني مرين من شلف. ودخلت في طاعته أهم مناطق المغرب الأوسط، وفي عهد هذا السلطان أتيحت الفرصة لابن الأحمر حتَّى يتدخل تدخلاً سافراً في شؤون المغرب، وذلك بحجة امتناع أبي بكر بن غازي من تسليمه ابن الخطيب فبعث أسطولاً إلى عبد الرحمن ابن ابي يفلوسن من حفدة السلطان أبي سعيد كما أرسل ابن عمه أبا العباس في شأن التعاون معه على إقصاء السعيد واقتسام ملك المغرب. وتحت ضغط الجيش المحاصر لفاس والذي قاده الأميران المذكوران، تنازل السعيد لصالح أبي العباس أحمد بن أبي سالم منذ محرم 776هـ.

المستنصر بالله أبو العباس أحمد بن أبي سالم (776ـ 786هـ/1374ـ 1384م)

صفاته :

أبو العباس أحمد بن أبي سالم من أم عربية تدعى نزهة بنت المجاهد أبي العباس

السبائي الأندلسي ، بويع بطنجة في ربيع الثاني 775هـ في عهد السلطان أبي زيان ، ثم بويع البيعة العامة بالمدينة البيضاء في مطلع 776هـ . وكان أبيض ربعة تعلوه صفرة رقيقة ، أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين جميل الوجه فارساً سخياً كثير الحياء شاعرا رقيقاً ، ومن شعره :

أما الهوى ياصاحبي فألفته — وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيته قوت النفوس وحليها — فتخذته دنيا إلي ومذهبا
لكن رأيت له الفراق منغصا — لا مرحبا بتفرق لا مرحبا

نكبة ابن الخطيب 776 (1374) :

كان ابن الأحمر قد اشترط على أبي سالم مقابل مساعدته على تولي عرش المغرب أن يسلم إليه ابن الخطيب . وكان سليمان بن داود الوزير المسن يبغض ابن الخطيب لأنه كان قد عارض في تعيينه شيخا للغزاة بالأندلس ، حتى إذا تولى ابن أبي سالم بفاس اتخذ سليمان بن داود من جملة وزرائه ، فأغراه بمحاكمة ابن الخطيب ، فقبض عليه ثم وجه السلطان رسالة إلى ابن الأحمر يخبره بذلك ، فبعث وزيره ابن زمرك ليتتبع قضيته ، ثم انعقد مجلس الشورى بمحضر الفقهاء ، فأفتى بعضهم بقتله ، وقبل أن يستقر اتفاقهم على حكم معين ، بادر سليمان بن داود إلى ابن الخطيب فبعث حاشيته بحضور أفراد من وفد ابن الأحمر ، وأخرجوه من سجنه بعد خنقه ، ثم أحرقوا جثته ودفنوه بمقبرة باب المحروق وذلك في بداية سنة 776هـ. أما سليمان بن داود فقد دخل الأندلس سنة 776هـ كشيخ للغزاة بموافقة ابن الأحمر ، وتوفي هناك سنة 781هـ.

ثورة عبد. الرحمن بن أبي يفلوسن :

كان أبو العباس قبل تنصيبه ملكاً ، قد اتفق مع عبد الرحمن بن أبي يفلوسن على أن يقتسما مملكة المغرب وتفصل بين منطقة نفوذهما منطقة أزمور ، بيد أن عبد الرحمن رغب في أن يضيف عمالة صهاجة ودكالة إلى ملكه ، فنشأ بذلك نزاع بين أبي العباس وعبد الرحمن ، وتدخل ابن الأحمر ليصلح بينهما بعد حروب تكررت الى سنة 784 .

فتح تلمسان 785هـ (1383) :

بعد أن حاصر أبو العباس الأمير ابن أبي يفلوسن بمراكش حالف هذا أبا حمو

الزياني الذي أطلق جموعاً من قبائل العرب على المغرب ، فعاثوا في ناحية مكناس وحاصر أبو حمو نفسه تازا ، ثم تمكن أبو العباس من الاستيلاء على مراكش وقتل عبد الرحمن سنة 784 ، فانسحب أبو حمو إلى تلمسان التي أخرج منها أهله وأطفاله ثم استقر قرب وادي شلف في انتظار ما سيصير إليه أمر تلمسان التي كان يزحف إليها أبو العباس انتقاماً من تدخل السلطان الزياني بالمغرب ، ثم دخلها أبو العباس وخرب أسوارها ومعاقلها سنة 785هـ.

خلع أبي العباس 786هـ (1384) :

خشي ابن الأحمر أن ينقلب عليه أبو العباس وكان ينقم عليه عدم استجابته لتنفيذ بعض مطالبه ، حتّى إذا توجه أبو العباس إلى تلمسان بادر ابن الأحمر بتحريض موسَى بن أبي عنان الذي كان يقيم بالأندلس تحت رعايته ، على إعلان نفسه ملكاً بالمغرب وخلع أبي العباس الذي انفض عنه جيشه ووجوه دولته قبل أن يعود إلى فاس ، مما يدل على النفوذ الخطير الذي كان يبسطه ابن الأحمر على المغرب . وما كاد ابن أبي عنان ينصب نفسه حتّى ألقى القبض على أبي العباس ، ثم بعث به إلى ابن الأحمر سنة 786هـ ، وبذلك انتهت الفترة الأولى من حكمه الذي مر في هدوء وسلم ، إذا استثنينا ثورة ابن أبي يفلوسن التي لم تؤد إلى نتيجة لصالحه . وقد تعاقب على الحكم بعده ثلاثة ملوك قبل أن يعود إلى تبوإ العرش بعد ثلاث سنوات فقط .

المتوكل على الله أبو فارس موسَى بن أبي عنان (786 ــ 788هـ/1384 ــ 1386م)

أبو فارس موسَى بن أبي عنان كان يعيش مع جماعة من إخوته وغيرهم من أفراد الأسرة المالكة ، في كفالة ابن الأحمر حتّى إذا هم ابن الأحمر بخلع أبي العباس ، بعث بموسَى هذا يخلفه ومعه مسعود بن رحو بن ماساي الذي كان يقيم بالأندلس حينئذ ، ثم دخل السلطان الجديد ووزيره ، فكان أول عمل قام به تسليم سبتة إلى ابن الأحمر ثم القبض على أبي العباس وتسليمه إليه كما تقدم ، وذلك سنة 786هـ.

وكان من وزراء أبي العباس، محمد بن عثمان الذي ينتمي إلى أسرة بني الكاس ، ولما كان مستبداً في أيام أبي العباس هذا فقد خشي مسعود بن رحو من مزاحمته ، وأغرى به سلطانه فاستصفَى أمواله ثم ذبحه في سجنه . وسرعان ما ظهر ثائر جديد بغمارة التي طالما كانت ملجأ للمتمردين منذ ما قبل الإسلام . وهذا الثائر هو الحسن

ابن الناصر بن أبي علي الذي سار إليه جيش بقيادة مهدي ابن ماساي، ثم جيش ثان بقيادة الوزير مسعود ولكن السلطان ابن أبي عنان عاجلته المنية إثر مرض طارئ، فعاد مسعود قبل تصفية أمر هذا الثائر، وكانت وفاة هذا السلطان سنة 788 من شهر رمضان.

المنتصر بن أبي زيان محمد (788هـ/1386م)

المنتصر هذا هو ابن أبي العباس بن أبي سالم، وهو أيضا ابن أخت موسى بن أبي عنان، وهو قد نصبه الوزير مسعود وهو ابن خمس سنوات، ثم ظهر له في استدعاء أبي العباس والده، حتى إذا بلغ سبتة طلب من ابن الأحمر أن يعيده إلى معتقله بالحمراء ويبعث مكانه محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن. وهكذا تم خلع المنتصر بعد حوالي شهر ونصف من تنصيبه وولى مكانه محمد بن أبي الفضل هذا. أما الثائر ابن الناصر فقد نقل إلى الأندلس.

أبو زيان الثالث الواثق محمد بن أبي الفضل (788 - 789هـ/1386 - 1387م)

تمت بيعة الواثق بالله في رمضان 788هـ، وهو حفيد أبي الحسن. وكان مسعود بن رحو يرغب في إعادة سبتة إلى حظيرة الدولة المرينية، فبعث إلى ابن الأحمر بتسليمها، حتى إذا رفض هذا مهدداً، هب الوزير مسعود بجيش لحصارها وأرسل ابن الأحمر من جهته أبا العباس بن أبي سالم من قلعة الحمراء ليحتل سبتة ويتولى الملك عوض الواثق. وعمد الوزير المغربي إلى تحريض أمراء قشتالة على مد يد المساعدة إلى ابن عم ابن الأحمر حتى يضايقه في ملكه ويصرفه عن التدخل في سياسة المغرب، الا أن أبا العباس تمكن من استعادة ملكه بسهولة، كما تنازل له ابن الأحمر عن سبتة. وأرسل الواثق مقيدا إلى طنجة التي تم فيها إعدامه. وحاول مسعود بن ماساي أن يتحصن بفاس الجديد، ولكن أبا العباس دخلها بعد ثلاثة أشهر من الحصار.

أبو العباس أحمد بن أبي سالم (789 - 796هـ/1387 - 1393م)

محاكمات وتعيينات :

كان أول عمل لأبي العباس بعد توليته بفاس ونفي الواثق إلى طنجة، أن هيأ عدة تدابير لتطهير حكومته من العناصر المستبدة والمشاغبة، فاعتقل مسعود بن رحو وحاكمه بتهمة نهب قصور الأمراء وتخريبها في غيابهم، ثم مثل به فهلك، وولى

على وزارته محمد بن يوسف بن هلال وكان والده عاملاً سابقاً في عهد أبي الحسن وأبي عنان ، وأثناء حصار فاس كان محمد بن عبد الحليم حفيد أبي سعيد الذي كان لاجئاً عند أمير تلمسان يدبر مؤامرة ليتولى الملك بتحريض من الوزير مسعود ، ولكن دخول العاصمة في طاعة أبي العباس حال دون مرامه ، فغادر المغرب إلى تلمسان ، ثم اعتقل أبو العباس كاتبه السابق محمد التيمي الذي كان قد تولى سفارة مغربية بالأندلس أيام موسَى بن أبي عنان ، وكان أبو العباس يقيم تحت الحراسة الإجبارية هناك ، فلم يزره كاتبه السابق هذا ، حتَّى إذا وقع في يده عذبه حياً وميتاً بسحبه من نعشه في أزقة فاس ، ثم اعتقل حركات بن حسون أحد رؤساء العرب بتادلا ، وكان قد رفض الدخول في طاعته وهو لم يدخل العاصمة بعد . وفي جبال الأطلس المتوسط ثار شيخ المصامدة علي الهسكوري الذي كان من أوائل المبايعين لأبي العباس ، بيد أن الوزير محمد بن يوسف عزله عن ولاية المصامدة ليوليها أحد أصهاره ، وبعد اشتباكات بينه وبين جيوش الوزير ، تم اعتقاله . وكان هذا الإجراء الجائر من أمارات استبداد هذا الوزير .

دخول المغرب الأوسط في طاعة أبي العباس 791 – 795 :

منذ أواخر 788 ثار على السلطان أبي حمو الزياني ولده أبو تاشفين الذي جرت بينه وبين والده حروب طويلة إلى أن طلب أبو تاشفين مساعدة ملك المغرب . فأمده بجيش كثيف بقيادة ابنه أبي فارس ووزيره محمد بن يوسف . فتمكن أبو تاشفين من الانتصار على والده الذي قتل في معركة فاصلة عند سفح جبل بني ورنيد قرب تلمسان سنة 791هـ . ثم بعث الولد برأس والده إلى أبي العباس ، والتزم أن يدخل في طاعته ويؤدي الضريبة المفروضة عليه . حتَّى إذا هلك سنة 795هـ خلفه أخوه أبو يوسف الذي احتل تلمسان عنوة بالرغم من أن الوزير أحمد ابن العز نصب ابنا لأبي تاشفين . وهكذا أتيحت الفرصة لأبي العباس حتَّى يدخل تلمسان وسائر المملكة الزيانية تحت حكمه المباشر ، فبعث ابنه أبا فارس الذي احتلها بسهولة .

وفاة أبي العباس 796 :

توجه أبو العباس إلى تازا ليشرف على تحركات ابنه أبي فارس عن كثب . وهناك تسلم هدية من السلطان الظاهر برقوق بعثها إليه مع أحد أمراء العرب بالمغرب وكان قد اتصل به أثناء حجه . حتَّى إذا بدأ أبو العباس يجهز بدوره هدية للسلطان الشرقي أصيب بمرض توفي على إثره بتازا في أول سنة 796هـ وقد تمكن أبو العباس من مباشرة حكمه دون تدخل من بني الأحمر الذين توفي سلطانهم محمد الخامس سنة 793هـ.

المستنصر أبو فارس عبد العزيز (796 – 799هـ/1393 – 1396م)

بعد وفاة أبي العباس ، بويع ابنه أبو فارس بتازا بعد استدعائه من تلمسان التي أمر عليها أبازيان بن أبي حمو إذ التزم بتدبير أمور المغرب الأوسط باسم بني مرين أما أخوه يوسف فقد تم قتله على يد بنيَ عامر . وقد وصف صاحب روضة النسرين المستنصر بأنه كان فارساً عارفاً بركض الخيل ، ويحسن قرض الشعر . وقد تمكن وزراؤه من تدبير المملكة بحزم حتّى توفي سنة 799هـ . وفي عهده وقعت معارك بين السلطان الحفصي أبي فارس وابن عمه محمد الذي لجأ إلى المستنصر.

المستنصر بالله أبو عامر عبد الله (799 – 800هـ/1396 – 1397)

خلف المستنصر هذا شقيقه عبد العزيز الذي كان يلقب بالمستنصر أيضا . وكان التصرف في عهده وفي عهد شقيقه السابق وخلفه كذلك للوزراء والحجاب وخصوصاً أحمد القبائلي ثم فارح بن مهدي وقد توفي أبو عامر بعد أقل من سنة ونصف على مبايعته ، وكانت وفاته سنة 800هـ.

أبو سعيد عثمان (800 – 823هـ/1397 – 1420م)

تولى بعد وفاة شقيقه المستنصر أبي عامر ، وكان أول عمل بادر إليه هو البطش بحاجبه أحمد القبائلي الذي ينتمي إلى أسرة عريقة في الثقافة والإدارة . وكان تدبير قتله على يد مساعده محمد الطريفي . وقد تولى الحجابة بعد القبائلي فارح بن مهدي ثم الطريفي المذكور.

تطور علاقة المغرب مع افريقية 810 – 812هـ :

وفي عهد أبي سعيد هذا تحول النفوذ في المغرب العربي والأندلس الإسلامية إلى يد السلطان الحفصي أبي فارس (1394 – 1434م) وكان أبو فارس من أعاظم ملوك الدولة الحفصية ، إذ تمكن بفضل دهائه وحسن تدبير مساعديه من إخضاع جميع الإمارات المحلية التي تشكلت من قبل في عهد ضعف الدولة الحفصية ، ثم طمح بنفسه إلى بسط سلطته على سائر الشمال الإفريقي . وكان ابن عمه لاجئا بالمغرب ، فحرضه أبو سعيد على الاستيلاء على عرش تونس ، حتّى إذا دخل المغرب الأوسط ، وقع في قبضة أبي فارس الذي وجه برأسه إلى فاس حيث علق بباب المحروق[1] إغاظة لسلطان المغرب . وتمكن أبو فارس من احتلال تلمسان

(1) الناصري ، ج 4 ص 91.

والزحف بسهولة إلى فاس ، وكان الوضع العسكري يومئذ في غاية الضعف بالمغرب ، فطلب أبو سعيد عقد صلح مع أبي فارس ، ثم خطب له على منابر المغرب . وهكذا صارت الدولة المرينية نحو نهايتها مثلما كانت في بدايتها تخطب للملوك الحفصيين وترهب جانبهم وقد حدثت هذه التطورات فيما بين خروج أبي عبد الله إلى المغرب الأوسط ودخول أبي فارس إلى المغرب الأقصى خلال سنتي 810 ـ 812هـ .

احتلال البرتغال لسبتة 818 هـ (1415م) :

بدخول القرن التاسع الهجري والخامس عشر من الميلاد يبدأ عهد جديد في تطور الأحداث العالمية فيتجه اهتمام الدول الأوروبية إلى تقوية أساطيلها البحرية ، وتتحول السيطرة على البحار والسواحل شيئاً فشيئاً إلى البرتغال وهولندا وإنكلترا ، ويكون استعمار الأقطار تجارياً في مبدإ الأمر ثم يتحول إلى استعمار شامل . ومن الطبيعي أن تكون الشواطئ المغربية الضعيفة الحماية منذ القرن المذكور من المراكز الأولى التي اتجهت إليها أنظار البرتغال الذين كانت تداعبهم أحلام السيطرة الاستعمارية بفضل أساطيلهم القوية . وكان المغرب قد بدأ يضعف اهتمامه بالأساطيل آنذاك ، لأن السلطة الحكومية قد خرجت من أيدي الملوك إلى أيدي الوزراء والحجاب الذين كانوا يستغلون في الغالب موارد الدولة لصالحهم الخاص ، وأضعفت الثورات الداخلية والحروب في افريقيا الشمالية ميزانية البلاد ، ولولا تقوي حركة الجهاد البحري في عهد الوطاسيين وبعدهم لذهبت سواحل المغرب كلها طعمة سائغة في أيدي الإسبان والبرتغال ولم يبق منها شبر في يد أهلها ، على أنه لا يمكن أن تنكر الجهود التي بذلها على الخصوص أحمد المنصور الذهبي ثم السلطان إسماعيل فيما بعد .

وقد استولى البرتغال على سبتة سنة 1415م (818هـ) عن طريق الغدر حسبما نقله الناصري عن نشر المثاني[2] وذلك في عهد خوان الأول . على أن الناصري يذكر قبل ذلك أن البرتغال حاصروا سبتة طويلا قبل فتحها ؛ والظاهر أنهم استخدموا الطريقتين معاً أي الحصار والغدر ، على أن الإسبان قد سبقوا البرتغال إلى

(2) الاستقصا ج 4 ص 92، يحكي الناصري عن صاحب نشر المثاني أن البرتغال قد حطوا أربعة آلاف صندوق بمرسَى سبتة وكان في كل منها شاب مسلح فخرجوا منها ثم استولوا على المدينة.

الظهور في شواطئ المغرب كغزاة ، منذ عهد المنصور المريني حيث ثاروا بسلا سنة 658هـ ثم في عهد أبي سعيد عثمان سنة 803 (1400م) حيث هاجموا تطوان وخربوها انتقاماً من المجاهدين الأندلسيين الذين كانوا قد استقروا بها منذ عهد أبي ثابت ، وكانوا يغيرون على الشواطئ الاسبانية وهكذا يمكن القول بأن القوة البحرية قد تحول معظمها من يد الدولة المغربية إلى يد الحركة الوطنية قبل أن تضمحل الدولة المرينية بنحو ثلثي قرن .

ولكي نعرف مبلغ الخسارة التي مني بها المغرب عند فقده سبتة ، يكفي أن نراجع ما كتبه مؤرخ عاصر حوادث سقوط المدينة في أيدي البرتغال ، وسجل ما خلفه المسلمون بها من آثار قبل الاحتلال الأجنبي[3] فمن ذلك اثنتان وستون خزانة وسبع وأربعون رابطة وزاوية ومحرس (ناظور) يشرف على العدوتين معاً إلى بادس جنوباً وناحية مالقة شمالاً . وكان هذا المحرس مبنياً داخل الأسوار والأبواب يكشف مواقع الأعداء عن بعد كبير ، وقد عدد هذا المؤرخ كثيرا من مباني المدينة كالفنادق (160) منها ما خصص للسكنى وما خصص للخزن ، والأفران (360) إلخ ..

والواقع أن أول هدف استعماري للبرتغال كان هو سبتة. وتروي بعض الروايات المسيحية[4] أن زوجة جان الأول كانت آخر كلماتها قبل أن تلفظ أنفاسها على إثر وباء أودى بحياتها ، هي أن يستمر غزو سبتة حتّى النهاية . وما كاد جان الأول يفرغ من جنازتها حتّى أعطى الأمر بأن يرتدي أبناؤه وجنوده زي الحفلات وأن يستعدوا لغزو سبتة . وبعد مقاومة عنيفة ابداها المغاربة تمكن البرتغال من اقتحام البلدة بمساعدة بعض الخونة من السكان وكان أول عمل قاموا به أن حولوا الجامع الأعظم إلى كنيسة وخربوا قصر العامل، ثم حملوا إلى لشبونة عدداً من أعمدته. وقد تزعم المقاومة الشعبية على الفور أحد أولياء جزولة واسمه عبد الرحمن الجزولي الذي ظل يجاهد بشجاعة طيلة أربع سنوات لاسترداد سبتة ولو أنه لم يوفق إلى ذلك[5] وتوالت محاولات استعادتها بعد ذلك .

---

(3) اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار لمحمد الأنصاري . نشر لأول مرة في هيريس مجلد 12 سنة 1931.

(4) Castonnet des Fosses, Les Portugais au Maroc p, 5

(5) Robert Ricard عن مصدر برتغالي . هسبريس 1936 . 4 ، وقد يكون المقصود هنا هو ابنه محمد الذي سيأتي ذكره . وحسب الزركشي في تاريخ أخبار الدولتين ، ص 158 فإن أحد شرفاء غمارة قاد حركة جهادية لاسترداد سبتة ، وقد تمكن من الاستيلاء عليها فعلا أوائل 881هـ ولكن يظهر أن البرتغال استرجعوها بسرعة.

وفاة أبي سعيد 823 (1420) :

يسود الغموض أواخر عهد أبي سعيد الذي رغم طوله كان من أشأم فترات الدولة المرينية ، فثمة رواية إفرنجية تؤكد أن أبا سعيد قد مات أسيراً في السجن بفاس بعد أن تمكن أخوه عبد الله من الاستيلاء على الملك بفضل مساعدة ابن الأحمر وهي رواية مانويل صاحب كتاب **Historia de Marruecos** وقد نقلها عنه الناصري أيضاً . وهناك رواية تثبت أن أبا سعيد قد مات مغتالاً حسبما يذكره طيراس في تاريخه ، وعلى كل فقد كان موت أبي سعيد حوالي سنة 823 ــ (1420م). ولقد حاول أحد الأشخاص من سلالة أبي عنان واسمه محمد ابن أبي محمد بن أبي طارق بن أبي عنان أن يستولي على الملك بعد موت أبي سعيد ، بفضل مساعدة عسكرية من أمراء تلمسان ولكنه فشل على الرغم من دخوله فاسا[6] واستمر أبو زكرياء يحاربه مدة أربع سنوات .

عبد الحق بن أبي سعيد (823 ــ 869هـ/1420 ــ 1464م)

كان عبد الحق هذا آخر ملوك بني مرين وأطولهم عهداً ، إلا أن المراجع لا تفيد شيئاً كثيرا عن هذه الحقبة الطويلة التي تقارب نصف القرن . وقد تولى عبد الحق وهو بعد صبي لم يبلغ أكثر من سنة وحاول ابن الأحمر أن ينصب أميراً موالياً له ، ولكن أبا زكرياء يحيى الوطاسي تمكن من تثبيت عبد الحق ، وبذلك بدأ النفوذ الوطاسي يشكل في البداية مظهر الوصاية على العرش ليتحول فيما بعد إلى نفوذ مباشر شامل . وقد بذل أبو زكرياء جهوداً قوية بفضل معونة الحفصيين سنة 830 (1426) لاستعادة سبتة ، ولكن هذه الجهود فشلت ، ثم استمرت تدخلات الحفصيين عن طريق قراصنتهم بعد ذلك من غير جدوى[7].

وفي سنة 846 تمكن أبو زكرياء من إخضاع قبائل الشاوية الذين كانوا قد قدموا إلى المغرب منذ عهد يعقوب المريني وتولوا المحافظة على مواشيه فأعطوا اسم الشاوية ، ولم يستطع عبد الحق أن يتخلص من وصاية أبي زكرياء حيث شغله بالملذات والملاهي عن شؤون الملك ، وقد دهي المغرب بوباء عظيم سنة 846 فلم تحر الدولة أمامه شيئاً .

وفي سنة 852 تولى رئاسة الوزارة علي بن يوسف الوطاسي خلفاً لخاله أبي

(6) Auguste Cour. La Dynastie marocaine des B. Wattas p.47.

(7) المصدر السابق ص 50.

زكرياء المتوفّى . فاستمر في مباشرة وصايته على السلطان ، ولكن التدخل الوطاسي طيلة 30 سنة من عهد عبد الحق ضد التوسع الاستعماري الأجنبي بالمغرب جعل الوطاسيين جديرين بما كانوا ينعمون به من نفوذ[8].

وفي عهد عبد الحق هذا بدأت تتشكل قوى المقاومة الشعبية ضد الأجانب ، ولعب الصلحاء في هذه المقاومة أدواراً بطوليّة فيما بعد ، كما خرجت مراكش عن طاعة السلطان وتشكلت فيها إمارة هنتاتية مستقلة .

محاولات البرتغال لأخذ طنجة :

لم يكتف البرتغال بالاستيلاء على سبتة سنة 818 (1415) ، ففي سنة 1437 (841هـ) طلب إدوارد الأول ملك البرتغال من البابا أن يمده بقوات صليبية للاستيلاء على طنجة ، وتجمعت هذه القوات في لشبونة بقيادة فرديناند ، ثم تحركت للزحف على طنجة براً وبحراً[10] ، وتولى الدفاع أهل المدينة بقيادة صالح بن صالح ، وأثناء ذلك تقدمت قوات أبي زكرياء الوطاسي التي أنقذت طنجة من احتلال وشيك وانقضت هذه القوات على البرتغال الذين استسلموا ومعهم قائدهم فرديناند . وقبل المغرب انسحاب الجيش البرتغالي مقابل تسليم سبتة وترك فرديناند رهينة ، إلا أن الحكومة والكنيسة البرتغالية رفضت التخلي عن سبتة ، وظل فرديناند في أحد سجون فاس إلى أن توفي بعد ست سنوات ودخل في عداد شهداء البرتغال . وقد قال عنه طيراس : «إنه ضحَى في سبيل مصلحة بلاده (!)».

وفي سنة 861 (1458) بعث الفونس الخامس ملك البرتغال بجيش يبلغ 17 ألف مقاتل وأسطول يتألف من ثمانين باخرة من أجل احتلال طنجة ، ولكنه لم يتجرأ على مهاجمتها ، فتوجه إلى القصر الصغير الذي استولى عليه ، ثم تكررت محاولة الاستيلاء على طنجة سنة 1464 فعجز البرتغاليون في هذه المرة أيضاً ولم يتمكنوا من احتلالها إلا سنة 1471 م أي سنة 876هـ ، لا سنة 869هـ كما ذكر الناصري[10] .

نكبة الوطاسيين ووزارة اليهود :

توفي الوزير علي بن يوسف سنة 863هـ ، فخلفه يحيَى بن يحيَى بن عمر

---

(8) Histoire de l'Afrique du Nord ج 2 ص 196 لجوليان.

(9) Villes et tribus du Maroc ج 7 ص 56.

(10) الاستقصا ج 4 ص 98 للناصري.

الوطاسي الذي كان أقل مقدرة وكفاءة من سلفيه، فأساء التدبير بإقصاء عدد من الولاة والضباط وكبار الشخصيات وتعيين آخرين مكانهم مما أحفظ صدر السلطان عبد الحق الذي انتبه أخيراً من غفوته بعد أن قضَى أربعين سنة من عمره تحت حجز الوزراء الوطاسيين، ولم يقض يحيَى هذا في الوزارة سوَى شهرين حتَّى اعتقل هو وأسرته وأعدموا ذبحاً ولم ينج منهم سوى محمد الشيخ الذي لجأ إلى أصيلا يتحصن بها . ويبدو أن عبد الحق فقد ثقته في شخصيات بني مرين فعين يهوديين في حكومته وهما هرون وشاويل ، ثم عين على حجابته يهودياً آخر اسمه حسين ، وهو من يهود الأندلس الذين استوطنوا فاسا وسموا بالمهاجرين ودخل كثير منهم في الإسلام نفاقاً . وتحكم هؤلاء اليهود في رقاب سكان فاس وخولوا للمهاجرين امتيازات واسعة أهمها احتكار التجارة في اسواق العاصمة[11] ، وأرغم الوزراء اليهود الناس بالضرب والعقاب على أداء الضرائب . وبينما كان السلطان غائباً في إخضاع ثورة بناحية الغرب اعتدى حسين المذكور على امرأة شريفة بالضرب والإهانة ، فثار أهل فاس بزعامة خطيب القرويين عبد العزيز الورياكلي ، وخلعوا طاعة المرينيين ثم نصبوا أبا عبد الله الحفيد نقيب الشرفاء الأدارسة سلطاناً وفتكوا بيهود فاس[12] . وبينما كان عبد الحق عائدا إلى فاس بعد أن بلغه خبر هذه الثورة ، تفرق عنه معظم جنوده ثم قتل الباقون وزيره هارون واعتقلوا عبد الحق الذي لقي مصرعه بمحضر السلطان الجديد في شهر رمضان 869هـ.

وبذلك تنتهي الدولة المرينية التي دامت في الحكم أزيد قليلاً من قرنين ، إذا اعتبرنا بدايتها منذ عهد يعقوب المنصور . وقد دفن عبد الحق ببعض مساجد فاس .

أبو عبد الله الحفيد (869 – 875هـ/1464 – 1470م)

محمد بن علي الجوطي[13] الإدريسي العمراني من أسرة تولت نقابة الشرفاء مدة

---

(11) تقييد عن البلديين بفاس ورقة 4 للزياني .

(12) في عهد عبد الحق هذا استولى بنو وطاس على عدد من المدن المغربية ، راجع : الزركشي، أخبار الدولتين ، ص 156.

(13) الجوطي نسبة إلى جوطة : قرية كانت على الضفة الجنوبية لسبو وهي احدى قرى أولاد عمران من الخلط – عن محمد العربي الفاسي : مرآة المحاسن ص 188 . وانظر عن الأشراف الجوطيين : تقييدين أحدهما لعبد السلام بن الطيب القادري الحسني كتب سنة 1101هـ ، والثاني للمسناوي محمد بن أحمد ، كتب سنة 1125هـ ، وعن الاشراف

طويلة، وكان بنو مرين يجلونهم ويتوددون إليهم . وقد اضطربت أحوال المغرب في عهده غاية الاضطراب حيث تمردت قبائل الشاوية التي هددت كلاً من مكناس وفاس في زحفها شمالاً ، كما أن البرتغال تمكنوا من احتلال آنفا (الدار البيضاء) سنة 874هـ (1468م) وظلّت تحت أيديهم الى نهاية الدولة السعدية . وفي هذه الفترة المظلمة استولى ابن الأحمر على جميع المراكز الأندلسية التي كانت من قبل تابعة من الوجهة الحربية لبني مرين .

أما محمد الشيخ الذي سبق أن فر من بطش عبد الحق المريني ؛ فقد خرج من أصيلا زاحفاً نحو فاس سنة 872 فالتقت به جيوش الحفيذ التي هزمته وعاد من جديد ليحاصر السلطان الإدريسي في عقر داره مدة سنتين ؛ فانتهز البرتغاليون الفرصة ، واحتلوا أصيلا في غيبته سنة 875 ، وبعد محاولة يائسة من محمد الشيخ لاسترجاعها اضطر إلى مهادنتهم والعودة إلى فاس التي دخلها دخول الظافر في نفس السنة . أما أبو عبد الله الحفيد ، فقد تم خلعه على يد أبي الحجاج الوطاسي بمدة يسيرة قبل أن يدخل محمد الشيخ إلى العاصمة ، وقد التجأ الشريف الإدريسي إلى بني حفص بتونس .

= بصفة عامة : ياقوتة النسب؛ الوجاهة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة للمشرفي أبي محمد العربي الحسني ، وكلها ضمن مجموع بخزانة الرباط 270 ك صفحات 20 ، 34 ، 403 . والكتب عن الأشراف كثيرة .

5 – عوامل سقوط الدولة

تتكون عوامل سقوط الدولة المرينية من أسباب داخلية وخارجية . أما العوامل الداخلية فهي :

1 – النزاع على العرش :

وهذا أول عامل أضعف من سياسة الدولة وحول نشاطها عن ميادين أخرى ، كانت أجدر بالاهتمام ، وقد بدأ هذا النزاع بتمرد أبي عنان على سلطة والده أبي الحسن ، وليس من شك في أنه لولا هذا التمرد الخطير لكانت النتائج التي تترتب عن بقاء السلطة بيد أبي الحسن من شأنها أن تحدث تحولاً عظيماً في تاريخ الدولة ، فإن الكوارث التي توالت على أبي الحسن لم تكن لتضعف أبداً من عزيمته وتصده عن توحيد المغرب العربي ، ثم إن هذه الثورة من ولد على والده ، كانت أسوأ مثل ضرب لأدعياء العرش والثوار على الدولة ، وبما أنه لم يكن لبني مرين ، شأن سابقيهم أيضا ، نظام قار لولاية العهد ، فقد كان كل ملك يتولى العرش ، يَخشَى على ملكه من ثورات يقوم بها أمراء الأسرة المالكة ، فينفي أخطرهم شأنا إلى الأندلس وتكون تلك أسوأ وسيلة للمحافظة على وحدة العرش ، حيث ينتهز بنو الأحمر أقل فرصة ضعف من بني مرين ليسلطوا عليهم بعض من تحت أيديهم من أمراء بني مرين ، وهكذا أمد أبو الحجاج أبا الفضل بجيش يحارب به أخاه أبا عنان الذي كان قد نفاه إلى الأندلس ، وقد يلتجئ الأمراء إلى بني عبد الواد أو بني حفص أو ملوك قشتالة ، فإن أبا سالم دخل إلى المغرب مخفوراً بأسطول ملك قشتالة ، والتجأ الأمير عبد الحليم إلى السلطان أبي حمو الذي ساعده على دخول سجلماسة في عهد أبي زيان وهكذا ..

2 – ضعف شخصية الملوك بعد أبي عنان :

إذا استثنينا ملكين بدرت منهما محاولات لإعادة مجد الدولة وهما أبو سالم وأبو فارس وكلاهما ولي الملك بعد أبي عنان ، فإن باقي الملوك المتأخرين كانوا يتفاوتون ضعفاً من حيث صلاحيتهم لتحمل أعباء الدولة ، فقد بويع أبو بكر السعيد صبياً

صغيراً . وكان أبو عمر تاشفين ضعيف العقل ، أما أبو زيان محمد ، فلم يكن له نفوذ يذكر ، وبويع أبو زيان الثاني طفلا لم يحتلم بعد ، وأدى أبو سعيد عثمان طاعته لبني أبي حفص ، وذبح عبد الحق وزراءه الوطاسيين لينصب عوضهم حكومة من اليهود وهكذا ...

3 – استبداد الوزراء وفساد الحكومة :

لعل هذا أخطر العوامل الداخلية التي أدت إلى سقوط الدولة ، فطالما كانت السلطة الأساسية بيد الملوك والوزراء الصالحين المتعاونين مع الملوك على خير البلاد كانت الدولة تفرض نفسها كقوة بناءة يرهب جانبها المتمردون وينظر إليها الجميع نظرة إجلال ، أما والسلطة قد تحولت كلها أو معظمها إلى أيدي وزراء أغلبهم ينظر إلى الملوك نظرة الأوصياء الجائرين إلى اليتامى المحجورين ، فإن ثقة الشعب قد ضعفت في هؤلاء وأولئك ، فكان ينتهز أول فرصة تسنح حتّى يمد يده لأي شخص يخلصه من جبروت الوزراء وغفلة الملوك . وكانت أسرة الفودودي من أكثر كبار الموظفين خطراً على الدولة ، وهكذا خنق أحدهم أبا عنان وأغرق السعيد في البحر وخلع أبا تاشفين ثم نصب أبا زيان الأول الذي لم يلبث أن لقي حتفه خنقاً على يد هذا الوزير (عمر). وكان من أخطر الوزراء نفوذاً سليمان بن داود الذي عمل على قتل ابن الخطيب ومسعود بن رحو الذي دبر اغتيال عدد من الوزراء ، ثم كانت أسرة الوطاسيين التي لم يبق معها للملوك المتأخرين أي نفوذ يذكر .

وكان من سياسة بني مرين أحياناً الاعتماد على عناصر يهودية لتسيير شؤون الدولة . وقد تجلّى نفوذ اليهود في عهد مبكر من تاريخ بني مرين حيث اتخذهم يوسف من جملة بطانته وأمناء سره . كما أن عبد الحق آخر ملوك بني مرين شكل حكومته من اليهود بعد أن قضى على الوزراء الوطاسيين .

4 – ضعف الروح الحربية :

تجلت هذه الظاهرة منذ عهد أبي عنان عندما كان يريد توطيد أقدامه في إفريقية ، فإن شيوخ بني مرين قد فضلوا العودة إلى المغرب على متابعة الفتح ، كما تجلّى ضعف الروح الحربية في عدم مباشرة الدولة لمهام الجهاد في الأندلس بشكل مستمر بعد أبي عنان ، كما أن أحدا من ملوك بني مرين لم يعد لغزو النصارى مثلما أعده أبو الحسن على الرغم من النتائج السلبية التي ترتبت على انهزام جيوشه في معركة طريف. والدولة التي شهدت نصف قرن من احتلال البرتغال لسبتة دون أن

تحرك ساكناً أمام هذا العدوان لجديرة بالرثاء لما حل بجهازها من فساد وبجيشها من ضعف وانحطاط . والحق أن هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها الدولة وجيوشها لم تضعف من عزم الشعب على أن يتولى مقاومة الطغيان الأجنبي بنفسه عن طريق مجاهديه وبقيادة المتصوفة خاصة .

ولعل أقوى برهان على فقدان الملوك المتأخرين ثقتهم بالجيش الوطني ، اعتمادهم على الجيش النصراني الذي وكلوا إليه حمايتهم وحماية قصورهم ، بل ومقاومة المواطنين أحياناً عند تمردهم عوضاً عن الجيش الوطني . وهكذا فإن الجيش النصراني ساعد الوزير عمر الفودودي على خلع السعيد . وأعلن خلع أبي سالم بتأييد غرسية قائد هذا الجيش ، كما أن قتله تم بيد أحد أفراده . وهم غرسية هذا بالفتك بالوزير عمر لولا أن هذا بطش به قبله . ومن الطبيعي أن تلعب القوى النصرانية دوراً فعالاً في خلع الملوك وتنصيبهم ما دام هؤلاء قد عهدوا إليها بالمحافظة على سلامتهم ، وأي محافظة !

وهناك عوامل خارجية كان لها أيضا أثر بارز في إضعاف نفوذ الدولة وانحطاطها ، وهذه العوامل هي :

1 – التدخل المسيحي في السياسة المغربية :

شكل هذا التدخل مظاهر مختلفة ، فبعضها اتخذ صبغة التأييد المعنوي لتنصيب ملك معين كما كان التدخل أحياناً عن طريق إمدادات عسكرية ، ثم انتهى بالتدخل المباشر المسلح .

فأبو سالم لقي تشجيعاً كبيراً من ملك قشتالة ليتولى عرش المغرب بعد أبي بكر السعيد ، واستمد الوزير مسعود القشتاليين أيضا في عهد أبي زيان الثالث حتَّى يناوشوا ابن الأحمر الذي كان يتدخل بدوره في تنصيب وعزل ملوك بني مرين . وتم احتلال سبتة سنة 818هـ على يد البرتغال ، فعجز بنو مرين عن استعادتها وتكفلت المقاومة الشعبية بمناوشة البرتغال الحرب من آن إلى آخر ، ومنذ احتلال سبتة والتدخل المسيحي يتطور ويتسع مداه شيئا فشيئا والدول النصرانية تتكالب على التراب المغربي بمختلف الوسائل .

2 – الحرب ضد بني عبد الواد والحفصيين :

انصرفت معظم الجهود في الميدان العسكري إلى محاولة ضم أجزاء المغرب العربي تحت سلطة واحدة فكان النجاح في جملته محدودا وغير مطرد ، وكان الفشل في

كثير من الأحيان يكلف الدولة خسائر كثيرة في الأموال والأرواح ، ولم تكن الموارد المالية بإفريقية والمغرب الأوسط لتغطي نفقات الجيش وتكاليف المشاريع المدنية ، ذلك أن العرب كانوا ينتزعون ضرائب باهظة بعضها كانوا يأخذونه مباشرة من السكان والبعض الآخر كانوا يفرضونه على ملوك بني أبي حفص وبني عبد الواد . فكانت نفقات الجيش المريني في معظمها تقع على كاهل ميزانية المغرب . وبما أن بني مرين كانوا ضد سياسة دفع الضرائب للأعراب ، فقد كان عليهم أن يقاوموا هؤلاء بدورهم ، ومن الحق أن يقال إن بني مرين فكروا مراراً في تعاون سلمي مع باقي أجزاء المغرب العربي ، ولكنهم اصطدموا بمقاومة عنيفة من بني عبد الواد الذين لم يترددوا في خرق معاهداتهم مع المرينيين والتعاون مع أعداء الدولة المغربية جهراً وسراً ، كما اصطدموا بنفور الحفصيين من هذا التعاون ، في مقابل الخضوع لضغط الأعراب ، حتّى إذا تقوى الحفصيون ، انقلبوا بدورهم يدعون المغرب إلى الدخول في طاعتهم !

3 – تدخل بني الأحمر :

بدأ تدخل بني الأحمر في شؤون المغرب بنحو قرن مضَى قبل سقوط الدولة المرينية . ففي عهد أبي زيان الثاني (774 ــ 776هـ) أمد ابن الأحمر أميراً ثائراً بأسطول بحجة امتناع الحكومة المغربية من تسليم ابن الخطيب كما ساعد أحمد ابن أبي سالم على تولي الملك ، وخشي هذا نفوذه فبطش بابن الخطيب ، ثم عمل ابن الأحمر على خلع هذا السلطان واستدعائه إلى الأندلس وتولية موسَى بن أبي عنان مكانه ، حتّى إذا توفي هذا وخلفه ابن أخته المنتصر بن أبي زيان ، تعاون مع الوزير مسعود على خلعه وهو بعد صبي ، ثم أطلق سراح أبي العباس ليستعيد ملكه بالمغرب . وفي الواقع بدأ تدخل بني الأحمر في المغرب على عهد يوسف حيث استولى بنو الأحمر على سبتة سنة 703 ، ولكنها لم تلبث تحت أيديهم أكثر من ست سنوات . ومهما يكن من شيءٔ فإن تدخل بني الأحمر في شؤون المغرب قد أسقط كثيرا من هيبة الدولة المغربية .

6 – أهمية أعمال الدولة

مما لا ريب فيه أن بني مرين بذلوا جهوداً غير هينة ، في سبيل محاولة توحيد المغرب العربي ، ولئن لم يتوصلوا إلى ذلك طبق الخطة التي رسموها والتي كانت على أي حال أفضل من بقاء المغرب العربي تتوزعه الأهواء والمطامع وتتحكم في مصيره بعض فئات الأعراب ، فإنهم طالما حاولوا أن تظل علاقاتهم بجيرانهم من مختلف الدول تسودها روح المسالمة والتعاون . ولقد تقلص نفوذ المغرب في الأندلس أيامهم بالنسبة إلى ما كان عليه في عهد المرابطين والموحدين ، ذلك أن المشكلة ظلت تكمن في عدم وجود تعاون حقيقي من لدن بني الأحمر . ولكن وجود ممثل سياسي دائم لبني مرين في الأندلس كان يعني أن المغرب لم يكن يهمل بلداً شقيقاً يتهدده الخطر المسيحي كلما حانت الفرصة . كما أن المقاومة الشعبية في الأندلس قد تبناها بنو مرين أنفسهم ، بتعاون مع فئات المتطوعين الذين كانوا تحت إشرافهم .

ومن المؤكد أن المغرب قد اتسع نشاطه الدبلوماسي في هذا العهد بشكل ملحوظ ، سواء مع المشرق أو مع السودان أو الدول المسيحية كما سيأتي ذلك في موضوع العلاقات الخارجية .

وإذا كانت رقعة المملكة الإسلامية بالأندلس قد ضاقت في عهد بني مرين بسبب الحملات الصليبية التي كانت تشنها القوات المسيحية على المسلمين ، فإن للمرينيين على أي حال فضلاً لا ينكر في تمديد أجل الإسلام في هذه الديار ، ذلك أن جيوش غرناطة المحدودة العدد لم تكن لتستطيع الصمود وحيدة أمام القوات الصليبية المتضامنة .

ولقد استطاع المرينيون أن يحتفظوا لأمد طويل بسلطتهم على المغرب الأوسط الذي كلفهم إخضاعه في عدة فترات نفقات باهظة .[1] ولقد تفوق المرينيون على الحفصيين وبني عبد الواد من حيث الجهاز العسكري الذي كان يقويه أسطول بحري كبير . لذلك استطاع المرينيون أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ولأمد قصير

(1) راجع عن حدود المملكة المرينية : صبح الأعشى ، 5 ، 149 ، 198

على المغرب الأدنى ، بينما لم يستطع الحفصيون ولا بنو عبد الواد أن يسيطروا على مملكة بني مرين بشكل مباشر على الأقل.

ومن المؤسف أن المرينيين لم يكونوا يتلقون أي مساعدة من الشرق الإسلامي حتّى يتمكنوا من تحرير الأراضي الإسلامية بالأندلس ، فقد كانت هذه المنطقة تكاد تعيش في عزلة سياسية تامة عن باقي البلاد الإسلامية.

ولقد أشار المؤرخ هنري طيراس إلى أن بني مرين قد أهملوا تنظيم حكومتهم وجيشهم وانعزلت المناطق الجبلية عن نفوذهم شيئاً فشيئا. وإذا كان في نظام حكومتهم وجيشهم عيوب لا تنكر ، فإن مسألة خروج الجبال عن نفوذهم أمر لا تتحدث عنه المراجع العربية التي اعتمد عليها السيد طيراس ، فإذا استثنينا ما كان يتمتع به رؤساء هنتاتة من نفوذ في نواحي مراكش فقد كان المغرب قبل اشتداد ضعف هذه الدولة يخضع كله لسلطة الدولة ، وحتّى الامتيازات التي كان يحظى بها أمراء هنتانة ، لم تكن لتعفيهم من أداء الجباية للدولة والاعتراف برقابتها وسلطتها ، وإنما نالوا هذه الامتيازات من بني مرين استمالة من هؤلاء لهم ، واعترافاً بجميلهم إذ حموا أبا الحسن المريني من بطش ابنه أبي عنان. وأهم عمالات الجنوب يومئذ وهي سجلماسة ودرعة كانت تحت سلطة الدولة ، ولا يمكن إخضاعها بسهولة من غير أن تنتقل الجيوش عبر الجبال ، وقد ظلت حدود المغرب في عهد المرينيين تجاور مملكة مالي جنوباً. حتّى إن الذي تكلف بحمل بعض هدايا ملوك بني مرين إلى ملوك مالي كانوا من الملثمين المجاورين لهذا القطر. فكيف يعقل أن تكون الصحراء النائية تحت سلطة الدولة والجبال خارجة عنها؟

وقد نقل المرينيون الفن الأندلسي من منبعه إلى المغرب الذي ظل حتّى اليوم يحتفظ بالطابع الأندلسي في كثير من مظاهر حياته الفنية (بناء ، موسيقَى ، إلخ ...)

وعرف بنو مرين أهمية الأساطيل البحرية فاستكثروا منها أيام عظمتهم. كما ازدهرت الحركة الفكرية في عهدهم ازدهاراً منقطع النظير بينما كانت الثقافة العربية بالشرق قد بدأت تلفظ أنفاسها على يد الأتراك والمغول. ونحن مدينون لبني مرين بكثير من روائع الفكر التي أنتجها أدباء وعلماء عاشوا في كنف هذه الدولة ، وإن مقدمة ابن خلدون لتمثل أروع مردود فكري تلقى صاحبه معظم ثقافته على يد علماء مغاربة. كما أن رحلة ابن بطوطة ستظل القبس المشع الذي ينير جوانب كانت ستظل مظلمة في تاريخ العالم الاجتماعي لولا هذه الرحلة.

ولقد كان لبني مرين أثر غير تلقائي ، في خلق المقاومة الشعبية ضد تدخل الدول الأوروبية . ولولا البطولات النادرة التي تمخضت عنها هذه المقاومة لعجز ملوك الدول المتعاقبة بعد المرينيين عن صد أو إيقاف التكالب الأجنبي المتكتل ضد المغرب . ومن المؤسف أننا نجهل الكثير عن الحالة الداخلية في المغرب خلال أكثر من نصف قرن مضى قبل سقوط الدولة . ولا توجد حتّى الساعة مصادر عربية تشفي غليل المؤرخ عن هذه الحقبة . ولا ننس مع هذا أن عهد بني مرين قد ظل يشهد سيادة الإقطاع في أوروبا بينما كان المغرب الأقصَى والأوسط ينعم بحكومة موحدة وحضارة زاهرة .



7 – السياسة الداخلية

قامت السياسة الداخلية لبني مرين بوجه عام على جملة أسس :

1 – التسامح الديني

فقد كان المسلمون واليهود والنصارى يؤدون شعائر دينهم بكل حرية ، وكان للنصارى كنائسهم ولليهود بيعهم . وطالما كان اليهود والنصارى بمعزل عن التيارات السياسية المتعاكسة ، أو قائمين بشؤونهم في ظل النظام والقانون فإن المسلمين لم يكونوا يهيجونهم بسوء ، ولا تتدخل الدولة إلا تحت ضغط الشعب ، كما حدث مراراً في قضية البلديين بفاس ، وكما حدث أيضاً مراراً في قضية تدخل الحامية النصرانية بشكل مباشر في شؤون الدولة . فقد كان المسلمون يرفعون شكواهم إلى سلطات الدولة ولا يلجأون إلى الاصطدام باليهود أو النصارى إلا عندما تقف الدولة مكتوفة الأيدي من غير تدخل . وموقف الدولة هذا يمكن أن يرجع إلى ضعف في السياسة كما يمكن أن يرجع إلى روح التسامح الديني التي سادت علاقة الدولة بجميع المتساكنين تحت سلطتها .

2 – محاولة التوفيق بين مختلف العناصر المتساكنة :

لقد كان المرينيون يستميلون مختلف العناصر المتساكنة في البلاد من عرب وبربر ومن يهود ونصارى إلى جانب المسلمين ، ولا يسلكون سياسة العنصرية أو تضريب هذه المجموعة بتلك . وقد نجحوا إلى حد ما في إخضاع العرب تارة بالقوة ، وطوراً بالسياسة عن طريق التعاون والتشاور مع شيوخهم وتعيينهم في بعض المناصب السامية . وهكذا كانت مجالسهم الاستشارية وجيوشهم المحاربة تختلط فيها العناصر وضمنها البربر والعرب والنصارى . وكان الموظفون السامون يعينون بقطع النظر عن انتمائهم إلى هذا العنصر أو ذاك .

3 – تعظيم الصوفية :

كان اتساع نفوذ الصوفية في عهد المرينيين نتيجة لظهور خطر النصارى وتدخلهم

في شؤون المغرب . كما كان نتيجة طبيعية لضعف الدولة عن تحمل مسؤولياتها تجاه هذا الخطر . وزعماء الصوفية هم الذين حملوا مشعل الثورة ضد الخطر الأجنبي ، أما الفقهاء فلم يحركوا ساكناً في بلاط الدولة ، وما كان يستطيعه فقيه كابن رشد وابن حمدين والقاضي عياض في عهد المرابطين أصبح يستطيع أكثر منه زعماء الصوفية في عهد المرينيين ألا وهو قيادة حركة الجهاد ضد النصارى على مرأى من الدولة وفي عقر دارها.

والصوفية استطاعوا أن ينالوا تقدير الشعب وتقربه إليهم لأنهم كانوا عزوفين عن المناصب وشهوات الدنيا والفقهاء على أي حال لم ينسوا حظهم من الدنيا فتقربوا إلى الملوك من حيث سخطهم الصوفية ، بل من حيث تقرب الملوك إلى الصوفية وخشوا جانبهم إذ كان الشعب يحمي ظهرهم .

4 - تنشيط الحركة العلمية :

كان تشجيع الحركة العلمية يتخذ صوراً مختلفة ، فمن بناء المدارس إلى تزويد المساجد بالخزائن العلمية ، ومن مساعدة الطلبة بالمنح والجوائز إلى عقد المجالس العلمية ومشاركة الملوك فيها كطلبة أو مناقشين . وكانوا مع ذلك لا يختارون للوظائف الدينية إلا ذوي العلم والورع كما تدل على ذلك مثلاً قائمة الخطباء التي قدمها صاحب زهرة الآس[1] .

---

(1) زهرة الآس ورقة 109 الخ ...للجزنائي .

8 - علاقات المغرب الخارجية

1 - مع باقي أقطار المغرب العربي :

من الطبيعي أن تكون الصلات الثقافية والسياسية والاقتصادية مع الحفصيين وبني عبد الواد أوثق منها بالنسبة إلى المغرب مع دول أخرى. وقد كان بنو عبد الواد دولة قوية يحسب لها المرينيون حسابها منذ البداية. والواقع أن المنافسة بين الفريقين ترجع إلى عهد قديم حتّى إن عبد المؤمن قد أخضع المرينيين بفضل مساعدة بني عبد الواد. مما جعل المرينيين يلتجئون إلى الصحراء وينتظرون أول فرصة تسنح لهم حتّى يزحفوا شرقاً وشمالاً لمجابهة بني عبد الواد والموحدين عند ضعفهم. حتّى إذا بدأ المرينيون يشكلون نواة لدولتهم كان بنو عبد الواد يساعدون الموحدين وهم في النزع الأخير من دولتهم على صد الزحف المريني. ومن أهم أسباب التوتر التي ظلت قائمة بين الجانبين، التجاء بعض الثوار من هذا الفريق إلى الآخر. وكان هدف المرينيين من بسط نفوذهم على المغرب الأوسط، وضع حد لفتنة الأعراب وتوحيد الادارة والسياسة في القطرين معاً. وفي جميع الأحوال ظلت العلاقات الاقتصادية والثقافية أقوى ما تكون بين المغرب الأقصى والأوسط. فكثير من علماء هذا القطر تنقلوا للتدريس والعمل بالقطر الآخر، وبالعكس.

أما تدخل المغرب في افريقية، فقد كان نتيجة لانضمام المغرب الأوسط والأقصى تحت حكم دولة واحدة هي الدولة المرينية، ولم يكن ثمة من مبرر للتدخل أفضل من قيام وزير الحفصيين ابن تافراكين بهذه المبادرة، وهو الذي شجع أبا الحسن على التدخل في افريقية، ومع ذلك فقد أحجم أبو الحسن عن هذا التدخل قبل حدوث أزمة ملكية نشأت بعد وفاة صهره أبي يحيَى. والواقع أن أبا الحسن قد أحسن عندما صاهر العائلة الملكية بتونس، فقد وطد بذلك العلاقات التقليدية بين المغربين الأدنَى والأقصَى، كما أتيحت الفرصة للعلماء الذين صحبهم إلى افريقية عند فتحها، حتّى يطلعوا إخوانهم الإفريقيين على ما وصلوا إليه من تقدم فكري ويتعرفوا هم بدورهم إلى علم وأفكار زملائهم بتلك الديار. وقد جدد فكرة توحيد المغرب العربي أبو عنان الذي لم يجد تضامناً يذكر، من وجوه دولته،

في سبيل تحقيق هذه الخطة . وحاول أبو فارس الحفصي بعد أن بلغت الدولة المرينية دور الضعف والانحطاط أن يحقق الفكرة نفسها كما فعل أجداده مع الملوك الأولين من بني مرين ، ولكنه اكتفَى بسيطرة رمزية بعد أن بدأ تدخله في المغرب بشكل مباشر[1] ، ومن ثم ففكرة توحيد المغرب العربي لم تكن تراود أحلام ملوك المغرب الأقصَى فقط ، بل كانت مبدأ لأكثر الدول التي حكمت في مختلف ممالك المغرب العربي .

أما عن العلاقات الثقافية مع المغربين الأوسط والأدنَى ، فقد كان كثير من طلبة العلم يتنقلون للدراسة في هذا القطر أو ذاك ، كما تنقل كثير من علماء الأقطار الثلاثة للتدريس ، فأحمد المكودي تلميذ أحمد بن المبارك اللمطي ، وعلي بن محمد الحريشي قام بجولة في الشرق ثم استقر بتونس . ومن أبرز تلامذته الشيخ محمد بيرم الثاني (من تونس)[2] والمكودي هذا هو غير المكودي النحوي الذي سيأتي ذكره .

ومن المتنقلين أحمد بن عيسَى القاضي درس عليه عالم تلمسان أبو العباس الغبريني ، وكانت وفاته سنة[3] 682هـ ، وأحمد بن مرزوق الخطيب لقي حظوة عظيمة في بلاط المرينيين وهو عالم تلمساني توفي سنة[4] 781هـ . وأبو محمد عبد الله المرجاني كان من أساتذة محمد بن الحاج الفاسي صاحب المدخل[5] ، ومحمد بن سليمان السطي من قبيلة أورية أخذ عنه ابن عرفة من علماء إفريقية والمقري وابن مرزوق من علماء تلمسان ، وقد توفي غريقا مع حاشية أبي الحسن[6] والفقيه محمد الحسني السبتي[7] المتوفى سنة 760هـ من أساتذة ابن زمرك الأندلسي وابن خلدون وغيرهما ، وابن عبد الله العبدَري صاحب الرحلة درس على عدد من علماء المغرب الأوسط والأدني كابن عبد المعطي أستاذه في الأدب[8] . وهكذا فإن سلسلة علماء وأدباء المغرب العربي الذين تنقلوا فيما بين أجزائه لتلقي العلم أو تدريسه يصعب

---

(1) أنظر بشأن بيعة عبد الحق بن أبي سعيد لأبي فارس الحفصي سنة 827 : الزركشي . أخبار الدولتين . ص 125.

(2) النيفر : جامعة القرويين ص 223.

(3) شجرة النور الزكية ص 201 لمحمد بن محمد مخلوف.

(4) المصدر السابق ص 336.

(5) ابن الحاج العبدري من سلسلة عبد الله كنون .

(6) تحفة الفضلاء ص 326 لأحمد بابا.

(7) شجرة النور الزكية ص 223.

(8) رحلة العبدري ورقة 21.

ضبطها . وقد أورد الغبريني في (عنوان الدراية) أسماء عدد كثير من علماء المغرب الأقصى الذين زاولوا التدريس في بجاية وغيرها كأبي سعيد الدكالي وأحمد بن عيسى الغماري في الفقه وابن دحية في الحديث واللغة والتاريخ ، وأبي محمد بن عبد الله الأغماتي الذي استقضي بنواحي بجاية وكان في علم العربية بارعاً على حد قول الغبريني[9] .

2 – مع الأندلس :

بدأ تدخل المرينيين في الأندلس سواء في الميدانين السياسي أو العسكري بشكل مباشر منذ عهد يعقوب حيث عقد الصلح مع المسيحيين مرتين بطلب منهم ، على أن يعقوب لم يشرع في تدخله بالأندلس قبل أن يستصرخه على النصارى بنو الأحمر أنفسهم سنة 673هـ . ولا يمكن إثبات ما إذا كان يعقوب يرغب في مجرد توسيع مملكته بهذا التدخل ، على أن أحداً من ملوك بني مرين لم يفكر في إقصاء بني الأحمر عن الحكم . ولو لم يكن لعمل يعقوب بالأندلس من نتيجة أكثر من إيقاف زحف النصاري لأمد طويل ، على الأقل ، لكان ذلك كافياً في حد ذاته من دولة كانت لا تزال في نشأتها أما أبو يعقوب ، فقد سلم إلى بني الأحمر كل الأراضي التي كانت تحت حكم والده باستثناء رندة والجزيرة وطريف ، وفي الواقع رد ملك غرناطة على هذا الجميل بأن تعاون مع القشتاليين على الاستيلاء على طريف سنة 691هـ.

ومنذ عهد يعقوب انتقل بنو إدريس بن عبد الحق إلى الأندلس ، فراراً من بطشه ، وأصبح لهم نفوذ ظاهر في تلك الديار منذ عهد يوسف ، وشجعهم على تزعم المرينيين هناك ملوك بني الأحمر ، الذين فوضوا الزعامة الرسمية إليهم ابتداء من عبد الحق بن عثمان ، وكانوا يتولونها بظهير يوقعه ابن الأحمر[10] ويصادق عليه عادة سلطان المغرب ، واشتهر منهم عثمان بن أبي العلاء الذي عينه محمد بن الأحمر على سبتة إغاظة لبني مرين ، وكان الملك الغرناطي قد استولى عليها في عهد يوسف الذي عجز عن استرجاعها . ثم إدريس بن عثمان الذي قتل خنقاً في سجن مكناس سنة 770هـ ، على أن المرينيين كان لهم دائماً ممثل حكومي في الأندلس ، ويختار عادة من الشخصيات البارزة في الدولة ، ومنذ عهد أحمد بن أبي سالم ، بدأ .

---

(9) الغبريني : عنوان الدراية ص 54 ، 131 ، 153 ، 159.

(10) نفح الطيب : ج 1 ص 427 للمقري .

سلطان غرناطة يباشر شؤون الغزاة بنفسه وبذلك سقطت وظيفة شيخ الغزاة التي كان يتولاها بنو إدريس المرينيون .

ومن البديهي أن تظل الصلات بين المغرب والأندلس في مختلف الميادين وثيقة كذي قبل ، خصوصاً في الميدان الثقافي ، وهكذا فإن مالك بن المرحل درس على عدد من علماء الأندلس من بينهم أبو علي الشلوبين كما درس ابن الخطيب على جملة من علماء المغرب كالقاضي حسن بن يوسف السبتي[11] وعبد المهيمن الحضرمي الذي استكمل هو نفسه ثقافته بالأندلس على يد علماء وأدباء كأبي جعفر ابن الزبير وأبي إسحق الغافقي ، وزاول عبد القادر بن سوار المحاربي التدريس بغرناطة سنة 757هـ ، وعين سلطان هذا البلد محتسباً مغربياً هو أبو الحسن الأنصاري السبتي 764هـ ، وبرع الأديب محمد الكرسوطي في ميدان الأدب الشعبي الذي استطابه أهل غرناطة حيث انتقل إليها من فاس ، وكان إلى ذلك ذا ثقافة عربية متينة .

3 – مع السودان :

كانت علاقة المغرب بالسودان في عهد المرينيين تتسم بطابع الود والمجاملة ، ففي عهد السلطان أبي سعيد عثمان حج ملك مالي كونكو موسَى ثم رجع من حجه سنة 725هـ (1325م) فمر بالمغرب وصحب معه الشاعر «الساحلي» الغرناطي الأصل ، وكان فناناً معمارياً مشهوراً ، وكانت مساكن بلاد مالي يومئذ عبارة عن نوايل من الطين وسقوفها من القش فبنَى له جامعاً بمحراب هرمي الشكل وكان بناؤه من الآجر المجفف بواسطة الشمس ، وكان أول بناء أثري من نوعه ، وقد ظل النموذج السوداني منتشراً حتَّى الآن[12].

ولما فتح أبو الحسن تلمسان أرسل كونكو موسَى وفداً لتهنئته يصحبه ترجمان من الملثمين المجاورين لمالي[13] وأكرم أبو الحسن وفادة السفارة المالية وأعد لسلطان مالي هدية من تحف المغرب مما كان في ملكه الخاص ، ثم بعث بدوره وفداً يحمل هذه الهدية ومن بينه مولاه عنبر الخصي وكاتب الديوان أبو طالب محمد بن ابي مدين وصحب الوفد عدد من أعراب معقل الذين كانوا يعيشون في الصحراء .

(11) المقري : نفح 7 ، 156.

(12) M. Delafosse. Hespéris, 2, 1924 والناصري ج 3 ص 152.

(13) ابن خلدون 7 ص 554.

ولما وصلت هدية أبي الحسن إلى مالي انشغل البلاط السوداني بفتنة داخلية حتَّى تولى منسا جاطة فرد على هدية المغرب بأخرى وكان ضمنها زرافة جميلة ، وقد وصلت هذه الهدية في عهد السلطان أبي سالم سنة 762 فجلس بمجلس العرض وأمر أن يحتفل سكان العاصمة بقدوم الوفد ثم نادى الناس في الخروج إلى الصحراء لمشاهدة الزرافة ، وقام عدد من الشعراء بإنشاد قصائد في مدح السلطان والتنويه بهذه المناسبة ، وكان الوفد يحثو التراب على رأسه تحية للسلطان وتقليداً لهم إذ ذاك وقاموا في ضيافة ملك المغرب مدة طويلة ثم رجعوا عن طريق مراكش والسوس إلى بلادهم [14] .

وفي أواخر عهد أبي زيان الأول التجأ الأمير عبد الحليم الثائر في سجلماسة إلى ملك مالي دياتا سنة 1366م . ولما كان المرينيون قد بدأت تضعف دولتهم يومئذ فإنهم لم يقوموا برد فعل بسبب لجوء هذا الأمير إليهم لذلك ظل حسن الجوار مستمراً بين الدولتين .

4 - مع المشرق[15]

كانت مصر محطاً للحجاج الأفارقة القادمين من الديار المقدسة وإليها ، وكان المغرب يوفد إلى البقاع المقدسة وفداً رسمياً يصحب ركب الحجاج . وفي عهد السلطان أبي يعقوب ، تشكل أول وفد رسمي في الدولة المرينية[16] ، وأمر السلطان بانتساخ مصحف رائق الصنعة — كما يقول ابن خلدون — «واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت» وبعث بهذا الوفد سنة 703هـ يصحب المصحف المذكور مع هدايا قيمة ضمنها الخيل العراب و 400 من المطايا ، وصحب الوفد قاض شهير هو محمد بن زغبوش ودليل يدعى أبا زيد الغفائري وتوجه الوفد إلى مكة لتسليم المصحف إلى شريفها لبيدة بن أبي نمي ، أما باقي الهدية فقد وجه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي رد عليها بهدية أخرى ثمينة ضمنها ثياباً وفيلاً وزرافة ، وترأس وفده الأمير التليلي الذي وصل إلى المغرب سنة 706هـ ، وكان يصحبه عدد من أمراء الترك ؛ وقد استقبل الوفد المصري

---

(14) ابن خلدون 7 ص 644.

(15) انظر بوجه خاص حول هذا الموضوع : محمد المنوني : علاقات المغرب بالمشرق في العصر المريني - عن دعوة الحق مارس — أبريل ماس 1965 ؛ ومجلة تطوان العدد 1956/1.

(16) ابن خلدون : 7 ص 468.

بالمنصورة حيث حظي بتكريم السلطان الذي لم يلبث أن توفي فتولى خلفه أبو ثابت البر بهم وأحسن صلتهم حتَّى إذا كانوا عائدين سنة 708هـ اعترضهم أعراب بني حسن ونهبوا ما كان معهم بدسيسة من أبي حمو صاحب تلمسان[17] ، وقد ظل المغرب محافظا على حسن صلاته بالمشرق رغم توقف مصر مدة طويلة عن إرسال وفودها إلى المغرب بسبب ما لحق وفد الناصر من إهانة .

على أن أفضل مرحلة مرت بها العلاقات بين المشرق والمغرب هي عهد أبي الحسن الذي تبادل مع ملوك المشرق سفارات عديدة ، وقد ذكرت بإيجاز أمر هذه السفارات في أخبار أبي الحسن ، وكانت أولها سفارة أبي الحسن سنة 736هـ التي ترأسها أبو عبد الله محمد بن الجراح ، وكان القصد منها إخبار الملك الناصر بعزم والدة أبي الحسن على الحج واطلاعه على انتصاراته وجهاده بالشمال الإفريقي والأندلس .

وفي سنة 736 توجهت والدة أبي الحسن إلى الحج[18] ، وصحبت معها هدية جليلة ، قال عنها المقريزي في السلوك : «إنه نزل يحملها من الاسطبل السلطاني (بمصر) ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ، وكان ضمنها أربعمائة فرس وسيف ذهب مرصع ولجم مسقطة بالذهب والفضة . وقدرت هذه الهدية بما يزيد على مئة ألف دينار . ومن الطريف أن ننقل بعض ما أورده المقريزي عن ضيافة ملك مصر للحرة ومن صحبها من وفد السلطان أبي الحسن ، فقد «كان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف إردب أرز وقنطار حب رمان وربع قنطار سكر وثمان فانوسيات شمع وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم ...الخ».

وتقول رسالة الناصر إلى أبي الحسن في موضوع هذا الاستقبال[19] :

«...فقد استقبلناهم على بعد بالإكرام ، وأحللناهم من القرب في أعلى مقام ، وصرفنا إلى تلقائهم وجه الإقبال والاهتمام ، وعرفنا حقهم أهل الإسلام ونشرنا لهم بفنائنا الأعلام ، ويسرنا لهم باعتنائها كل حرام ، وأمرنا بتسهيل طريقهم وتوصيل البر لفريقيهم ...».

ثم يقول بعد كلام آخر :

---

(17) ابن خلدون : 7 ص 470.

(18) النفح 6— 138— المقري .

(19) محمد المنوني : مجلة تطوان العدد 1.

...«وشوهد من تعظيمنا لهم ما يحسدهم عليه ملوك الزمان بكل مكان ، وكتبنا على أيديهم إلى أمراء الأشراف بالنهوض في حقهم والوقوف ...وكذلك كتبنا إلى أمراء المدينة المشرفة الخ ...».

وقد رجع هذا الوفد بهدية من الناصر إلى أبي الحسن ، وضمنها أقمشة من الحرير وخيمة عظيمة صنعت بالشام وتحتوي على مختلف المرافق من غرف للنوم وأبراج للإشراف على الطرقات ، وتمثال مسجد بمحرابه ومئذنته وخيمة أخرى تظلل أكثر من خمسمائة فارس[20].

وفي سنة 740 وجه أبو الحسن مصحفاً ثانياً وقفه على قراء أهل المدينة المنورة .

وقد أورد القلقشندي في آخر المجلد السابع من صبح الأعشى نصوص عدد من المراسلات التي تبودلت بين أبي الحسن والناصر بن قلاوون ، وفي شعبان 745 وجه أبو الحسن إلى الصالح بن الناصر سفارة جديدة تصحب ركب الحاج مع الأميرة مريم أخت أبي الحسن ويرافقها الكاتب أبو الفضل بن أبي مدين . وكان ضمن رسالة أبي الحسن إلى الملك الصالح تعزيته في والده الناصر وطلب تدخل الملك المصري من أجل مراقبة الأوقاف التي وقفها أبو الحسن على المصحفين اللذين حبسها على الحرمين الشريفين ، كما تعرضت الرسالة لموضوع جهاده في الأندلس واحتلال النصارى للجزيرة الخضراء . ثم يهنئ أبو الحسن زميله الشرقي بتولي الملك . ومما جاء في هذه الرسالة الطويلة قوله[21] :

«...وعند عودنا من تلك المحاولة تيسر الركب الحجازي موجهاً إلى هنالكم رواحله فأصدرنا إليكم هذا الخطاب إصدار الود الخالص واكب اللباب ، وعندنا لكم ما عند أحنى الآباء ، واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء ، وما لكم من غرض بهذه الأنحاء ، فموفّىً قصْدهُ على أكمل الأهواء ، موالىً تتميمه على أجمل الآراء ، والبلاد باتحاد الود متحدة ، والقلوب والأيدي على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة الخ ...».

وجاء في جواب الملك الصالح الذي كتب في رمضان 745 من إنشاء خليل الصفدي قوله :

(20) التعريف بابن خلدون ملحق الجزء 7 ص 1168 لابن خلدون .
(21) نفح الطيب ج 6 ص 120 ــ 129، للمقري.

«...وأما ما وصفتموه من أمراء الجزيرة الخضراء ، وما لاقاه أهلها ومني به من الكفار حزنها وسهلها فإنه شق علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان وعدد به نوب الزمان ، كل قلب بأنامل الخفقان ، وطالما فزتم بالظفر ، ورزقتم النصر على عدوكم فجرَّ ذيل الهزيمة وفرَّ ، ولكن الحروب سجال وكل زمان لدوائه دولة ، ولرجاله رجال ، ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسومة وسالت على عدوكم أباطحهم بقجينا المعوجة ، وسهامنا المقومة الخ ...[22].

وتتناول رسالة الصالح فقرات خطاب أبي الحسن بالجواب واحدة تلو الأخرى وتتخلل عباراتها عواطف الود والإخاء شأن رسالة أبي الحسن أيضا.

وفي سنة 747 وجه أبو الحسن ركباً آخر مع سفارة إلى المشرق وكان قاضي الركب هو تقي الدين عبد الله الهرغي[23] ، ووجه السلطان المغربي مع هذا الوفد مصحفاً ثالثاً إلى بيت المقدس وهو يتألف من ثلاثين جزءاً وقد كتبه بخط يده ، كما أجرى أوقافا وأرزاقاً على حفاظه والساهرين عليه. وهذا المصحف موجود حتَّى اليوم ببيت المقدس وهو في مجلدات ضخام ومكتوب بحروف كبيرة ، بيد أنه لم يتم نسخه كله بخط أبي الحسن.

وفي سنة 749 وجه أبو الحسن سفارة إلى حسن الناصر ملك مصر آنذاك يطلب منه اعتقال أبي تافراجين وزير الحفصيين وكان قد ظاهر العرب على أبي الحسن عند دخوله إلى إفريقية[24].

ولما كانت سنة 793 زار أحد أمراء معقل واسمه يوسف بن علي ملك مصر في ذلك العهد وهو الظاهر برقوق فتدخل ابن خلدون الذي كان في بلاطه ليبعث معه هدية إلى السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم[25] ، فأصحبه قماشاً وطيباً وقسيا وطلب منه أن ينتقي له خيولا عراباً من المغرب. وكعادة ملوك بني مرين ، فقد جلس أبو العباس في مجلس العرض لاستقبال هدية الظاهر وعرضها بمحضر أفراد الشعب. وبدأ يهيئ بدوره هدية أخرى ضمنها الجياد المطلوبة ليحملها يوسف بن علي المذكور إلى السلطان برقوق ، بيد أن المنية عاجلته ، فبعث الظاهر برقوق رسولا تركيا هو قطلوبُغا إلى كل من ملك تونس وتلمسان والمغرب سنة 799 وحمله إلى

(22) نفح الطيب 6 ــ 135.
(23) مجلة تطوان عدد 1 ص 139.
(24) مجلة تطوان عدد 1 ص 151 (محمد المنوني).
(25) ابن خلدون مجلد 7 ص 759 والتعريف ص 1170.

كل منهم خطاباً، واستقبله السلطان أبو عامر المريني بالحفاوة واستكمل الهدية التي كان قد أعدها أبو العباس ثم سفرها مع المبعوث التركي.

وفيما يخص العلاقات الثقافية فقد ظل التبادل العلمي قائماً بين المرينيين ودول المشرق وهكذا فإن أحمد بن عيسَى الغماري تابع دراسته بالمشرق على يد علماء أجلاء كالعز بن عبد السلام واتصل ابن بطوطة خلال رحلته إلى المشرق بعدد من شيوخه وعلمائه. كما ذاكر العبدري خلال تجواله بالمشرق أيضا كثيراً من علمائه كزين الدين المالكي والمحدث الغرافي[26]. وكان لعبد الله محمد بن الحاج صيت عظيم بمصر حيث توافد عليه طلابها لتلقي العلم عنه. كما كون مدرسة دينية مذهبها كما يقول الأستاذ كنون[27]، أن «تعنى بأعمال القلوب أشد العناية، وتعمل على تنمية الأجور بالنيات الحسنة فضلاً عن ملازمة سبيل السنة في الحركات والسكنات. وإسقاط الدعوَى بالمرة، وتحكيم الشرع في الظواهر والبواطن وعدم الاغترار بلوائح الغيوب أو الكرامات». وفي حلب شغل أبو زيد عبد الرحمن بن الجُعيد السجلماسي الشهير بابن رشد المالكي منصب قاضي القضاة والإفتاء[28] حيث توفي سنة 789هـ. كما شغل منصب الإفتاء وتدريس الفقه والحديث بمصر الشيخ يحيَى[29] بن عبد الله الرهوني 776هـ، وكان محمد بن محمد بن علي الغماري[30] تلميذ الشيخ خليل وأحد خمسة أشخاص تفرد كل منهم بفن في مصر، وهم البلقيني في الفقه والعراقي في الحديث والغماري في النحو 802هـ، والفيروزبادي في اللغة وابن الملقن في كثرة الإنتاج.

5 – مع الدول المسيحية :

كان للدول المسيحية علاقات متنوعة مع دولة بني مرين، ولم تكن الحروب التي جرت بين المرينيين ونصارى إسبانيا لتمنع من إنشاء روابط سلمية بين الجانبين، وقد عاش في المغرب كثير من النصارى من مختلف بلاد أوربا منذ عهد الموحدين على الخصوص. ثم تكاثرت جالياتهم في عهد بني مرين بمختلف نواحي المغرب فكان خطرهم بداخل البلاد أكثر من خطرهم الخارجي، ولا أدل على ذلك من

---

(26) رحلة العبدري ورقة 45.

(27) محمد بن الحاج العبدري من سلسلة الأستاذ عبد الله كنون ص 10.

(28) ابن تغري: النجوم الزاهرة 11، 313.

(29) السيوطي: حسن المحاضرة 1، 262.

(30) حسن المحاضرة: 1، 310.

ثورة الإسبان بسلا في عهد يعقوب بن عبد الحق سنة 658هـ ثم النفوذ الذي بلغه جيشهم لدى الدولة. وفي عهد هذا السلطان انعقد الصلح مرتين بين المغرب وقشتالة سنة 676 و 681 ثم انعقد للمرة الثالثة مع سانشو سنة 684 في عهد يعقوب أيضاً ومع أن الحرب استؤنفت بعد ذلك بين المرينيين ونصارى إسبانيا فلم يمنع ذلك من التعامل بين الجانبين في الميدان الاقتصادي والتجاري.

وكان لجمهوريات إيطاليا صلات تجارية واقتصادية وطيدة مع المغرب؛ وقد أهدى بعض الجنويين إلى السلطان يوسف حوالي سنة 692 هدية قيمة بينها شجرة مموهة بالذهب أهدى مثلها للمتوكل العباسي وصُنعت أطيار تصوت عليها بحركات هندسية[31].

وكان لأبي سعيد عثمان اتصالات دبلوماسية بفرناندو ملك أراغون[32]. أما أبو عنان فقد اقترح على ملك البرتغال أن يعقدا حلفاً عسكرياً ضد قشتالة وأن يجتمع أسطولها ببحر الزقاق (البحر الأبيض المتوسط) وأهدَى إليه أبو عنان كثيراً من تحف المغرب ومصنوعاته ومركباً ذهبياً أنيقاً؛ بيد أن الهدية لم تبلغ إلى صاحبها حيث هلكت بتلمسان[33].

وللمغرب علاقات قديمة مع فرنسا، وأقدم المستندات التي عثر عليها بهذا الصدد ترجع إلى القرن الثامن عشر. وقد بدأت محاولة عقد صلات تجارية لمرسيليا وغيرها من إقطاعيات فرنسا مع المغرب منذ عهد علي بن يوسف[34]. ففي سنة 1138 عقدت مرسيليا مع جمهورية جنوة معاهدة تجارية ووعد المرسيليون الجنويين أن يؤدوا لهم تعويضات لمدة عشر سنوات، عن كل الخسائر التي قد تحل بهم إذا هم تمكنوا من عقد معاهدة سلمية لصالحهم مع علي بن يوسف على أن يلتزموا من جانبهم بمنع قراصنتهم من مهاجمة السفن المغربية التي تقترب من إقليمهم.

وخلال القرن الثالث عشر كان ميناء سبتة محط أنظار مختلف جمهوريات ودول أوربا كالجنويين والبنادقة والمرسيليين والمونتبوليين، وكان المرجان وسمك الطون يجذبان الصيادين الأجانب الذين كانوا يأتون لاستيراد بضائع مختلفة من المغرب كالصوف

(31) الاستقصا: 3 ص 74.

(32) ماريانو: هسبريس 3 سنة 1960.

(33) ابن خلدون: 7 ص 633.

(34) هسبريس: 3 و4 سنة 1957 (روبير ريكار)، وعن هذا المصدر أخذت بقية المعلومات.

والخرفان والخيل والجلود والزرابي والأحزمة المزخرفة والقطن والشمع ، بينما يصدرون إلى المغرب الحرير والكتان والسلاح أحياناً والخمر والخرداوات والملف ، وكان للمرسيليين فندق خاص بهم في سبتة خلال هذا القرن.

وقد عمل يعقوب المنصور المريني على عقد حلف مع فيليب الثالث الملقب بالجسور، إذ في أيام المنصور ثار دون سانشو (سانجة) على والده الفونس العاشر الذي طلب مساعدة خصمه السابق المنصور ، وكان يومئذ بالجزيرة الخضراء ، وبالفعل ساعده المنصور على استرجاع عدة مدن كان ولده قد احتلها ، وحينئذ وجه المنصور خطاباً إلى فيليب سنة 1282م يطلب منه أن يساعد بدوره الفونس العاشر ، وذلك لصالح أبناء أخيه ورثة عرش قشتاله ، كما يذكره الخطاب بضرورة التعاون والتآزر ، وأنه ساعد الفونس العاشر من أجل الواجب رغم اختلاف دينهما لا من أجل مصالح سرية . على أن المصادر العربية القليلة ، لا تذكر شيئاً عن هذه الرسالة التي حفظ نصها العربي وعرض سنة 1946 في معرض ديبلوماسي بفرنسا . وقد كتبت سنة 681 وتقع في أربع صفحات من القطع الكبير.

وفي عهد الحسن سنة 1339 عقد المغرب معاهدة سياسية تجارية في تلمسان مع وفد ملك ميورقة وكذا مع ممثلي ملكي مونتبوليي وروسيون **Roussillon** . وينص هذا الاتفاق على وجوب عدم التعرض بسوء من الجانبين لرعايا الطرفين وللبواخر الغريقة التي يملكها أحد الفريقين ، كما سمح لرعايا ميورقة بالتجارة في المغرب ولكن منع عليهم أن يصدروا منه القمح والسلاح والخيل والجلود المملحة والمدبوغة .

وقد ضعفت العلاقات الاقتصادية مع فرنسا في النصف الثامن من القرن 14 م ثم استؤنفت في أواخره وخلال القرن الخامس عشر.

كما عثر على نص رسالة وجهها شارل السابع إلى ملوك المغرب وبجاية وتونس ووهران . وكان سلطان المغرب يومئذ عبد الحق آخر ملوك بني مرين ، ولم يضبط تاريخ هذه الرسالة الذي يرجح أنه كان سنة 1456، وهي تطلب من سلطان المغرب عقد صلات تجارية وأن يسمح للموانئ المغربية باستقبال البواخر الفرنسية ويضمن سلامة الرعايا الفرنسيين كما يضمن شارل للمغرب نفس هذه الامتيازات .

وتعتبر الرسالة المذكورة أول خطاب موجه من ملك عام لفرنسا إلى ملك مغربي بشأن عقد صلات بين بلديهما .

9 – الحياة الدينية

تطور الحركة الصوفية :

اكتست الحياة الدينية في عهد بني مرين مظاهر جديدة بسبب نشاط الحركة الصوفية من جهة ودخول العناصر اليهودية في الميدان السياسي إلى جانب الاحتكاك بالمسيحيين المتوافدين على المغرب كغزاة أو تجار من جهة أخرى.

وقد لوحظ أن الحركة الصوفية قد اتسع نطاقها على الخصوص شمالاً حيث كان لزعمائها دور في التوجيه الروحي لسكان هذه الناحية التي تسلط عليها التدخل الأجنبي.

لم تكن الحركة الصوفية في عهد بني مرين تكتسي صبغة التمرد المسلح على الدولة أو التكتل ضدها، بل كانت في الواقع ثورة سلبية على الوضع الديني والاجتماعي والسياسي الذي صار إليه الشعب والدولة، وظلت هذه الثورة مكبوتة لتنطلق في صراع مسلح ضد التدخل الأجنبي منذ أواخر أيام الدولة ثم تشتد ابتداء من عهد الوطاسيين.

ونستطيع أن نقسم رجال الحركة الصوفية في هذا العهد إلى قسمين رئيسيين، قسم انقطع لعبادة الله وتجرد عن الخوض في شؤون الدنيا، ومن أفراد هذه الطائفة رجال زهدوا لمجرد الزهد ولم يؤسسوا طريقة معينة، وأشهرهم الإمام ابن عاشر، والباقون، منهم من تزعم حركة صوفية معينة وكون لنفسه طريقة كالإمام الجزولي. ثم هناك طبعاً مريدون وأصحاب لكل من الطائفتين. أما القسم الثاني فهو الذي كون نواة لحركة الجهاد التي سيتسع مداها في عهد الوطاسيين، وقد جمع الإمام الجزولي بين مزايا الفريقين إذ أسس أشهر مدرسة صوفية بالمغرب وقاد حركة الجهاد ضد النصارى في الشمال.

أما تعظيم الشرفاء فلئن تحددت معالمه في عهد المرينيين فسيتسع مداه أيضا في عهد الوطاسيين ثم يمتد أكثر فأكثر أيام السعديين والعلويين. ولقد كان تنصيب

الشرفاء الجوطيين بفاس محاولة لإرجاع دولة الأدارسة إلى الملك بعد غيبة دامت عدة قرون . بيد أن قلب دولة وتأسيس أخرى لم يكن أمراً هيناً . فقد كان على الأدارسة الجدد أن يمهدوا لدولتهم بدعاية واسعة النطاق داخل المغرب ويعدوا الأموال اللازمة لضمان نجاح دولتهم . وفقدانهم لهذه الوسائل إلى جانب السند العسكري اللازم جعل دولتهم تموت في مهدها .

ولقد أصبح المذهب المالكي في عهد المرينيين يسيطر وحده في ميدان التشريع والعبادات مثلما كان الأمر في عهد المرابطين . ولم يفقد الفقهاء نفوذهم السياسي بالمرة في بلاط المرينيين بل كان لقليل منهم تأثير بالغ في توجيه السياسة الملكية . مثلما كان الأمر بالنسبة لابن مرزوق وقضية قتل ابن الخطيب . وقد تقرر في هذا العهد تدريس مدونة خليل بالمغرب على يد ابن إسحق المالكي 767هـ .

وينبغي أن نشير هنا إلى أن من أهم المراجع عن حركة التصوف بالمغرب في هذه الفترة كتاب «انس الفقير وعز الحقير» لابن قنفذ أبي العباس أحمد بن الحسن القُسَنْطِيني 810هـ/1407م وقد تم نشره بتحقيق الأستاذين محمد الفاسي وأدولف فور1385هـ/1965م بالرباط . ومن أهم مميزاته اعتماد المؤلف على مشاهداته الخاصة بالمغرب الذي تلقى ابن قنفذ دراسته في معاهده .

وقد خصص ابن الحاج مقارنة بين مساجد المغرب والشرق من حيث ان الأولى «مصونة مرفعة عظيمة لا ترفع فيها الأصوات ولا تدخل إلا للصلاة أو مجالس العلم» كما نوه بآداب الصلاة التي تراعى كثيراً في مساجد المغرب (انظر المدخل 1 . 101)

نشأة الزوايا

لم يعرف المغرب الزوايا قبل عهد أبي يوسف . ثم لم يكن دور هذه الزوايا في عهد المرينيين بوجه عام مثلما صار عليه في عهد الوطاسيين المتأخرين . فقد كان قصد أبي يوسف من بنائها أن يجعلها بمثابة دور لاستقبال الغرباء والوافدين من الخارج من كبار رجال الدولة وأعيانها[1] . فالغرض الأول من بنائها كان كما نرى أبعد ما يكون عن الهدف الصوفي الذي اتجهت إليه فيما بعد . والظاهر أنها أصبحت مع الأيام المكان المفضل لرجال التصوف الذين كانوا ينقطعون فيها للعبادة ، ثم

---

(1) المسند (منتخبات) ص 36 لابن مرزوق . والإتحاف الوجيز ورقة 26 لمحمد بن علي ، والذخيرة ص 100 لمؤلف مجهول .

تحولت لاستقبال المريدين والأتباع الذين ينقادون لحركة طرقية معينة وصارت لا تبنى إلا لهذا الغرض. وكان أبو عنان قد خصص للمساكين الوافدين على الزوايا طعاما يومياً ، فهيأ بذلك الجو عن غير قصد لجَعْل هذه الزوايا تستقبل المريدين وخصوصاً الفقراء فيما بعد.

وكان بالمغرب منذ عهد المرابطين- بل قبلهم- ربط كانت عبارة عن محتشدات للجهاد ونشر الإسلام بين ربوع المغرب بيد أن هذه الربط قد ضعف شأنها أيام المرينيين وبدأت تترك مكانها للزوايا التي انقطع أغلبها للجهاد الروحي. على أن أهم الزوايا التي ترجع إلى العهد المريني هي زاوية النسّاك بسلا وهي من بناء أبي عنان سنة 757 . وقد بقي من بنائها بابان موقعهما قرب ضريح (سيدي بلعباس). وترجع الطرق الصوفية بالمغرب إلى أصول محلية . حيث انتشرت بواسطة الإمام الشاذلي الذي استقى أهم أصول طريقته عن الإمام عبد السلام بن مشيش الذي تقدمت ترجمته في الجزء الأول.

حياة بعض كبار المتصوفة

1 - أبو الحسن الشاذلي[2] :

علي تقي الدين أبو الحسن الشاذلي من قبيلة غمارة التي ولد فيها سنة 593هـ. ومع أن نشأته ووفاته أيضاً كانت في عهد الموحدين (قبل سقوط دولتهم ببعض سنوات) فإن طريقته لم تنتشر في المغرب إلا في عهد متأخر من حكم بني مرين . وذكر صاحب سلوة الأنفاس أنه من ذرية عمر بن إدريس.

وكان أبو الحسن الشاذلي نحيف الجسم خفيف العارضين. طويل أصابع اليدين . فصيح اللسان والمنطق . وكان يلبس الفاخر من الثياب . ويستنكف من لبس المرقعات . ولو أنه قد ألبسه الشيخ حرازم مرقعة ليعتنق بذلك مذهب المتصوفة . وكان يركب الدَّواب . ويتخذ الخيل ويقول : «لو اتخذ أصحاب المَهَا لباساً يتميزون به . والعلماء لباساً خاصاً يفرض على الناس احترامهم . واتخذ الحكام مثل ذلك إظهاراً لهيبتهم . فلا يجوز للصوفي وهو السهل السلس . أن يتخذ لباساً لأنه ذلك العابد الزاهد الذي إذا تميز بالزي افتضح حاله وسره». والواقع أن هذه كانت نظرية عدد آخر من متصوفة المغرب كابن عباد وغيره.

---

(2) انظر كتاب (أبو الحسن الشاذلي) لعلي سالم عمار الذي استعرض ترجمته وطريقته بتفصيل . وإتحاف أهل العناية الربانية لفتح الله البناني ص 108 . وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر ابن ادريس الكتاني ج 1، 84، وشذرات ابن العماد 5، 278.

وقد تلقى الشاذلي دراسته ومعارفه في ظل دولة الموحدين بالمغرب وتونس ، ومن أشهر شيوخه بالمغرب أبو الحسن بن حرازم الذي تلقى عنه الشاذلي طريق القوم كما لبس خرقة التصوف على يديه وأخذ عن عبد السلام بن مشيش الذي أوصاه بالدعاية لحركته في تونس بعد أن يستزيد من معارفه بها . وفي تونس تلقى الشاذلي علوم الحديث والكلام والفقه وغيرها على عدة علماء كأبي سعيد الباجي وأبي محمد المهداوي شيخ صوفية تونس الذي تلقى هو نفسه عن أبي مدين وعبد السلام بن مشيش .

وقد هاجر الشاذلي إلى تونس وهو بعد حدث ثم هاجرها إلى مصر سنة 642 . وكان توجهه إلى افريقية بأمر من عبد السلام بن مشيش الذي أوصاه أن يبدأ دعوته بشاذلة من أعمال تونس . لذلك اشتهر بالشاذلي رغم أنه من غمارة . وفي تونس أقبل عليه المريدون واتخذ له داراً بمسجد البلاط ، وتردد بينها وبين زاويته بجبل زغوان طبقاً للخطة التي رسمها له أستاذه ابن مشيش . وتألب عليه بتونس جماعة من الفقهاء الذين حسدوه على ما ناله من صيت بافريقية ، وتزعم معارضته والكيد له ابن البراء قاضي الجماعة بتونس . مما اضطر إلى الهجرة إلى مصر سنة 642هـ . حيث مكث بقية أيامه تحت ظل الأيوبيين إلى أن لحق بربه سنة 656هـ . بعد أن كف بصره وصادفته المنية وهو في الطريق إلى الحج فدفن بقرية حميثرا بصحراء عيذاب بصعيد مصر بين قنا والقصير ؛ وتولى تجهيزه ودفنه أبو العباس المرسي الذي كان على رأس أصحابه، وضمنهم الشيخ بدر الدين بن جماعة الذي تولى منصب قاضي قضاة مصر، وكان يفتخر بحضور جنازة الشاذلي ويقول : «إن بركة الشيخ قد حلت بالديار المصرية منذ أقام فيها».

ومن وصايا ابن مشيش للشاذلي :

1 — الله الله والناس، تنزه لسانك عن ذكرهم، وتنزه قلبك عن التماثُل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح على الله وأداء الفرائض لله، وقد تمت ولاية الله عليك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك، وقد تم ورعك، وقل اللهم ارحمني من ذكرهم، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، وأغنني عن خيرهم، وتولني بالخصوصية ؛ إنك على كل شيء قدير.

2 — أفضل الأعمال أربعة بعد أربعة : المحبة لله ، والرضا بقضاء الله ، والزهد في الدنيا ، والتوكل على الله . وأما القيام بالأربعة الأخرى . فالقيام بفرائض الله ، والاجتناب لمحارم الله ، والصبر على مالا يعني ، والورع من كل شيء يلهي .

3 — الزم باباً واحداً تفتح لك الأبواب ، واخضع لسيد واحد تخضع لك الرقاب . قال الله : وإن من شيء إلا عندنا خزائنه . فأين تذهبون؟

وقد عرف الشاذلي التصوف بأنه تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية . وقال : للصوفي أربع صفات : التخلق بأخلاق الله وحسن المجاورة لأوامر الله ، وترك الانتصار للنفس حياء من الله وملازمة البساط بصدق الغَناء مع الله .

وتنبني طريقة الشاذلي بعد تبلورها . على عدم التجرد كلية من الدنيا ، والمزاوجة بين العمل لها وللدين . وفي ذلك قال الشاذلي : ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ولا ببقبقة الصناعة ، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية .

وقال : من أراد عز الدارين فليدخل في مذهبنا يومين . فقال له القائل : كيف لي بذلك؟ فقال : فرق الأصنام عن قلبك . وأرح من الدنيا بدنك ، ثم كن كيف شئت ، فإن الله تعالى لا يعذب العبد على مد رجليه في استصحاب التواضع للاستراحة من التعب ، وإنما يعذبه على تعب يصحبه التكبر ، وكان الشاذلي مع هذا ضريراً كما تقدم ، وقد أفرد التاج بن عطاء الله مؤلفاً حافلاً لترجمته .

2 — أبو عبد الله الجزولي :

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الجزولي[3] نسبة إلى قبيلة جزولة الشهيرة التي ينتمي إليها عدة علماء وشخصيات دينية ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ، ونسب الجزولي إلى سلالة النبي عليه السلام شأن كثير من الصوفية غيره ، وسواء أثبت هذا النسب ام لم يثبت فلقد كان الغرض منه استمالة الشعب المغربي الذي يعترف بفضل أشراف الأدارسة في نشر الإسلام ببلاده ، ولم يكن الشاذلي ولا الجزولي ولا كثير من الصوفية الأولين يهتمون بادعاء الشرف ، وإنما كان العامة يرون من البركة في شرفاء الصوفية مالا يرونه في غيرهم .

وتلقى الإمام الجزولي دراسته بفاس والمشرق ، وأخذ طريقة الشاذلي عن شيوخها بمصر . وقيل أنه توفي بجزولة ونقله أبو العباس أحمد الأعرج من مدفنه فوجده بحاله لم يتغير من جسمه شيء مع بعد العهد[4] . على أن الإمام الجزولي قد أتيح له أن

---

(3) كان الجزولي ينسب إلى جد أبيه فيقال محمد بن سليمان وهو في الحقيقة محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان .

(4) التشوف إلى رجال التصوف ص 71 للتادلي .

يأخذ مبادئ الطريقة الشاذلية بالمغرب قبل أن يستكملها بمصر . وهكذا درس عن شيوخ الصوفية بتيط قرب الجديدة . وقد دفن الإمام الجزولي بمراكش بعد أن نقل جثمانه في عهد الملك السعدي المذكور من أفوغال . وقد وضع هذا الصوفي الشهير دلائل الخيرات الذي ردد أوراده وأدعيته ملايين المريدين منذ وضعه . وقيل أن المريدين بلغوا في عهده اثني عشر ألفاً[5] . وكانت وفاته سنة 869هـ أي في نفس السنة التي سقطت فيها الدولة المرينية . وقد أنشأ الإمام الجزولي حوالي عشر زوايا في كل من سلا وتلمسان وفاس وزرهون ومكناس وأنماي وأزراق ومراكش وبورمان وماسة وأقا . أما الزاوية المركزية فقد أنشأها بأفوغال[6] . وقد تزعم هذا الصوفي قيادة الجهاد ضد النصارى في الشمال .

3 – أبو العباس أحمد بن عاشر :

أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأندلسي الجزيري . أصله من شمنية . وبها ولد ونشأ إلى أن حفظ القرآن وقرأ العلم واجتهد في العبادات ثم انقطع إلى الجزيرة الخضراء يقيم ببيت في إحدى صوامعها ويقوم بتحفيظ القرآن الكريم . وفي الجزيرة اتصل بأولياء عديدين من بينهم مسعود بن سرحان الذي وصف بأنه كان «مأخوذاً عن نفسه . مصروفاً لحبه تعالى إلى ما يجده بعد الحلول في رمسه[7]».

ثم قدم ابن عاشر إلى المغرب فنزل بفاس ثم رحل إلى مكناس . وكانت تعيش بها أخت له[8]. وعندما اشتهر أمره . أصبحت تعيش تحت كفالة أبي عنان حيث هي . ثم انتقل لسلا برباط الفتح حيث نزل على الولي الحاج عبد الله اليبوري الذي كان يسميه بالشاب الصالح . وبدأ يشتغل بتعليم الصبيان القرآن . ثم تحول إلى سلا حيث نزل بزاوية أبي زكرياء قرب الجامع الأعظم . وحينئذ بدأ يتكسب من نسخ «العمدة» في الحديث . وكان يدرسه لطلبته وينسخ منه ثلاث نسخ سنوياً ويبيع كلا منها بدينار ذهبي بعد تسْفيرها . وبذلك تمكن من جمع مال لشراء دار بإزاء باب «معلقة» حيث توافد عليه المريدون واعتزل الناس بعد ذلك فلا يظهر إلا نادراً .

---

(5) المصدر المذكور ص 73.

(6) انظر ترجمته بتطويل في الإعلام 1 ص 57 لعباس بن ابراهيم :
Auguste cour, La Dynastie marocaine de B. Waattas, p. 61

(7) تحفة الزائر ورقة 2 لابن عاشر الحافي.

(8) الإتحاف الوجيز : ص 41 وتحفة الزائر ورقة 2.

وكان يطالع كتاب الاحياء للغزالي والنصائح للمحاسبي ويوصي بقراءتهما.

وكان يهتم إلى ذلك بكتب الفقه التي كثيراً ما يأمر باستنساخها وقراءتها حتى انتشرت بين الطلبة وتعيشت جماعة بنسخها وتصحيحها. وكان مع ذلك «من أعلم الناس بالحلال والحرام. وبه نجح الفقه في هذا الباب بالمغرب»(9).

وكان يلبس اللباس الخشن إلا في صلاة الجمعة حيث يلبس جبة صوف خضراء وحزام صوف. وكان كثير التواضع لأصحابه إذ كان يخاطبهم: إنما أنا واحد منكم. ولست بشيخكم ولا معلمكم. فعليكم بكتب العلماء، ولا يقتدين أحد بي فيما لا يجد له أصلاً في كتب العلماء. ولست بقدوة ولا إمام متبع».

ولقد لخص العلامة أحمد بابا طريقة ابن عاشر في عبارة موجزة إذ قال: «..جعل إحياء علوم الدين بين عينيه واتبع ما فيه بجد واجتهاد وصدق وانقياد، وكان الحجة في ذلك الطريق»(10)

وقد أتيح لابن الخطيب أن يلتقي بابن عاشر فوجده كما قال، قاعداً بين القبور في الخلاء رث الهيئة مطرق اللحظ كثير الصمت، مفرط الانقباض والعزلة، قد ضرسه أهل الدنيا وتطارحهم. فهو شديد الاشمئزاز من قاصده(11).

ومن كراماته ما حدث به بعض أصحابه حيث قال: لما كان الشيخ برباط الفتح في زاوية الشيخ اليبوري رحمه الله، كنا نتردد لزيارته والتبرك به، فكلفني يوماً أن أسوق له «رعاية المحاسبي ... فلما كان بعد ذلك جئته فطلبته في خلوته فلم أجده، وطلبته في سائر الزاوية فلم أجده. وكان وقت الصلاة وأردت الوضوء فتحيرت أن أباشر الوضوء والكتاب عندي أو أتركه وأنصرف لشأني فأخاف عليه الضياع، ولا في الزاوية إذذاك أحد غيري، فإذا بي أسمع حساً من خلفي، فالتفت فإذا أنا بالشيخ رضي الله عنه مبادراً يقول: هات. هات! فتعجبت من أين أقبل بسرعة ولم أره، ومن أين عرف ما عندي، فلما رأى تعجبي وما أصابني من أمره، أشار لي بيده إلى ناحية الساحل من وراء الزاوية(12)

وسأله بعض أصحابه عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني، لوجود ذلك من بعضهم، فقال: المسلم الذي له هذه الدرجة، يبرئ من العاهة:

---

(9) تحفة الزائر: ورقة 3.

(10) نيل الابتهاج ص 43 ونفح الطيب 9 ص 197 — والعبارة في الأصل لابن قنفذ.

(11) نفح الطيب 9 ص 196.

(12) تحفة الزائر ورقة 6 لابن عاشر الحافي.

والنصراني لا يبرئ. ثم سأله نصراني في زي مسلم عن نفس المسألة فقال له: الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك. قال: فسقط، وأسلم بسبب ذلك[13].

وفي سنة 757 حاول أبو عنان أن يتصل بابن عاشر فوقف ببابه مراراً فلم يسمح بمقابلته ثم وجه إليه أحد أولاده مصحوباً بكتاب يطلب فيه زيارته فلم يقبل. فأجابه برسالة تتضمن حوالي أربع صفحات منها قوله:

«الحمد لله. من العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن عمرو بن محمد بن عاشر وفقه الله تعالى بمنه وكرمه، إلى أمير المؤمنين أبي عنان أيده الله تعالى بتقواه..

أما بعد فقد ورد علي كتابكم المشرف بذكر الله تعالى. وولدكم المكرم جعله الله تعالى من المتقين وأنبته نباتاً حسناً، وعلمه علماً نافعاً. ولا يجعله من المبعدين من رحمة رب العالمين، وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم، ولتعلم أني ما شككت فيكم، وقد أيقنت أنكم ما أرسلتموه إلا من أجل الله عز وجل وطلب مرضاته...

وبعد، فإني لم أكن للزيارة أهلاً ولا للغربة محلاً، وإنما سترني الكريم بفضله ولطف بي بحلمه. ولله الحمد على نعمته الظاهرة والباطنة».

ثم يورد بعد هذا نصائح لأبي عنان ويمثل بآيات وأحاديث، ومن نصائحه:

وليعلم أمير المؤمنين أنه لا يخلصه أحد من خدامه ولا من حشمه، بل يفرون منه يوم القيامة ويفر منهم. ولا عليك في هذا الأمر إلا أن تراقب الله تعالى وأنت مقبل على الله عز وجل».

وقد عبّر أبو عنان عن أسفه لعدم قبول ابن عاشر لزيارته حيث قال: هذا وليّ من أولياء الله تعالى حجبه الله عنّا.

وقد رد عليه أبو عنان بخطاب ثان كان مما جاء فيه قوله:

«...وصلني كتابكم الذي ذكرتني بموعظته، وعرفتني مصالح نفسي بنصيحته. أعرب بلسان الصدق ودعا إلى سبيل الحق وأيقظ من النوم، ونبه من الغفلة. فجزاك الله خيراً يا أيها القاصد وجه الله العظيم في سره وجهره، الواقف عند حدود الله عز وجل حتّى نهيه وأمره. لقد نصحتني وما غششتني، وندبتني لسعادتي وما

---

(13) نفح الطيب 9 ص 197 ونيل الابتهاج ص 43 لأحمد بابا.

كذبتني . فالله أسأل أنه ينوّر بصيرتي ويأخذ للخير بناصيتي ، ويسلك بي فيما قلدني سبيل أوليائه المتقين ، ويعينني على القيام بأمور عباده المسلمين الخ ...» .

ويقول أبو عنان بعد كلام طويل :

«...وأنا قد انتفعت بكتابك ، وانتفع إن شاء الله بنصيحتك ، وأجد بركة موعظتك التي أردت بها وجه الله العظيم علام الغيب . فلا تخلني بعد من اشارتك . ولا من صالح دعواتك ولا توحشنا من أنس جوارك ولا تفقدنا من صالح إيثارك ، وإن كنت قد استغنيت عنا فإني لا أستغني عن مشاورتك الصالحة . ومكاتبتك الرابحة إن شاء الله تعالى[14] ...»

وقد توفي ابن عاشر سنة 765هـ ودفن بسلا قرب شاطئها وقد بنى السلطان عبد الرحمن العلوي قبة على ضريحه وتوالى الاعتناء به بعده .

4 - أبو عبد الله محمد بن عباد[15]

أبو عبد الله محمد بن عباد ولد ونشأ برندة حيث درس القرآن على والده والعربية على خاله عبد الله الغريسي، وقراءة نافع عن أبي الحسن الرندي، كما تابع دراسته بكل من فاس وتلمسان على عدة علماء كالفشتالي قاضي الجماعة.

وكان ابن عباد حسن السمت شديد الحياء والوقار ملازماً للصمت. حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم تشاغل بالنحو والأدب والأصول حتّى برز فيها. ولقي بسلا أحمد بن عاشر وأقام معه سنين عديدة . وكان ممن يحضر السماع عند السلطان ليلة عيد المولد ، وكان يكره ذلك . ويحكي ابن عباد في بعض رسائله أنه خرج في يوم ذكرى الرسول ﷺ صائماً إلى ساحل البحر فوجد هناك الحاج أحمد بن عاشر وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه . قال ابن عباد : فأرادوا مني الأكل ، فقلت : إني صائم ، فنظر إليَّ سيدي الحاج نظرة منكرة ، وقال لي : هذا يوم فرح وسرور يستقبح فيه الصوم كالعيد ، فتأملت قوله فوجدته حقاً ، وكأنه أيقظني من النوم . وقد اشتغل ابن عباد مدة بتدريس عدة كتب كمختصر ابن الحاجب ، وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريري وفصيح ثعلب ، كما أقام خطيباً بالقرويين مدة 15 سنة ، وله شرح على حكم ابن عطاء الله . وقال عنه الشيخ القسنطيني : هو عند أهل فاس بمثابة الشافعي عند أهل مصر . ومن مخطوطات الأوقاف بالمغرب .

(14) تحفة الزائر ابتداء من ورقة 10 لابن عاشر الحافي .
(15) إفادة المرتاد بالتعريف بابن عباد من ورقة 1 إلى 5 ونفح الطيب 9 ص 196.

الشرح الذي وضعه ابن قاسم القباب الجزامي الفاس 1376/778 لبيوع الفقيه أبي يحيى التونسي 1312712م ؛ وهو من نسخ ابن عباد في مجلد صغير[16]

وكان ابن عباد يلبس الثياب الرفيعة ويستعمل الطيب ؛ ووصفه صاحب إفادة المرتاد ، بأنه كان آية في التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة . وقد شهد له بالولاية والتقدم عدد من الصوفية كسليمان اليازغي ومحمد المصمودي .

وقد دفن ابن عباد بفاس سنة 792هـ ، وبها قبره .

اليهود والنصارى :

هاجرت عناصر كثيرة من يهود الأندلس إلى المغرب في عهد المرينيين ، فقدروا فيهم نشاطهم ومقدرتهم في شؤون التجارة والاقتصاد . وخولوهم من الامتيازات ما لم يسبق لليهود أن نالوا مثله بالمغرب من قبل . وبرهن المرينيون عن تسامح ديني عظيم نحوهم ، فسمحوا لهم بفتح المتاجر والمصانع ومعايشة المسلمين ، كما سمحوا لهم بمباشرة طقوسهم الدينية ،. وأظلوهم بحمايتهم ، وكان لكبار موظفيهم مقام سام لدى ملوك الدولة ؛ حتَّى قيل إن أبا خزر بن ابراهيم بن وقاصة «بلغ في الحضرة عند أبي الربيع المنزلة التي لم يبلغها عنده أحد[17]».

وفي الوقت الذي كان بنو مرين يتخذون كبار الموظفين أحيانا من اليهود ألزم أهل الذمة في الشام أن يركبوا الحمير دون إرسال أرجلهم ، وأن يضعوا الخواتم في أعناقهم ليتميزوا عن المسلمين في الحمّامات[18].

أما النصارى الذين استفاد المرينيون من خبرتهم الحربية رغم تدخلهم المتوالي في شؤون الدولة . فقد سمح لهم الموحدون من قبل ببناء كنيسة بمراكش تحت اسم نوتردام **(Notre-Dame)** ولما كان عهد البابا إنوصان الرابع **(Innocent)** أرسل إلى ملك المغرب سنتي 1246 و 1251م رسالتين يطلب منه فيهما أن يمنح المسيحيين أماكن يجتمعون بها عند الخطر الذي يتهددهم من الأهالي (إذا أساؤوا استعمال الحقوق المخولة لهم) . ومن الملاحظ أن الملوك الموحدين بعد المأمون قد تركوا المسيحيين في خدمتهم **حتَّى إن البابا جرجير التاسع شكر الرشيد سنة 1233 م على العناية التي يبديها نحو النصارى.**

(16) دعوة الحق رمضان 1385 ، يناير 1966 تحت عنوان : نوادر المخطوطات الحبسية.
(17) مشاهير أعيان فاس قديماً ورقة 30 لمؤلف مجهول.
(18) ابن حجر، إنباء الغمر ص 109.

وفي مطلع سنة 1308م علم أبو ثابت المريني أن قائد حامية مراكش يوسف ابن محمد بن أبي عياد قد أتى قتلاً على نصارى مراكش واستولى على أموالهم ففروا إلى أغمات ، وقد تمكن أبو ثابت من قتله ، كما قتل مئات من أتباعه الذين علقت رؤوسهم على أبواب مراكش انتقاماً من قتلهم للنصارى[19].

وكلما تفاقم خطر النصارى على المسلمين بسبب تدخلهم السافر في الشؤون السياسية ، عمد هؤلاء إلى الانتقام منهم ، فيضطر القادة أو الملوك المرينيون إلى حماية الرعايا المسيحيين.

وإذا كان المرينيون قد صحبوا معهم معظم القوة النصرانية من مراكش الموحدية إلى فاس ، فقد تركوا عدداً منها بمراكش ، حتَّى إذا كانت سنة 1390م طلبت الحامية النصرانية المؤلفة من خمسين فارساً الدخول إلى إسبانيا.

وكانت الكنيسة المسيحية بمراكش توجد جنوب مسجد المنصور بالقصبة التي كان بها أيضا السجن المخصص للمسيحيين.

وكان عددهم في عهد المنصور المريني يبلغ بمراكش حوالي خمسمائة ، وقد ظلوا يؤدّون طقوسهم إلى جانب أولادهم ونسائهم حتَّى استقدمهم جان الأول ملك قشتالة.

وقد أسس في فاس البالي أول ملاح لليهود وخصص لهم المنصور المريني حامية لرد كل اعتداء محتمل عليهم[20].

وفي سنة 794 (1391م) هاجر عدد كبير من اليهود الأندلسيين إلى المغرب وكان فيهم كثير من الأحبار. وقد كان لهذا الفوج من المهاجرين تأثير على الحياة الاجتماعية في المراكز التي حلوا بها[21] . بيد أنهم في أواخر عهد هذه الدولة لاقوا اضطهاداً شديداً حتَّى قتل عدد منهم وأرغم آخرون على الإسلام. وكان ذلك من المجتمع الإسلامي كرد فعل ضد الاستبداد الذي سلكه كبار موظفي الدولة من اليهود.

---

(19) Pierre de Cenival في هِسْبريس 1، 1927 ص 81.

(20) ص 62. Manuel L. Ortega : Los Hebreos en Marruecos

(21) ص 63. Manuel L. Ortega : Los Hebreos en Marruecos

(22) القلقشندي : صبح 5، 154.

وقد كان للنصارى أيضاً منطقة خاصة لسكناهم بفاس الجديدة ، وموضعه يقابل فاس القديمة ، على بعد من ضفة النهر (نهر فاس) . وكانت هذه المنطقة تشكل مدينة حقيقية متميزة .



الحضارة في عهد بني مرين

1) **الدولة ونظامها** : رئيس الدولة – ولي العهد – الحجاب والوزراء – الكتاب – القضاة – العمال – الجيش والأسطول – النظام المالي .

2) **الحياة الإجتماعية** : السكان – اللباس – الإحتفالات والألعاب – الغناء.

3) **الحياة الاقتصادية**

4) **العمران وهندسة البناء** : نظرة عامة – المدن – المدارس – المساجد – المارستانات – الزوايا – منشآت أخرى .

5) **الحياة الفكرية** : نظرة عامة – الأدب – الفقه – علوم اللغة – التاريخ – الرحلات – الطب – العلوم الرياضية – الموسيقَى .

1 - الدولة ونظامها

رئيس الدولـة :

اكتفَى المرينيون في بداية دولتهم بلقب الأمير ثم استعاضوا عنه بلقب أمير المسلمين الذي اتخذه لأول مرة عثمان[1] بن عبد الحق كما يدل على ذلك قطعة نقد من عهده محفوظة بقسم المسكوكات بباريز. وتخْطئ رواية الذخيرة[2] إذ تذكر أن أول مَنْ اتخذه يعقوب المنصور منذ أن دخل مراكش سنة 668هـ. وكان المرينيون يدعون لبني أبي حفص قبل هذا التاريخ ، إذ لم يكن لهم سند عربي أو قرشي يحتجون به في ادعاء الخلافة ، وكان بنو أبي حفص يومئذ أقوى الدول الإسلامية. وسلك المرينيون هذه السياسة أيام نشأة دولتهم حتَّى لا يظهروا أمام الشعب المغربي بمظهر الغاصبين للملك ، وكذلك ظلوا يحافظون على علاقات التبعية التي تربطهم بالحفصيين وإلى أن تمكنوا من الاستيلاء على عاصمة الموحدين، فقطع يعقوب بن عبد الحق دعوة الحفصيين بمجرد دخولها تقريباً ، وكان كاسلافه يهادي الحفصيين ويستشيرهم[3] ويطلب إذنهم في تنفيذ خططه الحربية ضد الموحدين ، وكان الأمراء المرينيون كلما فتحوا مدينة بعثوا ببيعتها إلى الحفصيين حتَّى إن يعقوب المنصور طلب تأييد المستنصر في فتح مراكش مما بعث السرور في قلب الملك الحفصي الذي بادر لإنجاده بالخيل والسلاح ، وما كاد المنصور يفتح مراكش حتَّى عزم على قطع الدعوة للحفصيين. بيد أن أحد أعضاء وفد المستنصر إلى المنصور ، وهو محمد الكناني اضطر إلى تدخل ديبلوماسي ليحمل هذا الأخير على الدعاء للمستنصر من أعلى منابر مراكش ، وكانت تلك آخر مرة تدين فيها الدولة المرينية بالتبعية للحفصيين ، فيما عدا فترة انهيار الدولة المرينية.

وأطلق على الملوك المرينيين لقب السلطان الذي اشتهر به منذ عهد يعقوب المنصور ، وكان ذلك أول ما اشتهر هذا اللقب بالمغرب ، حيث كان اللقب الرسمي

---

(1) (La voix), Catalogue des monnais musulmanes, p. 440

(2) الذخيرة ص 134.

(3) الناصري ج 3 ص 29.

لدَى الموحدين هو لقب بالخلافة، أما المرابطون فاحتفظوا بلقب أمير المسلمين إلى نهاية دولتهم ، وأما الأدراسة فاتخذوا لقب الإمامة ، وفي أواخر عهد أبي الحسن اتخذ السلطان لقب الخليفة وأصبح يدعى بأمير المؤمنين عوض أمير المسلمين ، كما اتخذه أبو عنان أيام ثورته ضد والده[4] ، واستمر هذا اللقب الخليفي جارياً إلى آخر حكم المرينيين .

أما ضباط الجيش فلا يحمل أحدهم لقب الإمارة كما لاحظ ذلك القلقشندي (صبح 5، 203) ومعظم ملوك بني مرين كانوا يتوفرون على ثقافة تتفاوت عمقاً، ومن أبرزهم في هذا الميدان أبو الحسن وأبو عنان.

وقد اعترفت الأندلس وسائر أقطار الشمال الإفريقي بخلافة بني مرين أيام عظمتهم وبلوغ نفوذهم إلى هذه الأقطار ، وعندما استنجد الغني بالله من ملوك بني الأحمر بأبي سالم أنشد وزيره ابن الخطيب في مجلس الملك المغربي قصيدة طويلة ضمنها قوله :

خلافتك العظمَى ومن لم يدنْ بها فإيمانه لغو وعِرفانه نكر[5]

وكعادة معظم ملوك الدول ، فقد كان ملوك المرينيين إذا استلموا مهامهم سرحوا السجناء، وفرقوا الأموال على الضعفاء، وقد يلتجئ السلطان لانتهاج خطة جديدة يتعارفها أسلافه حتَّى يظهر بذلك ميزاته فإن أبا يعقوب مثلاً أول من أباح للمسلمين أن يؤدوا زكاة الفطر للفقراء مباشرة بعد أن كان يجمعها السعاة[6] ، كما أسقط يعقوب المنصور الخطبة للحفصيين ، وأسقط أبو سعيد وظيفة الرباع وهكذا ...

ولم تكن البيعة تؤخذ دائماً بفاس ، فقد كانت الظروف تقتضي أحياناً المبادرة ببيعة السلطان في مكان بعيد عن العاصمة ، فبيعة أبي عثمان مثلاً تمت بظاهر تازا ، كما تمت بيعة أبي الحسن (العامة) بظاهر فاس وبيعة أبي ثابت بالمنصورة ، وقد تتم البيعة للسلطان الجديد محلياً في ظروف الفتنة ، حيث يفرض نفسه على المدن والبوادي التي يحتلها بينما لا يزال يوجد سلطان شرعي يزاول سلطاته رمزياً على الأقل بالعاصمة .

(4) طيراس ج 2 ص 68.
(5) ابن خ . 7 ص 339.
(6) ابن خ 7 ص 436.

ويتولّى عقد البيعة عادة المزوار الذي كان يتولى في الواقع وظائف الحاجب ، وكثيراً ما يحتفظ الملك بالوزراء الذين كانوا يباشرون السلطة الوزارية أيام سلفه .

وكانت دور الطراز من الاختصاصات الملكية إذ تنتج بها الثياب الأمبراطورية المخصصة للخلع ، بالإضافة إلى الثياب المخصصة لقواد الجيش .

وكان الملوك الأولون يحتفظون بالقول الفصل فيما يهمهم من شؤون السياسة ، ثم تضاءل نفوذهم على التوالي ، حيث أصبحت كلّ السلط الحقيقية بيد الوزراء غالباً ، يعاونهم في التنفيذ الحامية المسيحية بالعاصمة ؛ وكان لليهود مع ذلك وظائف لا يستهان بها ضمن الوظائف الداخلية بالقصر الملكي ، وأحياناً في الوظائف الكبرى كالحجابة والوزارة ، وكان هناك مجلس الخاصة وأهل الشورى بالمشور حيث يعقد الملك اجتماعاته مع كبار رجال الدولة[7] .

وإذا غادر الملك عاصمته للقيام بمهمة مؤقتة ترك نائباً عنه بالعاصمة[8] ، وهكذا فقد كان أبو عنان نائباً عن أبي الحسن أيام انتقال هذا الأخير بفتح إفريقية ، وناب أبو مالك عن والده يعقوب المنصور أثناء انشغاله بحرب النصارى بالأندلس ، أما نائب السلطان بالأندلس فكان يحمل لقب والي الثغور . وفي أيام ضعف الدولة كانت السياسة الملكية يباشرها أحد الوزراء ، وأما ولاية الثغور الأندلسية فقد كان يتولاها أمير أو قائد عسكري ، وكان للسلاطين البارزين في الدولة مجلس علمي يعقدونه كلما أتيحت لهم الفرصة ، ويشترك في هذا المجلس عادة جملةٌ من الشخصيات الفكرية من مختلف أجزاء المغرب العربي والأندلس ، ومن بينهم بعض كبار الموظفين في الدولة ، وكان الآبلي والسطي[9] من جلساء أبي الحسن كما كان عبد المهيمن الحضرمي الكاتب ممن يشارك في مجلسه ، وكان ابن رضوان الأديب الأندلسي والخطيب ابن مرزوق والعلامة المقري من أعضاء مجلس أبي عنان .

وكان السلطان يقتبل زواره وهو جالس على عرش منخفض أو بساط أو حصير ، وتكون المقابلات غالباً في الصباح وتنتهي بمأدبة يشارك فيها خواص رئيس الدولة ، كما أن العشاء يشترك فيه الوزراء وكبار الموظفين ، وأورد القلشندي نقلاً عن

---

(7) محمد المنوني : بحث علمي 2ـ ص 204.

(8) انظر ما يتعلق بسفر العاهل ، في صبح الأعشى ، 5 ، 208 . للقلقشندي

(9) الأول من تلمسان ؛ والثاني من نواحي فاس .

السلايحي ما يفيد أن النظر في المظالم كان موعده المساء ، وكان القصر الملكي يحتفل بكامل الزينة والأبهة أثناء الأعياد الدينية الثلاثة ، الأضحَى ، والفطر ، والمولد النبوي ، فيقدم السلطان إلى قواد الجيش وقضاة الدولة ورجالها الدينيين وسائر أفراد الجند صلات تختلف بحسب المناسبة[10] . وقد شاع في هذا العهد تقبل الملوك المرينيين للهدايا في مناسبات مختلفة .

أما الحرس السلطاني الذي كان يساير الملك في الموكب ، فقد كانت قيادته موزعة بحسب العناصر التي يتألف منها ، فكان لكلٍّ من العرب والأندلسيين والنصارى وبني مرين قائد خاص ، وفي أغلب الأحيان كانت القيادة العامة لقائد نصراني ، وأحياناً يتولاها عربي أو زناتي[11] ، وإذا تمَّ الاستيلاء على بلد دخل إليه الملك دخولاً رسمياً بما يتبع ذلك من اصطفاف الجنود وحمل الرايات وهدير الطبول. وعند الرجوع إلى العاصمة من حملة موفقة يتم استقبال الملك من لدن أفراد الشعب الذين يصطفون حسب قبائلهم إذا كانوا من البادية وحسب المهن التي ينتمون إليها إذا كانوا من المدينة . ومن شعارات السلطان : 1) العلم المنصور وهو علم الدولة وكان أبيض . 2) رماح يحملها خمسون من المشاة كل منهم يحمل رمحين كبير وصغير . 3) طبول تدق خلف الساقة ويمنع على غيره استعمالها . 4) طبرزينات يحملها أكابر القواد من المسيحيين والأندلسيين خلفه[12] .

ولي العهد :

بدأ العمل بولاية العهد في وقت مبكر من تاريخ بني مرين ، فقد تعاقب على الحكم أبناء عبد الحق بن محيو من سنة 614هـ إلى أن تولى يعقوب ولده سنة 656هـ فرشح بدوره أبا مالك لولاية العهد .

ولم يكن لولاية العهد نظام قار ينعقد الإجماع عليه ويبقَى عرفاً لدى الدولة ؛ ومن أجل ذلك نشأ النزاع بين أدعياء العرش وأدى غالباً إلى حروب وتدخلات خارجية ، بل شاهدنا ظروفاً استبد فيها الولد بالملك دون والده (ثورة أبي علي ضد أبي سعيد ، وثورة أبي عنان ضد أبي الحسن).

---

(10) الترجمان المعرب ص 322 للزياني .
(11) ابن خ 7 ص 652 وطيراس 71.
(12) القلقشندي صبح 5، 206 وقد وصف بتفصيل كيفية خروج السلطان للسفر (ص 208). وانظر ما يتعلق بالموكب السلطاني : ابن العباس، آثار الأول، ص 58.

والواقع أن أبناء إخوة يعقوب بن عبد الحق لم يكونوا راضين عن ترشيح أبي مالك أكبر أبناء يعقوب رغم أهليته ، وبذلك انفتح باب الثورة في سبيل العرش منذ عهد يعقوب ، ووجد بنو ادريس بن عبد الحق من حماية بني الأحمر ما ساعدهم مراراً على تولي الملك .

وكما كان الشأن في بيعة ملوك بني مرين التي كانت تجري حيثما اتفق فإن ولي العهد كان كثيراً ما يتم تنصيبه بعيداً عن عاصمة المملكة ، وكانت تُعطى له سلطات واسعة وشارات معينة ، وقد يتلقى تهاني الملوك وهداياهم ، ويكون له حاشية من وزير أو أكثر ، وقد يبلغ من نفوذه أن يثبت في الديوان ، ويزيد في العطاء وينقص[13] ، وكان من حقه أن يضع العلامة (الخاتم الملكي) ويدون الدواوين ويتخذ قوة عسكرية تحت إشرافه .

وكان الوزير الذي يتخذه ولي العهد من كبار الشخصيات أحياناً كإبراهيم بن عيسَى اليرنياني الذي وزر لعمر بن أبي سعيد ، وزيان بن عمر الوطاسي الذي وزر لأبي عبد الرحمن بن أبي الحسن ، وعبد الحق بن يوسف الذي وزر لمحمد المستنصر وهو ولي العهد كما وزر له سعيد بن عبدون .

وكثيراً ما كان يولى ولي العهد قيادة الجيوش ، فقد خاض يوسف معارك طاحنة في عهد والده يعقوب[14] سواء بالمغرب أو الأندلس ، وقاد أبو عنان عدة حملات بالمغرب الأقصَى والأوسط بينما كان ولياً لعهد أبي الحسن وهكذا .

الحجاب والوزراء :

لعب الحجاب دوراً بالغ الأهمية في عهد بني مرين وخصوصاً في أيام المتأخرين منهم ، ولم يكن لفظ الحاجب شائعاً بينهم ، بل كانوا يدعونه بالمزوار ، على أن وظيف الحاجب قد اختلفت أهميته حسب الدول والعصور ، فكان وظيفاً خطيراً في عهد أمويي الأندلس مما أدى بالحجاب إلى أن يكونوا دولة في قلب دولة ، وأن يتولوا الحكم بصفة مباشرة. ولم يكن لهذا الوظيف وجود في عهد المرابطين.على أن إطلاقه العام يقصد به ما يقوم به رئيس التشريفات اليوم لدى رئيس الدولة من تنظيم مقابلات هذا الأخير وتنقلاته مع اختلاف في بعض الاختصاصات، وهكذا كان الحاجب المريني أو المزوار إلى جانب قيامه بتنظيم الاستقبالات «يرأس الجنادرة

(13) ابن خ 7 ص 506 و 539.
(14) الناصري 3 ص 58 و 51.

المتصرفين بباب السلطان، في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وانزال سطوته وحفظ المعتقلين في سجونه[15]».

وقد أطلق صاحب روضة النشرين لقب الحاجب على كل من كان يقوم بهذه المهام في عهد بني مرين كما زودنا بأسماء عدد ممن تولوا الحجابة إلى عهده كعتق مولى السلطان يعقوب وعبد الله بن أبي مدين واليهودي خليفة بن حيون وعنبر الخصي حجاب يوسف بن يعقوب، ومنديل بن محمد الكِناني حاجب عثمان، وأحمد القبائلي صاحب أحمد بن أبي سالم وغيرهم. وبين هؤلاء الحجاب من تولى الحجابة مرتين أو أكثر كعبد الله بن أبي مدين الذي تولاها ليوسف بن يعقوب وعبد الله بن أبي يعقوب وأبي الربيع؛ وأحمد القبائلي الذي تولاها لأحمد ابن أبي سالم وأبي عامر المنتصر. ومن الحجاب من يرتقي إلى رتبة وزير كخليفة بن ابراهيم بن حيون الذي تولى هذا المنصب الخطير بالرغم من يهوديته مما يدل على منتهَى التسامح الديني في هذا العهد.

وكان الحاجب مع هذا يقوم أحياناً بمهام استثنائية، كعامر بن فتح الله السدراتي الذي تولى قيادة حامية سبتة[16] سنة 728هـ، ومحمد بن عمرو حاجب أبي عنان الذي افتتح بجاية وكان قد جمع بين عدة اختصاصات كحاجب وسفير وصاحب العلامة ورئيس ديوان الجند[17].

وفي أغلب أيام بني مرين كان وظيف الوزير أرقى رتبة من الحاجب، وقد كانت للوزراء اجتماعات تُعْقَدُ بقصر السلطان وتحت إشرافه، وكانت هذه الاجتماعات سرية أحياناً، وقد يجتمع الوزير بديوانه أي برؤساء إدارته بقصره الخاص[18].

وتزودنا المراجع بأسماء كل وزراء الدولة المرينية تقريباً، ومن بينهم عائلات تولى أفرادها الوزارة على التوالي كعائلة الفودودي التي من بين وزرائها عيسَى بن ماسي وزير يعقوب؛ وإبراهيم بن عمران وزير يوسف ولده، والحسن بن عمر وزير أبي عنان وأبي بكر السعيد، وكعائلة الياباني التي من وزرائها عبد الله بن علي وولده عمر ومحمد بن أبي العباس وغيرهم.

(15) مقدمة ابن خلدون، ص 210.
(16) الناصري 3 ص 115.
(17) ابن خ جزء 7 ص 606.
(18) مشاهير أعيان فاس قديماً. ورقة 30 لمؤلف مجهول.

ويمكن القول بأن طريقة الحكم العائلي ضمن الوظيفة المخزنية ، قد بدأت تتمركز في هذا العهد بشكل ظاهر وكان القصد منها في الحقيقة ضمان الاستقرار الإداري لبعض الوظائف الرئيسية ولكنها كانت وبالاً على رؤساء الدولة أنفسهم لأن بعض هذه العائلات قد بلغ استبدادها على الملوك منتهاه ، فتلاعبت أسرة الفودودي مثلاً بمصير عدد من الملوك كأبي عنان، وأبي بكر السعيد وغيرهما من المتقدمين والمتأخرين .

وكان الوزراء متعددين في عهد أغلب ملوك بني مرين ، وكان لهم رئيس يحتل نفس اللقب ، ولكن كانت سلطاته واسعة حيث كان يجمع بين الشؤون المدنية والعسكرية في غيبة السلطان خاصة ، ولم تكن لمجالس الوزراء بقصر السلطان أوقات منظمة ، وقد كانت تتم ليلاً على العموم بعد تناول العشاء مع السلطان[١٩] .

وكان لبعض السلاطين ثقة مطلقة في وزرائهم حتّى كانوا يدخلون قصورهم ويخالطون حريمهم من غير استئذان[20] .

وكان الوزير يكلف بمهمة حربية إذا اقتضَى الحال ، فقد تولى يحيَى بن حازم وزير أبي يوسف قيادة حملة ضد المصامدة كما تولى عمر بن السعود الحشمي وزير يوسف حملة ضد الوطاسيين عند حصن تاروطا ، وقد يتولى عاملا على منطقة استراتيجية كعبد الله بن علي بن سعيد وزير أبي عنان الذي تولى منطقة بجاية وما وراءها[21] ، وعيسَى بن الحسين الذي تولى على جبل طارق أيام هذا السلطان أيضا .

وكثير من الصقالبة الموالي تمكنوا من بلوغ رتبة الوزارة في عهد هذه الدولة، فعمر ابن السعود الحشمي تولى وزيراً ليعقوب ، وفرج الخصي تولى وزيراً لعبد الله ابن يعقوب، وشعيب بن ميمون استوزره أبو فارس الخ ...

ولا يمكن أن يعزى إلى الوزراء المرينيين اختصاصات ثابتة بناء على المراجع الموجودة ، ولكن هذه الاختصاصات كانت تتغير حسب رغبة السلطان ، أو حسب قوة نفوذ الوزير ، فقد كان هناك وزراء يتكلفون مثلاً بدراسة مختلف الشكايات ، ووزير يشرف على ديوان الجند ، وآخر للشؤون المالية الخ ...ويساعدهم موظفو

---

(19) طيراس 2 ص 71.

(20) ابن مرزوق هسبريس 1، 1925م.

(21) ابن خ جزء 7 ص 615.

مختلف الدواوين أي الإدارات المركزية ، وكان مدير الاستعلامات العامة يدعى «ناظر الأخبار». وهو تحت إشراف السلطان الذي يتلقّى بواسطته أخبار النواحي والأقطار البعيدة[22] ، فضلاً عن هيئة المفتشين الذين كانوا على الخصوص أيام أبي الحسن يتفقدون أحوال الشعب بصفة دورية .

الكـتـاب :

لم يزل للكتاب في العهد المريني من المكانة قدر ما كان لهم في عهد الموحدين والمرابطين ، على أنهم كثروا في عهد المرينيين تبعاً لاتساع فروع الإدارة وحاجات الدولة ، وكان لهم رئيس يتولى تنظيم شؤون أعمالهم ويوجههم أسلوباً وإدارة[23] .

وكانت الدواوين الرئيسية هي : ــ1) ديوان الجند والعساكر . 2) ديوان الرسائل . 3) ديوان الخراج . وكان يتولى الدواوين الملكية في الغالب شخصيات أدبية ، كأبي زيد عبد الرحمن الفاسي ، وعبد المهيمن الحضرمي ، وأبي الحسن القبائلي ، وكثيرا ما يجمع الكاتب إلى الأدب صفة المحدث أو الفقيه كإبراهيم النميري كاتب أبي الحسن .

وقد شذ بعض المرينيين كأبي الحسن عن استكتاب أهل الذمة صوناً لأسرار الدولة[24] . وامتازت الكتابة في هذا العهد بطولها وتهويلها شأن الدول الإسلامية الأخرى التي أخذت بحظ وفير من الحضارة ، ومن الأساليب التي التزمها كتاب هذا العهد أن مخاطبة المكتوب إليه والمكتوب عنه قد تكون بميم الجمع أو نونه وذكر اسم المكتوب إليه في ثنايا الكتاب[25] ويستوي في ذلك أهل الأندلس وأقطار المغرب .

وكثيراً ما يكون هذا الوظيف سلماً إلى الوزارة كما كان الشأن أيام الموحدين بل إن الكتابة كثيراً ما اختصّت بها عائلة ابن أبي مدين التي تولى منها في هذا الوظيف عبد الله بن أبي مدين ليعقوب المنصور ، وليوسف ، وأبي ثابت ، كما تولاها الحاج محمد بن أبي مدين وأخواه القائم والقصري في عهد أبي سعيد ، ومحمد بن عبد الله ومحمد بن الحاج وابن أبي القاسم في عهد ابي الحسن[26] الخ ...

---

(22) محمد المنوني (البحث العلمي 2 ، 208) .
(23) ابن خ ص 884 .
(24) المسند لابن مرزوق .
(25) القلقشندي : صبح الأعشى 7 ، 30 .
(26) روضة النسرين من ص 18 وانظر عن كتاب الدولة : ابن مرزوق : مسند ص 248..

وأغلبية الكتاب عرب ، وقليل منهم بربر كيحيى التسولي في عهد أحمد بن أبي سالم . وكان فيهم كثير من الأندلسيين كأبي القاسم البرجي (نسبة إلى البرجة قرب المرية) وكان كاتب السر لأبي عنان .

وكانت أرفع رتب الكتابة لدى السلطان هي رتبة كاتب العلامة ، والعلامة كما شرحها ابن خلدون في التعريف[27] «توضع عن السلطان أسفل المراسيم والمخاطبات ، وبعضها يضعه السلطان بخطه » ، وممن تولاها محمد بن أبي عمرو في عهد أبي عنان وأبو الفضل عبد الله بن مدين أيام أبي الحسن ، وعلي بن محمد بن سُعود في عهد أبي سالم . وأبرزهم بدون ريب عبد المهيمن الحضرمي الذي تولى العلامة لأبي الحسن . وقد فصَّلَ ابن خلدون ترجمته في التعريف . وأصله من سبتة وكان والده محمد قاضياً بها ؛ ثم تابع عبد المهيمن دراسته بغرناطة ، وكتب لعدة شخصيات كالوزير ابن الحكيم بغرناطة والسلطان أبي سعيد ، ومنذ عهده أصبح رئيسا للكتاب وكاتباً للعلامة ، ووصفه ابن خلدون بقوله «إمام المحدثين النحاة[28] بالمغرب». وهو من أساتذته ، وكانت العلامة توضع بخط غليظ ، ومنذ أيام يوسف بن يعقوب اختص بها كاتب واحد بعد أن كانت توكل إلى عدة كتاب . ومن الوظائف المشابهة لكتابة العلامة كما يذكر ذلك الباحث محمد المنوني (البحث العلمي ع 2) ، وظيفة كاتب الإنشاء والصكوك وكاتب التوقيع على الرقاع المرفوعة إلى السلطان .

ويضع أديب معاصر شروط الكاتب المثالي الذي ينبغي في نظره أن يكون على قدر من العلم والبلاغة والمعرفة بالامثال والتاريخ والتفسير والحجج العقلية والنقلية والأمور السياسية والقواعد الملكية ، كما يعرف مقادير الناس ومكانتهم من الدولة[29] .

القضاة :

أسس أبو الحسن بكل من سبتة وتلمسان مجلساً للمظالم يترأسه بنفسه أو ينيب عنه شخصية يثق بها من الوزراء أو الفقهاء وكانت هذه المؤسسة تدعى بقبة العدل[30] ، ولها نظيرة بفاس وتسمى مجلس الفصل الذي كانت بنايته بالقصر الملكي بفاس الجديد .

---

(27) التعريف ملحق ج 7 – ص 815 – لابن خلدون .

(28) التعريف 813.

(29) ابن العباس ، آثار الأول ، و 390

(30) محمد المنوني بحث علمي 2 ، ص 204.

وكان أكثر القضاة من البربر وخصوصاً من مغيلة وبني يزناسن ، ومن الأولين أبو الحسن المغيلي وأبو غالب ومحمد ، ومن الآخرين إبراهيم اليزناسي وعبد الرحيم . كما نجد أفراداً كثيرين من عائلة البرجي الأندلسية ومن مليلية .

وكان للقضاة رئيس أكبر يدعى قاضي القضاة[31] . وكان بمثابة الرئيس الأعلَى للقضاة اليوم ، يرجع إليه في الأحكام العليا ، وقد تمسك الناس في عهد بني مرين بعمل أهل قرطبة ، حتَّى ثارت حفيظة قاضي القضاة يومئذ وهو أبو يحيَى التلمساني المقري ، فحاول أن يدعو الفقهاء إلى الاجتهاد .[32]

ولكن حب التقليد كان قد تمكن منهم بعد قرون في الأخذ بالفروع وترك الأصول «ورأوا أنه لا معدل عما عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطي ...[33] .»

وكان للجيش قاض خاص يتنقل بتنقله[34] ، وممن تولى هذا المنصب (منصب قاضي العساكر) محمد بن عبد النور في عهد أبي الحسن ، وإبراهيم بن أبي يحيَى في عهد أبي الحسن أيضاً ، وأبو القاسم البرجي في أيام أبي عنان .

ومن مناصب القضاء منصب قاضي الجماعة[35] ، وهو يكون عادة في العاصمة أو في إحدى المدن الكبرى ، ومنصب نائب القاضي بالمدن الكبرى[36] ، وكانت تجري حركة تنقل في سلك القضاء كلما دعت الضرورة إلى ذلك وخصوصاً بين قضاة الأندلس الذين كثيراً ما كانوا ينتقلون إلى المغرب[37] .

أما العدول فكانوا على ثقافة طيبة ومران واسع في تحبير العقود القانونية[38] ، وكان لهم كاليوم ، دكاكين خاصة تدعى سماط العدول . وقد عهد بكثير من مناصب القضاء والحسبة إلى أندلسيين لا لعَدم نظرائهم بالمغرب ، ولكن لعدم التميز في المعاملة بين أهل الأندلس والمغرب وقد كان المذهب واحداً وطرائق الحياة لا

(31) مقري : نفح 2 ، 93.
(32) عالج ترجمته أحمد بابا في نيل الابتهاج ، ص 250.
(33) نفح 2 ، ص 94 المقري .
(34) صلة الصلة 219 لابن الزبير ، والتعريف ، ص 834 و 859 و 1059 لابن خلدون .
(35) ذخيرة 50 والتعريف 1059.
(36) صلة الصلة ص 222.
(37) صلة الصلة 138 و ذخيرة 66.
(38) الإعلام 1 ص 354 و 350 لعباس بن إبراهيم.

تكاد تختلف ، وكانت خطة صاحب الصلاة ترجع إلى القاضي ومهمة صاحبها حمل الناس على الصلاة ومعاقبة المتخلفين عنها وقد يستقل صاحبها عن القاضي كما في أيام أبي عنان[39].

وكانت كلمَة القضاء محترمة ، ولا يتدخل الحاكم الإداري في شؤون القضاء ، فإن فعل كان ذلك استطالة على سلطة الأول لا يقبلها قاض ، حتَّى إن يوسف بن حكم قدم استقالته من قضاء فاس بسبب تعدي واليها على اختصاصاته ، بل إن حادثة إهانة أحد القضاة تسببت في انقلاب حقيقي ، وتفصيل ذلك أن أبا الحسن الصغير قاضي فاس أيام أبي الربيع كان متشددا في تغيير المنكر ، واتفق أن وفداً لابن الأحمر إلى سلطان المغرب كان ضمنه رسول ثَملٌ فاعتقله أعوان القاضي المذكور فنفذ فيه حكم الإعدام ، فغضب لذلك الوزير رحو الوطاسي وحاول أن يقبض على القاضي الذي سرعان ما اعتصم بالمسجد وناصره العامة ، بينما أعدم السلطان أعوان الوزير الذين حاولوا اعتقال القاضي ، وثار الوزير بمساعدة عناصر من الجيش وبايع لحينه عبد الحق بن عثمان ، غير أن أبا الربيع سرعان ما أعاد الهدوء إلى نصابه بعد أن كاد الوزير يطيح برأسه .

فهذه الحادثة تدل بحق على مكانة القضاة في نفوس سلاطين الدولة . وبالرغم من هذه المكانة ، فلم يخلُ سلك القضاة من بعض العناصر التي تشوه سمعته ولكنها قليلة على كلّ حال . ومن ذلك أن القاضي محمد بن علي بن عبد الرزاق الذي كان في عهد أبي الحسن وأبي عنان ، بفاس ، اتهم بأخذ الرشوة[40] في أحكام القضاء .

وقد أصبح للمحتسب ورئيس الشرطة في عهد بني مرين نوع من الاستقلال كما أورد ذلك ابن خلدون في مقدمته وأحياناً كان القاضي يبسط عليهما سلطته «فلا يقطعان أمراً دونه[41] ». وقد يتولى الإشراف العام على شؤون الحسبة بالمغرب موظف مركزي ، وكان ممن تولى هذه المهمة ، الشاعر أبو فارس عبد العزيز الملزوزي[42] . وكانت خطة الفتيا من أرفع مناصب القضاء ، ويزداد صاحبها رقياً إذا جمع بينها ومنصب القضاء[43].

---

(39) محمد المنوني — البحث «العلمي» ص 2 ، 211.
(40) مشاهير أعيان فاس 1394 ص ورقة 28 لمؤلف مجهول .
(41) جذوة الاقتباس . مخطوط ك ص 589 لابن القاضي.
(42) محمد المنوني : البحث العلمي 2 ص 207.
(43) جذوة 692.

كما كانت خطة المظالم التي تختلف عن منصب قاضي القضاة من حيث إن الأولى خطة دينية والأخيرة دينية إدارية يُتاح لصاحبها أن يسهم في اقتراح تعيين وعزل بعض القضاة ، وممن تولى خطة المظالم ابن خلدون المؤرخ في عهد أبي سالم[44] .

ومن أبرز قضاة الدولة علي بن عبد الحق الزرويلي المعروف بأبي الحسن الصغير الذي أورد صاحب الجذوة ترجمته ووصفه بالفقيه المالكي الحافظ المحصل . وفي عهد أبي يعقوب تولى قضاء تازا ، ثم ولي بعده قضاء فاس ، وكان مع ذلك يشتغل بالتدريس ، وقد وصفه صاحب الجذوة بأنه أحد الأقطاب الذين تدور عليهم الفتيا بالمغرب ؛ وكان صارماً في أحكامه بدليل الحادثة التي تقدم ذكرها والتي كادت تؤدي إلى قلب عرش مَلك . وقد ترجم له الزركلي في الأعلام (5 ـ 165) .

ومن كبار المفتين وذوي المشاركة العلمية الواسعة : محمد بن أحمد بن علي الذي ينتهي نسبه إلى إدريس الأول . قال عنه أحمد بابا إنه كان قائما على الأصول والفروع عالما باستنباط الأحكام متورعاً في الفتوى . وكان مع هذا عالما بالحساب والفرائض والتنجيم والهندسة والموسيقَى والفلاحة والتشريح ، لكنه قليل التأليف . وكان يتلقَّى استفسارات الفقهاء من خارج المملكة[45]

ومن الشخصيات التي تولت القضاء في عهد بني مرين الرحالة المشهور ابن بطوطة الذي ولي قضاء تامسنا بعد الرجوع نهائياً من رحلاته ، ولكننا نجهل كل شيئ تقريباً عن هذه الفترة من حياته .

وكثيراً ما كان يتولى قضاء المالكية بالمشرق قضاة مغاربة أو من أصل مغربي كإبراهيم بن محمد التادلي 803هـ بدمشق ، وقد وصفه السخاوي بالجرأة والمهابة ، وعيسَى بن مخلوف المغيلي 746هـ بمصر[46] ، وبرهان الدين ابراهيم بن عبد الله الصنهاجي بدمشق[47] ، وذلك مما يدل على حسن سمعة القضاة والفقهاء المغاربة في هذا العهد ، كما أن المعلومات الواردة في المراجع عن نظام الشرطة قليلة جداً ، وقد

---

(44) التعريف 874 لابن خلدون .
(45) أحمد بابا ، نيل الابتهاج ، ص 257 ـ 264.
(46) السخاوي : الضوء اللامع 1 ـ 155 و 262.
(47) ابن حجر ، أنباء الغمر ص 252

أفادنا بعض المؤرخين بوجود شرطة خاصة بالضواحي يستقر صاحبها بالمدينة[48]، وكان المزوار بمثابة مدير الأمن العام اليوم.

العمـــال :

بدأت لامركزية الحكم تتجلّى بشكل واضح في بعض المناطق خصوصاً في الجنوب حيث ظلت إمارة هنتاته تتمتع باستقلال ذاتي على حساب الإدارة المركزية، كما كان أثر العمال سيئاً في نهاية الدولة حيث كان من عوامل خرابها كما حصل بالنسبة للموحدين، وكانت العمالات الكبرى يباشر إدارتها أمراء مرينيون أو عرب وأحياناً عناصر أخرى مساعدة على التوازن الاجتماعي وضماناً للاستقرار، بيد أن الاستقلال الذي تمتعت به الإمارات كهنتاته كان من شأنه إضعاف الدولة إلى حدٍّ خطير.

وفي الغالب كان نفوذ العامل يشمل مناطق واسعة مما لم يكن يساعده على تدبيرها مباشرة وعلى تنفيذ التعليمات بسرعة ودقة سيما وقد كانت وسائل المواصلات بدائية. وقد ترك لنا صاحب الذخيرة تقسيماً مفصلاً لعمالات المغرب في عهد يعقوب المنصور، يمكن أن يعطي نظرة مبدئية عن باقي التقسيمات بعده.[49]. وكانت الأندلس كلها تعتبر في عهده عماله بالإضافة إلى عمالات : 1) مراكش التي كانت تشمل كذلك منطقة السوس. 2) عمالة سلا وأحوازها. 3) مكناس وأحوازها. 4) فاس. 5) تازا وأحوازها. 6) سجلماسة. 7) درعة. وفي الغالب كانت دكالة تشكل بدورها عمالة خاصة.

وكان العامل يطوق بأعمال إدارية محضة، وطوراً يضاف إليه الإشراف العسكري[50] إذا كان مؤهلاً لذلك عن طريق خؤولة أو ولاء أو اقتدار[51].

ومن المؤكد أنه لم يكن هناك تحديد لمدلول لفظ «عامل» فإن السلطان يعقوب عين على الجزيرة الخضراء عاملاً هو ولده أبو زيان سنة 676هـ كما كان هناك عامل خاص بجبل طارق، وأحياناً تصير الأندلس أو ما تبقى منها يشكل بمجموعه عمالة. وكثيراً ما تولى أبناء الملوك عمالات مهمة، وذلك إما تدريباً لهم على شؤون الإدارة أو دفعاً لشر محتمل منهم.

---

(48) استقصا 164/3 الناصري.
(49) ذخيرة 95. وانظر أيضا قلقشندي، صبح 5، 168.
(50) ناصري 3 ص 27.
(51) ابن خ 7، 400.

والشيء الذي لا يمكن أن يتهم به المرينيون هو التعصب العنصري فقد كانوا أبعد ما يكونون عنه ، فقد اشترك في شؤون الحكم والإدارة عناصر من أوربة[52] وزناتة وبني وطاس الذين يُظن أنهم صنهاجيون ، وغير هؤلاء من العناصر.

وكان السلطان يلتجئ إلى تعيين أحد أولاده أو فرد من الأسرة المالكة كلما حدثت ثورة يتعين قمعها بشدة وعلى الفور ، وكان هذا يحصل في بداية الدولة على الخصوص[53] وكان تعيين الأمراء على رأس عمالات مهمة ، ولكن كثيراً ما يأتي بعكس النتائج المرجوة : ومثال ذلك أن الأمير أبا علي ولاه أبوه السلطان أبو سعيد عمالة سجلماسة فاستبد فيها بالأمر واستولى على عمالة السوس التي قتل عاملها عبد الرحمن بن الحسن بن يدَّر، ثم استولى على اقليم درعة وبطش بعامل مراكش ، وكادت ثورته تكون وخيمة على الدولة لولا أن بادر والده إلى حربه حتَّى تمكن من سحق جيوشه ، ومع ذلك لم يقتله بل تركه حيّاً ليثير مصاعب جديدة لخلفه.

ولم يكن الملوك الدهاة ليتخلفوا عن استمالة بعض العناصر التي تنضم إليهم من خصومهم، وذلك بواسطة تعيينهم في مناصب هامة كمنصب عامل مثلا : فقد عين أبو الحسن على درعة عبد الله الزردالي من أحلاف بني عبد الواد ، وأعيد إلى منصبه هذا مرة أخرى في عهد أبي عنان . وقد كانت ولاية درعة من أخطر الأقاليم شأناً ، إذ كانت معسكراً لمراقبة كلّ من المصامدة وبعض القبائل العربية ، لذلك كثيراً ما كانت الهجمات توجه إليها قبل الزحف على مراكش من لدن العناصر الثائرة .

أما المغرب الأوسط فكان يشكل إمارة يتمتع صاحبها بشيء من الاستقلال عن السلطة المركزية ، كما حدث في عهد أبي الحسن الذي عهد بها إلى ابنه أبي عنان ، وكان عمال الإمارة يخضعون مباشرة لسلطة الأمير[54] ، وكانت الأندلس أو الأجزاء التابعة منها للدولة يتولاها عامل عام يستقر في الغالب بجبل طارق أو الجزيرة الخضراء .

وكان إقليم مراكش من أكثر الأقاليم مصاعب ومحناً ، إذ حاول الهنتاتيون المستقلون به عدة سنوات أن يثيروا أمراء الأسرة بعضهم على بعض ، طمعاً في أن

---

(52) ابن خ ص 438 ج 7 وناصري 3 ص 69 و 72 . وراجع عن سلطة العامل وظهير توليته : صبح 11 ، 9
(54) ناصري 3 ص 184 وابن خ 7 ص 618 .

يربحوا من وراء ذلك سحق الدولة وإعادة دولة الموحدين من جديد ، مما جعل السلطان عبد العزيز يتدخل مباشرة لمنازلة جبل هنتاته والقضاء على أميرهم عامر بن محمد .

وظلت الشؤون البلدية المتعلقة بالأملاك المخزنية والمباني العمومية خاصة تحت إشراف المشرِف ، وخارجة عن نطاق العامل كما كان الأمر في عهد الموحدين .[55] .

وعلى العموم فقد كان الموظفون الأساسيون في كل عمالة هم : ـ1) صاحب القصبة أو المشرف ويجمع بين الإشراف على سلطة الضواحي والشؤون البلدية . 2) العامل أو الوالي ومهمته عسكرية مالية حيث أنه يجبي الضرائب . 3) القاضي . 4) صاحب الشرطة ويقوم في آن واحد بمهمة المدعي العمومي ومنفذ العقوبات . 5) المحتسب وهو تحت إشراف القاضي . وكان صاحب القصبة هو أداة الاتصال بين الوالي والسلطة المركزية . (محمد المنوني ـ البحث العلمي 2 ـ 212).

الجيـش والأسطول :

كان الجيش المريني يشتمل على عناصر مختلفة من زناتة وعرب وأندلسيين وصقالبة وغز وعبيد[56] وكان الزناتيون يتوفرون على أجود الفرسان ، كما كانوا يتشكلون من مختلف الفروع كبني مرين ومغراوة ويفرن ومكناسة ومختلف فروع زناتة في المغرب الأوسط كبني راشد وبني توجين وزواوة . بيد أن هذه الفروع كانت تحارب تحت التأثير القبلي الضيق أكثر مما كانت تحارب بدافع وحدة الأصل[57] ، وكان لبني مرين ثلاث فئات من الحرس إحداها من المسيحيين والثانية من الأكراد (الغز) ، والثالثة تشكل نواة للحرس الأسود . وكانت تلازم العاصمة ولا تخرج إلاّ في رفقة الملك. أما العرب فقد اشتركت منهم مختلف عناصر بني هلال القادمة إلى المغرب الأقصى والأوسط ، وهكذا حارب إلى جانب المرينيين كلّ قبائل الخلط وبني جابر وبني زغبة وبني سفيان وسويد وبني سليم وبني عامر وبعض بني رياح ، كما اشترك بعض قبائل بني معقل في الحروب ضمن الجيوش المرينية .

وكانت العناصر المكونة للفيف الأجنبي تتركب من غُزٍّ ومسيحيين ، وعدد جنود

---

(55) ذخيرة 82 ـ مؤلف مجهول .

(56) ذخيرة 97.

(57) Terrasse, 2 , 71

هذا اللفيف يناهز العشرة آلاف بينهم حوالي 1500 فارس من الأغزاز (الأكراد) و 500 قواس و 4000 من المسيحيين ، وإلى جانب هؤلاء نواة للحرس الأسود .

وكان الجيش إذا خرج للقتال احتفل لذلك بمحضر السلطان احتفالاً ضخماً ؛ فتصحبه الجمال والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المرينة[58] . وكانت العادة تجري بأن تصحب كتائب الجيش مجموعة من الفتيات والنساء يجلسن داخل هوادج حتَّى يحمسن الرجال ويثرن غيرتهم[59] على الحريم فيضطرون إلى التضحية فداء لهن .

وكان قائد الجيش يأمر جيشه بإظهار الانهزام أمام عدوه حتَّى يتبعه فيبعده عن الصريخ ، ثم يكر عليه حتَّى لا يجد مفراً . ولم يشذ المرينيون عن اتباع القاعدة التي سلكها قبلهم المرابطون والموحدون إثر الانتصار في المعركة ، حيث تُجمع رؤوس الأعداء كتلة واحدة بعضها فوق بعض ثم يُقام عليها الأذان ويصلي المسلمون عن كثب منها ، وتقضي واجبات الجهاد بتخصيص سهم واحد للراجل عند تقسيم الغنائم ، وسهمين للفارس بعد استخراج الخمس لبيت المال . ويحدثنا صاحب الذخيرة أن المعركة التي قُتل فيها ذو نونة ، حصل فيها المسلمون على مائة ألف رأس من البقر وسبعة وعشرين ألفاً «وأما الغنم فلا تحصى[60] » ، وبالرغم مما يبدو من هذا التعداد من مبالغة ، فإن الجيوش المسيحية كانت تسير إلى القتال محملة بمؤن وافرة .

وتقضي العادة بأن يجمع الملك وزراءه ورؤساء القبائل والشخصيات البارزة في حاشيته ليستشيرهم في تدبير الخطط الحربية قبل الشروع في القتال ، كما يتم تنظيم الجيش وإعداده للقتال لآخر مرة قبل الشروع فيه .

وتقدم بعض العطايا للجيش قبل القتال تشجيعاً له[61] . وكثيراً ما يصحب الملك معه مجموعة من العلماء والأدباء أثناء تنقلاته الحربية كما اشتهر عن أبي الحسن الذي صحب إلى افريقية نحو أربعمائة عالم وأديب غرق أغلبهم .

كما يتم عرض الجنود عند القتال ويتم استعراضهم عند الانتصار والدخول رسمياً إلى بلد تمّ فتحه[62] . وكان هناك مجلس رسمي للعرض يعقد يومي الاثنين والخميس

---

(58) ذخيرة 146.

(59) ذخيرة 131 و 146.

(60) ذخيرة 174.

(61) ابن خلدون 7 ص 543.

(62) ابن خ ص 533 و561 و ناصري 3، 201.

ويخصص كذلك للمظالم ، واستقبال السفراء ، وموقعه ببرج الذهب ، ببستان المسرة خارج فاس الجديدة[63].

أما فن الحصار فلم يكن يجهله بنو مرين ، حيث كانوا يحشدون له الفنيين والعمال ويضيقون به على خصومهم مدة طويلة حتَّى يضطروا في الغالب إلى الاستسلام ، فقد حاصر أبو يعقوب تلمسان مدة سبع سنوات حتَّى اختط بقربها مدينة سماها المنصورة ، وأحاط البلد المحاصر بخندق وسور جديد ونصب المجانيق والآلات واستكثر من الأبراج لعله يتمكن من فتح تلمسان ، كما حاصر أبو يوسف طنجة مدة ثلاثة أشهر حتَّى فتحها .

وكان الحصار يقتضي قطع الميرة عن الخصوم إضعافاً لهم ، ومتَى تمَّ دخول البلد عنوة قتل زعماؤه واستبيحت أعراض نسائه ، وهذا ما لم تكن تشذ عنه دولة في الغالب .

ومن أهم المراكز التي اعتنَى المرينيون بتحصينها جبل طارق الذي يحكي المقري أن أبا الحسن «أنفق عليه أحمال المال في بنائه وحصنه وسوره» كما تمكن من تحصين سفح الجبل بسور دائر بالرغم من النفقات الباهظة التي تكلفها بناؤه ، ثم تابع العناية بهذا المركز الاستراتيجي ولده أبو عنان .

واستعمل المرينيون نفس الأسلحة والآلات الحربية المعروفة قبلهم وهكذا استخدموا المنجنيقات والسيوف والنبال كما استخدموا الرعادات ، واستخدموا في موسيقاهم العسكرية الأبواق والطبول والطنابير ، وكان قتالهم عنيفاً ، ويحكي بعض المؤرخين أن عشرة آلاف فارس منهم اشتركت في معركة «ريوسالادو» حتَّى ابتلت الدروع بالدماء ، وكانوا يتصايحون أثناء القتال ، ويستعملون سيوفهم بكل قوة[64].

وإلى هذا العهد يُعزى اختراع البارود على يد أحد الأطباء سنة 768هـ حيث كان يقوم بتجربة كيماوية هدته إلى اختراعه كما جاء في نزهة الحادي (ص 163) نقلاً عن أبي زيد عبد الرحمن الفاسي ، على أن استعمال البارود ظهر في بلاد أخرى قبل هذا العهد .

أما في الأندلس فقد لعب بنو عبد الحق بن عثمان كما سبق ذكره في موضوع

(63) ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم ـ نشره عبد القادر زمامة ، بحث علمي عدد 6 ، 5 سنة 1965م.

(64) Robert Ricard - Hespéris, 1 et 2

علاقات المغرب بالأندلس دوراً حربياً جديراً بالتنويه ، حتَّى غلبت الصبغة الشعبية على المقاومة ضد المسيحيين ، وتذكر المصادر أن أحد رجال هذه الأسرة وهو عثمان ابن أبي العلاء قاد أو شارك في أكثر من سبعمائة غزوة ؛ وظل يجاهد حتَّى مات عن ثمان وثمانين سنة ، وقد عهد برياسة الغزاة إلى أفراد الأسرة المذكورة باتفاق مع ملوك بني مرين منذ عهد يعقوب المنصور واستمرت فيهم إلى عهد أحمد بن أبي سالم حيث ساءت علاقة بني الأحمر مع الغرب بسببهم ، واعتقل آخر مشايخهم عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بالأندلس ؛ ثم أطلق سراحه ، ولم يعد بنو الأحمر إلى تكليف أحدهم بالمشيخة منذ 770هـ بعد أن قضوا فيها أزيد من قرن ، وكانت الرتب العسكرية في هذا الجند البربري تنتهي من أعلى بدرجة شيخ الغزاة الذي لابد أن يمت إلى ملك المغرب بنسب[65] ، ويتولى بظهير سلطاني[66] من ملك غرناطة .

وكانت قيادة الجيش توكل إلى أفراد من الأسرة المالكة أو من الموالين لها . وكثيرا ما قاد الجيش أحد أنجال السلطان كأبي زيان ولد المنصور الذي شارك في تهدئة السوس وفي حروب الأندلس .

ومن الملاحظ أن اهتمام الدولة بالنواحي الجنوبية من المغرب كان شديداً إذ كان موطناً لدولتين فيما سبق ، وكانت جهات السوس ومراكش ودرعة يرسل إليها كبار القادة ؛ وهكذا فإن السلطان يعقوب أرسل ولي عهده يوسف لإخضاع عرب السوس حتَّى ألجأهم إلى الساقية الحمراء فماتوا عطشاً وجوعاً .

وكان للفرقة المسيحية في الجيش المريني دور يكاد يكون حاسماً في مصير بعض الملوك ؛ فقد أعلن القائد غنصالو **GONZALEZ** خلعَ أبي الربيع ، تحريضاً من الوزير عبد الرحمن الوطاسي بسبب سوء تفاهم بين السلطان وهذا الأخير ، وكادت الفتنة تؤدي إلى مهلك السلطان الشرعي ، لولا مبادرته بإخمادها ، وقد سبق أن ذكر تدخل الجيش النصراني لخلع السعيد بمساعدة عمر الفودودي ؛ كما عمل القائد غرسية على خلع أبي سالم وهم بالبطش بالوزير خليفة لولا أن هذا سبقه وفتك به .

من قواد بني مرين المعروفين محمد بن عطو الذي شارك في حروب المغرب والأندلس، والوزير ابن علال الذي كان من قواد بني مرين البارزين في المغرب،

(65) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص 28 .
(66) القلقشندي : صبح الأعشَى 6 11 .

الأوسط ، وعمر بن السعود بن خرباش الذي شارك في تدبير شؤون الدولة بوصفه وزيراً ليوسف وقائداً في حروب الأندلس والمغرب .

أما الأسطول المريني فكانت مراكزه بسبتة وطنجة وبادس وسلا ووهران وبجاية وقابس ، وكانت الأساطيل المرينية تقوم بمناورات حربية قبل القتال أو بعده ، وقد تحدثت المصادر عن يعقوب المنصور الذي «برزت أساطيل المسلمين أمامه بالمرسَى (الجزيرة الخضراء) وهو جالس بمشور قصره ، فلعبوا بمرأى منه في البحر ، وتجاولوا وتناطحوا وتطاردوا كفعلهم ساعة الحرب[67] ».

وكانت أهم ترسانات المغرب توجد في سبتة وسلا حيث أسس يعقوب دار صناعة هامة ، غير أن سبتة كانت تفوقها أهمية حيث كانت مركز تجمع مختلف القطع .

وبلغ المرينيون أقصَى قوتهم البحرية في عهد أبي الحسن ، حيث كانت مثل عدة النصارى وعديدهم[68] » ثم بدأت عناية الدولة بالأساطيل تضعف شيئاً فشيئاً بسبب الفتن الداخلية وتوقف الدولة عن التدخل في سواحل الأندلس إلى أن صار معظم العناية بالنشاط الحربي مقصوراً على حركة الجهاد البحري الشعبي منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان لمجاهدي أبي رقراق على الخصوص دور فعال في صد هجمات المسيحيين ، وكان قائد الأسطول الأعلى تحت إشراف الوزير غالباً[69] .

ومن كبار القادة البحريين سليمان بن داود في عهد أبي عنان ، ومحمد بن يوسف من أمراء بني الأحمر في عهد أبي عنان أيضا ، ويحيَى الرنداحي قائد أسطول سبتة ومحمد بن علي بن أبي القاسم العزفي في عهد أبي الحسن ، وكان حشد الجيوش برية كانت أو بحرية ، طبق نظام خاص ، فقد كانت الكتائب تتألف من قبائل وطوائف وتشارك في القتال وتنتقل في عرض البحر جماعة جماعة حسب انتمائها[70] . وبالرغم من وجود فرق نظامية ، فقد كان يدعى إلى التجنيد قبائل مختلفة وأفراد من المتطوعين والمرتزقة ، عندما تدعو الضرورة إلى ذلك .

وفي معظم حروب بني مرين نشاهد أثراً ملموساً لكلّ من قبائل زناتة والعرب

---

(67) الناصري ، استقصا ، 3 ، 62

(68) عبارة ابن خلدون في المقدمة.

(69) محمد المنوني ، بحث علمي 2 ص 207.

(70) ذخيرة 166.

بالإضافة إلى اللفيف الأجنبي ، ولكن عناصر صنهاجة والمصامدة لم يكن لها من أثر بارز في الجيش المريني بالنسبة إلى العناصر السابقة ، خصوصاً وقد كانت تمت محاولات ضعيفة في الواقع لإعادة دولة المصامدة عن طريق هنتاتة ، كما أن الوطاسيين الذين كانوا فيما قيل ينسبون أنفسهم إلى صنهاجة ، يعملون على قلب الدولة منذ وقت مبكر.

والواقع أن عدد جيوش الجيش المريني قد تضاءل بالنسبة إلى ما كان عليه في عهد المرابطين والموحدين ، فلم يكن يبلغ في مجموعه 150 ألفاً وهو عدد يصعب معه تثبيت سلطة الدولة في مختلف أقطار الشمال الإفريقي والأندلس كما كان يطمح إلى ذلك بنو مرين ، ولم يكن عدد الفرسان المثبتين في الديوان يتجاوز أربعين ألفاً قبل فتح تلمسان أيام أبي الحسن وذلك غير حاميات المدن والسواحل[71].

أما عن رايات الجيش ، فقد كان لكل قبيلة راية خاصة تقف تحتها ، ولكن الجميع يلتف حول راية واحدة هي راية الملك[72]. وقد عرفت جيوش القرون الوسطى كجيوش العصور القديمة استعمال الرّاية البيضاء دليلاً على طلب السلم. وكان الملك نفسه يعقد الرايات لمختلف الكتائب ، ويسلمها إلى القواد ، ويسمى العلم الرئيسي بالمنصور أو سعد الدولة ، وتحتفظ بعض الكنائس الإسبانية براية يعود تاريخها إلى محرم 712هـ من أيام أبي سعيد عثمان بن يعقوب[73].

وكانت راية الملك بيضاء مطرزة بالذهب ومكتوباً عليها آيات من القرآن الكريم ، بينما تحمل الكتائب أو القبائل رايات من مختلف الألوان. وقد سجل ابن خلدون وصفاً حسناً عن رايات بني مرين أيام أبي الحسن حيث قال : «وقد بلغت في ايام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير ومنسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير، ويأذنون للولاة والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان ، بيضاء ، وطبيل صغير أيام الحرب ، لا يتجاوزون ذلك».

وكانت هناك أعلام ثانوية لفرق الجيش والشرطة والأسطول فضلاً عن الهيئات الشعبية ، وتختلف ألوانها[74].

---

(71) ذخيرة 148.

(72) ذخيرة 108.

(73) الجراري : الغاية من رفع الراية ص 13.

(74) محمد المنوني : البحث العلمي 4 ــ 5 ص 256.

ولم يكن الجيش يقطع أرضاً ، ولكنه كان يتوصل براتب شهري يتراوح بين ستة مثاقيل وستين مثقالاً ذهباً تبعا لمرتبة الشخص . وكانوا يتناولون هذه الأجرة من ديوان الجيش حيث تسجل أسماؤهم[75] ، وقد أنشئت الأبراج والمحارس في عهد عظماء ملوك الدولة خصوصاً أيام أبي الحسن الذي امتدت المحارس والمناظر في عهده من افريقية إلى آسفي ، وكانت الإشارات فيما بينها بواسطة النيران تتم في ليلة واحدة من أقصَى محرس إلى أقصاه من الطرف الآخر بينما يتعين قطع هذه المسافة للقوافل في شهرين ، وكان لكل محرس جنود ونظار يراقبون البحر حتَّى إذا ظهرت قطعة تبودلت الإشارات النارية على الفور .

ويظهر أن نظام مراقبة الأمن وحماية الثغور كان يساهم فيه صاحب البريد الذي يتعين أن يتوفر على اتباع وأعوان ومراكب وطيور وما إلى ذلك ، إذ كان عليه مراقبة الطرق وحمايتها من القطاع والسراق وانسلال الجواسيس في البر والبحر[76] .

النظام المـالي :

كانت الجبايات تُدفع نقوداً أو أسلحة وثياباً وغيرها ، وكان العمال يضمنون مبالغ الجبايات مقدماً ليستخلصوها لأنفسهم ، وكان هذا النظام الجائر له سوابق كثيرة بالشرق ، غير أن أبا الحسن ألغَى هذا النظام وعين جباة خاصين كما منع الزام أهل الذمة بأداء غير الجزية والأعشار المشروعة . وكان يُعفَى أحياناً من الضرائب بعض الأشخاص والهيئات ، وتخصص بعض الموارد لنفقات معينة كالجزية التي كان يصرف منها في فاس على الطلبة والخطبة بجامع القرويين ، وكان مستفاد دار الدباغة بسلا يخصص للأشراف الدباغين . وكانت أوقاف القرويين وحدها تغل أحياناً عشرة آلاف دينار فضية سنوياً[77] .

وكان للجباية ديوان خاص يطلق عليه ديوان الخراج ، يختار له أقدر الكتاب ، وأضبطهم لشؤون الحسابات وكان بعض ملوك بني مرين ينحُّون أهل الذمة عن هذا الديوان محافظة على أسرار الدولة المالية وصيانة لمواردها[78] ، وكان رئيس هذا الديوان يرجع إليه اختصاصات ديوان العطاء وله تفويض التوقيع باسم الوزير أو السلطان ، ولكنه يرجع إلى قراراتهما[78] .

(75) أورد القلقشندي بتفصيل مخصصات ضباط الجيش (الأشياخ) وقاضي القضاة وكاتب السر : صبح 5 ، 204.

(76) ابن العباس ، آثار الأول ، ص 48 ـ 49

(77) محمد المنوني : البحث العلمي 3 ص 251.

(78) ابن مرزوق : هبريس ع 1 سنة 1925م.

وقد وضع في عهد أبي سعيد عثمان نظام يقضي بإحداث ضرائب عامة زيادة على الزكوات والأعشار الدينية بالنسبة للمسلمين ، والجزية بالنسبة إلى الذميين[80] .

وكانت الشخصية التي يوكل إليها رئاسة ديوان الخراج تعطَى حق مراقبة تصرفات العمال والولاة فيما يخص استخلاص وصرف أموال الجباية، كما يمكن أن تعطَى حق معاقبتهم إذا اقتضَى الحال ، وممن استعمل على الجباية عبدالله بن أبي مدين وعبد السلام الأوربي ، وموسَى بن علي الهنتاتي ، وكان يجمع أحياناً بين ولاية الجباية والعمالة بالرغم من عدم صلاحية هذا النظام[81] ، حيث يؤدي إلى استبداد العامل . وكان لجباية المصامدة أهمية كبيرة في موارد الدولة ، إذ كانت مناطقهم من أخصب الأراضي كناحية مراكش والسوس ، لذلك كان لها وال خاص يولى في عين المكان[82] .

وقد عهد أبو الحسن إلى أبي عنان بولاية المغرب الأوسط وجبايته في آن واحد ، فكان ذلك مما مكنه من الاستبداد على والده . وفي عهد أبي سعيد تولى أبو القاسم ابن أبي مدين العثماني، مهام المكلف بالجباية والمشرف، حيث كلف ببناء قرية أفراك بجوار سبتة وتخصيص جرايات لمشايخ وأعيان سبتة ، أي أنه جمع بين استخلاص المال وصرفه ، وتشبه هذه المهمة الاستثنائية اختصاصات «المندوب السامي لإعادة بناء أكادير» بعد زلزال سنة 1960م مع بعض الفوارق .

وقد ألغَى أبو الحسن معظم الضرائب وترك الزكوات والأعشار ، ومع ذلك فقد توفرت الدولة في عهده على موارد بفضل المراقبة الصارمة ، وبالرغم من النفقات الضخمة التي تكلفتها بعض المباني العمومية. ويفهم من كلام ابن الخطيب أن بني نصر كانوا يؤدون لملوك بني مرين ضريبة سنوية[83]. ويلاحظ أن لفظ الضريبة كان متداولاً في هذا العصر[84].

السكة :

كانت مراكز ضرب النقود بكلّ من فاس ومكناس وسبتة ومراكش وسجلماسة

(79) مقدمة 213.
(80) طيراس 75.
(81) ابن خ 7 ص 661.
(82) ابن خ 510 و 661.
(83) ابن الخطيب : اللمحة البدوية ص 196 . وكان هذا بدون شك في فترات قوة الدولة.
(84) ابن العباس ، آثار الأول ، و 41.

وزمور وتلمسان (أحيانا) ، ومن النقود المرينية المحفوظة بباريز قطعة مستديرة (ككل نقود الدول تقريباً)، وبداخلها مربع ، وقد نُقشَ على أحد الوجهين منها بين المربع ومحيط القطعة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً

وبداخل المربع

الحمد لله
والمنة لله
ولا قوة إلا بالله.

وفي **الوجه الثاني** نُقش بين المربع والمحيط :

ضرب بمدينة فاس حرسها الله بمنه عن أمر
عبـد الله عثـمان
أيـده اللـه[85].

والسلطان المقصود هنا هو عثمان بن عبد الحق (614هـ — 638هـ)

— ومن القطع التي تخلفت من مسكوكات سجلماسة أيام أبي سعيد عثمان (710هـ — 731هـ) قطعة مستديرة بوسطها مربع، وقد نُقشَ بين المربع والمحيط في الوجه الأول :

والهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم

وبداخل المربع

بسم الله الرحمن الرحيم
صلّى الله على محمد وآله.
الحمد للـه وحده
لا إلـه إلا اللـه
محمـد رسـول اللـه

وفي **الوجه الثاني** نُقِشَ بين المربع والمحيط :

---

(85) La voix, catalogue des monnaies musulmanes, p.440

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

وبداخل المربع :

ضرب بمدينة
سجلماسة عن
أمر عبد الله أبي
سعيـد عثمـــان
أيده الله ونصره[86]

وكان الدينار الذهبي يعادل 4 ، 56غ وأجزاؤه النصف والربع والثمن كما يساوي 69 درهما صغيراً ، أما الدينار الفضي فيساوي عشرة دراهم صغيرة . وسك أبو عنان ديناراً ذهبياً يزن مقدار مائة دينار ذهبي عادي . ومعظم النقود المرينية مستديرة وقليل منها مربع أو مستطيل .

وكانت أكبر دور السِّكَّة بفاس الجديدة على عهد يعقوب المنصور بن عبد الحق قرب القصر الملكي ، وبها يستقر ناظر الدار والعدول والكتاب ، وبقربها المصاغات وأمينها الذي يختم على المقبول منها .

وكانت تروج بعض النقود الأجنبية كالحفصية والسبتية والمردنيشية والحسونية ، وكان يعقوب المذكور قد منع أن يقبل منها ما لم يكن على قدر السكة المحلية وجودتها[87] .

ومن أهم المراجع عن السكة المرينية كتاب الدوحة المشتبكة الذي وضعه أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم المديوني[88] ومنه نسخ بخزائن المغرب الرئيسية . وقد نُشر بتحقيق حسين مؤنس بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ع 1 و 2 سنة 1378هـ .

---

(86) Catalogue des Monnaies Musulmanes p.443

(87) كل هذه المعلومات الأخيرة مستقاة من البحث القيم في الموضوع للسيد محمد المنوني – البحث العلمي 4 .

(88) من هذا المصدر استقى السيد المنوني المعلومات المذكورة غالباً . وقد تعذر رجوعي إلى هذا المصدر مباشرة .

2 – الحياة الاجتماعية

السكان :

استقرت عناصر سكان المغرب على ما كانت عليه من الأصول في عهد الموحدين ، وبدأ أثر العنصر العربي يشتد في توجيه الحياة السياسية شيئاً فشيئاً ، ولكنه لم يكن العامل الوحيد ولا الأساسي في ضعف الدولة أو سقوطها كما توهم طيراس ؛ فقد اعتمد بنو مرين على عناصر أجنبية في قيادة الجيش وبعض وحداته ، خصوصاً بعد أبي عنان ، كما استخدموا عدداً من اليهود غير المخلصين ؛ وشغلتهم تدخلات بني الأحمر وحروب بني عبد الواد ، إلى غير ذلك من العوامل ؛ فمن الظلم أن ننسب إلى البدو العرب إسقاط دولة بني مرين والحالة هذه ، ولكن لا ريب أن استقرارهم في السهول الأطلسية التي هي من أخصب مناطق المغرب جعل البربر فئتين ، فئة ساكنتهم وانصهرت فيهم ، وفئة انحازت إلى جبال الأطلس حيث يتضاءل النفوذ العربي ، ولكنا لا نعرف مع ذلك حرباً قامت بين العرب والبربر من أجل هذا الاستقرار الذي لم يشجعه ويرحب به مقدماً سوى ملوك البربر أنفسهم وبالرغم من قلة خبرة البدو العرب في الزراعة والغراسة بالنسبة إلى البربر ، فإن ضعف موارد الدولة أيام انحطاطها إنما نشأ عن عجزها عن تنسيق وتدبير ميزانيتها ، وعدم الضرب بشدة على أيدي الثوار من بدو العرب الذين تطاولوا على الدولة بسبب انهيار جهازها ، والناس كما يقال على دين ملوكهم . ولا نجد في تاريخ بني مرين أثراً يستحق الذكر مما يدل على وجود حركة عنصرية عربية ضد العنصر البربري أو بالعكس . وقد تمكن هؤلاء البدو فيما بعد أن يكرسوا أنفسهم للجهاد ضد التدخل المسيحي الأروبي فدافعوا باستماتة عن شواطىء المغرب شأن إخوانهم من البربر ومهاجري الأندلس ، وإن كان هذا لا يمنع من تسجيل أثرهم السيئ في الاقتصاد المغربي والحياة الاجتماعية في بعض مظاهرها لفترة من التاريخ .

ومما لا يمكن انكاره ، ان البدو قد كونوا مجموعة خاصة بسبب اختلاف اللغة وبعض العادات غير أن هذه المجموعة سرعان ما بدأت تنحل مع الزمن ، وإنما كانت وحدتها اجتماعية ولم تكن قط سياسية .

وفيما يتعلق بحياة المدن ، فقد سجل ابن الخطيب وصفاً دقيقاً لأنماط الحياة بعدد من مدن المغرب المشهورة[1] فوصف أهل سبتة بالتكلف في الولائم ، وبشدة الاقتصاد حتّى أنهم يجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم ، وأنهم يفاخرون بمدينتهم غاية المفاخرة .

وقال عن سلا انها جامعة بين البداوة والحضارة ، وأثبت أن أهل ازمور بربريو اللسان (أي في عهده وهو يقصد أزمور الشاطئية) ووصف أهل فاس الجديدة (المدينة البيضاء) بأنهم يرون لأنفسهم مزية الفضل يلقى الرجل أبا مثواه فلا يدعوه لبيته ، ولا يسمح له ببقله ولا بزيته ، فلا يطرق الضيف حماهم .

ووصف أهل سجلماسة بعمش العيون ، ومدينتهم بكثرة الحصَى والغبار .

كما سجل برتغالي بعض مشاهداته عن الحياة الاجتماعية بنواحي القصر بالشمال ، فذكر أن أكثر سكان هذه النواحي فقراء ، وأنهم رثو اللباس ، وأغلب ثروتهم من الماشية ، وهم شجعان ذوو حيل ، وليس لديهم عدل ، شديدو الطمع والخداع ، ومساكنهم مبنية بالتبن والقش ، وبقرهم وثيرانهم صغيرة لكنها قوية تدر لبناً غزيراً وتأكل كثيراً ! وهي هادئة ، لأنها تنام عادة في منازل السكان . وهؤلاء يستكثرون من السمن في طعامهم إذ ليس لديهم زيت لشدة غلائها ، ولأنها تأتي من بعيد ، وسمكهم قليل ولكن فواكههم كثيرة لذيذة . وأكثرهم يشربون الخمر بدون تحفظ (ذكر ذلك ليون الافريقي أيضا) وهم من أقل الأمم خوفاً من الموت .

على أن ما سجله هذا المسافر المدقق ، يمثل بعض مظاهر الحياة في النواحي الشمالية في عصر الانحطاط المريني[2].

ومما ذكر عن آثار التخريب والنكسة الاجتماعية التي حصلت في بعض مناطق المغرب نتيجة تدخل البدو العرب ، ما جاء على لسان صاحب نفح الطيب[3] إذ يقول :

«دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلَى الدهر محاسنها التي كانت في زمان لسان الدين بن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر منها بالفتن الشراب ، وعاث في ظاهرها الاعراب».

---

(1) معيار الاختيار من ورقة 26 إلى 37– ابن الخطيب .

(2) R. Ricard, Hespéris, 4, 1936

(3) المقري ، نفح 8 ص 318.

ومع أن المقري عاصر السعديين ولم يشهد عصر المرينيين ، فإنه يضيف إلى كلامه السابق عن ناحية مكناس قوله :

«...على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى للمحاربين واللصوص ، ومثوى للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب».

وكان الأمن مع هذا سائداً في أغلب نواحي المملكة بفضل التنظيمات التي أحدثها أبو الحسن والتي استمر العمل بها بعده ؛ فقد أمر بنصب مخيم على رأس كل اثني عشر ميلاً يستقر به بعض السكان المجاورين ، ويتولى أصحابه مهمة حماية المسافرين وتموينهم عند الاقتضاء . وكان هؤلاء الحراس يقطعون في مقابل ذلك أرضاً يستغلونها[4] .

ولقد انصهرت عناصر عربية في بوتقة البربرية كما وقع العكس ، حيث نجد ناحية دكالة بل ومختلف نواحي المحيط حتّى الصويرة ، قد تعربت كلها كما اكتسبت عناصر عربية بسوس وغيرها تقاليد ولهجة السكان الأصليين ، وحتّى أسرة بني مرين التي ارتبطت بالمصاهرة مع قبائل العرب ضماناً لولائها ، تحضرت مع مر الأجيال وأصبحت عربية في كل تقاليدها وفي لهجتها إذ قطنت المدن الرئيسية بالمغرب .

اللبــاس :

كان لباس عامة البربر كساء من صوف ومطرفة من أرجوان وجلموساً غليظا على الرأس ، كما كانوا يتقلدون بسرّافٍ وهو سكين كبيرة[5] .

وكان لباس الفقهاء كسوة تشتمل على برنوس وبرد كلاهما أبيض من صوف ، ثم احرام للتردية ومنديل يتعمم به ودراعتين ، وقبطية سداسية[6] . أما اتخاذ البياض في اللباس فمقتبس عن أهل الأندلس منذ أن اقترح استعماله زرياب المغني على بني أمية[7] ولو أن الأندلسيين لم يلتزموا به دائماً .

وكان المشايخ وقادة الجيش عرباً أو زناتيين يلبسون زياً متشابهاً ، وهو عمامة طويلة خفيفة يغطيها لثام ينزل إلى الكتف وكانوا يحملون سيفاً ويتمنطقون بأحزمة للزينة أو أيام الحرب وتسمّى مضمات .

---

(4) محمد المنوني ، مجلة البحث العلمي ، 2 ، 212

(5) عبد الحق البادسي ، المقصد الشريف ، ورقة 45.

(6) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ص 439.

Pérès, La poésie andalouse, p. 320

وكان القضاة والكتاب يتعممون بعمامة خضراء ولا يحملون سيفاً[8]. وعلى العموم فقد ساد البياض لباس الرسميات والأخبية فضلا عن العلم كما يذكر ذلك المنوني في مجلة البحث العلمي (ع4 ــ 5). وقد تأثر بالزي المغربي لهذا العهد سكان الصحراء الكبرى وما وراءها (صبح 5 ــ 299).

الاحتفالات والألعاب :

كان أبو الحسن المريني يقدم عطايا لقواد العسكر والقضاة والأئمة والخطباء والحاشية في كل من عيد الفطر والأضحَى والمولد[9]، فيعطي هؤلاء في ليلة عيد الأضحَى مائة من الغنم لكل واحد، ورأساً للنفر من الجند، وفي ليلة المولد يوزع مائة ألف دينار على الفقهاء والأشراف والطلبة والحفاظ ومن يحضر المولد من العلماء والقضاة وغيرهم ممن يقوم بمهمة في ليلة عيد المولد، فيأخذ كل منهم من عشرة إلى مائة دينار. وقد صار الاحتفال رسمياً بعيد المولد منذ عهد يوسف بن يعقوب سنة 691، مع العلم بأن بني العزفي سبقوهم إلى ذلك بسبتة.

وكانت هناك ألعاب خاصة تجري بقصر الملك فقد روي أن أبا عنان أشرف ذات يوم من أحد الأبراج على مصارعة بين الثور والأسد، وَوصف ابن جزي ذلك حيث قال[10] :

لله يـوم بـدار الملك مـر بـه	من العجائب لم يَجْرِ في خلدي
لاح الخليفة في برج العلا قمرا	يشاهد الحرب بين الثور والأسد

ولابن الخطيب قصيدة طويلة أنشأها بمناسبة اعذار أبي عنان أحد أنجاله، وفيها يصف «الطلبة(؟) التي نصبها في الهواء يرسلون العصي إليها، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها»[11].

وكانت توجد بسبتة أماكن للرماية والسباق متعددة، حسبما جاء في اختصار الأخبار، إذ كانت هناك مرام خاصة بكل مجموعة من السكان تربطهم رابطة معينة، فكانت هناك مثلاً، مرام خاصة بالقاضي وكبار الفقهاء وغيرهم «ان الرمي

(8) Terrasse 73، والقلقشندي : صبح 5 ــ 204.
(9) الترجمان المعرب ص 322 للزياني.
(10) نفح 8 ص 46.
(11) المقري : نفح 9 ص 165.

طبع لأهل سبتة طبعوا عليه ، فلا تلقى شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيراً ولا صغيراً إلا وله بصر بالرمي» .

الغنـــاء

انتشرت الموشحات الأندلسية بالمغرب في عهد بني مرين ، كما انتشر الزجل كغناء شعبي وبما أن الموشحات لها وضع موسيقي خاص مع سمو لغتها بالنسبة إلى الزجل ، فالأحسن ترك الكلام عنها إلى موضوع الحركة الفكرية .

والأزجال من وضع أندلسي هو أبو بكر بن قزمان الذي عاصر المرابطين ، ولو أن المحاولات بدأت قبله ولكنها اتخذت طابعها المتميز في عهده . وفي عصر بني مرين اشتهر فيها كثيرون بينهم كبار الكتاب . ومن المجيدين لسان الدين بن الخطيب وأبو عبد الله الألوسي وعلي بن المؤذن وابن شجاع وهو من تازا والكفيف من أهل زرهون .

ومن الطبيعي أن تنتقل الأزجال الأندلسية إلى المغرب ما دام الاتصال بين العدوتين مستمراً . ولم تكن لغة الأزجال نفسها بعيدة من الفصحَى كما يدل على ذلك قول ابن شجاع :

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان   أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم مليح عاهد إلاَّ وْخَان   قليل من عليه تحبس ويحبس عليك

ومن أجود ما قيل في الأزجال قصيدة الكفيف في تعزية بني مرين عن انهزامهم في افريقية أيام أبي الحسن . ومن أبياتها :

لو كان ما بين تونس الغربا   وبلاد الغرب سد السكندر
مبني من شرقها إلى غربها   طبقا بحديدا وثانيا بصفر
لابد الطيران تجيب نبا   أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر

وقد أحدث الفاسيون كما يذكره ابن خلدون (في نهاية المقدمة) عدة أنواع من الزجل كالمزدوج والكاري والملعبه ، والزجل ضمنه نظامه ومغنوه مختلف المعاني والأبواب كما حدث في الموشحات ، فجاء بذلك تعبيراً حقيقياً عن ميول طبقات الشعب وتفكيرها وانماط حياتها .

3 – الحياة الاقتصادية

نظراً لطول ملك الدولة ، فقد اختلفت الأوضاع الاقتصادية باختلاف عهد الملوك الذين تعاقبوا عليها ، غير أن فترة التقدم السياسي صاحبها ازدهار ملموس في الحياة الاقتصادية ، فقد قيل أن السنة التي بويع فيها يعقوب المنصور ، بيع فيها القمح بستة دراهم للصفحة والكبش بخمسة دراهم والشابل وحْدة بقيراط . ولا شك أن أسعار المواد الغذائية الأساسية ، تشكل المقياس الحقيقي لأثمان المعيشة ، وعلى الأقل فالرخاء يومئذ كان معناه كثرة العرض بسبب وفرة الانتاج ، ولكن في عهد السلطان يوسف انخفضت قيمة العملة بالنسبة للماضي حيث بيعت صفحة القمح بعشرين درهماً ولكن الرخاء كان شاملاً ، لأن دخل الفرد لاشك قد ارتفع كما ارتفع معه انتاج المواد الأساسية .

ومن أهم المراكز الاقتصادية بالمغرب في العهد المريني : أصيلا التي كانت مركزاً للتجار الأجانب وكان يباع بها الملف والتوابل ، فضلا عن مصيدها الغزير السمك[1] . وفي نواحي سلا كان يزرع القطن والكتان[2] ، أما آنفا فكانت تتوفر على الفواكه الطيبة والحبوب الوافرة ، وامتازت مراكش بغزارة زيوتها المستخرجة من المعاصر[3] ، أما سجلماسة فقد كانت متجراً عظيما للذهب المستورد من السودان .

وقد أصبحت ناحية مكناس منذ العهد المريني كلها جنات مغروسة[4] وكانت المداشر تحيط بها من مختلف الجهات حتَّى عدَّ ابن غازي منها اثني عشر ألف مدشر وهو عدد في منتهَى المبالغة ولكنه يدل على مدى عمران هذه الناحية يومئذ .

وفي عهد يعقوب استمر الرخاء خمس عشرة سنة متوالية[5] حتَّى أصبحت

(1) ابن الخطيب : معيار الاختيار ص 28.

(2) معيار ص 28.

(3) معيار ص 31.

(4) روض هتون ص 14 — لابن غازي.

(5) ذخيرة ص 97.

القطاني لا يوجد من يشتريها[6]، ونشطت تجارة المغرب مع الخارج كما سبق في موضوع العلاقات الخارجية، حيث كان ميناء سبتة يجتذب سفن البندقية ومونتبليون وجنوة ومرسيليا وغيرها فيشحنون إلى المغرب الملف والمنسوجات والسلاح والخمر والخرداوات والثوب والكتان؛ ويصدرون الصوف والقطن والزرابي والخيل والجلود والغنم والشمع.

وقد اهتم المرينيون بتنظيم الري بالنواعير التي كثرت أيام أبي عنان. وكان يزرع قصب السكر بسوس ووادي نفيس وناحية سبتة. وفي مراكش وحدها كانت توجد أربعون معملا لتصفية السكر[7]. وكان بفاس وحدها نحو ستمائة رحى تدور بالماء[8]. وكان مصيد سبتة يتوفر على نحو مائة نوع من السمك فضلا عن المرجان الغزير بها، وكانت ميناء دوليا حقيقيا من حيث نشاطها التجاري[9] وكانت سجلماسة تتوفر على بساتين عديدة تحيط بها وبالمدينة سور يبلغ أربعين ميلا. وقد ظلت باديس والمزمة من الموانئ الشمالية المشهورة، واحتفظت باديس بأهميتها إلى ما بعد المرينيين بزمن طويل. وكانت أودغشت من مدن السودان، وبها غالب الفواكه والخضر على أنواع. وقد كان لأقطار المغرب العربي في هذا العهد نشاط تجاري عظيم مع أقطار السودان المجاورة[10].

---

(6) ذخيرة : 104.

(7) محمد المنوني : البحث العلمي سنة 1964 ص 251 والقلقشندي 5 ـ 176.

(8) القلقشندي صبح 5، 155.

(9) صبح 5، 158.

(10) باذل دافيد : افريقيا... ص 154.

4 – العمران وفن البناء

نظرة عامة :

شارك المرينيون بنصيب في العمران ، فبنوا بعض المدن والقرى والقلاع ، كما شادوا مدارس كثيرة ومارستانات هامة . وكانوا في فن البناء أحسن مثال للنقل عن الفن الأندلسي الأصيل بعد أن بلغ ذروته في عصر بني الأحمر .

وقد شاد المرينيون مباني كثيرة، وكان من أهم بناة الدولة يعقوب المنصور الذي بنى فاس الجديد والمنصورة حول تلمسان وأصلح ووسع مسجد تازا كما بني سورها وحصن عدة مدن. وبدأ إنشاءُ المدارس الأولى في عهد هذه الدولة، بينما بدأت تتكاثر في عهد أبي سعيد الذي تم على يده وكذا أيام أبي الحسن انطباع الفن المريني بطابع اللباقة والروعة، فانتهى الفن المذكور إلى أصالته.

وقد امتاز الفن المريني كما جاء في مظاهر الحضارة المغربية[1] باستعمال الطابية والآجر والحجر غير المنحوت والنقش على الخشب والجبس والأدهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات بالزليج ، كما شمل الزخرف الثريات والمصنوعات الجلدية والخزفية وغيرها . وقد انتشر نظام الري بالنواعير التي من ضمنها الناعورة الكبرى بوادي فاس المصنوعة سنة 685هـ كما شاد المرينيون عدة قناطر وأبراجاً ومحارس ومراسي وكانوا مع ذلك يبنون بواسطة تصميم يضعه المهندسون مقدماً .

والحق أن العمل المريني في ميدان الفن، لم يكن مستمداً من ابتكار هندسي تقني ، بقدر ما كان يرجع إلى جودة الذوق والتنويع والدقة . ولا يزال أثر هذا الفن عظيماً في عدد من مباني المغرب بل امتد إلى البلاد الشرقية التي تستدعي رجال هذا الفن لتشييد بعض مساجدها . وإذا كان هذا الفن قد استنفذ قواه كما يقول جوليان منذ القرن XV م فإنه لم يمت على الاطلاق في عهد السعديين ولا

---

(1) جزء 2 ص 58 – لعبد العزيز بنعبد الله .

العلويين، بل انبعث في بعض الأحيان متمثلاً في عدد من منشآت الدولتين، ليستأنف انتشاره منذ مطلع القرن العشرين، على نطاق واسع. وقد جاء في بعض الأخبار أن الولايات المتحدة الأمريكية قد بدأت تقتبس عن الفن المغربي متمثلاً في عدد من منازلها الفخمة[2].

المدن :

هناك مدن بناها المرينيون قصبات أو قرى صغيرة تطورت فيما بعد إلى مدن بكامل مرافقها، كما توجد قرى أو مدن شادوها لم يتم لها النمو لأسباب سياسية أو اقتصادية. ومن المدن والقرَى المرينية قصبة تطوان التي بناها يوسف سنة 685هـ وقلعة دبدو وشالة الحديثة التي تم بناء أسوارها وبابها الأكبر في عهد أبي سعيد سنة 739؛ وقلعه كرسيف، وقصبة العرائش التي تم بناؤها سنة 657هـ على يد يوسف ابن علي، وقصبة مكناس التي بناها أبو يوسف سنة 674هـ وهو أيضاً باني المدينة البيضاء في نهاية السنة نفسها، ثم المنصورة التي بناها يوسف بن يعقوب حول تلمسان سنة 698هـ.

1) قصبة مكناسة :

بناها أبو يوسف المريني كما تقدم وأنشأ بها مدرسة الشهود وكانت تدعى مدرسة القاضي حيث كان يعطي بها بعض الدروس القاضي أبو علي الونشريسي. كما بنَى بها أبو الحسن زاوية المشاوريين وزاوية القورجة وعدداً من القناطر والمرافق. وتدعَى المدرسة المذكورة اليوم بالفيلالية. أما زاوية المشاوريين فقد صارت فيما بعد اصطبلاً، كما صار مكان زاوية القورجة في أوائل عهد الحماية الفرنسية مبنًى للبلدية وعدد آخر من البنايات العمومية.

2) المدينة البيضاء :

بنيت في آخر شهر من سنة 674 هـ 1276م على يد أبي يوسف أو على الأصح بدأ بناؤها منذ ذلك الوقت واتخذها المرينيون عندئذ، عاصمة لهم، وسورها أبو يوسف كما بني جامعها بواسطة أسرى الاسبان وأشرف على البناء أبو عبد الله الجدودي وابن الأزرق وإلى مكناس، وتم اجراء الماء إلى الدور والقصور كما بنَى بها رجال الحاشية الملكية عدداً من المنازل إلى أن توسعت بسرعة عند تكاثر

(2) La Nation africaine-Rabat-3 Octobre, 1963

السكان ، وضمنهم اليهود الذين كانوا يقطنون فيما قبل بحي القرويين ، واستخدموا في مبانيهم بالملاح الذي بني لعهد أبي يوسف ، نفس الأسلوب الأندلسي الذي عرفه المسلمون في عهد بني مرين . والظاهر أن الذي أكمل معظم مباني الملاح هو عثمان بن أبي يوسف . وأطلق على المكان اسم مدينة «حمص» قبل أن يعرف بالملاح (قلقشندي 5 ــ 154).

3) **قصبة تطوان** :

بنيت في عهد يوسف بن يعقوب سنة 685 هـ وكان بناء القصبة يهدف إلى حصار سبتة والاستيلاء عليها شأن طريقة بني مرين في حصار المدن الأخرى كالجزيرة الخضراء ، وتلمسان التي بنوا حولها المنصورة. وقد ظلت المدينة عامرة نحو قرن حتّى أصبحت من المراكز الأولى لحركة الجهاد البحري بالمغرب . وحوالي سنة 803هـ (1400م) استولى عليها الاسبان فهجرها سكانها وخربها الغزاة ثم جدد بناؤها على يد أبي الحسن المنظري بعد نحو تسعين سنة[3] ويعود تاريخ تطوان وقصبتها الأولى إلى ما قبل هذا التاريخ بزمن طويل فقد ذكرها البكري مراراً في الجزء الخاص بالشمال الافريقي[4].

4) **المنصورة** :

مدينة مستطيلة تبلغ 1300 م طولا و 750 م عرضاً . وبأركانها أبراج لا منفذ لها . وتبعد عن تلمسان بكيلومترين وعرض جدارها أكثر من متر ، وفي شمالها ستة أبواب ، ويستنتج أن عدد أبوابها كان كذلك في الجانب المقابل. وإلى أواخر القرن التاسع عشر كان لا يزال معظمها قائما وخاصة المسجد . وتعد صومعتها من مظاهر الفن الجميل[5]. أسسها يوسف بن يعقوب قرب تلمسان سنة 698هـ ليضرب منها الحصار على هذه المدينة التي كانت عاصمة لبني عبد الواد ، وبينما كان مستقراً بالمنصورة كانت جيوشه تنتقل بين واجهات المغرب الأوسط الأخرى لافتتاحها . وقبل أن يدير يوسف السور على المنصورة ، بَنَى قصراً لسكناه ومسجداً كما بنَى مارستاناً وحماماً وخانات حتّى صارت مدينة كاملة المرافق «واستبحرت عمارتها وهالت

---

(3) تاريخ تطوان 1 ص 83 لمحمد داود.

(4) البكري : المغرب في ذكر افريقية والمغرب ص 101 ، 106 ، 107 الخ ...

(5) L'Abbé Bargès : Tlemcen p. 250

أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق ، فكانت احدى مدائن المغرب[6] »
ولكن بني عبد الواد سرعان ما خربوها بعد انسحاب بني مرين .

المدارس :

اهتم المرينيون ببناء المدارس التي سبقهم إليها الموحدون ، ولكن على نطاق واسع . على أن بعض هذه المدارس التي لا تزال قائمة كآثار فنية أصيلة ، تشهد أكثر من أي شيء آخر ، بروعة الفن المريني .

وكان القصد من بناء هذه المدارس إيواء الطلبة ، ولكن بعضها كان يستعمل للتدريس أيضاً إلى جانب المساجد الكبرى كالقرويين مثلاً . ويتولى الاشراف على المدرسة مقدم يخضع لمراقبة القاضي بعد أن يختاره الطلبة وكان على المقدم أن يجمع بين مهام المقتصد والمؤذن والبواب والخادم[7] . وكثير من البيوت يتوارثها الطلبة من نفس العائلة عن طريق العدول . وقد يبيع الطالب مفتاح البيت إلى زميله . وللطلبة مؤونة يومية ظلت تتناقص مع الأيام حتّى انحصرت في خبزة ، بالرغم من كثرة الأوقاف المخصصة لهذه المدارس .

وللمدرسة مسجد داخلها وله إمام راتب من الطلبة أو غيرهم . وكانت المدارس تصلها هدايا وتبرعات كثيرة من المحسنين ، كما تقام على شرف الطلبة مآدب داخل المدرسة بمناسبة احتفال عائلي أو عيد . فكان الطلبة والحالة هذه ، يحظون بعطف سكان الحي .

وكثير من مشاهير العلماء قاموا بالتدريس في بعض هذه المدارس كأحمد بن سعيد القيجميسي خطيب القروين وكان يدرس بالعنانية[8] والمفتي محمد المقري التلمساني قاضي القضاة التي قام بتدريس صحيح مسلم في المدرسة المذكورة[9] ، وكان أبو عنان يحضر مجلسه ، فجرى يوماً بالمجلس الحديث النبوي عن الخلافة في قريش فقال المقري : إن هذا الحديث مظنون به غير مقطوع به وكان يرمي من وراء ذلك إلى مساندة شرعية الخلافة المرينية . فلما ذهب أبو عنان إلى قصره بعث إليه

---

(6) ابن خلدون 7 ص 459.

(7) Archives marocaines, vol. 18.

(8) نيل الابتهاج ص 21 لأحمد بابا .

(9) مشاهير أعيان فاس قديماً ورقة 32 (المؤلف مجهول).

بألف دينار جزاء له على ذلك ، ولكن العالم أثار استياء الشعب ! وقد كان لكل هذه المدارس خزانة علمية ضاع جلها مع مر الأيام .

ومن أهم مدارس بني مرين :

1) مدرسة الحلفائيين بفاس وهي أول ما بني من مدارس بني مرين[10] ، وكان مؤسسها هو يعقوب سنة 679هـ وقيل كان اسمها في أول الأمر المدرسة ، ثم دعيت بالصفارين إذ تقع في حومتهم ، وقد جهزها المنصور بخزانة كبيرة كان ضمنها عدد من الكتب التي كانت لدى اليهود والمسيحيين في مملكة قشتالة ، والتي كان تسليمها من الشروط المتفق عليها بين الطرفين سنة 1284م . وللمدرسة منار يتجه بدقة إلى القبلة ، وكانت تؤدى فيها الصلوات الخمس ولكن لم تكن تعطَى فيها دروس[11] .

2) مدرسة البيضاء أو فاس الجديد بناها أبو سعيد سنة 720 ، وكان لها طلبة يرتلون القرآن وأحباس كثيرة وفي عهد العلويين حولت إلى معهد للتخصص العلمي على يد السلطان محمد بن عبد الرحمن وكان خليفة إذذاك . وكان يتخرج منها الموظفون الاداريون ، ثم ادخلت في المشور بعد ذلك . ومن خريجيها محمد الجباس ممثل السلطان بطنجة .

3) مدرسة الصهريج بناها أبو الحسن سنة 721 قرب مسجد الأندلس بفاس ، وكان يومئذ خليفة لوالده ، وليس لها منار ، وقد أخذت اسمها من الصهريج المستطيل الموجود بفنائها، وقد كلف بناؤها أكثر من مائة ألف دينار (100 ألف) وكان بها أساتذة نظاميون. وجددت لأول مرة على يد عبد الله الغالب السعدي سنة 1562م ويمتاز بناؤها بالانسجام والبساطة.

4) مدرسة العطارين بنيت سنة 723 في عهد أبي سعيد عثمان على يد الشيخ عبد الله بن القاسم المزوار بفاس . وحضر أبو سعيد وضع الحجر الأساسي لبنائها ، واشترى لها السلطان عدداً من العمارات وكان بها ما بين 30 وخمسين بيتاً ، وهي من أجمل مدارس بني مرين ، إذ تمتاز بتنسيق زخارفها خصوصاً في الصحن وبيت الصلاة وكان بها أساتذة نظاميون وقومة كثيرون .

---

(10) م. مجهول، الذخيرة السنية، ص 188.

(11) مجلد 18 ص 263. Archives marocaines.

5) مدرسة الطالعة بسلا. بناها أبو الحسن سنة 733هـ (1333م) وهي غير بعيدة من المسجد الأعظم وكان بظاهرها سقاية ماء أوقف جريانه منذ عهد قريب، ويتوسطها صحن مفرش بالفسيفساء وفي وسطه صهريج صغير من الرخام، كما يوجد بيت الصلاة داخل الفناء، وأربعة وعشرون بيتاً للطلبة موزعة بين طابقين. ومن المعلوم أن المسجد الأعظم بسلا ومدرسته الجوفية ، من بناء المنصور الموحدي . وقيل إن الفراغ من بناء المدرسة المرينية كان سنة 742[12]، وقد نقش على جدرانها قصيدة في مدح أبي الحسن.

6) المدرسة المصباحية بفاس ، من بناء أبي الحسن أيضاً ، وتحمل اسم أول أساتذتها وهو أبو الضياء مصباح بن عبد الله اليلصوتي ، وكانت تحتوي على 117 حجرة ، وتشتمل على ثلاث طبقات زيادة على السفلَى ولها بابان الرئيسي منهما يواجه باب ساقية العين من جامع القرويين . وتبلغ بيلتها الرخامية نحو متر ونصف عرضاً ومترين طولاً وقد جلبها أبو الحسن من المدية ، وكان لها باب ثالث ينفذ إلى زقاق الحجامة .

7) المدرسة البوعنانية : بدأ بناؤها وتم في عهد أبي عنان بفاس من سنة 751 — 757هـ (1350 — 1357م) وهي آخر وأجمل مدارس بني مرين ؛ وصفها ابن خلدون بأنه لم ير لها نظيراً بالمشرق . وقد بدأ بناؤها على يد الناظر أبي الحسن ابن أحمد بن الأشقر . وخصص لها أبو عنان أحباساً عديدة منها حمام ومنزل مجاور له بمقابلة المدرسة ورحى بجوارها وفرن واصطبلات ودكاكين بزنقة غابة القصر وحوالي أربعة وسبعين دكانا[13] ، وذلك للإنفاق على طلبتها وقومتها وأساتذتها ، ولها منارة في غاية الروعة ؛ ومسجدها ينفصل عنها بوادي اللمطيين القادم من باب أبي الجنود . ولكن توجد قنطرتان توصلان المدرسة ببيت الصلاة . وصنعت لها منجانة ذات ثلاثة عشر طاساً ومقياسها حوالي أحد عشر متراً طولاً . وقد صنعت الساعة المائية الأولى على يد أبي عبد الله محمد بن الحباك التلمساني 1287/685 وصنعت الثانية على يد عبد الرحمن اللجائي تلميذ ابن البناء وأستاذ ابن قنفذ ، أيام أبي سالم ابن أبي الحسن[14] 1362/763 .

---

(12) الاتحاف الوجيز ورقة 23 — 24 لابن علي الدكالي.

(13) مجلد 18 ص 278 Archives Marocaines

(14) انظر حول الساعتين تفاصيل في منتهَى الأهمية في بحث لدَى صولابرايس الامريكي عربه الأستاذ عبد الهادي التازي (عن مجلة فرنسية) في مجلة المغرب — الرباط أبريل 1966م .

وقد كانت تقام صلاة الجمعة في هذه المدرسة التي فقدت أهميتها منذ عهد الوطاسيين ، حيث حول ريع أوقافها لصالح الجهاد واحتفظ الطلبة بحق السكنَى ، وكانوا من قبل مكفولين طعاماً وملبساً . وقد ذكر القلقشندي (صبح 5 — 162) أنه كان يوجد بباب جامع الكتبيين منجانة على ارتفاع خمسين ذراعاً ، وكانت أجراسها تسمع على بعد .

ولبني مرين مدارس أخرى كثيرة منها مدرسة السبعيين بفاس ودعيت كذلك لأنها كانت تدرس فيها القراءات السبع ، ومدرسة العباد قرب تلمسان من بناء أبي الحسن ، والمدرسة البوعنانية بمكناس وهي في الحقيقة من بناء أبي الحسن[15] ، ومدرسة القاضي بمكناس من بناء أبي يوسف والمدرسة العجيبة بباب احساين بسلا من بناء أبي عنان . وأكثر الملوك بناء للمدارس أبو الحسن الذي شادها بتازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وآسفي وآزمور وآنفا وأغمات والقصر الكبير والعباد[16] .

المساجد :

شاد المرينيون عدة مساجد في مختلف أنحاء المغربين الأقصَى والأوسطَ ، وامتاز فنهم في هذه المساجد بالدقة وكثرة التوريقات والمقرنصات خصوصاً حول المحراب . ومن أشهر مساجدهم :

1) جامع فاس الجديد التي تم سنة 677هـ أيام أبي يوسف الذي صنع له منبراً رائعاً وثريا تزن سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً وعدد كؤوسها 187 وبنيت المقصورة[17] سنة 889هـ ويتصل الجامع بالقصر الملكي بواسطة باب يؤدي إلى بيت الصلاة . وقيل أن أبا يوسف أنفق في بناء الجامع وصنع الثريا ثمانية آلاف دينار ذهباً .

2) جامع العباد قرب تلمسان والذي يزدان بمدخل قد غطي بالفسيفساء . ويتوفر المسجد على خمس بلاطات وثلاثة أساكيب ومحراب ذي زخارف من الآجر والطين ، وهو من بناء أبي الحسن سنة 1339/740 ؛ كما بنَى هذا السلطان بعد ثماني سنوات المدرسة الملحقة به . وبها زاول التدريس ابن مرزوق وربما ابن خلدون أيضا . وللمسجد مبرتان من الأوقاف احداهما لتعليم الأميين والأخرى لارواء

(15) عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف أعلام الناس 1 ص 122.

(16) نخب من مسند ابن مرزوق بمجلة هسبريس (ونشر المسند كاملا فيما بعد).

(17) ذخيرة، ص 188 لمؤلف مجهول.

الظامئين وقد استوفى الكلام على هذا المسجد جورج مارسي في كتابه (تلمسان ص 73).

3) جامع القصبة بتلمسان من بناء أبي الحسن.

4) الجامع الكبير بتلمسان من بناء أبي الحسن أيضاً. وقد وصف ابن مرزوق منبره بأنه لم يعمل مثله في المعمور. والبناء الأصلي يعود إلى عهد ابن يوسف سنة 1136/530 ثم رمم في عهد عبد المومن الذي حاول أن ينسبه إلى نفسه[18].

5) جامع وجدة من بناء أبي يعقوب.

على أنه إذا لم يتبق من مساجد بني مرين الكبرى إلا عدد قليل جداً فإن في المساجد الملحقة بمدارسهم بفاس ما يعطي نظرة كافية عن فن بناء المساجد في عهدهم.

وفي هذا العهد بدأ تخصيص أوقاف لكراسي معينة للتدريس، ومنها:

1) كرسي سليمان الونشريسي 1306/705 للتفريع والمدونة بجامع الأندلس.

2) كرسي أبي الحسن الصغير الزرويلي علي بن محمد 1319/719 لتدريس «تهذيب البراذعي» بجامع الأزدغ بحومة فندق اليهودي.

3) كرسي أبي الحسن علي الصرصري للتهذيب أيضاً، أنشأه أبو عنان. وكل الجوامع المذكورة بفاس: وقد أثبت ذلك الباحث محمد المنوني في بحثه عن كراسي الأساتذة بالقرويين (دعوة الحق 4 — 1966/1385)[19].

المـارسـتانـات :

سبق إلى بناء المارستانات كل من يعقوب ويوسف الذي بنَى مارستان المنصورة حول تلمسان[20]، كما عني أبو الحسن بتجهيز وتسيير هذه المنشآت العمومية. ومن أشهر مارستانات بني مرين ذلك الذي بناه أبو عنان بسلا وسط حارة اليهود من

---

(18) L'Abbé Bargès, Tlemcen pp, 18 435 - 437

وأنظر أيضا: G. Maçrais,Tlemcen p. 23

(19) راجع أيضا: جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي، ويتضمن معلومات غزيرة عن النشاط الفكري بالقرويين.

(20) ابن خلدون، 7، 458.

حومة باب احساين وهو كما يذكره المؤرخ ابن علي الدكالي ، بناء حفيل[21] مشتمل على بيوت كثيرة لاستقرار المرضى والمجانين والحمقى ، وأجرى له الماء من الداخل على السور الذي بناه أبو الحسن ، ورتب له أبو عنان قومة وأطباء ، وكان في القديم فندقا للزيت ، ثم هجر المارستان بعد ضعف الدولة وعاد فندقا كما كان من قبل ، وبقي اسم بانيه إلى أن امَّحَى في بدء عهد الحماية الفرنسية[22] ، وهو يحمل اسم فندق أسكور ولكنه خرب الآن وكان في فاس عدد كبير من المارستانات المجهزة أحسن تجهيز .

الـزوايا :

بنَى ملوك بني مرين عدداً من الزوايا في مختلف أرجاء مملكتهم لاستقبال الغرباء والمسافرين والموظفين المتنقلين ، ومن أهمها زاوية النساك بسلا من بناء أبي عنان سنة 1356م وكان لها بابان وساحة مغطاة بالفسفساء وصهريج تغذيه «مطفية» ولم يبق منها إلا باب مزخرف قريب من ساحة باب الخميس .

منشآت أخـرى :

أما ما يدخل في نطاق ما نسميه اليوم بالاشغال العمومية ، فقد مهر بنو مرين في هندسة الأسوار ونظام الري والقناطر والموانئ والقنوات . وهم بانُو سور فاس في عهد أبي يوسف سنة 673هـ على يد عامل الرباط أبي سالم إبراهيم ، كما بنوا سور الأقواس بسلا ، وهو الذي وصفه الناصري بما يلي[23] :

«اعلم أن هذا السور من المباني الغادية والهياكل العظيمة التي تدل على فخامة الدولة وكمال قوتها مثل ما يقال عن حنايا قرطاجنة ونحوها . وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ، ممتداً من القبلة الى الجوف ، على أضخم بناء وأحكمه ، موزون سطحه بالميزان الهندسي ليأتي جريان الماء فوقه على استواء . ولذلك ينخفض إلى الأرض متَى ارتفعت ، ويعلو عليها إذا انخفضت ويجري على متنة من الماء ، مقدار النهر الصغير ، في ساقية قد اتخذت له . ولما شارف البلد عَظُم ارتفاعه جداً ، لأجل انخفاض الأرض عنه . وكلما مر في سيره

(21) الاتحاف الوجيز ورقة 24 لمحمد بن علي الدكالي.

(22) Champion : Le Maroc et ses villes d'art 1, 26.

(23) الاستقصاء 3 ص 176 الناصري.

بطريق مسلوك فتحت له فيه أقواس ، فسمّي لذلك سور الأقواس . وبالجملة ، فهو شاهد لبانيه بضخامة الدولة وعظم الهمة ».

أما القناطر فقد بنيت عشرات منها كقنطرة وادي النجاة وقنطرة ماريج في عهد يوسف سنة 680هـ وهو الذي ركب الناعورة الكبرى على وادي فاس سنة 685هـ . وأنشأ أبو الحسن قناطر وادي ردات وقنطرة بني بسيل ، وقنطرة الوادي داخل فاس وباب الجياد والرصيف بفاس وغيرها .

وبَنَى المرينيون دار الصناعة بسلا في عهد يعقوب بن عبد الحق . وكان لواديها منفذان حيث جلب الماء من نهر أبي رقراق إلى الباب المسامت لجامع حسان من عدوة الرباط في ترعة عميقة ، فإذا صنعت سفينة في الترسانة المذكورة وأريد ارسالها في الواد فتحت الترعة فيدخل الماء وتقوم فيه السفينة فتخرج من الباب القبلي طافية فوق الماء إلى أن تدخل الوادي ، وبنيت الترسانة على يد أبي عبد الله الإشبيلي الميكانيكي الذي توفي بفاس سنة 714 هـ وكان خشب السفن يجلب من المعمورة لصناعة السفن الحربية والمدنية وكان السلطان محمد بن عبد الله العلوي قد عرض على الأتراك تجديد هذه الترسانة فطلبوا منه مدة عشرين سنة لإنجازها مما دفع به إلى بناء مرسَى الصويرة[24] ، والانصراف عن تجديد هذه الترسانة . وأهم أثر لبني مرين بقي حتَّى الآن غير المدارس والمساجد المذكورة ، هو قرية شالة الحديثة وهي في الأصل من منشآت الفنيقيين ، ثم جددها القرطاجنيون ثم الرومان بعدهم . وكانت سفن الفنيقيين والقرطاجيين تأتي إليها بالبضائع من عاج وصمغ وجلد وريش نعام ، وحتَّى الفيلة التي كانوا يستعملونها في حروبهم[25] وكانت تمد روما بالمنتجات الفلاحية . وهي من أوائل المدن التي دخلت في الإسلام أيام ادريس الأول ، وعند ظهور المرابطين كانت مقراً للبرغواطيين الذين خربوها ثم أعادوا بناءها[26] ، ولكن الادريسي وصف خرابها من جديد ، حتَّى إذا أسس الموحدون الرباط انتقل اليها أهل شالة بتجارتهم وصناعاتهم . على أن عبد المومن الموحدي جلب إليها الماء من عين غبولة ، كما بنى بها المنصور الموحدي مسجداً وحصناً عظيماً ومارستاناً لذوي العاهات والأمراض .

---

(24) كل المعلومات عن هذه الترسانة من الاتحاف الوجيز ورقة 29 — 30 لابن علي الدكالي ،

(25) بوجندار ، مقدمة الفتح من رباط الفتح ، ص 14.

(26) بوجندار ، مقدمة الفتح من رباط الفتح ص 20.

وفي عهد بني مرين تمّ تسويرها واتخذت مدفناً لعظماء وملوك الدولة ، وكان أول من دفن بها المنصور المريني الذي نقل رفاته من الجزيرة ودفن بجامعها[27] . وقد بنَى بها المرينيونَ قباباً رائعة . وممن دفن بها يوسف الأول وأبو سعيد وأبو الحسن وزوجته الحرة أم أبي عنان . وكان أبو الحسن قد دفن بمراكش ثم نقلت رفاته إلى شالة ، وهو الذي كان قد سور هذه المدينة وشاد بها قبة كبيرة زخرفها بنقوش ذهبية وألصق أحجارها بالرصاص . وقد زخرفت مختلف القباب والقبور بالآيات الكريمة والأمداح والمراثي كما وُقف على المقبرة عدد من الأوقاف الحبسية لصيانتها وإطعام من يفد عليها من أبناء السبيل . وكان يرتل بها القرآن الكريم يومياً .

وحدثت ثورة ضد آخر ملوك بني مرين ، وهو عبد الحق بن أبي سعيد ، من لدن أحمد اللحياني الورتاجني الذي استولى على مكناسة وشالة والرباط وسلا ، فخرب شالة واستولى على ذخائرها وأموالها وشرد طلبة القرآن بها واستولى على مصاحفها وتحفها وقد بقي من شالة مع هذا ، القصبة المرينية نفسها وبابها الرئيسي الذي ما يزال على حالته الأصلية ، وزاويتها الموجودة عن يسار هذا الباب ومسجدان لكل منهما ميضأة ومنارة ، وقد دفن بأحدهما يعقوب المنصور وكان بهما خزانة كتب طافحة ، كما بقيت آثار بيوت يظن أنها كانت مأوى للحفاظ وسدنة الأضرحة[28] وقد خصص هنري باسي بالاشتراك مع ليفي بروفنصال دراسة جيدة عن شالة المرينية تتحدث عن آثارها وما فيها بتفصيل[29] .

---

(27) الإتحاف الوجيز ورقة 33 لابن علي الدكالي .

(28) الإتحاف الوجيز ورقة 33.

(29) هناك أيضا دراسة حديثة للدكتور عصمان عصمان عن شالة .

5 - الحياة الفكرية

نظرة عامة :

كان بين ملوك الدولة عدد كبير ممن نالوا نصيباً وافراً من الثقافة كأبي الحسن وأبي سعيد وأبي عنان. وناهيك بالمجالس العلمية والأدبية التي عقدها كل من أبي الحسن وولده أبي عنان، كما أن الهيئة العلمية العظيمة التي رافقت أبا الحسن إلى افريقية وغرق معظمها وكانوا نحو أربعمائة كما أثبته ابن خلدون، تدل وفرتها على مدى انتشار الثقافة بالمغرب في هذا العهد الذي كثر فيه الفقهاء والأدباء واشتدت العناية بعلوم اللغة العربية مما جعل بعض مؤرخي الأدب يستنتجون من ذلك عروبة أصل بني مرين[1].

والواقع أن بني مرين يعود إليهم الفضل مرة أخرى في بقاء مذهب مالك وانتشاره العلمي بالمغرب. وذلك بعد المجهود الذي بذله أسلافهم المرابطون. وقد نشطت حركة التأليف نشاطاً عظيماً في ميدان الفروع، كما أن كتب النحو الأساسية التي ألفت في عهدهم ظلت تدرس بعدهم حتى القرن العشرين م. والحضارة العمرانية والفنية يصاحبها عادة، نشاط فكري ينمو على قدر تشجيع العلماء والأدباء، فإن الثقافة في عصر بني مرين قد ازدادت انتشاراً يفوق بكثير ما كان عليه الأمر في عهد الموحدين، حتى إن الأزجال الشعبية التي أثرت عن هذا العصر لا يكاد ينقص من فصاحتها شيء، ولما كان بنو مرين قد أكثروا من المارستانات، فقد احتاجوا إلى أطباء كثيرين تبعاً لذلك؛ غير أنهم لم يجدوا صعوبة في توظيف عدد وافر منهم مما يدل على أن الناحية العلمية قد أخذت باهتمامهم البالغ.

ولا ننس مع هذا أن عصر بني مرين عصر كبار الرحالة كابن بطوطة وابن رشيد والعبدري، وقد أفادت رحلات هؤلاء العلماء الطلاب ورجال الفكر أيما افادة، فوسعت أفقهم الفكري، وظلت مدة مثار تعليقات النقاد في المجالس كما ألمح إلى ذلك ابن خلدون في تاريخه.

---

(1) النبوغ المغربي ص 183 وما بعدها (عبد الله كنون).

وإن انتشار المدارس وكثرة الخزائن العلمية الموقوفة على الجوامع والمدارس ، وتبني الدولة للتعليم عن طريق إيجاد الكتب والمعاهد وضمان معاش الأساتذة وإيواء الطلاب ، كل ذلك مما يؤكد أن تقدم الحركة الفكرية قد فاق عصر الموحدين رقياً وتوسعاً .

أما النهضة الموسيقية فقد ظلت أروع ما سجله هذا العصر ، لأن إشعاعها ما يزال يتوقد يوماً عن يوم في عصرنا هذا الذي اتجه فيه المفكرون وعشاق الموسيقَى إلى سبر أغوار هذا الفن الموروث عن الاندلس والذي نما ونشط على يد المرينيين[2].

الأدب

امتاز هذا العصر بالإطناب في الرسائل والنثر الأدبي عامة ؛ كما شاع السجع إلى حد المبالغة في بعض المراسلات وتُؤُنِّق في التعبير وأسهب في الألفاظ من غير طائل . ولكن اللغة كانت عالية والأسلوب يمتاز برقته . وكان للإخوانيات والمحاضرات دور بارز في حياة الأدب . وقد سجل بعض الرواة ما كان يجري بين بعض الشعراء من مساجلات أو مهاجاه ، من ذلك ما روي أنه كان بين ابن رشيق الثعلبي ومالك بن المرحل خصام أدى إلى تهاجيهما فنظم ابن رشيق قصيدة مطلعها :

لكلاب سبتة في النباح مدارك وأشدها عند التهارش مالك
شيخ تفاني في البطالة عمره وأجل مَحْكيه الكلام الآفك

واتخذ لها كنانة كأوعية الكتب ، وكتب عليها : «زمام معجل ، إلى مالك بن المرحل » وعمد إلى كلب وجعلها في عنقه وأوجعه ضرباً حتَّى لا يأوي إلى أحد ، وطرده بالزقاق . فذهب الكلب يعوي وخلفه من الناس أمة . وأخذ الكتاب وقرئ ، فحمل إلى ابن المرحل ، فلم يخف عليه أنه من عمل ابن رشيق فقال في جوابه :

كلاب المزابل آذيْنني بأبوالهن على باب داري
وقد كنتُ أوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدار

ومن أسلوب كتابة هذا العهد في موضوع الإخوانيات[3] ، ما كتبه أبو جعفر الجنان المكناسي إلى ابن الخطيب : «أيها السيد الذي يتنافس في لقائه ويتغالى ،

(2) النبوغ 612.
(3) أورد القلقشندي نماذج من الاخوانيات لأبي زيد الفازازي في صبح الأعشَى ج 8- 149.

ويصادم بولائه صرف الزمان ويعالى ، وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتقتنص شوارد العلوم برواية كلامه ».

وأشهر كتاب العصر المريني عبد المهيمن الحضرمي الذي مر ذكره في موضوع الكتاب .

أما في الشعر فقد تبوأ المدح مقاماً ملحوظاً حيث شجعه عدد من الملوك الذين كانوا هم أنفسهم يتذوقون الأدب أو يقرضون الشعر كأبي الحسن الذي قال :

أرضي الله في سر وجهر ... وأحمي العرض عن دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختيارا ... واضرب بالسيوف طلى الرقاب

وممن برعوا في المدح مالك بن المرحل وابن عبد المناف والملزوزي .

كما كانت حوادث الأندلس واستيلاء الإسبان على معظم التراب الإسلامي مجالاً تفجرت فيه العواطف الشعرية لدى عدد من أدباء المغرب ، وملحمة عبد العزيز الملزوزي نموذج من هذا الشعر الفياض . كما استغاث مالك بن المرحل بشعب المغرب حتَّى يهب لإنقاذ إخوانه بالأندلس في قصيدته التي جاء بها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا ... فإنكم إن تُسلموه يُسلمُ
لا تُسلموا الإسلام يا إخواننا ... وأسرجوا لنصره وألجمُوا
لاذتْ بكم أندلسٌ ناشدةً ... بِرحمِ الدين ونعم الرَحمُ

وفتحت الحضارة العمرانية والاجتماعية ميداناً خصيباً للغزل الذي كان أبو العباس الجزنائي مُجلّيً فيه ، وكان مع ذلك ذا ثقافة علمية عالية . كما تفتقت قرائح عدد من الشعراء في مجال الوصف على اختلاف أنواعه من طبيعة ومبان ومصنوعات وغير ذلك . ومن القصائد الخالدة في هذا الباب قصيدة ابن عبد المنان في وصف ساعة المدرسة العنانية بفاس . وقد جاء فيها :

وآلة للمواقيت استقل بها ... صنع تفوت النهَى لطفا صنائعه
أبياتها عد أبراج السما ولها ... قطب ولها فلك تدري مواضعه
يجري الهلال عليها جريها أبدا ... على المنازل صنع فاق بارعه
وفي البيوت جوار كل واحدة ... منهم خصت بميقات تطالعه

وانتشرت الأمداح النبوية في هذا العهد ، بسبب الرغبة الملحة التي كانت تحدو بالمغاربة إلى زيارة البقاع المقدسة . واشتركت الموشحات بدورها في مدح النبي

الكريم . وهكذا اشتدت العاطفة الدينية لدى المغاربة الذين إذا قطعوا الأمل من استعادة الأندلس كمساعدة لإخوانهم في الدين ، فقد هفوْا بقلوبهم إلى مكة المكرمة وحثوا مطاياهم إليها ، كما قادهم حب آل الرسول في النهاية إلى تنصيب بعض عائلاتهم في الحكم بعد أن أخفق كل من بني مرين والوطاسيين في الميدان السياسي .

ولقد شاركت المرأة بدورها في ميدان الأدب كما اشتركت في غيره من فروع الثقافة . ولكن المصادر لا تفيدنا بأكثر من تعداد أسماء بعض اللواتي اشتهرن في العلم أو الأدب مع نتف بسيطة عن حياتهن . ومنهن في باب الأدب وقرض الشعر سارة الحلبية الفاسية وست العرب بنت عبد المهيمن الحضرمي وصفية العزفية التي مدحتها سارة المذكورة بقصيدة جاء فيها :

ومن مثل ذات العلم والحلم والنهَى لقد سار سير الشمس معجزها الأرقَى
لقد سار سير الشمس فخر صفية ونور إكباراً لها الغرب والشرق

أما الرجال فقد نبغ منهم الكثيرون كأبي فارس عبد العزيز الملزوزي شاعر المنصور المتوفى سنة 697 وأحمد بن عبد المنان المتوفي سنة 792 ومالك بن المرحل المتوفى سنة 699 والذي أقتصر على ترجمته : وهو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن السبتي المعروف بابن المرحل ، ولد سنة 604 هـ ودرس على عدد من العلماء كأبي نعيم رضوان ابن خالد وأبي القاسم بن بقي وأبي علي الشلوبيين وأبي جعفر أحمد بن علي . وأخذ بنصيب كبير من علوم اللغة بما في ذلك القراءات السبع التي مكنته من ملكة اللغة وسبر أغوارها ، وتولى وظيف التوثيق ثم القضاء ، ومدح المنصور بعدة قصائد ، وكان مع ذلك مجلىً في أبواب كثيرة من الشعر ، فضلاً عن سعة اطلاعه في العلوم الأخرى ، وقد وضع ديوان شعر ضمنه الأمداح النبوية التي نظمها ، كما رتب أمثال أبي عبيد على حروف المعجم ونظم غريب القرآن وكتاب الفصيح وقام باختصار إصلاح المنطق لابن العربي ، أي أنه ساهم في تبسيط عدد من العلوم ويسر حفظها للطلاب ، وقد امتاز العصر المريني بظهور عدد ممن نظموا في فنون مختلفة أثناءه . وتوفي ابن المرحل سنة 699 هـ بعد أن عمر طويلا .

وقد برع مالك بن المرحل كما تقدم في أبواب مختلفة من الشعر . من ذلك ما قاله في العشريّات الزهدية :

بني الدهر أما الدهر فهو عدوكم وإن لاح يوماً في ثياب حبيب
بلاكم وأبلاكم بقلب صُرُوفه فيا ويحها من أنفس وقلوب

وقال يحمس المغاربة لجهاد المسيحيين بالأندلس :

خُذُوا السلاح وانفروا وسارعوا إلى الذي من ربكم وُعِدتُّمُ
إن أمام البحر من إخوانكم خلقاً لهم تلفُّتٌ إليكمُ
ونحوكم عيونهم ناظرة لا تطعم النوم وكيف تطعم؟

وقال يحبذ النسيب في قصائد المدح :

ضل المحبون إلا شاعراً غَزِلاً يطارح المدح بالتشبيب أوطارا
لا يشتكي الحب إلا في مدائحه دعوى ليصغي أسماعاً وأبصارا
كضارب العود وشي فيه توشية وبعد ذلك غنَى فيه أشعارا

وقال في وصف سبتة :

أخطر على سبتة وانظر إلى جمالها تصب إلى حسنه
كأنها عود الفناء وقد ألقي في البحر على بطنه

وبالجملة فشعر ابن المرحل صورة حية لأنبل مظاهر الحياة الأدبية في العصر المريني ، بما فيها من نشاط وتنوع .

وبالرغم من كثرة أدباء العصر المريني وتمتع الأدب بشخصية متميزة في المغرب فإن عدد المؤلفات الأدبية والدواوين الشعرية في هذه الفترة نفسها قليل جداً بالقياس إلى طولها . ومن أهم هذه الكتب والدواوين : رفع الحجب المستورة عن محاسن المعمورة لأبي القاسم الشريف وشرح المقامات الحريرية للزناتي وجهد المقل لأبي القاسم الشريف وتسميط البُردة لابن جابر. والمقصورة للمكودي، وري الأوام ومرعَى السوام في نكت الخواص والعوام لأبي يحيَى عبد الله بن أحمد الزجالي المتوفى بمراكش 694هـ وعيوب الشعر. لابن البناء.

الفقه والعلوم الدينية :

أصبح المذهب المالكي في هذا العهد كامل السيادة ولم يعد ينافسه أي مذهب ديني آخر ، ولكن اتجاه الفقهاء ذهب نحو التأليف في الفروع ، ولم يعد ثمت ميل

إلى الاجتهاد إلا في إطار محدود ، بل تحدد الاتجاه في تأويل أقوال مالك وأصحابه والتبسط في شرح المتون تدريساً وتأليفاً ، وقد اكتسب الفقهاء اعتباراً فائقاً في هذا العهد بسبب الإقبال العظيم الذي حصل على العلوم الدينية بوجه عام ، والذي كان كرد فعل للحجر الطويل على المذهب المالكي أيام الموحدين . وقد زاد اتصال المغاربة بأهل المدينة أيام الحج إقبالاً على الفقه المالكي الذي فقد بصفة نهائية كل منافس له بالمغرب منذ هذا العصر.

وقد نشطت علوم القراءات والحديث نشاطاً عظيماً كما خصصت دراسات خاصة للأصول على مذهب مالك . وهناك ظاهرة امتاز بها هذا العصر خاصة وهي أن المغرب زود المشرق ولاسيما الشام بعدد كبير من القضاة والفقهاء المالكية حيث استقروا هناك طلاباً أو أساتذة في البداية. وقد زودنا ابن العماد بأسماء عدد كبير من هؤلاء[4] كبرهان الدين إبراهيم الصنهاجي 796هـ وبدر الدين الغماري وكلاهما قضى بدمشق ، وأحمد بن يعقوب الغماري قاضي حماة 796هـ ، وهناك ظاهرة أخرى لعلها أكثر أهمية ، وهي أن عدداً كبيراً من هؤلاء القضاة والفقهاء ينتمون إلى غمارة .

وفي هذه الفترة كثرة المؤلفات في الفرائض ، كما تعددت الشروح الفقهية ، وبوجه خاص على الرسالة ومتن خليل ، وتعددت التقاييد على المدونة وكراسي تدريسها . وبالرغم من كثرة فقهاء هذا العصر فإن نفوذهم في الميدان السياسي لم يكن بارزاً وعملياً الا في فترات استثنائية من حياة الدولة ولم ينشأ ثمت نزاع بين الفقهاء والمتصوفين ، غير أن الأولين كانوا أشد ارتباطاً بالبلاط وبالحياة العامة من المتصوفين الذين تجردت أغلبيتهم الساحقة لحياة روحية مجردة .

ولقد ألف في عصر المرينيين عدد وافر من كتب الفقه والعلوم المرتبطة به من جملتها : 1) المناسك الفقهية المنوطة بالأحكام الشرعية لابن منصور المغراوي 2) الوثائق للقاضي الفشتالي 779هـ . 3) شرح مختصر خليل للقوري في 8 مجلدات . 4) تقييد على المدونة لأبي موسَى الجناني المتوفى 830هـ . 5) الأجوبة في التفسير والأصول لابن البقال . 6) المدخل لابن الحاج الفاسي . 7) تقييد على المدونة لابن عمران العبدوسي المتوفي 776هـ . 8) شرح الموطأ للزناتي المتوفى 702هـ . 9) التحفة في القراءات لميمون الفخار المتوفي 716هـ 10) تفسير

(4) ابن العماد : شذرات الذهب ج 6 ص 345، 124، 331 الخ.

القرآن لأبي القاسم السّلوي . 11) تفسير القرآن لمحمد بن علي الدكالي الذي لم ينقل فيه مؤلفه حرفاً واحداً عمن تقدمه وكان مطولاً جداً كما يقول الشوكاني في البدر الطالع (ج2 – 212).

ومن أشهر الفقهاء أبو الحسن الصغير الذي تقدم ذكره في القضاة ، ومحمد بن البقال وكان مشاركاً في علوم كثيرة كالأصول والفقه والفلسفة والأدب ، وهو تازي الأصل وتوفي بفاس سنة 725هـ . ومن كبار المحدثين أبو عبد الله بن رشيد الذي سيأتي الحديث عنه كرحالة. ومن علماء القراءات أبو عبد الله محمد الأموي المشهور بالخراز وأبو الحسن بن بري . أما في علوم التصوف فقد نبغ محمد بن الحاج الفاسي صاحب المدخل المتوفى سنة 837هـ ، وكان ابن رشيد الفهري يجمع بين الأدبيات والفقه والحديث[5].

علوم اللغة :

يعتبر عصر بني مرين عصراً ذهبياً في ميدان علوم اللغة التي اتجه إليها اهتمام الطلاب دراسة والأساتذة تدريساً وتأليفاً وأهم الكتب التي تدارسها المغاربة بمدارسهم في اللغة ترجع إلى هذا العصر بالإضافة إلى بعض مصنفات الشرق . وقد ظلت الكتب المذكورة متداولة بكثرة إلى ما بعد دخول الحماية الفرنسية بسنوات عديدة ، وهذه الكتب بما فيها من منظوم ومنثور ، لعبت دوراً بالغ الأهمية في تقويم اللسان العربي بالمغرب حتّى الآن ، وبفضلها أصبح المثقفون المغاربة أكثر المثقفين تجنبا للحن وتتبعا لسقطات العلماء والأدباء بين الدول العربية . ويرجع الفضل في ذلك إلى الدراسة التقليدية التي حصلوا عليها في المعاهد الحرة واتقليدية ، ولكن الاهتمام بدراسة اللغة والنحو أخذ يضعف الآن.

ومن أشهر كتب اللغة في العهد المريني 1) شرح كتاب سيبويه لابن رشيد 2) شرح مقصورة أبي حازم الغرناطي لمحمد الحسني السبتي . 3) شرح المكودي على الألفية . 4) الأجرومية لأبي عبد الله بن أجروم المتوفى 723هـ . 5) شرح تسهيل ابن مالك لابن هاني السبتي المتوفي 733. 6) المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع لأبي محمد السجلماسي 7) البسط والتعريف في علم التصريف لابن المرحل .

---

(5) الشوكاني : البدر الطالع 2 ، 234.

وقد تفوقت سبتة وفاس في هذا العهد على غيرها من مراكز الثقافة بالمغرب كمراكش بما أنجبتاه من علماء في اللغة والأدب ومن بعض مشاهير الرحالة كابن رشيد وطبقة الفقهاء كأبي سعيد الرعيني وأبي الحسن الصغير.

ومن كبار علماء اللغة :

1) ابـن آجـروم[6].

وهو أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن آجروم ، ولد بفاس سنة 672 ومن أشهر أساتذته أبو حيان . وتوفي سنة 723 . وكتابه الصغير في النحو بقي يدرس قروناً عديدة بالمغرب ، بدأه بأقسام الكلام ، ثم تحدث عن أنواع الإعراب ومحل كل منها ، ثم عما يعرب بالحركات وما يعرب بالحروف ، وأفرد بعد ذلك باباً للأفعال وأنواعها ، ثم الأسماء المرفوعة على اختلافها كالفاعل والمبتدأ والخبر وأتبعه بالمنصوبات ، وختم بالمخفوضات . وأسلوبه بسيط للغاية يبدأ بالقاعدة ثم يمثل لها حتَّى ترسخ الأمثلة عند حفظ القاعدة . ولا يذكر خلافاً ولا تفاصيلَ ثانوية ، واهتم كما نرى بما يخص الكلمة من حيث تغيير إعرابها ، وهذا من أهم مميزات النحو العربي .

2) ابن هـانـئ:

أبو عبد الله محمد بن هاني اللحمي السبتي المتوفَّى في حصار جبل طارق سنة 733هـ شرح التسهيل لابن مالك الذي وصفه ابن الخطيب بأنه «أبدع فيه، وتنافس فيه الناس».

3) أبـو القـاسـم الشريف :

محمد بن أحمد الشريف الحسني السبتي ، ولد بسبتة سنة 697 ودرس على والده وابن رشيد وابي الحسن الغافقي وغيرهم ، كما أخذ عنه ابن زِمرك وابن خلدون وابن الخطيب وأبو اسحق الشاطبي وغيرهم ، وهو كما يقول صاحب «شجرة النور الزكية » أول من حل مشكلات الخزرجية ، كما شرح تسهيل إبن مالك ، ومقصورة حازم وتولى قاضياً بغرناطة سنة 760. وقد تولى أبو القاسم عدداً من الوظائف في ظل ملوك غرناطة كالكتابة والخطبة والقضاء وكان معروفا بنزاهته . أما كتابه رفع

(6) ترجم له الكتاني في سلوة الأنفاس : 2 ، 112.

الحجب المستورة في محاسن المقصورة، فقد تم طبعه على يد التهامي الكلاوي باشا مراكش، فيما يقارب أربعمائة صفحة من القطع الكبير.

ويبتدئ الشارح بعرض بيت أو أكثر من المقصورة المذكورة ثم يشرح ألفاظ البيت لغوياً، ويقابل بين معناه ومعانٍ أخرى لغيره من الشعراء، كما يعرض لوجوه البلاغة في ألفاظ البيت ومعانيه وإذا ورد اسم شخصية بارزة أو وقعة عرض لها بتفصيل واف. والحق أن طريقته في الشرح يمكن أن تكون أحسن مثال لمؤلفي الكتب المدرسية الثانوية والجامعية من العرب.

ويتجلّى من شروحه وتعليقاته عمق معلوماته اللغوية، من ذلك مثلا قوله[7].

«ويقال صرّ القلم والباب وغيرهما يصر صريراً إذا صوت، والدرص ولد الفار واليربوع وأشباه ذلك. وفي المثل: ضل دريص نفقهُ: يضرب مثلاً لمن يَعْيَى بأمره. ويقال صآ الفرخ يصأى صئياً إذا صاح وكذلك الخنزير والفيل واليربوع. وفي المثل جاء بما صآ وصمت أي بالمال الكثير من الناطق والصامت...»

4) المكـودي:

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي، الفاسي، درس على جماعة منهم عبد الله الوانقيلي كما درس عليه عبد الرحمن بن عطية المديوني وهو في الأصل من قبيلة هوارة العظيمة وكان المكودي على علم واسع باللغة والنحو والأدب[8]. وهو آخر من قام بتدريس كتاب سيبويه. وقد وضع عدة كتب منها شرح على الأجرومية ورجز في التصريف، وشرح المقصور والممدود لابن مالك، والمقصورة في مدح النبي ﷺ أما الكتاب الذي خلد اسمه بالمغرب فهو شرحه المعروف على ألفية ابن مالك، وقيل أنه وضع عليها شرحاً كبيراً أتلفه حسدته إلا أوائله التي توجد بفاس وكانت وفاته سنة 807هـ.

التـاريـخ:

الدول ذات الحضارة العمرانية، والتي تميل في حياتها إلى اتخاذ مظاهر السلطة

---

(7) أبو القاسم الشريف: رفع الحجب المستوردة، 1، 93.

(8) نيل الابتهاج لأحمد بابا وقد ترجم للمكودي أيضاً في جذوة الاقتباس لابن القاضي واعلام الزركلي وشجرة النور الزكية ص 249 لمحمد مخلوف وسلوة الأنفاس للكتاني 1، 187.

والملك ، وتحيط بلاطها بمجموعة من الشعراء يمدحونها ، والفقهاء يعضدون سطوتها ، تحتاج كذلك إلى مؤرخين يسجلون تطوراتها السياسية وأحداثها البارزة ، وينوهون بمآثر ملوكها ، وكان المرينيون من أكثر الدول رغبة في تسجيل تاريخ دولتهم وتمجيد مآثرهم لذلك كثرت كتب التاريخ في عهدهم ، ولهذه الكتب عظيم الفضل ليس فقط في تسجيل تاريخ المرينيين بل حتَّى في تاريخ دول المغرب قبلهم ، فأهم المراجع التي تحدثنا عن الأدارسة حتَّى الموحذين لم يبق منها في الغالب إلا ما كتب في أيام المرينيين وأغلب الظن أن عناية هؤلاء بالاستكثار من الخزائن واستنساخ الكتب هو الذي حفظ كثيراً من كتب التاريخ وغيرها من الضياع ، فنحن إذاً مدينون للحلل الموشية بمعلومات قيمة عن تاريخ المرابطين ، والموحدين ، كما أننا مدينون للقرطاس في نفس الموضوع ، وبنسبة محدودة لكتاب العبر ، وكل هذه الكتب وضعت في أيام المرينيين. وفيما يلي أتحدث بإيجاز عن بعض الكتب المصنفة في هذا العهد :

1) الحلل الموشية : مؤلفها مجهول ، ولا يفيدنا بشيْ هام عن المرينيين بقدر ما يفيدنا عن المرابطين والموحدين. وقيل ألف الكتاب أبو العلاء بن سماك العامري المالقي[9]. وقد تم تأليفه سنة 872.

2) الأنيس المطرب بروض القرطاس : في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس[10] ويبدأ بالدولة الادريسية لينتهي إلى سنة 726 . وهو يبدأ عادة بمعلومات عن شخصية الملك وحكومته ، ثم يفصل الأحداث السياسية في عهده ، ويتبعها بذكر أحداث أخرى بارزة حول الوضعية الاقتصادية والاجتماعية أو وفاة شخصية علمية. وقد يتخذ نفس الطريقة إذا فرغ من أحداث الدولة السياسية. وقد وقع بعض الاختلاف في اسم مؤلف الكتاب المذكور. غير أن المرجح كما توصل إليه بعض الباحثين أن كتاب الأنيس اثنان أحدهما وهو الأصغر وينسب إلى صالح بن عبد الحليم وهو المتعارف الآن ، وصاحبه بربري من ايلان مصمودة ، وقد توفي في نفس السنة التي أتم فيها تأليف الكتاب المذكور ، وعاش ابن عبد الحليم طويلاً في فاس. أما الأنيس الأكبر فهو من تأليف أبي عبد الله بن أبي زرع الذي اختلف في

---

(9) ابن سودة ، دليل المؤرخ المغرب الأقصَى صفحة 46 ، وللدكتور مختار عبادي دراسة قيمة عنه بمجلة تطوان سنة 1960.

(10) انظر بحثا حول الكتاب أنجزه المؤلف بموسوعة المغرب العربي (وقد تعذر نشرها حتَّى الآن).

اسمه هل هو علي أو محمد أو أحمد ، ويعتبر هذا الكتاب في حكم المفقود الآن ؛ وقد طبع الأصغر مراراً على الحجر بفاس كما ترجم أو طبع طبعاً عصرياً منذ سنة 1693 (فرنسية) ثم سنة 1794م بالنمسا وبلشبونة سنة 1828 ثم بباريس سنة 1860 م وبالرباط 1936 م وترجم إلى الألمانية والإسبانية والفرنسية واللاتينية وبدأ طبعه على الحجر سنة 1885م. ولم يطبع كاملاً بالعربية طبعاً عصرياً إلا مؤخرا، كما تنقصه دراسة مستفيضة وتصحيحات لبعض أخطائه التاريخية، على أن تعاليق طبعة الرباط التي لم تكمل لحد الساعة مفيدة في الجملة وأخيرا طبع كاملا بالرباط سنة 1973م.

3) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . ويبدأ الكتاب بأنساب بني مرين ويتوقف عند الخبر عن بناء مدينة البيضاء أيام أبي يوسف . وطريقته لا تبعد كثيراً عن طريقة الأنيس المطرب مما جعل الباحث كنون يستنتج أن مؤلفه هو نفس مؤلف الأنيس المطرب (الصغير) أي ابن عبد[11] الحليم ، ومن مزايا الكاتب الذي طبع بالجزائر سنة 1339 هـ (1920م)، أنه يسجل أسماء عدد من الشخصيات العلمية والإدارية ضمن الوفيات مع تفاصيل قيمة عنها ؛ هذا مع معلومات واسعة في التاريخ السياسي .

4) روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد إسمعيل بن يوسف بن الأحمر ، وقد خصصه لبني مرين وبني زيان فذكر نبذة عن ملوكهم وأسماء كتابهم ووزرائهم وقضاتهم وحجابهم ، وطبع منه حتّى الساعة القسم الخاص ببني مرين بالنص العربي وترجمته الفرنسية بباريس 1335هـ موافق 1917م وبالرغم من أن المؤلف عاصر أحداث الدولة وكان في وضع يمكنه من معرفة أسرارها فقد كانت معلوماته موجزة . وله كتاب آخر بعنوان : «حديقة النسرين في أخبار بني مرين».

5) الذيل والتكملة لابن عبد الملك محمد بن محمد الأنصاري المراكشي المتوفى سنة 703هـ والكتاب مجموعة ضخمة من التراجم يتابع فيها صاحبها ما وضعه صاحب كتاب الموصول والصلة ويتضمن كتاب الذيل والتكملة تراجم علماء وملوك وشخصيات مختلفة . وأجزاؤه الخطية مفرقة في خزائن عديدة (باريس ، القرويين ، القاهرة الخ ...) والكتاب في عدة مجلدات[12] عثر منها حتّى الساعة على 5 وتنفرد القرويين بنسخة من الجزء الأول بخط أندلسي[13] .

(11) مجلة تطوان سنة 1957م (ع الله كنون).
(12) دعوة الحق : العابد الفاسي/ يناير ومارس 1959.
(13) دعوة الحق يناير 1966 ص 135.

6) اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار لأبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري ، وهو من أهل سبتة الذين شاهدوا المرحلة الأخيرة من عهدها الإسلامي قبل سقوطها في أيدي البرتغال . ولا نعرف عنه حتّى الساعة شيئ يستحق الذكر أكثر من كتابه الصغير هذا الذي انتهَى من تأليفه سنة 825هـ أي بعد دخول البرتغال سبتة بحوالي سبع سنوات . وقد نشر المخطوط في كل من هيسبريس سنة 1931م ومجلة تطوان 58 ــ 190 وتوجد منه بضع نسخ بالمغرب ، وهو يقدم معلومات قيمة عما كان بسبتة من المساجد والزوايا والمدارس والخزائن والمحارس والربط والدور والمصانع وغير ذلك . فهو والحالة هذه سجل دقيق للحالة العمرانية بسبتة قبل سقوطها مباشرة في يد البرتغال ، كما يصف كذلك حالة العمرانِ بالقرى المجاورة من غير مبالغة أو تهويل . وقد تم طبع الكتاب مستقلاً على يد ليفي بروفنصال بباريز سنة 1351هـ (1932م) ، ثم بالمطبعة الملكية بالرباط .

7) تاريخ ابن خلدون المسمَّى بـ (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، من أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وقد عالج المؤرخ دول الإسلام على اختلافها ؛ وأهم أجزائه السادس والسابع . فالأول يعرض لصنهاجة افريقية والقلعة والملثمين والموحدين وبني أبي حفص الذين خصص لهم أكثر من ثلاثمائة صفحة . أما المجلد السابع فقد استعرض فيه تاريخ دول زناتة خصوصاً بني مرين الذين يشغلون من هذا المجلد أزيد من أربعمائة صفحة بينما خصص للمرابطين عشرين صفحة ولبرغواطة حوالي سبع صفحات. وهكذا يكون أهم قسم من الكتاب ما خصص للمرينيين لأن المؤلف عاش طويلاً في بلاط هذه الدولة كما عاصر أحداثها وأحداث الدول المجاورة لها . وقد اهتم بموضوع علاقات المغرب بالسودان والمشرق فخصص صفحات عديدة للحديث عن هدايا وصلات المغرب بهذه الدول .

ومن خلال سطور الكتاب ، ومع جهد طويل ومضن يمكن أن تلتقط بعض المعلومات عن نظام المرينيين الإداري والسياسي كأسماء الولاة والقادة العسكريين ووجوه الكتاب . ومصادر الكتاب متعددة ، وأغلبها معروف كابن الأثير والطبري وابن حزم والإدريسي . وأسلوب ابن خلدون في التاريخ ينفرد به وحده من بين المؤرخين ، وفيه تتجلّى مقدرة ابن خلدون العالية في تطويع معاني العربية وتراكيبها البليغة ؛ وإخضاعها للحديث العلمي . ومن عباراته :

1) ساجلوهم في الثورة 2) صرَّ السلطان أذناً واعية 3) استشرف ابن الأحمر إلى التجافي 4) استلحق العساكر رامحة وناشبة ، الخ .

ولم يطبق ابن خلدون في تاريخه ما يقتضيه التحليل العلمي الذي عرض له في مقدمته ولا اهتم بالحديث عن حضارات الدول التي أرخ لها ، وندر أن شذ كتابه عن الأحداث والفتن السياسية[14] ، ومع ذلك فإن المجلدين الأخيرين يمثلان أهمية بالغة في تاريخ الشمال الإفريقي وبوجه خاص ما يتعلق بالبربر وقد توفي ابن خلدون سنة 808هـ.

أما مقدمة ابن خلدون فاسمها يغني عن تحليلها بعد أن كانت ولا تزال موضع مآت الدراسات بمختلف اللغات . على أن من النظريات الثورية التي أتى بها في هذه المقدمة دعوته إلى إصلاح اللغة العربية عن طريق تغيير حركات الإعراب محتجاً بتطور لغة حمير التي انفصلت عن لغة مضر وقد كانتا من قبل لساناً واحداً . وجدير بدعاة الإصلاح والمحافظين اليوم أن يطلعوا على هذه النظرية. وقد ألف كتب أخرى كثيرة غير هذه التي أمكن نشرها ومن ضمنها :

1) «بغية الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» للحضرمي .

2) العز المتين في ذكر ملوك بني مرين لأبي عبد الله بن أحمد بوراس المعسكري .

3) تقريب المفازه في تاريخ مدينة تازة لأبي الحسن علي الجزنائي من رجال القرن الثامن الهجري .

4) زهرة الآس في أخبار مدينة فاس للمؤلف المذكور . وقد تم طبعه بالجزائر على يد المستشرق بل سنة 1340هـ (1922م).

5) البيان المغرب لإبن عذاري المراكشي وقد تم طبعه أيضاً .

6) المسند الصحيح في مآثر أبي الحسن لمحمد بن أحمد بن مرزوق 782 — 1380 ومنه نسخة بالاسكوريال وأخرى بالرباط نسخت سنة 1124هـ.

---

(14) انظر بحثاً للمؤلف في مجلة آفاق المغربية العدد الأول حول كتاب العبر كمصدر تاريخي .

اتسع نطاق الصلات المتبادلة بين المشرق والمغرب عن طريق تبادل السفراء والهدايا بين الملوك وتنقل عدد كبير من المغاربة إلى المشرق بقصد زيارة بيت الله الحرام أو لمجرد السياحة أو الدراسة. وكان كثير من الرحالة يدونون رحلاتهم ويصفون فيها مشاهداتهم المختلفة وكثير منها يختص بالمشرق وحده. وأقدم رحلة معروفة وصفها مغربي هي رحلة ابن رشيد ثم رحلة العبدري ورحلة ابن بطوطة ولكل منها أهمية خاصة وإن كانت الأخيرة أعظمها قيمة.

1) رحلة ابن رشيـد :

اسمها «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة» ومؤلفها أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري المزداد في سبتة سنة 657هـ، وبها درس علوم الحديث والأدب التي علا فيها كعبه.

وفي السادسة والعشرين من عمره عزم على الحج ولم يتمكن من الشروع في سفره إلا سنة 683هـ فمر بتونس التي اتصل فيها بجماعة من العلماء ثم قصد مصر ومنها إلى المدينة المنورة. وبعد أداء مناسك الحج عاد عن طريق طرابلس الغرب ثم تونس التي قضى فيها سنة ثم اتجه عن طريق المدينة إلى المغرب وكان قد ركب منها سنة 683هـ، ويعتبر كتاب ابن رشيد كأعظم كتاب عربي خاص بالرحلة وقد اختلف في عدد أجزائه التي تتراوح فيما بين خمسة وسبعة وتوجد خمسة أجزاء بالإسكوريال تنقصها المقدمة، كما أن الجزء الرابع مفقود أيضاً وهو يتضمن رحلة المؤلف من القاهرة إلى دمشق.

ويتحدث المؤلف في مختلف الأجزاء عن العلماء الذين صادفهم ويشيد بعلماء تونس خاصة، كما يذكر عدداً كبيراً من الأساتذة الذين درس عليهم أثناء رحلته، وقد شرع ابن رشيد في تدوين رحلته خلال سفره وأتمها إثر رجوعه. واتصل عند استقراره بفاس بالسلطان أبي سعيد عثمان الذي حَظِيَ لديه بالإكرام والتقدير، وتوفي ابن رشيد سنة 721هـ حيث دفن بفاس.

2) رحلـة العبدري :

أبو عبد الله العبدري نجهل الكثير عن حياته الأولى قبل رحلته بل نجهل حتَّى الساعة سنة وفاته ولكن الذي نعلمه أنه من سلالة أسرة عربية من قريش نزلت بحاحة. ورحلته في كتاب متوسط الحجم وتوجد مخطوطة بكثرة.

ويبدأ العبدري رحلته المدونة بمقدمة نفهم منها أنه بدأ تقييدها بتلمسان وأن سفره إلى الحج الذي كان هدف رحلته بدأ سنة 688هـ فزار أولاً في بلاده السوس الأقصى وكان يتوفر على خيرات كثيرة ثم اتجه نحو تلمسان عن طريق الصحراء التي كان فيها يومئذ جماعة من قطاع الطرق «أطلع الله عليهم من الآفات ما يسحقهم جميعاً أصلاً وفرعاً»!

ثم دخل تلمسان فوصفها بأنها بلد «حلت به حوادث الحدثان ولكنها كانت مغروسة الضواحي بالكرم وأشجار الفواكه». وقد درس العلم في أكثرها وسمع مدرساً بها يقول في درس نحو «كلا للمذكرين وكلتا للمذكرتين» وزار بعد ذلك مدناً مختلفة من المغرب الأوسط ودخل تونس المدينة فأعجب بها ووصفها بقوله «مطمح الآمال ومحط الرجال في الشرق والغرب» كما وصفها بقوله «أربت على البلاد في كل فضيلة» وذكر عدداً من علمائها كالأديب ابن برهان الطائي والفقيه ابن عبد المعطي الذي تلقى عنه العبدري علوم الأدب. أما القيروان فقد وصف أهلها بجفاء الطبع. ولما زار طرابلس الغرب وجدها على طرفي نقيض مع تونس، ولكنه أعجب بفصاحة عرب برقة حيث سأل أحد بدوهم عن ماء فقال له «تطؤون أبا شمال» فاستعذب العبدري إثبات النون في الفعل ونصب المفعول به وعلق على ذلك قائلاً «ليس في الغرب أعرابي ولا حضري يفعل ذلك». أما أهل الإسكندرية فاتهمهم بسقوط العرض عندهم وننبه هنا إلى أن بعض الأوساط الاجتماعية بمصر كانت مثار انتقاد ابن الحاج في هذه الفترة بالذات ولنفس السبب. ثم وصف العبدري ركب الحجاج والاحتياطات التي يتخذها الحكام لوصوله سالماً ويتابع وصفه للبقاع المقدسة والشام.

وكثيراً ما كان ينزل بالمدارس والخوانق ويهتم بالحديث أحياناً عن مستوى المعيشة بالبلاد التي يزورها كما يبذل عناية خاصة بالاتصالات العلمية التي كان يجريها مع علماء مختلف البلاد التي حل بها ولا يتردد في انتقاد من لاحظ منه هفوة أو نقصاً. وقد سلك نفس الطريقة ابن بطوطة في رحلته ولكن العبدري شديد الانتقاد ولاذع اللسان لا يسلم من شر قلمه بلد زاره. ويختم العبدري رحلته بقصيدة طويلة تغلب عليها المسحة الدينية والتأثر بثقافته الفقهية[15] ومطلعها:

عليك النصح رُدْهُ بكل حِسٍّ   وإن الـفـيت واردهُ فحسبيٍّ
فعظم ديننا نصح البرايا   كذاك أتى الحديث عن النبيّ

---

(15) نشرت رحلة العبدري بالرباط، 1968م. بتحقيق الأستاذين محمد الفاسي و أ. فور.

3) **رحلة ابن بطوطـة :**

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطَة نسبت إليه الرحلة المشهورة وهو من أسرة دينية علمية ترجع إلى لِوَاتَةَ من قبائل برقة ، ولد سنة 703هـ وخرج إلى الحج سنة 725هـ وكان ارتحاله بقصد الحج ثم استطاب السفر فوسع نطاق رحلته وفي الشرق تعرف بعدد كبير من الشخصيات ثم زار نجداً وصحراء العرب والعراق وشيراز وأصفهان وحج مرتين أخريين أثناء رحلته هذه ؛ واخترق بعد ذلك البحر الأحمر إلى السودان ثم مصر والشام والأناضول . واتصل بأوزبك خان صاحب الأناضول الشمالية وصحب وفده إلى الملك البيزنطي اندورنيكوس الثالث ، وكان ضمن الوفد ابنة هذا الملك وزوجة أوزبك خان ؛ وذلك سنة 733 هـ حيث شاهد ابن بطوطة القسطنطينية وأعجب على الخصوص بكنيستها ؛ ثم توجه نحو الهند التي وصف مشاهداته فيها كحيوانها وأشجارها وعادات أهلها ، وعاش أعواماً طويلة فيها حيث تزوج وتولى بها القضاء ، كما تعرض للأسر وقطاع الطرق ، ثم زار جاوة وسومطرة والهند الصينية ، وعاد مرة أخرى إلى الشرق العربي ثم قصد بلاده التي وصلها سنة 753هـ ، وهكذا استغرقت رحلته الأولى ما يزيد عن ربع قرن تزوج أثناءها مراراً عديدة ، ثم ارتحل إلى الأندلس وقدم إلى غرناطة أيام أبي الحجاج النصري وكان يروي مشاهداته بالأندلس فيكذبه بعض الناس ، وكان بينهم لسان الدين بن الخطيب ، ثم سافر إلى السودان وبلغ نهر النيجر الذي ظنه نهر النيل ، وأثناء ذلك أمره أبو عنان بالرجوع إلى المغرب بعد ثلاثين سنة قضاها في التجوال خارج بلاده . وقد قضى بقية حياته في هدوء . وولاه المرينيون قضاء تامسنا ، وتوفي وهو قاض سنة 775هـ.

وتمتاز الرحلة بدقة وصفها وتعدد مناحي هذا الوصف من مجتمعات وآثار وشخصيات دينية وعلمية وأحداث خاصة . وتتجلى أهميتها فيما يخص مشاهدات ابن بطوطة في افريقيا والشرق الأقصى ، وهو أول عربي يقدم وصفاً بهذه الدقة عن البلاد المذكورة . وحتى فيما يخص المشرق الإسلامي نستفيد أشياء كثيرة من هذه الرحلة لا نجدها في غيرها كإجراءات الجمارك بحدود مصر والشام ، وكالحديث عن بعض وجوه الوقف الخاصة بدمشق .

وقد كانت هذه الرحلة ولا تزال محل عناية المستشرقين والباحثين وترجمت لعدة لغات أجنبية .

أما كاتب الرحلة فهو ابن جزي محمد بن أحمد الكلبي الذي ولد بغرناطة 721 ووالده هو مؤلف «القوانين الفقهية» الذي ظل يدرس بمَعاهد التعليم التقليدية إلى وقت قريب ، وهو الذي طبع الرحلة بطابع أدبي من تأثير ثقافته ، وقد شغل مناصب إدارية بفاس حيث مدفنه بالجامع الأعظم بالمدينة البيضاء[16] وكانت وفاته سنة 757.

ويعتبر ابن بطوطة أول رحالة دخل إلى وسط افريقيا ممن وصلت رحلاتهم إلينا. وتكاد تتفق المعلومات التي يقدمها عن هذه الناحية من العالم مع أحدث ما ترويه الرحلات العصرية كما يؤيد ذلك «وا لكنر» في كتابه : «أبحاث جغرافية عن داخل إفريقيا الشمالية» (ص 29).

الطـــب :

اهتم بنو مرين ببناء المارستانات فاحتاجوا في ذلك إلى أطباء لعلاج المرضَى وتتبع الحالة الصحية لكل نزلاء المارستانات . وكان الطب النظري موضع عناية عدد كبير من الأدباء والفقهاء نظراً لرعاية الدولة لهذا الجانب من العلوم التطبيقية .

ولقد كانت جامعة القرويين تخصص كراسي لتدريس الطب النظري الذي ظل يحتل فيها مكانة بارزة إلى عهد قريب . ومن أطباء هذا العهد :

1) أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسي الذي جمع بين العلوم العقلية والنقلية ، وكان طبيب أبي سعيد وكاتبه[17] ، وكان ممن صحب أبا الحسن ، وهلك بافريقية .

3) أبو الحسن علي العنبسي المراكشي ، اشتهر في عهد أبي الحسن ، ووضع بعض المصنفات الهامة في الطب كأرجوزة في العلاقات الجنسية والأمراض السرية .

3) أحمد الجذامي نشأ بسبتة ، وأصله من قرطبة ، وجمع بين الحديث والطب والأدب وتوفي سنة 650هـ.

وقد وصل الطب في هذا العصر الى درجة بالغة من الرقي حيث كان الاختصاصيون في فاس لا يشخصون المرض إلا بعد تحليل دقيق للبول الذي

---

(16) الدباغ محمد بن عبد العزيز : ابن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة — دعوة الحق ، صفر 1962/1382.

(17) ابن خ ص 841 ج 7.

يكتشفون منه أشياء كثيرة كتقدير سن المريض وجنسه «أذكر أم أنثى» وما إذا كانت حاملاً أو غير حاملٍ فضلاً عن نوع المرض بالضبط وأسبابه إلى غير ذلك من الجزئيات كما أثبت ذلك ابن الحاج في المدخل (ج 4 – 140).

العلوم الرياضية :

أدى توطيد مذهب مالك بالمغرب إلى دراسة الفرائض طبقاً لقواعد هذا المذهب وكان لابد من تعلم الحساب والتعمق فيه من أجل الوصول إلى حل المسائل المستعصية في الميراث ، ومن ثم اشتدت عناية الطلاب بالحساب الذي قادهم إلى تعلم الهندسة وسائر متعلقاته ، كما أن الحاجة إلى ضبط أوقات الصلاة وشهور السنة العربية خصوصاً رمضان أدى إلى تعاطي دراسة الفلك ، وهكذا ظهر علماء رياضيون وفلكيون في هذا العصر امتد تأثير بعضهم إلى الثقافة الأجنبية نفسها .

ومن مشاهير الرياضيين.

1) أبو عبد الله محمد بن هلال السبتي شارح المجسطي في الهيئة[18].

2) أبو زيد اللجائي من علماء الفلك والهيئة وصاحب مؤلفات فيها وهو تلميذ ابن البناء وقد درس على القرافي ، وتوفي سنة 773هـ وهو الذي أدخل مختصر ابن الحاجب في الفقه الى القرويين .

3) أحمد بن محمد بن عثمان المعروف بأبي العباس بن البناء المراكشي : ولد في قاعة ابن ناهض بمراكش سنة 654هـ (1256م). واشتغل بالتصوف وهو بعد شاب ، وأخذ طريقة أبي زيد الهزميري . ومن أساتذته في الحديث ابن عبد الملك الأنصاري ، وفي السنن أبو الحجاج التجيبي المكناسي ، وفي النحو الشريف محمد ابن علي ، وفي الرياضيات ابن مخلوف السجلماسي وابن حَجَلة .

وقد حظي ابن البناء بتقدير ملوك بني مرين واستقدموه إلى فاس مراراً .

ومؤلفات ابن البناء كثيرة ومتنوعة ، منها :

1) كتاب الفصول في الفرائض ، 2) المناخ في تعديل الكواكب ، 3) الجبر والمقابلة ، 4) رفع الحجاب في الحساب ، 5) كتاب الفلاحة الخ ...

---

(18) ابن خ 840 ج 7.

الموسيقـى :

سيطول الحديث شيئاً ما في هذا الموضوع بسبب أهميته ، ولأن العهد المريني هو الذي حفظ الطابع المغربي لهذا الفن . ولا جرم أن الموسيقَى العربية التي انتقلت من الأندلس إلى المغرب لم تكن مجرد أشعار تلحن كيفما اتفق . ومن ثم فقد تدخلت القواعد العلمية مرة أخرى في توجيه هذا الفن الذي قدر له أن يكتسح الشمال الافريقي والعالم العربي كله .

والمشهور أن زرياب المغني أول من وضع الأصول الأولى لما نسميه الآن بالموسيقَى الأندلسية وكان تلميذاً لإسحق الموصلي الذي خشي من منافسته له في بلاط هرون الرشيد ، فشجعه على مغادرة العراق مقابل مكافأة سخية ، وهكذا طوى زرياب المراحل حتَّى حط رحاله بالأندلس ، وقد نقل اليها الموسيقَى العربية التي كانت قد لقحت في الشرق بمؤثرات اغريقية وفارسية ، شأن العلوم والآداب التي استمدها العرب أو لحقتها نفس المؤثرات .

بيد أن هذه الموسيقَى دخلها تغيير متوال على يد الأندلسيين أنفسهم سواء في اللحن أو في الشعر ومن المؤكد أنها مرت بأطوار مختلفة حتَّى انتهت أخيراً إلى الاستقرار في أواخر العهد المريني وإن ما طبع الموسيقَى الأندلسية بطابعها البارز ، هو الموشحات التي لم تكن معروفة لدى العرب من قبل . ولذا لا نستطيع أن نثبت ما يذكره بروكلمان من أن تعدد أسماء القصيدة وأجزائها إنما هو تقليد للشعر الاسباني [١٥] فقد عرف أهل بغداد قبل ظهور الموشحات أنواعاً من النظم تختلف من العامية إلى تنوع القافية .

وكما أن مؤرخي الحركة الفكرية من العرب لم ينكروا قط فضل اليونان والفرس فيما اقتبسوه أو نقلوه من علومهم ، فكذلك لا يعقل أن ينكروا فضل الأوروبيين لو ثبت أنهم أخذوا عنهم في الموشحات طريقة الوزن والتركيب .

وقد أجمعت المصادر العربية على أن مخترع الموشحات التي وضعت خصيصاً للتلحين ، هو مقدم بن معافر (أو معافَى) أحد شعراء بد الله المرواني وأن ابن عبد ربه أخذ عنه هذا الفن ثم تكاثر الموشحون بعدهما وأشهرهم عبادة القزاز أحد شعراء المعتصم بن صُمادِح أمير المرية، وهو من ملوك الطوائف .

---

(19) تاريخ الشعوب الاسلامية ج 2 ص 174 لبروكلمان.

ومن المعلوم أن العصر المرابطي عرف ازدهاراً ملموساً في نظم الموشحات وشيوع الموسيقَى ومن أبرز وشاحي هذا العهد أحمد بن علي المعروف بأعمَى طليطلة الذي يقول في إحدى موشحاته :

ضـــاحك عن جُمان ســـاخـــر عن در
ضـــاق عـــنـــه الـــزمـــان وحواه صـــــــدري

ثم أبو بكر الأبيض وأبو بكر بن باجة ، وابن بقي يحيَى بن عبد الرحمن ، ثم أبو بكر بن قزمان الذي اشتهر بالابداع في فن الزجل بعد أن سبقه آخرون لا نعرفهم . والزجل شعر عامي شبيه بالموشحات التي وضعت أساساً بالعربية ، ومما لا ريب فيه أن عامة أهل الأندلس وجدوا في الزجل من حرية النظم ما لم يجدوه في الموشحات . لذلك انتشر الزجل بسهولة في الأندلس ، كما انتقل بسرعة إلى المغرب الذي يبدو من كلام ابن خلدون أن أهله فاقوا أهل الأندلس في هذا الفن ، ومهما يكن من شيْ ، فإن الزجل الذي استخدم للَّحن على غرار الموشحات ، لم يكن بعيداً بدوره عن الفصحَى . ونجد في هذا الفن الشعبي كلمات دارجة ما تزال تستعمل حتَّى الآن بالمغرب ولو أتيح جمع أكبر كمية من الأزجال الأندلسية والمغربية منذ هذا العهد على يد متخصص ، لأمكن أخذ نظرة لا بأس بها عن تطور بعض الكلمات العامية واللهجة المستعملة في تلك الأيام . ومن أمثلة الزجل الأندلسي في عهد المرابطين قول ابن الزاهر الاشبيلي :

نشب والهوى من لج فيه ينشب ترى اش كان دعاه يشقى ويتعذب
مع العشق قام في حالو يلعب وخلق كثير من ذا اللعب ماتو

ومن الواضح أن فن الموشحات قد انتقل إلى المغرب ، وبما أنه صادف عصر المرابطين ، فإنه لم يتسع مداه بالمغرب بقدر ما نما وترعرع بالأندلس التي كانت قد اعتادت حياة اللهو والطرب وتعاطَى أدباؤها بوفرة فن التوشيح ، بينما كانت جدية الحياة بالمغرب أبرز وأشمل ، غير أنه يستحيل أبداً أن لا تكون الموشحات قد أخذت طريقها الضيق إلى المغرب في هذا العهد ، إذ نشاهد عدداً كبيراً من الزجالين لمعت أسماؤهم فيما بعد ، وقد جاء الزجل مرحلة بعد الموشحات ، كما أن المغاربة أحدثوا أنواعاً جديدة شبيهة بالموشحات وسموها عروض البلد.

ولقد انتقلت الموشحات إلى الشرق عَلَى يد أشخاص مجهولين لم يكشف البحث حتَّى الآن أسماءهم ، إلا أننا نعلم أن الموشحات الأندلسية قد ازدهرت في عهد

الأيوبيين معاصري الموحدين ، وأول وشاح ظهر اسمه حتَّى الآن هو ابن سناء الملك الذي وضع كتاب (دار الطراز) حيث أثبت فيه موشحاته الخاصة إلى جانب موشحات أندلسية كما برز في هذا الفن أدباء آخرون بمصر وغيرها من بلاد المشرق كابن نباتة وابن الوكيل وصفي الدين الحلي والقاسم الواسطي وغيرهم .

بل إن الموشحات تجاوز أثرها المشرق إلى أوربا عن طريق التروبادور والموريسكيين ولا يزال أثر التلحين بارزاً في الموسيقَى الكنسيّة الكريكورية حتَّى الآن[20] وكل من الموسيقَى الأندلسية والكريكورية يرجع إلى أصول اغريقية قديمة .

ولقد أصبحت الموسيقَى الأندلسية منذ عهد المرينيين ثم فيما بعدهم تتطعم بمؤثرات مغربية في بلاد المغرب ، كما أدخلت عليها تعديلات وزيادات هامة لم تفقدها على كل حال اطارها الأصلي .

وإذا كانت الموشحات قد ركد سوقها في المغرب أيام الموحدين ، بل وحتَّى في الأندلس ، وذلك لطغيان الزجل وانتشاره فإن ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك قد عملا على إحياء هذا الفن الموسيقي نظماً وجمعاً. وقد وضع الأول كتابه المعروف (جيش التوشيح) وضمنه موشحات كثيرة وضعها سابقوه.

وإذا تركنا ناحية النظم جانباً ، وهي تتعلق بالأدب وفنونه ، فإن تلحين الموشحات يخضع لنظام موسيقي مضبوط وله مصطلحاته الخاصة ، التي اختلف بعضها حسب البلاد التي دخلت إليها الموشحات .

وهكذا فإن الموسيقَى الأندلسية تتكون من وحدات أساسية تدعى نوبات ، وأصل هذه اللفظة أن الموسيقيين كانوا يتناوبون الغناء حسب تلاحينهم الخاصة ، ولكل نوبة طبع أي نغمة معينة كما أن لكل نوبة خمسة ميازين ، وقد احتفظ المغرب باحدى عشرة نوبة أو طبع (modes) وهي المَايَة ، ورمل الماية ، والعشاق ، والأصبهان ورصد الديل والاستهلال والحجاز الكبير ، وعرق العجم والغريبة ، والحجاز المشرقي في الرصد .

ولكن الميازين نفسها لم يبق منها إلا خمسة، والخامس من ابتكار المغاربة وهو الدرج ، والباقي هو البسيط ، والقائم ونصف ، والبطايحي ، والقدام .

---

(20) محمد الفاسي ، جريدة العلم 11 يناير 1962.

وهكذا يبدأ الجوق أولاً بتقديم الآلات ثم يشرع في التوشية وهي قطعة صامتة ذات إيقاع معين ، كما ينتقل في الميازين الخمسة على الترتيب السابق الذي ينتهي بالدرج .

ولكل من هذه الميازين وحدات موسيقية ، إما من نوع التواشيح أو الزجل أو الشعر العربي الفصيح المنظوم في احد البحور العادية . وهذه الوحدات تدعَى صنائع ، وقد تتعدد كثيراً من حيث اللحن .

وللطبوع أو النوبات الاحدى عشرة معانٍ خاصة شرحها الأستاذ محمد الفاسي في محاضرة قيمة :[21].

1 — المـايـة : تدل على الفرقة واصفرار الشمس.
2 — الـعشـاق : تدل على طلوع النهار وتدفق الماء وفصل الربيع .
3 — الأصـبـهـان : الاستعطاف والرحمة.
4 — رصد الذيـل : الصبر والاستسلام.
5 — الإستـهلال : تذكر الفرقة وهِجران الحبيب.
6 — الحجاز الكبير : بلوغُ الأماني والشعور بالاطمئنان والسعادة.
7 — عرق العجم : اليأس وانقطاع الأمل.
8 — الغريـبة : الحزن والأسى.
9 — الحجاز المشرقي : الرقة واللطف.
10 — الـرصـد : العزة والإباء.
11 — رمـل الماية : في الأصل للتغزل ثم تحول لمدح النبي ﷺ وما تتمثل فيه صفات السمو والجلال.

هذه أهم ميزات الموسيقَى الأندلسية المغربية التي كادت تندثر لولا عناية بعض الهيئات الفنية التي عملت على بعثها من جديد . وقد كانت فاس والرباط وتطوان أهم مراكز هذه الموسيقَى ، ولا يزالُ لها قصب السبق حتَّى الساعة .

---

(21) العلم 12 يناير 1962 الاستاذ محمد الفاسي .

بـنـو وطاس

(876 - 961هـ/1471 - 1553م)

1) **العالم في هذا العصر.**

2) **نشأة الدولة وتطور الأحداث في عهدها :**

أصل الوطاسيين — عامل تأسيس الدولة — محمد الشيخ (876 — 910) — فتح فاس وبناء شفشاون — الحركات الانفصالية — تدخل البرتغال في عهد محمد الشيخ — أبو عبد الله محمد البرتغالي (910 — 932) — تدخل البرتغال في عهده — ظهور السعديين — أبو حسون علي بن محمد (932) — أبو العباس أحمد (932 — 956) — اشتداد الصراع بين الوطاسيين والسعديين — أبو حسون (961) — نهاية الدولة .

3) **عوامل سقوط الدولة.**

4) **أهمية أعمال الدولة .**

5) **السياسة الداخلية.**

6) **علاقات المغرب الخارجية :** مع الدولة العثمانية — مع السودان — مع الشرق الإسلامي — مع الدول المسيحية : (البرتغال ، بريطانيا ، فرنسا).

7) **الحياة الدينية :** تطور الحركة الصوفية — حياة بعض كبار المتصوفة : (عبد العزيز التباع — عبد الله الغزواني — أحمد زروق ومتصوفة آخرون) — اليهود والنصارى.

1 - العالم في هذا العصر

العالم الإسلامي :

يمثل هذا العصر فترة بسط النفوذ العثماني على كثير من دول العالم ، بعد أن تمكن محمد الثاني من فتح القسطنطينية سنة 1453 أي قبل ظهور الوطاسيين. ولقد قام هذا السلطان بجهود عظيمة في نشر الحضارة بالبلاد التركية ، فأنشأ الخزائن والملاجئ والمستشفيات والترسانات ، ووسع نفوذه في البلاد المجاورة ، وأخضع المجر بعد حروب عنيفة كما شمل نفوذه بلاد اليونان ، وأناخت عساكِرُه بكلكلها على جيوش البنادقة الذين تخلوا مكرهين عن سيطرتهم على البانيا لصالح محمد الفاتح منذ سنة 1479م.

وامتاز عهد السلطان سليم بن بايزيد بفتوحات عظيمة في البلاد الإسلامية ، فضم إليه سورية سنة 1516 م بعد أن فشلت جهود قانصو الغوري في المحافظة عليها حتَّى لقد لقي حتفه فيما هو يلوذ بالفرار في معركة مرج دابق الحاسمة، ولم تكد تمضي سنة على فتح سورية حتَّى تمكن السلطان سليم من فتح مصر وسحق المماليك الجراكسة بها . كما اعتقل آخر خلفاء الدولة العباسية ، المتوكل على الله وشنق السلطان طوماي باي . وكان سليم مشهوراً بشدة بطشه ، فقاتل سلطان العجم اسمعيل حتَّى اقتحم عاصمته تبريز سنة 920هـ.

وعاد سُليمان القانوني يدوخ جيوش المجر التي عانت هزائم منكرة منذ عهد محمد الفاتح حتَّى لقد توغلت الجيوش العثمانية في الأراضي النمساوية، وحاصرت فينا سنة 937هـ ولم تمض بضع سنوات حتَّى احتلت فارس وبسطت نفوذ الدولة العثمانية على الولايات التابعة لها .

والحق أن العثمانيين طيلة هذه الفتوحات الواسعة ، لم يتخلوا عن الاهتمام بترقية الآداب والعمران فضلاً عن اهتمامهم بإنشاء قوة بحرية ضخمة طالما بثت الرعب على طول سواحل البحر المتوسط .

أما افريقيا الشمالية ، فقد تحولت كثير من موانئها إلى مراكز للجهاد البحري بعد أن هاجرت إليها أسر عديدة من الأندلس . وكان المغربان الأوسط والأدنَى أكثر تعرضاً للخطر الاسباني بسبب ما آلا إليه من تفكك سياسي حتَّى لقد احتل الأسطول الاسباني المرسَى الكبير سنة 932هـ . وقتل أزيد من أربعة آلاف جزائري في وهران التي تم احتلالُها بعد بضع سنوات من احتلال مرسَى الكبير ، ثم تساقطت مراكز المغرب الأوسط شيئاً فشيئا في يد الإسبان الذين صاروا سادة على طول ساحل هذا القطر .

وكان استيلاؤهم على مراكز الشمال الافريقي مُركزاً في الموانئ الساحلية مثلما فعل البرتغال أيضاً. وقد تعرض سكان المغرب الأوسط للنهب والقتل مراراً على أيديهم ، بيد أن ظهور الاخوين عروج وخير الدين التركيين قد هيأ لهذا القطر في شخصهما خير مدافع عن ترابه في حقبة عز فيها النصير ، وسرعان ما تمكن عروج من إنقاذ مدن المغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني بعد صراع مرير ، بينما وجه أخوه خير الدين ضرباته إلى افريقية التي احتلها باسم الباب العالي سنة 942هـ (1535) فانتهت بذلك دولة الحفصيين التي استمرت في الحكم أربعة قرون وسرعان ما شهد هذا القطر أحداثاً مؤلمة في أواسط القرن العاشر الهجري بسبب تدخل شارلكان امبراطور النمسا ، والمذابح التي قام بها الاسبانيون .

العـالم المسيحي :

كان لظهور الدولة العثمانية والقضاء على البيزنطيين أثر بارز في تحول الأحداث السياسية بأوروبا التي أضحت تشعر بخطر محقق أمام الزحف العثماني السريع ، وفي هذا العصر ظهرت الدولتان الاستعماريتان الأوليان في تاريخ أوروبا الحديث ، وهما البرتغال واسبانيا . وقد انطلق المغامرون من كلتا الدولتين يجوبون بقاع الأرض التي كانت مجهولة لدى الأوروبيين إلى ذلك الحين على الأقل ، فوصلت سفنهم إلى الهند ورأس الرجاء الصالح ، كما تمكن الاسبان من وضع أقدامهم لأول مرة بأمريكا بفضل كريستوف كولومبس الايطالي الذي اكتشفها سنة 898 (1492) وكان للبرتغال مستعمرات في الهند والصين وافريقيا وأمريكا . ولما كان هؤلاء وأولئك يبحثون عن الذهب في المناجم ، فقد اضطروا إلى استقدام أيد عاملة جديدة من افريقيا ، وكانوا يشترونهم كعبيد بأبخس الأثمان ويسوقونهم مغلولين الى السفن التي

تشحنهم إلى أمريكا . ومن ثم نشأت طبقة السود بأمريكا ، تلك الطبقة التي لا تزال حتّى الساعة تعاني الاهوال من التمييز العنصري .

وشهد العصر الوطاسي ثم السعدي صراعاً مريراً بين الكاثوليكية وغيرها من المذاهب الدينية المسيحية التي ظهرت في النصف الأول من القرن السادس عشر ، وذلك بسبب الثروات الطائلة التي نعم بها رجال الكنيسة ، وشهدت البابوية محنة ما تقدم نظيرها في تاريخ المسيحية ، ودعا لوثر الألماني إلى رفض طاعة البابا والرجوع إلى الكتاب المقدس مباشرة مما يذكرنا بموقف المنصور الموحدي من المذاهب الفقهية في الإسلام . وفي لجة هذه الأحداث ، كانت المطبعة قد شقت طريقها بين دروب النهضة الحديثة ، فكان فضلها في نشر المعرفة والعلوم لا يقدر بثمن .



2 – نشأة الدولـــة
وتطور الأحداث في عهدها

أصل الوطاسيـــن :

ليس من اليسير تحديد أصل بني وطاس ، لأن بني مرين لم يكونوا قبيلة واحدة ، بل كانوا قبائل متعددة . وإذا أخذنا بقول صاحب الذخيرة[1] ، فإن بني وطاس ينتمون إلى صنهاجة ، وبالتالي إلى لمتونة ، فهم كما يقول هذا المصدر : «من ولد وطاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين ، ملك المغرب بأسره ، والأندلس بأسرها(؟) وبلاد القبلة إلى السودان ، وخطب له على أزيد من ألفي منبر ، وبنو وطاس مجمعون على ذلك ، والقوم أعرف بأنسابهم . وسبب دخولهم في قبائل بني مرين أنه لما انقضت أيامهم وغلبهم الموحدون على ملكهم ، خرج جدهم وطاس سبن المعز بن تاشفين ، فاراً بنفسه من تلمسان أمام عبد المومن بن علي أمير الموحدين القادمين عليهم ، فلحق ببلاد الزاب ، ولجأ إلى أحياء بني مرين فاستجار بهم فأجاروه ، فلم يزل مقيما بين أظهرهم هو وبنوه وذريته من بعده في أحسن جوار وأعز دار إلى أن ظهر بنو مرين على المغرب ، وغلبوا الموحدين على ملكهم ، واستوطنوا بلاده ، فكانوا من جملة قبائلهم محسوبين في عددهم ، وكان لهم فيهم رياسة ».

وقد بدأت المحاولات الأولى لانتقاض الوطاسيين على بَني عبد الحق ، وهؤلاء ما يزالون في حرب مع الموحدين[2] ، أي حوالي سنة 646هـ مما جعل الأمير أبا يحيَى يرحل عنهم من كان معهم من بني مرين ، كما ساعد الوطاسيون بني غانية من قبل ، في حربهم مع الموحدين ، ولما قدموا من المغرب الأوسط مع بني مرين ، أقطعهم يحيَى ناحية الريف ، وكان مركزهم هناك بحصن تازوطا ، ولكنهم ثاروا مرة أخرى على الدولة المرينية ، حيث طردوا عامل يوسف بن يعقوب سنة 691هـ ، مما جعل السلطان يتدخل بنفسه لوضع حد لهذه الثورة كما مر في ذكر أعماله .

---

(1) الذخيرة السنية ص 19 لمؤلف مجهول.
(2) الذخيرة السنية ص 80.

وقد كان المرينيون مع ذلك يتقون شرهم ، بتعيينهم في الوظائف السامية ، وكان بينهم القاضي المشهور أبو الحسن الصغير ، والوزير زيان بن عمر، والوزير أبو زكرياء يحيَى .

عوامل تأسيس الدولة :

سواء أكانت دولة بني وطاس امتداداً لدولة بني مرين، أمْ محاولة لإعادة حكم الصنهاجيين وهو ما نميل إلى اعتقاده، فقد كان بنو وطاس يرمون إلى محاولة إنقاذ البلاد من الفوضَى التي ضربت أطنابها يومئذ في كل ربع من ربوعها ، حيث تشوف إلى ملك المغرب كل من الاسبان والبرتغال ، فضلا عن الخطر الذي كان يهدده من الأتراك الذين تمكنوا من الاستيلاء على المغرب الأوسط قبل قيام الوطاسيين .

وإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة هجرة الأندلسيين إلى المغرب ، وبعض المحاولات التي تجلت في عدد من المدن من أجل تأسيس إمارات أو جمهوريات صغيرة مستقلة ، عرفنا نوايا الوطاسيين وبعض العوامل البارزة التي أدت إلى تأسيس دولتهم ، وقد كانت رغبتهم صادقة في توحيد صفوف المغاربة تحت ادارة مركزية يخضع لها الجميع ، حتَّى يمكنها مجابهة الخطر الخارجي الذي اندلعت ناره من كل جانب ، وإذاً يمكننا أن نلخص عوامل تأسيس دولة الوطاسيين فيما يلي :

1 ــ محاولة إيجاد حكومة مركزية يعترف بشرعيتها كل المغاربة .

2 ــ محاولة ضبط الشؤون الداخلية ، سياسياً وإدارياً حتَّى يتم القضاء على أصحاب الفتن ، ويستعيد المغرب ازدهاره .

3 ــ محاولة القضاء على الخطر الخارجي .

وسنرى إلى أي حد ، وفق الوطاسيون أو فشلوا في المهمة التي من أجلها قامت دولتهم ، مع العلم بأن هذه العوامل تتقارب في الواقع مع أهداف الدولة .

محمد الشيخ (876 - 910هـ/1471 - 1505م)

فتح فاس وبناء شفشاون 876هـ :

نجا محمد من بطش عبد الحق بن أبي سعيد سنة 863هـ ومعه محمد الحلو من بني وطاس ، وكان محمد الشيخ قد وجه همه منذ البداية إلى محاولة انقاذ ما يمكن

انقاذه من الاحتلال الأجنبي ، فاستولى على أصيلا التي كان البرتغال قد تشوفوا إلى الاستيلاء عليها وبدأوا يستعدون لذلك ؛ وأثناء ذلك كان يدعو لنفسه سرّاً إلى أن تمكن من الاستيلاء على فاس سنة 876هـ (1465م) ولجأ أبو عبد الله الحفيد الذي نصبه أهل فاس إلى تونس ؛ وفيما كان محمد الشيخ يحاصر فاساً ، استولى البرتغال على أصيلا ؛ فاضطر إلى عقد هدنة معهم قبل أن يفرغ من فتح فاس .

وفي هذه السنة تم تأسيس شفشاون على يد الحسن بن محمد من سلالة عبد السلام بن مشيس الصوفي المشهور ، والحسن هذا هو أحد الزعماء الذين ترأسوا المقاومة بناحية سبتة ، ثم استقل بالمدينة بعد مقتل الحسن ، ابن عمه علي بن موسَى ابن راشد ، وبقيت بأيدي ابنائه وذريته أزيد من قرن ، وقد تمكن محمد الشيخ مع ذلك من التغلب عليهم ، ولكنه ترك المدينة تحت حكمهم المباشر[3].

الحركات الانفصالية :

تمزقت الوحدة السياسية في المغرب بشكل خطير في عهد محمد الشيخ . وقد رفض كل من بني راشد وأبي الحسن المنظري الهدنة التي عقدها محمد الشيخ مع البرتغال في عهد الفونس الخامس ، فظلوا يضايقون الجيش البرتغالي عند أصيلا حيث تمكنوا من تحطيم عدد من سفنهم بحوضها .

ولم يكن بنو راشد وحدهم ممن انفصلوا بشكل أو بآخر عن الحكومة المركزية ، فقد ظل بنو هنتاته منذ عهد الموحدين مستقلين استقلالاً ذاتياً بمراكش ، واستمر أمرهم كذلك في عهد بني وطاس، بينما قامت دويلة صغيرة من بني مرين بِدَبْدُو، حيث أسسوا قصبة كبيرة . واضطر محمد الشيخ إلى أن يخطب ودهم في النهاية عن طريق تزويج بنتين له وذلك بعد محاولات فاشلة لإخضاعهم ، وكان زعيم ثورتهم محمد بن أحمد المريني الورتاجني . وكانت مدينة أنفا شبه جمهورية مستقلة في أواخر عهد بني مرين مع خضوعها في فترات طويلة للبرتغال . وفي الجنوب ثار شخص يدعى عمر بن سليمان المغيطي الذي اشتهر بالسياف ، وذلك منذ قتل الإمام محمد بن سليمان الجزولي سنة 870هـ الذي قيل إنه مات مسموماً على يد بعض الفقهاء . وكان يدعي العلم بالغيب ويطوف بشلو الشيخ الجزولي مثيراً بذلك عطف الناس حتّى ينتقموا له ، واستمرت ثورته نحو عشرين سنة ، وقد قتل فيما يقال سنة

---

(3) منظومة محمد الكراسي – تاريخ تطوان 1 ض 149 لمحمد داود.

890هـ على يد زوجة الجزولي أو بنته ، ولم يظهر أثر لتدخل محمد الشيخ في الجنوب بالرغم من خطورة انتفاضاته ، وفي أوائل دولة محمد الشيخ بدأ اختطاط تطوان الجديدة على يد أبي الحسن المنظري الذي استقل بدوره بهذه المدينة وتزعم حركة المقاومة ضد برتغال سبتة . وقد تمت عمارة المدينة بسبب أفواج الأندلسيين الذين اختاروها مقراً لهم ضمن الأماكن الأخرى التي لجأوا إليها بعد سقوط غرناطة سنة 898هـ ولم يكن أبو الحسن المنظري بقادر على مقاومة المسيحيين بالأندلس حيث كان يحالفهم ابن الأحمر(4) وكان ضمن القادمين من الأندلس أبو عبد الله بن الأحمر آخر ملوك غرناطة الذي فضل المقام بفاس على الرغم من العروض التي تلقاها من عدة ملوك بالشرق . وقد توفي قتيلاً في بعض حروب الوطاسيين مع السعديين سنة 946هـ.

تدخل البرتغال في عهد محمد الشيخ :

بدأ استيلاء البرتغال على الثغور المغربية منذ عهد أبي سعيد عثمان المريني :

1 — احتلوا سبتة سنة 818هـ (1415م) ثم القصر الصغير سنة 1458م.

2 — سنة 1468م (873هـ) أي في عهد أبي عبد الله الحفيد ، استولوا على آنفا ، وكانت شبه جمهورية مستقلة منذ أواخر عهد بني مرين ، وكان احتلالها على يد دون فرديناند الذي قاد لفتحها أسطولاً من خمسين قطعة وجيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل . وبعد أن هدموها بنوا مكانها مدينة جديدة باسم الدار البيضاء(5) ، ولم يشرعوا في بنائها إلا حوالي سنة 921هـ.

3 — سنة 876 (1471) أي عند قيام دولة الوطاسيين ، احتل البرتغال أصيلا بأسطول من 308 باخرة وثلاثين ألف مقاتل ، وبلغ أسراهم المغاربة خمسة آلاف كما بلغ قتلاهم من المغاربة ألفين . وقد عمدوا فور احتلالهم لأصيلا إلى تحويل مسجدها الأعظم إلى كنيسة . ولم تلبث طنجة أن سقطت في أيديهم في نفس السنة . وحاول السلطان محمد الشيخ أن يهاجم سبتة سنة 1476م كما هاجم البرتغال عند أسفل وادي اللكوس سنة 1489م ووفق في هذه المرة الى حملهم على الانسحاب من حصن أقاموه هناك وعقد هدنة معهم . وبفضل مقاومة مجاهدي سلا

(4) Cour Auguste : Le Dynastie marocaine des B. Wattas p. 78.

(5) Castonnet des Fosses : Les Portugais au Maroc P. 10

وتطوان ، فشل البرتغال في احتلال القصر الكبير سنة 1503 بينما استطاع الاسبان أن يحتلوا مليلية سنة 1496م.

4 — سنة 910هـ (1505م) احتلوا موقع أكادير الحالية وبنوا بها حصناً يتوفر على عين ماء طبيعية وسموه حصن فونتي . وفي هذه السنة توفي محمد الشيخ مسموماً على الأرجح ، ومعه أربعون رجلاً لقوا نفس المصير[6].

أبو عبد الله البرتغالي (910— 932هـ / 1505 – 1524م)

بعد وفاة محمد الشيخ تولى ولده محمد المدعو بأبي عبد الله البرتغالي ، ولقب بالبرتغالي لأنه كان قد أقام رهينة لدى البرتغال في صباه على اثر هدنة عقدها معهم والده.

تدخل البرتغال في عهد أبي عبد الله محمد :

بالرغم من أن أبا عبد الله البرتغالي تصدى لحرب البرتغال ومهاجمتهم في المواقع التي احتلوها منذ عهد والده ، فقد واصل هؤلاء احتلال مراكز أخرى من المغرب :

1 — سنة 918هـ— 1507م تمكنوا من احتلال آسفي بواسطة قوة بحرية صغيرة لم تكن تزيد على بضع بواخر وألف وخمسمائة رجل، وقد بدأوا محاولتهم لاحتلالها قبل ذلك عن طريق الاستعمار الاقتصادي ، حيث تمكنوا من بناء مركز تجاري بها وكانت يومئذ خارجة عن نفوذ الوطاسيين تحكمها عائلة بربرية وكانت مقاومة أهلها عنيفة بالرغم من أنها لم تكن تتوفر على حامية[7].

2 — سنة 919— 1513 احتلوا أزمور بعد محاولات فاشلة لبناء حصن بها قبل هذا التاريخ[8] ويفهم من اضطراب بعض الروايات التي تتحدث عن احتلال أزمور أن محاولات الاستيلاء عليها تعددت قبل السنة المذكورة[9].

---

(6) تاريخ الدولة السعدية الدرعية ص 15 المؤلف مجهول.

(7) Léon, Description de l'Afrique T 1. P. 118

(8) Caillé, La Petite histoire du Maroc

(9) انظر مجموعة دوكاستري البرتغال/ ج 1 ص 394 وكتاب La petite histoire du Maroc. .Les Protugais au Maroc.
والاستقصا ج 4 ص 142.

3 ــ سنة 907ــ 1502 ، احتلوا ساحل البريجة وكان يوجد به برج يسمى برج الشيخ ، ثم بنوا في الساحل المذكور التحصينات الأولية لمدينة الجديدة ، وقد تم احتلال تيط في نفس التاريخ .

4) سنة 921 (1515) احتلوا المعمورة ، أي المهدية القريبة من القنيطرة . وحاول الناصر أخو السلطان إنقاذها بواسطة قوة بحرية ، ولكنهم تمكنوا بعد انهزام أولي من احتلالها وبنوا بها تحصينات ثم استرجعها أبو عبد الله البرتغالي حوالي سنة 926هـ . وفي سنة احتلال المعمورة من لدن البرتغال بدأ بناء الدار البيضاء وكان موقعها يحمل هذا الاسم قبل هذا التاريخ بزمن طويل .

نشاط أبي عبد الله ضد البرتغال :

حاول أبو عبد الله أن يسترد أصيلا سنة 914هـ حيث تمكن من اقتحام المدينة ، لولا تدخل نجدات برتغالية وردت في آخر لحظة ، كما أنه لم يوفق في استرداد طنجة بعد سبع سنوات من هذا التاريخ . وفي سنة 1514م خرب رباط تيط الذي كان قد لجأ إليه البرتغال . ثم في سنة 1515 م حاول أن يستأنف الهجوم على أصيلا فأخفق في الاستيلاء عليها ، ولكنه تمكن من استرجاع المهدية كما تقدم .

ظهور السعديين :

ولم يلبث أبو عبد الله في الملك سوى حوالي خمس سنوات حتّى ظهر الأشراف السعديون بناحية السوس التي اشتغل أهلها بحرب البرتغال الذين استقروا هناك بحصن فونتي كما تقدم . ورأى السعديون الفرصة سانحة للتدخل ، فقادوا الحرب في البداية باسم الجهاد ضد النصاري ، حتّى إذا آنسوا من أنفسهم الاستعداد للثورة ضد الحكم القائم ، استعانوا بأمراء هنتاتة ، واحتلوا مراكش سنة 930هـ . وبينما كان أبو عبد الله البرتغالي يحاصر السعديين في مراكش وأميرهم يومئذ أبو العباس الأعرج بلغه خبر انتفاض فاس ومبايعة أهلها لأحد اخوته ففك الحصار عن مراكش ، وعاد إلى فاس ليقتص من ثوارها ، ثم لم يلبث أن توفي سنة 932هـ.

أبو حسون (932هـ / 1524 م)

أبو الحسن علي بن محمد الشيخ تولى بعهد من اخيه ابي عبد الله البرتغالي وكان يلقب بأبي حسون، ولكنه لم يلبث في الملك بضعة أشهر حتّى خلفه ابن أخيه أحمد في نهاية سنة 932هـ، وكان مشهوراً بالبخل[10] .

---

10 ــ منظومة الكراسي : تاريخ تطوان 1 ص 153 لمحمد داود.

أبو العباس أحمد (932 - 956هـ / 1548م)

أبو العباس أحمد بن محمد الوطاسي تولى بعد خلع أخيه في نهاية سنة 932هـ. وبما أن الخطر السعدي كان قد بدأ يستفحل يومئذ ، حيث أن الأشراف لم يكتفوا بالاستيلاء على ناحية السوس بل بدأوا يوسعون رقعة نفوذهم شمالاً وشرقاً ، فإن أبا العباس قد اضطر إلى عقد هدنة جديدة مع البرتغال الذين كانوا قد احتلوا مواقع كثيرة من بلاد الهبط (الغرب) وكان مركزهم فيها يومئذ بأصيلا . وكان هدف أبي العباس محاصرة مراكش والتخلي مؤقتاً عن حرب البرتغال . وبقرب هذه المدينة عند زاوية سيدي رحال الكوش تم اللقاء بين أبي العباس الأعرج وأبي العباس الوطاسي في مكان يعرف بآنماي ولكن الجيش الوطاسي انسحب بعد قليل ، دون أن يظفر بدخول مراكش التي تكررت محاولا فتحها عبثاً بعد معركة آنماي سنة 935هـ.

والظاهر أن الشعب المغربي نفسه قد سئم من الانقسامات السياسية التي استغلها المسيحيون لصالحهم ، فتوسعوا في أطراف المغرب التي استعمروها سياسياً واقتصادياً ، فتولى جماعة من العلماء والصلحاء أمر الصلح بين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس الأعرج ، وكان بينهم أبو الرواين المحجوب ، وأبو حفص عمر دفين زرهون، وعبد الواحد الونشريسي وغيرهم ، وتم الاتفاق كتابة على أن يكون ما بين تادلا والمغرب الأوسط للوطاسيين وما بين تادلا والسوس للسعديين وكان ذلك سنة 940هـ .

والظاهر أن السعديين لم يحترموا نصوص المعاهدة، حيث لم تحل نهاية سنة 942هـ حتّى أعدوا العدة لدخول فاس العاصمة، ولكن أبا العباس الوطاسي لاقاهم بجيش جرار عند مشرع أبي عقبة قرب وادي العبيد بتادلا. وبعد عراك استمر عدة أسابيع انهزم الوطاسيون مخلفين مئاتهم من القتلَى كما استولى أحمد الأعرج على قصبة تادلا في أوائل صفر 943هـ . وكانت وقعة أبي عقبة من أهم المعارك الفاصلة بين الفريقين . وبعد هذه الأحداث استولى محمد المهدي السعدي على الملك من يد أخيه أحمد وتجدد اللقاء بين الوطاسيين والسعديين بتادلا عند وادي درنة سنة 952 حيث انهزم الوطاسيون وتم أسر قائدهم الأمير أبي زكرياء يحيَى نجل أبي عبد الله البرتغالي .

---

11 - الإستقصا 151/4 للناصري.

واستمر السعديون بعد ذلك ينقضون على المراكز الوطاسية على التوالي إلى أن تمكنوا من الوصول إلى فاس التي حاصروها مدة سنة واستولوا عليها عام 956 بعد أن قتلوا الفقيه الونشريسي غدراً ولم يكد محمد المهدي يستولي على فاس حتَّى اعتقل الوطاسيين وعلى رأسهم أبو العباس الذي عاش تحت الحراسة بمراكش إلى سنة 960هـ وفيها كانت وفاته. وكان أبو العباس الوطاسي كباقي أسلافه شديد الاعتقاد في الصلحاء يعمل بتوجيههم ويتقرب إليهم. وكان الفقيه عبد الواحد الونشريسي من أبرز مستشاريه[12] وقد نجا من قبضة السعديين أبو حسون الوطاسي الذي لجأ إلى الترك بالجزائر.

وأثناء هذه الأحداث لفظت بقايا دولة بني زيان بتلمسان أنفاسها بعد أن استولى الإسبان ثم الأتراك على معظم المغربين الأدنَى والأوسط ولجأ الأمير أحمد الزياني وحاشيته إلى دبدو التي استولى أميرها عمر المريني سنة 952 على أموالهم وأساء معاملتهم على الرغم من التجائهم إليه.

أبو حسون الوطاسي (961هـ / 1553م)

تقدم أن أبا حسون الوطاسي تولى الملك بضعة أشهر سنة 932هـ وبعد اعتقال المهدي السعدي للوطاسيين سنة 956، فر أبو الحسن إلى الجزائر مستنجداً بأتراكها بعد أن حاول الاستنجاد بملك إسبانيا ثم البرتغال. وفي سنة 961 تمكن من إقناع الأتراك بمساعدته ووعدهم بالأموال والغنائم وقدم الجيش التركي بقيادة صالح التركماني ودخل فاساً بعد معارك شديدة مع السعديين. أما محمد المهدي فقد فر إلى الجنوب في انتظار إعادة الكرة على فاس. ثم انصرف الجيش التركي بعد أن ضايق سكان فاس واعتدى على الأعراض، وبدأ في النهب والسلب. وحينئذ قدم الجيش السعدي من مراكش في أواخر سنة 961 واستولى على فاس من جديد بينما قتل أبو حسون في معركة فاصلة بتادلا في نفس السنة.

(12) تم اعتقال أحمد الوطاسي مرتين كما سيتضح عند الكلام على عهد محمد المهدي السعدي. ولكن المصادر لا تتفق فيما إذا كان اعتقاله مرتين.

3 - عوامل سقوط الدولة

1 ـ كان الغزو الأجنبي أعظم خطر هدد الوطاسيين منذ نشأة دولتهم ، لأن البرتغال على الخصوص فتحوا عدة واجهات حربية بالمغرب في أوقات متقاربة وكانوا أعظم تسلحاً وتنظيماً . وهدد الاسبان بدورهم شمال المغرب ، لأنهم احتلوا مليلية منذ سنة 1496م.

2 ـ احتفظت عدة مراكز باستقلال ذاتي كمراكش وتطوان وشفشاون التي احتفظ بإدارة كل منها عائلة معينة يتوارث أفرادها رئاستها . ولم يكن هذا الاستقلال الذاتي بطبيعة الحال مما يحفظ للدولة هيبتها ويسهل مهمتها الحربية والإدارية .

3 ـ اشتد نفوذ الصلحاء بشكل لم يعرف له مثيل من قبل . وفزع الناس إليهم بعد أن لمسوا ضعف الدولة وعجزها عن حماية الأراضي المغربية من الاعتداء الأجنبي . وقام بعضهم بالتوجيه الروحي وآخرون بالقيادة الفعلية في عدد من الواجهات محاولين بذلك أن يدرأوا عن البلاد ما تعرضت له من الاحتلال ولكن كثيراً من الخوارق نسب إلى بعضهم . ووجد الدجالون بدورهم سبيلاً إلى قلوب العامة السذج . كما فعل عمرو بن سليمان السياف الذي استمرت ثورته عشرين سنة ضد الدولة نفسها .

4 ـ كاد قيام السعديين يساير قيام الدولة الوطاسية ، فشغلوهم بذلك عن صد الخطر الأجنبي طيلة عقود من السنين ، ولم يمدوا إليهم صادق العون حتَّى في أحرج الظروف . واشتَغَلَّ السعديون نسبهم إلى آل البيت وهم معظمون في قلوب المغاربة فراحوا يعملون على تحويل الأمر إلى أيديهم .ولعلهم وفقوا حيث فشل الوطاسيون .

5 ـ الظاهر أن الوطاسيين لم يكونوا قساة أو سالكين سبيل الصرامة على الأقل ضد المتمردين على الدولة . وكانوا على العموم يسايرون الرغبة الوطنية حتَّى ولو كانت مصلحة الدولة فى غير تحقيقها . كما أنهم لم يستعملوا بعض الوسائل التي

لجأ إليها بعض أسلافهم من ملوك الدولة عندما تدعو الحاجة كاغتيال خصومهم وتفقيرهم ونحو ذلك. فكانت استقامتهم في تلك الظروف وبالاً عليهم.

6 — لم يحاول الوطاسيون أن يدخلوا تطوراً يذكر على خططهم العسكرية أو أسلحتهم التي ظلت دون أسلحة أعدائهم الأجانب كماً وكيفاً، لأن مصانعهم الحربية كانت لا تفي بحاجة البلاد فضلاً عن افتقارهم إلى الجيش المنظم الكافي من حيث العدد.



4 – أهمية أعمال الدولة

عجز الوطاسيون عن توحيد المغرب سياسياً فكانت هناك مراكز كثيرة خارجة عن نفوذهم :

1 – مليلية وغساسة بيد الاسبان.

2 – سبتة وطنجة وأصيلا وبلاد الهبط والقصر الصغير وأزمور ؤمازيغان (الجديدة) وآسفي وأنفا وأكوز (على شاطئ المحيط عند وادي تانسيفت) وأكادير وماسة بيد البرتغال.

3 – تطوان بيد بين المنظري.

4 – شفشاون (أو شيشاون أو الشاون) بيد بني راشد.

5 – دبدو وتازوطا بيد بني مرين.

6 – مراكش بيد هنتاتة، بالإضافة إلى مراكز ثورية بيد أشخاص مختلفين وأخيرا فإن منطقة السوس خضعت لنفوذ السعديين منذ أيام أبي عبد الله البرتغالي. أما عموم منطقة الريف وسهول المحيط وجبال الأطلس والنواحي الشرقية والجنوبية الشرقية، فقد كان نفوذ الوطاسيين فيها قوياً بوجه عام كما أن بعض المراكز المستقلة كشفشاون وتطوان كانت تتعاون تعاوناً وثيقاً معهم بحكم الصهر الذي ربط ملوكهم بهذه المراكز، أو اعترافاً بالسيادة الرسمية للحكم القائم بفاس.

وبالرغم من أن بدو العرب ظلوا ينهبون بعض المناطق الغنية، وأن عدة قرى ومدن قد قل عمرانها بسبب عدم الاستقرار السياسي، فلا نرى أن وجودهم قد وضع مشكلة عنصرية كما يتوهم بعض المؤرخين، كما أن هؤلاء العرب لم يعد لهم أثر سياسي يذكر في توجيه الدولة التي كانت على العكس من ذلك تستخدمهم باطمئنان في معاركها.

ولم يحاول الوطاسيون أن يلجأوا إلى عون خارجي إلا في آخر لحظة من حياة دولتهم وكانوا في ذلك يراعون الشعور الوطني ولكنهم مع الأسف لم يحددوا لسياستهم خطة معينة منذ البداية ، مثلما فعلت دول المغرب التي سبقتهم ، فترددوا بين محاربة المسيحيين المهاجمين وبين الخضوع لتوجيهات الصلحاء ومقاومة بعض الحركات الانفصالية أحياناً والإغضاء عن نشاط بعضها أحياناً.

على أن كل هذه الاعتبارات لا ينبغي أن تنسينا أن الوطاسيين قد بقوا وحدهم تقريباً بين الدول الإسلامية التي لم تخضع لنفوذ أجنبي. فقد تهافت البرتغال والإسبان والعثمانيون وغيرهم من الدول القوية يومئذ على الممالك والدول الضعيفة التي غلبت على أمرها فأصبحت تشكل أجزاء من الإمبراطورية الاستعمارية. وقد عمد الوطاسيون إلى الاعتراف بالسيادة الرسمية للخليفة العثماني دون أن يكون للأتراك نفوذ مباشر. وحتّى بالنسبة إلى البرتغال والاسبان الذين تسلطوا على الشواطئ المغربية فإنهم في معظم الأحيان لم يتجاوزا المراكز الساحلية إلى الداخل نظراً للمقاومة العنيفة التي أبدأها الشعبيون فضلاً عن تدخل الوطاسيين.

ولم يخل عهد الوطاسيين مع ذلك من نشاط متعدد الوجوه سواء في العلاقات الخارجية أو في ميدان الفكر والعمران وما إلى ذلك من مظاهر الحضارة.



5 – السياسة الداخلية

قامت سياسة بني وطاس في الميدان الداخلي على الأسس التالية :

1 – الاكتفاء بنفوذ رمزي على بعض المراكز التي تصدت لكفاح المسيحيين مثل تطوان والشاون أو التي عجزت الدولة عن اخضاعها حربياً ولكنها لم تر في رؤسائها رغبة في توسيع رقعة نفوذهم مثل دبدو.

2 – تعظيم الصلحاء والخضوع لتوجيهاتهم والإغضاء عن تدخلاتهم.

3 – مسالمة السعديين في أغلب الأحيان، ولو أن هؤلاء كانوا يميلون إلى قلب الدولة بأي ثمن. على أن الاصطدامات الحاسمة بين الفريقين لم تبدأ إلا منذ عهد أبي العباس أحمد.

6 – علاقات المغرب الخارجية

1 – مع الدولة العثمانية :

اعترف الوطاسيون منذ البداية بالسلطة الرمزية للخليفة العثماني على بلاد المغرب فنقشوا اسمه على السكة ، ودعوا له في خطبة الجمعة(1) . والظاهر أن اشتغال الأتراك في الجزائر بحرب الاسبان قد حال دون التفكير في تدخلهم المباشر بالمغرب إلى أن أقنعهم أبو حسون آخر أمراء بني وطاس بمساعدته على حرب السعديين ، فوافق على ذلك القائد صالح الرايس وإلى الجزائر فيما بين سنتي 960 و 963 (1552 – 1555)، وقاد الحملة التركية إلى فاس سنة 961هـ كما سلف . وبمجرد أن انتهت مهمة الجيش العثماني الذي استاء أهل فاس من تصرفاته انسحب إلى الجزائر وبقي منه أفراد قلائل، مما شجع محمد المهدي السعدي على القضاء بسهولة على دولة بني وطاس .

2 – مع السودان :

كان بين محمد البرتغالي وملوك السودان علاقة وطيدة حيث إن ليون الإفريقي صحب عمه في سفارة إلى محمد أسكيا الذي حكم من 1493م إلى 1528م. وكان مرورهما عن طريق درعة حوالي سنة 1509 وظلت سجلماسة حتى ذلك الوقت مركزا تجارياً عظيما يتبادل تجارها البضائع مع مصر والسودان . وكانت القوافل تسير عن طريق ولاتا وبحيرة تشاد . أما الطريق التي كانت تقطعها القوافل خلال القرون الوسطى بين السودان ومصر عبر طرابلس وفزان فقد أهملت قبل ذلك بأكثر من قرن بسبب تسلط الأعراب(2)

3 – مع الشرق الاسلامي :

أما العلاقة مع دول الشرق الإسلامي فقد ضعفت عن ذي قبل ، خصوصاً

---

(1) الترجمان المعرب ص 347 للزياني.

(2) Raymond Mauny, Hespéris, 3 et 4, 1954

وقد صارت كلها تقريباً تحت سلطة العثمانيين ؛ كما اشتد خطر القرصنة المسيحية في عرض البحر الأبيض المتوسط . ولكن ذلك لم يمنع من استمرار التبادل الثقافي وهجرة بعض رجالات المغرب إلى الشرق بقصد الحج أو الاستزادة من المعارف ؛ وأحياناً للقيام بمهمة التدريس في تلك الأصقاع وكان ممن شدوا الرحال إلى الشرق الشيخ زين الدين بن سقين الذي درس على القلقشندي علوم الحديث وتابع دراسته على يد أبي فهد بمكة وغيره ؛ ثم محمد بن عبد الله الزقاق الذي درس بمصر على ناصر الدين اللقاني[3] ، وكانت وفاته ضرباً بالسياط سنة 961هـ.

4 - مع الدول المسيحية :

فتح القرن الخامس عشر م ميداناً للغزو الاستعماري الذي شاركت فيه بعض الدول المسيحية بأساطيلها التجارية والحربية وعلى الخصوص إسبانيا والبرتغال . وكان المغرب ضمن الأقطار التي طمعت البرتغال في استغلالها الاقتصادي كما كان لهذه الدولة أسباب دعتها إلى تقوية وضعها عن طريق الاستيلاء على المواقع الستراتيجية بالمغرب . وكما كان للمغرب علاقات مع البرتغال بحكم الجوار من جهة ، وبحكم الصراع السياسي الذي ظل قائماً بينهما لمدة طويلة من جهة أخرى ، كذلك كان للمغرب علاقات مع دول أخرى كإسبانيا وفرنسا وغيرهما ؛ ولحسن الحظ فإننا بفضل الوثائق التي دونها عدد من الرحالة الأجانب وكذا السجلات الرسمية التي احتفظت بها المصالح المعنية بالأمر في الدول المذكورة أصبحنا نتوفر من المصادر المتعلقة بعلاقات المغرب مع هذه الدول على ما يكفي لإعطاء نظرة حقيقية عن الوضع السياسي وحتَّى الاقتصادي والاجتماعي للمغرب ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي. وعلى العكس من ذلك فالوثائق التي لها ارتباط بعلاقات المغرب مع غير الدول المسيحية في عهد الوطاسيين قليلة نسبياً.

البـرتغال :

لا فائدة من إعادة ذكر مراحل التدخل البرتغالي بالمغرب . ولكن ينبغي الإشارة هنا ببعض التفصيل إلى الأسباب التي عملت على تحقيق حلم البرتغال في الاستيلاء على الشواطئ المغربية :

1 - لم يكن المغرب من الاستعداد العسكري بحيث يستطيع أن يجابه بشكل إيجابي غزو البرتغال .

(3) معطيات الحضارة المغربية ج 1/ص 91 و 92 لعبد العزيز بنعبد الله.

2 ـــ كان البرتغال كالإسبانيين يحلمون بفكرة التعصب للمسيحية والعمل لإعلاء كلمتها وطالما كانوا من أوائل المسيحيين الذين استجابوا بحماس لنداء البابا الذي كان يدعوهم إلى جهاد المسلمين وغزو بلادهم خصوصاً نداءه الموجه إليهم بقصد توسيع فتوحاتهم سنة 1496[4].

3 ـــ إن القوة البحرية التي توفرت عليها البرتغال في القرن الخامس عشر ثم السادس عشر شجعتها بطبيعة الحال على امتلاك السواحل على الخصوص. اما القتال براً فكانوا فيه أقل استعداداً ومقدرة، أو على الأصح كانوا بالنسبة إلى المغاربة أقل شجاعة وبطولة، لذلك نجحوا في احتلال المراكز الساحلية من حيث انهزموا انهزاماً ساحقاً في معركة وادي المخازن وفي معارك أخرى بالسوس والشمال.

4 ـــ العامل الاقتصادي كان من أكبر عوامل الاستيلاء على المراكز الساحلية، فقد كان البرتغال يبحثون عن منافذ لتصريف منتجاتهم التجارية، والمغرب يومئذ من أكثر البلاد المستهلكة اقتصادياً لبعض المواد التي توقف عن إنتاجها أو لم يوفق بعد إلى انتاجها كبعض أنواع الثياب والمدافع والسفن.

وكان البرتغاليون في مقابل ذلك، يحتاجون إلى بعض المواد التي كان المغرب من أكثر الدول المصدرة لها يومئذ كالقمح والجياد.

5 ـــ عامل نشر المسيحية كان أيضاً من عوامل هجوم البرتغال. ولم يترك وجود البرتغال أثراً يستحق الذكر، على الرغم من السنين الطوال التي قضوها في عدد من المراكز لأن أهم ميدان اقتصادي بالنسبة إلى المغرب وهو الفلاحة كان المغاربة لا يزالون متفوقين فيه بمراحل، على كثير من البلاد يومئذ بما فيها البرتغال، كما أن البرتغاليين لم يكونوا ذوي حضارة علمية من شأنها أن تغير المجرى الثقافي بالمغرب ولو كان المسيحيون في ذلك الزمن متفوقين علمياً مع ما حصلوا عليه من قوة بحرية عظيمة لتبدل وجه التاريخ الإسلامي منذئذ، لأن الاستعمار عن طريق الغزو الفكري الذي تواكبه القوة الحربية أشد رسوخاً وأقوى خطراً من أي نوع آخر من الاستعمار.

ولكن الأبراج والمباني العسكرية والمدنية التي تركها البرتغال اكتسبت الدولة المغربية منها فوائد جمة لأنها استخدمتها فيما بعد للدفاع ضد المهاجمين كما بنت

---

(4) Castonnet des Fosses, les Portugais au Maroc p.11

منشآت على غرارها (الصويرة ، الدار البيضاء الخ). ولقد كانت مقاومة المغرب للاستعمار البرتغالي أقوى منها في أي بلد آخر تمكنوا من احتلاله إذا استثنينا صمود العرب على سواحل المحيط الهندي ، وقد كانت مقاومة المغرب فريدة من نوعها اشتركت فيها الدولة على قلة وسائلها إلى جانب سكان المدن مثل تطوان التي تحولت إلى أول مركز للجهاد الشعبي البحري بالمغرب ، وآسفي التي دافع أهلها ببطولة عن مدينتهم قبل أن تسقط في أيدي البرتغال ، فضلاً عن الأولياء والصلحاء الذين ساهم كثير منهم في الدفاع عن تراب المغرب بسلاحه ويده ، ثم السعديين وإن كانوا خصوماً للوطاسيين فقد أنقذوا منطقة سوس من أيدي البرتغال ، كما ناضلوا في سبيل طرد هؤلاء بعد أن استقرت دولتهم .

وكان فشل البرتغال كلياً فيما يخص نشر المسيحية بالمغرب . ولا عبرة ببعض الأفراد الذين تتناولهم بالذكر بعض تقارير المسيحيين والذين اعتنقوا المسيحية لأغراض شخصية مجردة . وقد دونت كثير من التقارير والوثائق عن تبادل الأسارى بين المغاربة والأفرنج . ومن ذلك ما يتعلق بأسارى البرتغال في تطوان وأسارى المغاربة لدى هؤلاء[5] . فتذكر بعض هذه الوثائق أن مركباً وصل إلى إشبيلية في 29 أكتوبر 1523 (نهاية 929هـ)، به خمسة وعشرون من النصارى البرتغال الذين اطلق سراحهم وكانوا بتطوان . ثم تذكر الوثيقة أسماءهم وأسماء مالكيهم السابقين من المسلمين كالقائد المنظري والرايس الغزال بالإضافة إلى شهادة حاكم سبتة ضون خوان دي كورونا الذي يثبت أن الأسارى المذكورين وصلوا إلى سبتة ثم أرسلوا إلى إشبيلية مع بيدرو دي طوليدو المالقي .

وفي سنة 1538 تم عقد معاهدة بين السلطان أحمد الوطاسي وملك البرتغال جان الثالث[6] والتزم الطرفان فيها باحترام الهدنة لمدة إحدى عشرة سنة فأرسل ملك البرتغال مبعوثاً إلى السلطان ، هوباستياودي فرجاس (**Bastias de Vergas**) وكان المبعوث يتحدث بالعربية بطلاقة كما كان يقرأها أيضاً . فكتب عدة تقارير ومراسلات إلى ملكه عن رحلته واتصالاته . وكانت مهمته اقتصادية من الوجهة الرسمية . وكان عليه أن يشتري كميات من القمح لبلاده ويبعث بها عن طريق مينائي المهدية والعرائش .

---

(5) تاريخ تطوان 1 — ص 115 لمحمد داود

(6) **Caillé, La petite histroire du Maroc P.57. T1**

وقد وصف المبعوث السلطان الوطاسي بالسذاجة والضعف، كما وصفه بأنه يتوفر على ذاكرة جيدة. وقد بقي باستياو في بلاط الوطاسيين مدة طويلة إلى أن ذهب إلى أصيلا. ومع أنه جاء موفداً عن ملك البرتغال فقد وجد من بعض المشترين الأجانب منافسين كباراً ومن ضمنهم أخو ملك البرتغال نفسه وقد جاء بدوره إلى المغرب لعقد صفقات تجارية.

بـريطانيـا :

شهدت السنون الأواخر من حكم الوطاسيين إقرار علاقات اقتصادية مع بريطانيا(7) التي أخذ نشاطها الاقتصادي في هذا الوقت يشمل عدة أجزاء من العالم. ففي سنة 1551م (959هـ) أبحرت إلى المغرب من لندرة باخرتان، مجهزتان بالعتاد الحربي بقيادة قرصان قديم يدعَى توماس Thomas Windham واتجهتا نحو أكادير التي كان يسميها البرتغاليون سانتا كروز. ولكن المراجع لا تذكر ما آل إليه أمرهما. إلا أن هذا القائد رجع مرة أخرى إلى المغرب سنة 1552 (960هـ) يقود ثلاث بواخر. ومجموع رجالها 1120 (عشرون ومائة وألف) وبينهم عدد كبير من التجار الذين حملوا معهم من بريطانيا كميات ضخمة من المسك والعنبر والمرجان وغيرها. ورست البواخر بآسفي. ثم قصد عدد من تجارها مراكش براً وتابعت طريقها بعد ذلك إلى أكادير. وكانت منطقة السوس يومئذ تحت حكم السعديين وهم الذين أذنوا للبواخر البريطانية بحمل البضائع التجارية لمبادلتها مع المغاربة هناك وصادف الحال أنهم وجدوا هناك باخرة فرنسية قابلتهم بالمدافع فأفهموا ضابطها أنهم أتوا لمهمة تجارية. ورجعت البواخر المذكورة محملة بالسكر واللوز وغيرهما. وفي رجوعها إلى أنجلترا اعترضتها سفن برتغالية ولكنها استطاعت أن تواصل طريقها بسلام بعد ذلك وقد كان قدوم البواخر المذكورة فاتحة عهد ربط العلاقات التجارية مع المغرب. وقد تمت هذه العلاقات واتسع نطاقها فيما بعد.

فـرنسـا :

في سنة 1533 أرسل فرانسو الأول إلى أحمد الوطاسي مبعوثاً ذا خبرة عسكرية وسياسية وهو الكولونيل بيرو دو بيطون Pierre de Piton (8) وكان معه شخصية

---

(7) La Petite Histoire du Maroc T1. P.76

وهسبريس عدد 4 سنة 1929 ومجموعة دوكاستري، انجلترا.

(8) جاك كابي : La p. histoire 1 — 72 وهسبريس /3 و 4 سنة 51

أخرى وهو إيمون دومولون وكان قد سبق له أن زار المغرب ، وبعد أن رست الباخرة بالعرائش ، اتصل المبعوث في ضواحي المدينة بأحمد الوطاسي الذي استقبله استقبالاً حسناً . ثم قدم المبعوث بعض الهدايا التي حملها إلى السلطان ، والتي لم تحظ برضا الحاشية وكان بينها خمس سلال من الفضة وخمس وأربعون مرآة وخمس ساعات مذهبة وعدد من السكاكين والشوكات ثم التحق المبعوث الفرنسي بالسلطان في فاس . وحصل منه على بعض الامتيازات كحق جلب الدواب من المغرب والسماح للبواخر الفرنسية بالرسو في شواطئ المغرب والمرور في أمان بمياهه وحمايتها إذا اقتضى الحال . وحمله السلطان بدوره هدايا إلى فرانسوا الأول وهي اثنا عشر حصاناً وثمان حُجُور وذئبة وأسد وثلاث نعامات وأربع أرانب .

وأثناء عودة الباخرة الفرنسية التي كان يقودها ربان جنوي لم يكن على وفاق مع السفير واجهتها العواصف نحو شواطئ البرتغال فاتصل الربان بسلطات البرتغال وأبلغهم أن السفير حمل إلى المغاربة اعتدة حربية فحجز السفير وتابع الربان طريقه إلى فرنسا حيث حصل على مكافأة سخية عوض المبعوث الذي لقي حتفه قبل أن يستطيع إثبات براءته .



7 - الحياة الدينية

تطور الحركة الصوفيـة :

في عهد الوطاسيين بدأ انتشار الطرق والزوايا في المغرب بشكل لم يسبق له نظير حيث إن تلاميذ الشاذلي وعلى رأسهم الإمام الجزولي الذي سبق ذكره في مثل هذا الفصل عند الحديث عن المرينيين قد تمكنوا من فرض طريقته التي صارت في المغرب تنسب إلى الشيخ الجزولي .

ولم يكن موقف الصلحاء في هذا العصر سلبياً أمام الأحداث المؤلمة التي كان المغرب مسرحاً لها فقاموا ينظمون في كل مكان تعرض للخطر الأجنبي حملات جهادية يقاتلون فيها بأنفسهم كما يجمعون لها الاكتتابات ويتولون مفاداة الأسارى .

وكان من الصلحاء الذين تولوا حركة الجهاد الحسن بن محمد من أحفاد عبد السلام بن مشيش وهو الذي اختط شفشاون ، وقتل بتدبير من البرتغاليين وكذا الإمام ابن غازي الذي شارك في الجهاد مراراً ضد البرتغال ، وعلي بن عثمان الشاوي الذي قتل شهيداً في حروب أصيلا سنة 925هـ.

وهكذا اصبح للصوفية في هذا العصر دور ثلاثي إذ خاضوا الميدان السياسي ، والحربي ، كما كان لهم نفوذ روحي بالغ ، بيد انه نسبت إلى بعضهم خوارق وتصرفات لا تكاد تصدق ، وبلغت ثقة العامة بهم إلى درجة أن سلاطين الدولة الوطاسية رهبوا جانبهم ، واضطروا إلى مجاراة العامة في تعظيمهم واحترامهم .

وقد روي أن محمد البرتغالي اعتقل الشيخ عبد الله الغزواني (في مراكش) بتدبير من الفقيه ابن عبد الكبير البادسي السفياني الذي اتهمه بالعمل على الثورة ، وتمت محاكمة الشيخ في مجلس علني بحضور السلطان الذي شعر في الحال بخطورة موقفه فبادر يعتذر إلى الشيخ ويرجوه السكنَى بفاس حيث بنَى له منزلاً داخل باب الفتوح .

وقيل أن والي آسفي طرد محمد بن سليمان الجزولي من البلد فدعا عليه ، ثم سأل منه العفو فقال : «أربعين سنة» أي يتأخر دخول النصارى إليها أربعين سنة[1]. وقد مات الجزولي عام قيام الوطاسيين.

كما روى أن الشيخ محمد البهلولي كان يزوره السلطان محمد البرتغالي فينصحه بالجهاد فيمتثل لتوجيهاته ولما تولى أحمد الوطاسي ورغب في مصالحة البرتغال أظهر الشيخ البهلولي غضبه وأقسم أن لا يلقاه ، حتَّى إذا دنت وفاته وعلم أن السلطان قد بدأ يستعد للجهاد سر بذلك أشد السرور.

ولما انهزم أحمد الوطاسي في معركة وادي العبيد (943هـ) وطارده جنود أبي العباس الأعرج إلى أن هموا بالقبض عليه ، قيل أن فارساً حال بينه وبينهم وقال له سريا أحمد ولا تخف ، وبقي أحمد الوطاسي متابعاً طريقه بسلام ، ولما استخبر عن هوية الفارس المذكور قيل له انه هو الشيخ أبو طلحة المصباحي ...والروايات عن الكرامات الصوفية بما تحتوي عليه من مبالغات ، أكثر من أن تحصَى.

وقد زودنا الحسن الوزان بمعلومات وآراء شخصية عن مشاهداته لأحوال المتصوفة[2] فلاحظ أن صوفية هذا العهد ، قد هجروا الطرق القديمة التي انبنَى عليها التصوف فصاروا يقيمون المآدب ويرقصون طويلا ويغنون حتَّى ليحدث أن يمزق أحدهم ثيابه وجداً وتأثراً ثم يزعمون أن حرارة الحب الإلهي قد أدفأتهم (أما أنا يقول الحسن الوزان) فأعتقد أن ما ألهبهم هو الإفراط في الأكل لأن الواحد منهم كان يأكل طعام ثلاثة. ثم يؤول الوزان تأوهات الصوفية وحالهم هذا لكونهم يعشقون بعض الغلمان من تلامذتهم الذين يحضرون مجالسهم. ومن المفيد أن الحسن الوزان قد عزز رأيه هذا بمشاهد أخرى جديرة بأن توصف بالفظاعة لاحظها في جهات أخرى من شمال افريقيا ، أما الوَجْد الصوفي فليس هذا موضع مناقشته.

غير أن الصوفية اختلط بهم بعض من لا ينتمي إلى الصلاح بصلة ووجد ذريتهم وأتباعهم مجالاً واسعاً للاستغلال والثراء فيما شادوه من زوايا وما ألزموا به الناس من مغارم ، ورحم الله اليوسي إذ وصف حال هؤلاء أصدق وصف بقوله[3] : «فما شئت أن تلقى جاهلاً مسرفاً على نفسه ، لم يعرف بعد ظاهر الشريعة

(1) الاستقصا 4 ص 141.
(2) الوصف المذكور يتعلق ببعض بلاد المشرق.
(3) الاستقصا 4 ص 164 للناصري.

فضلاً عن أن يعمل فضلاً عن أن يخلص إلى الباطن ، فضلاً عن أن يكون صاحب مقام ، إلا وجدته يصول ويجول ، وينابذ المعقول والمنقول ، وأكثر ذلك في ابناء الفقهاء يريد الواحد منهم أن يتحلّى بحلية أبيه ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة ، بل لمجرد حطام الدنيا فيقول : خدام أبي وزريبة أبي ويضرب عليهم المغرم كمغرم السلطان ، ولا يقبل أن يحبوا أحداً في الله ويعرفوه أو يقتدوا به غيره وإذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدله على الله تعالَى يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه ، وماله . وقد يقع شيئ من المصائب بحكم القضاء والابتلاء فيضيفه إلى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالاً ثم يختلق لهم من الخرافات والأمور المعتادة ما يدعيه ميزة ودينا يستهويهم به ثم يضمن لهم الجنة على مساوئ أعمالهم والشفاعة يوم المحشر ».

ولعل أبرز من تصدى لنقد الصوفية ، في هذا العهد الشيخ أحمد زروق الذي ندد بلبس المرقعات والخروج عن سلطة الدولة ، كما انتقد تصرف الطائفة التي تستخدم الغناء والرقص وسيلة لادعائها الحب الإلهي والتي سخر منها الحسن الوزان كما تقدم ثم يقول الشيخ زروق[4] :

«ولقد تتبعت الطرق الموجودة بأيدي الناس في هذه الأزمنة فلم أجد لأهلها فتحاً ولا نوراً ولا حقيقة ولا علماً ولا ذوقاً ولا فهماً ، بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرياسة والامتياز بالاختصاص .»

وقد لقي الشرفاء القادمون من الأندلس مكاناً عظيماً لدى محمد الشيخ الذي آواهم بفاس وضمنهم كما يقول Cour في تاريخه عن بني وطاس (ص 103) العراقيون والصقليون والقادريون وغيرهم.

حياة بعض كبار المتصوفة

عبد العزيز التباع[5] :

عبد العزيز بن عبد الحق التباع الذي عرف بالحرار أيضاً لأنه كان يحترف صناعة الحرير في بداية أمره ، كان من كبار العلماء كمعظم الصوفية الآخرين حتّى هذا العهد وهو تلميذ الإمام محمد الجزولي ووارث طريقته وقد دفن بمراكش بعد

---

(4) عدة المريد ، نقلاً عن معطيات الحضارة 1 ص 150 لعبد العزيز بنعبد الله.
(5) ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ص 34 لمحمد المهدي الفاسي.

وفاته سنة 914هـ ، وهو والشيخ أبو عبد الله السهلي دفين خندق الزيتون باحواز فاس سنة 918هـ وأبو العباس أحمد الحارثي السفياني دفين مكناس في العشرة الأولى من القرن العاشر والحسن بن عمرا جانا دفين أحواز فاس أيضاً كما يقول صاحب ممتع الأسماع هم أشهر أصحاب الشيخ (الجزولي) ممن تفرعت بهم الطريقة الجزولية وهي تنبني على الأسس التالية :

1) التوبة عن الذنوب والإكثار من البر والعمل الصالح .
2) الاقتداء بشيخ عالم بالظاهر والباطن.
3) اتباع السنة النبوية .
4) التزام الأخلاق والآداب الفاضلة .

وللتوبة عند الإمام الجزولي تسع علامات هي : الحسرة ، والندامة ، والإنابة ، والخشوع ، والتواضع ، والابتهال ، والمداومة على الذكر والرضى بالقضاء وحسن الظن بالله .

عبد الله الغزواني :

عبد الله الغزواني تلميذ الشيخ التباع وقد درس بفاس قبل أن يتلقى على الشيخ الذي أمره بالاشتغال بحمل الحطب ورعاية الدواب[6] ثم كلفه بحراسة بستان له مع اتخاذ الحيطة لذلك فبقي بخدمة البستان مدة إلى أن أمر التباع جملة من أتباعه بمداهمة البستان فجأة ونهب ثماره حتى يختبر بذلك مدى تنفيذ الشيخ الغزواني لوصاياه ، ولكن الجماعة عجزت عن اقتحام البستان ، فأقرّ له الشيخ بأنه أصبح آخذاً بطريقته ، وقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان محمد البرتغالي اعتقله وحاكمه ثم أطلق سراحه ، فبنَى زاويته داخل باب الفتوح بناء على رغبة من السلطان المذكور. وقد استقر الشيخ الغزواني أخيراً بمراكش يشتغل بالحراثة والبساتين ، ولكنه ينفق دخله على ذوي الحاجات ويكتفي بأبسط الطعام ، وكان مولعاً بحفر السواقي ويكلف أصحابه بالفلاحة واستخراج الماء ، وطريقته لا تختلف عن طريقة أستاذه .

أحمد زروق[7] :

أبو العباس أحمد بن أحمد البرنسي المعروف بزروق ، درس بالمشرق والمغرب

(6) ممتع الأسماع ص 38 ؛ لمحمد المهدي الفاسي .
(7) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ؛ ص 267 السخاري ، الضوء اللامع ، 1 ، 222.

على الشيخ السنوسي والسخاوي وابن زكريا والرصاع وأحمد الحباك وغيرهم ، كما درس عليه الحطاب الكبير وطاهر بن زيان القسنطيني والشعراني الإمام والقطب أبو الحسن البكري وغيرهم ، وكان يلقب بمحتسب الصوفية فقد مكنته اتصالاته وأسفاره من الاطلاع على أحوال الناس واعتقادهم في بعض أدعياء التصوف ، مما أهاب به إلى وضع كتابه المشهور (عدة المريد) الذي شرح فيه أصول التصوف ، وحلل أضاليل الطرق التي شَاهَدَها في عهده ، كما وضع كتباً أخرى في التصوف ، والحكم والآداب ، وقد توفي ودفن بمسراطة بطرابلس سنة 899هـ ، وكان للشيخ زروق اتباع ومحبون بالمشرق والمغرب .

متصوفة آخرون :

ومن غير هؤلاء من رجالات التصوف محمد بن منصور السفياني دفين أولاد جلول شرق وادي سبو سنة 930هـ . وأبو يشُّو مالك بن خدّة الصبيحي دفين أحواز فاس سنة 933هـ ومحمد بن علي الزمراني المعروف بالطالب دفين الزاوية الغزوانية بفاس (964هـ) وعلي الصنهاجي وكان يعظمه السلطان أبو العباس الوطاسي وقد توفي ودفن خارج باب الفتوح في أواسط القرن العاشر ، وعبد الله الخياط دفين زرهون وهو من أصل يمني توفي سنة 939هـ.

اليهـــود والنصـــارى

منذ عهد المرينيين صار من المعتاد عزل اليهود في حي خاص بكل مدينة تجمع فيها عدد كبير منهم فاتخذ لهم أبو سعيد الثاني (800 ــ 823هـ) مكاناً خارج المدينة القديمة وكان يسمَّى بالملاح فصارت الأحياء اليهودية بالمدن تحمل نفس الاسم . وكان المسلمون كلما صادف الحال موت ملك عمدوا إلى نهب دكاكينهم[8] لأنهم حظوا عند المرينيين باهتمام بالغ وكانت متاجرهم في عهد الوطاسيين تمتد في شارع طويل وقد تكاثر عددهم ، بعد طردهم من إسبانيا منذ سنة 1493. وقد فرضت عليهم نعال خاصة ، في عهد الوطاسيين ، كما ألزموا بلبس عمامة سوداء أو طاقية تضاف إليها قطعة من الثوب الأحمر . وفرضت عليهم جزية ضخمة . والظاهر أن ذلك لرواج حركتهم التجارية وثرواتهم الطائلة فضلاً عن أن ملوك الدولة كانوا في أشد الحاجة إلى المال ، لمجابهة المصاريف العسكرية على الخصوص . وقد كانت رقعة نفوذهم تتقلص يوماً عن يوم ، وكانت لليهود بيعهم التي يمارسون فيها طقوسهم

---

(8) Léon, Description de l'Afrique T1. P.234

بكل حرية . وكان أبو العباس أحمد الوطاسي قد استعمل أحدهم ممن أسلموا حديثاً على امكاس المغرب وكان يدعَى بالمنجور الإسلامي[9] وكان يدفع في مكس فاس ألف دينار سنوياً.

أما المسيحيون فقد أمكنهم معايشة المسلمين بسهولة أكثر ، حيث تكاثر تجارهم بمختلف المدن المغربية وكان لهم بها كنائس ورهبان غير أن ذلك لم يمنع المسلمين من كراهتهم نظراً للمهانة التي لحقتهم باحتلال شواطئ بلادهم. وفي أيام أبي العباس أحمد الوطاسي قدم إلى المغرب راهب يدعَى نيقولا كلينار[10] Nicolas Clénard بقصد دراسة علوم العربية واقتناء الكتب واتصل بأبي العباس الوطاسي فشافهه برغبته ، فرحب السلطان بالفكرة وشجعه ، كما أعجب باستعداده وقد تعرف الراهب المذكور إلى الفقهاء الذين تساءلوا مع ذلك عن سر رغبته في تعلم العربية ، وحصلت له من ذلك مضايقات دونها في بعض مذكراته وقد فضل الراهب المذكور أن يستقر في حي اليهود عوضاً عن العمارة التي كان يقطنها النصارى بالمدينة القديمة . وقال أن اليهود بالرغم من كراهتهم للمسيحيين فهم أقل تهجماً عليهم من المسلمين ويعترف نيقولا بأن التجار المسيحيين يعيشون في أمن إلى جانب المسلمين وان الذي أثار ارتياب المسلمين فيه وبغضهم له ، هو صفته كراهب. وقد أفادنا في مذكراته عن عدد بيع اليهود بفاس وهو ثمان أو تسع بينما كان عددهم يبلغ حوالي أربعة آلاف نسمة وكان بينهم كثير من العلماء (المتضلعين في علوم الدين).

ومنذ عهد الوطاسيين تمكن يهود فاس من توثيق صلاتهم بيهود الواحات السوسية حتَّى بلاد السودان ، واحتكروا كل تجارة البلاد . وبينما وقف تجار الجنوب ضدهم فقد لقوا عطفاً وحماية من مسلمي فاس بسبب مهارتهم الصناعية[11] .

إلا أن اليهود الذين استقروا بشواطئ الشمال الإفريقي على العموم كبجاية وتطوان وتونس كانوا يتعرضون للتنكيل والإهانة من الغزاة الإسبانيين والبرتغال[12] .

---

(9) تقييد عن البلديين بفاس ورقة 4 للزياني .

(10) Le Tourneau, Hesperis 1934

(11) Manuel L. Ortega, Los Hebrcosen Marruecos, p64

(12) المصدر المذكور ص 110.

الحضارة في عهد الوطاسيين

1) **الدولة ونظامها** : رئيس الدولة – ولي العهد – الوزراء – القضاة – العمال – الجيش – النظام المالي .

2) **الحياة الإجتماعية** : السكان – اللباس – المرأة – الحفلات والأعياد – الغناء – الطعام .

3) **الحياة الاقتصادية** : الفلاحة – التجارة – الصناعة

4) **العمران وفن البناء** : نظرة عامة – المدن المستحدثة – التحصينات – المدارس.

5) **الحياة الفكرية** : نظرة عامة – الأدب – الفقه والحديث – علوم اللغة – التاريخ – الجغرافيا – الطب – الرياضيات – الموسيقى .

1 - الدولة ونظامها

رئيس الدولـة :

نحن مدينون للحسن الوزان بأكثر المعلومات المرتبطة بهذا الموضوع[1] إذ من المؤسف أن مؤرخي المغرب غيره لم يكونوا يلتفتون إلى مؤسسات الدولة إلا اتفاقاً في جمل عابرة يستغرق البحث عنها أحياناً قراءة كل الصفحات المخصصة للدولة ؛ وهي إلى ذلك لا تشفي غليل الباحث .

وقد كان أول ما يهتم به السلطان الوطاسي الجديد أن يعين من بين أكابر شخصيات حاشيته مستشاراً رئيسياً ويخصص له فيما يقول الوزان ثلث دخل دولته كما يعين شخصية أخرى تجمع بين مهام الكتابة الخاصة ومرافقة الملك وخدمته فضلاً عن الإشراف على الخزينة ، ثم يعين ضباط الحرس الخاص المؤلف من كتيبة الفرسان وهم بدورهم يشاركون في الحملات الحربية عند الاقتضاء ، وفي الميدان القضائي والجبائي يقوم بتعيين قضاة وجباة جدد .

أما في داخل القصر فإن للسلطان قيما خاصاً على نفقاته ، كما أنه يشرف على تزويد الجيش بالمؤونة ولعله يكون تحت إشراف الكاتب الخاص ، وبطبيعة الحال ، فهناك مشرف على الاصطبلات الملكية التي تتوفر على دواب كافية (جمال على الخصوص) لحمل المؤن إلى الجيش وقد وضع الطباخون تحت إدارة هذا السائس الذي يخضع بدورة للقيم .

أما الأحكام الصادرة عن القصر فيتولى السهر على تنفيذها قائد الحرس الخاص الذي من مهامه زيادة على إدارة الحرس المذكور الإشراف على الموظفين المكلفين بتنفيذ الأحكان القضائية والمصادرات وحق اعتقال الشخصيات السامية وتطبيق العقوبات ضدهم إذا صدر أمر سلطاني بذلك ويتم ترشيح هذا القائد على يد المزوار[2] .

---

(1) Léon l'Africain, Description de l'Afrique T1, P. 235

(2) Auguste Cour : La Dynastie marocaine des B Wattas P. 110

وهناك فرقة من الجيش لحمل الرايات ، وإذا ساروا تركوا الراية ملفوفة ، وتنشر منها واحدة تتقدم صفوف حملة الرايات وحاملها يرفعها إلى أعلَى وكل الأعلام المذكورة تستعمل لتدل الملك وحاشيته وجيشه على الطرق ويقودهم حملتها عبر الغابات والأنهار والمسالك .

وأغلب خدم القصر من السوداوات ، وفيهن مسيحيات من إسبانيا ، والبرتغال وهناك حاجب يؤدي مهمة مدير التشريفات اليوم ، وكان يصحب السلطان دائماً ، ويرشد الناس إلى أماكنهم في مجلس السلطان ، ويشير إليهم بتناول الكلمة حسب مراتبهم .

وفي الحفلات التي يترأسها السلطان يقوم المشرف على الحفلات (المزوار) باخبار السعاة بموعد الحفلة ومكانها ، فيقومون باخبار أقارب السلطان أولاً ثم القواد وقواد الرحَى وسائر الفرسان ويتم الحشد في ساحة المشور والأزقة المجاورة ثم يتقدم حملة الرايات الموكب يتلوهم الطبالون وسائس السلطان ، ومساعدوه ، ثم القيم الخاص ومساعدوه فقواد الرحى فرئيس الحفلات (المزوار) فكتاب الملك وأمين آلمال والقاضي وقائد الجيش وأخيراً السلطان الذي يرافقه مستشاره أو وزيره الأعظم مع بعض الأمراء ويتحلق حول السلطان وحاشيته المباشرة ، حراس مسلحون ، ثم يأتي بعد ذلك الخدم ، والخصيان والقواسة ، والبندقيون.

وإذا تنقل السلطان إلى البادية نصب له مشور خاص من ثوب سميك وهو ذو شكل مربع يبلغ طول كل من جوانبه حوالي خمسة وثلاثين متراً أي ما يعادل 1225 متر مربع ولكل من أركان هذا المشور الهائل باعتبار صنعه ، برج تعلوه قبة مذهبة ولكل جانب من الجوانب الأربعة باب يحرسه الخصيان ووسط هذا المشور تنصب خيمات إحداها عبارة عن غرفة نوم للسلطان وحول المشور تنصب خيمات للضباط والندماء المقربين . ووراءها خيام قواد الرحى المصنوعة من جلد الماعز ، وأخيراً خيام باقي الحاشية . أما دواب القافلة فتأوي بعيداً عن المعسكرات حيث تنتصب دكاكين الجزارة ، والبقالة ، وباعة القديد والصناع. وكل هؤلاء يرافقون الجيش للتعامل معه خلال تنقلاته .

أما حرس المشور المذكور فهم غير مسلحين وقد وصفهم الوزان بالكسل حيث إن عدم إخلاصهم كثيراً ما كان سبباً في تعرض المعسكر للسرقة بل محاولة الاعتداء على السلطان .

وقد اعترف الوطاسيون بالسيادة الرمزية للخليفة العثماني ، كما نقشوا اسمه على السكة ولذلك ألغوا لقب أمير المؤمنين الذي سبق أن رجع إليه المرينيون منذ عهد أبي الحسن وهكذا اكتفى الوطاسيون بلقب السلطان الذي كان قد أحدث لأول مرة بالمغرب في عهد المنصور المريني .

ولـي العهـد :

تركزت ولاية العهد في ذرية محمد الشيخ الثلاثة : محمد وعلي وأحمد الا أن تولية علي الأولى على الرغم من أنها كانت بعهد من أخيه محمد البرتغالي فإن أحمد الوطاسي سرعان ما نحاه عن الملك سنة 932هـ وأحمد هذا هو ولد محمد البرتغالي وكان الذي تصدى لكتابة بيعته الفقيه الونشريسي وقد لعب دوراً بارزاً في البلاط وكان لولي العهد وزيره الخاص مثلما كان الأمر في عهد المرينيين .

الـوزراء :

لم يختلف نظام الوزارة في أيام الوطاسيين عنه في أيام بني مرين حسبما يتجلّى من سياق الأحداث السياسية على الأقل غير أن الظاهرة التي تميز بها النظام الوطاسي هي أن ملوك الدولة استوزروا في معظم الأحيان أشخاصاً من أدنَى أقربائهم ، كمحمد الحلو ، والناصر بن ابي زكرياء أخي محمد الشيخ وكلاهما كان وزيراً لهذا الأخير ، والمسعود بن الناصر ابن عم أبي عبد الله البرتغالي ووزيره ، ومحمد ولد أبي العباس الوطاسي ووزيره . ومن أبرز الوزراء الذين لا ينتمون إلى الوطاسيين محمد بن راشد حسبما ذكره صاحب التقييد الملحق بمختصر المناهل (ص 250). ومحمد بن راشد هذا آخر أمراء بني راشد بشفشاون .

وكان هؤلاء الوزراء يتولون مهام سياسية وحربية فضلاً عن اشرافهم على الأعمال الإدارية كما كانوا يشاركون في قيادة الجيوش المحاربة . والظاهر أن الصقالبة في هذا العهد لم يحظوا بوظائف وزارية سامية كما كان الشأن في عهد بني مرين .

الـقضـاة :

يفهم من المعلومات التي أوردها الحسن الوزان عن النظام القضائي في عهد بني وطاس أن سلطة القاضي في الشئون المدنية تقلصت بشكل ظاهر ، حيث اقتصر على

---

(3) **Description de l'Afrique T1. 405** للحسن الوزان.

القضايا الشرعية وأحيلت القضايا المدنية والجنائية على الولاة ، وهذا هو النظام الذي أحيته الحماية الفرنسية فيما بعد حتّى ضعفت دائرة اختصاص القضاة في الميدان الشرعي نفسه ، ويرجع توسع سلطة الولاة على حساب سلطة القضاة إلى الأتراك الذين استمد منهم المغرب هذا النظام في العصور المتأخرة (انظر تاريخ تونس **Pellegrin**).

وكان القاضي الشرعي يعززه قاضي التوثيق الذي يتكلف بشؤون الزواج والطلاق والتحقيق في الشهادات ، ولم يكن يتقاضى راتباً رسمياً ، لأن القضاة في الغالب كانوا يشتغلون بوظائف أخرى كالتدريس والخطبة وكان المفتي بمثابة قاضي الاستئناف الذي يرجع إليه إما بقصد الاستشارة في مسألة قانونية ، أو لإعادة النظر في حكم قضائي . ولا ندري ما هي الأسباب التي جعلت الحسن الوزان يصف المفتين والوكلاء بالجهل[4] .

وكان القاضي يتوفر على سجن يوضع فيه المحكوم عليهم بأحكام حقيقية ، أما القضايا الجنائية فكان تنفيذ الأحكام فيها من اختصاص الوالي وكذا البت فيها كما تقدم ، وكانت العقوبة العادية في هذه الحالة هي الضرب بالسوط مائة فأكثر ثم تطويق المحكوم عليه بسلسلة في عنقه وقد يشرك في السلسلة الواحدة عدة متهمين ثم يطاف بهم عراة الا من لباس يستر عورتهم ويصحبهم رئيس الشرطة والجلاد الذي يردد الجريمة المنسوبة إلى هؤلاء بصوت عال .

وكان للقضاة في المدن الكبرى نواب كما كان الشأن في عهد بني مرين[5] ومن قضاة الوطاسيين محمد بن عبد الله اليفرني وولده أبو عبد الله[6] ومحمد الرزيني الغماري المتوفي سنة 934هـ وكان قاضياً بتطوان . ومحمد بن عبد الرحمن الكرامي المتوفّى سنة 964 وكان قاضياً بتطوان أيضاً[7] . وعبد الواحد الونشريسي قاضي فاس المتوفّى سنة 955.

أما الحسبة في هذا العهد فقد انحطّت رتبتها إلى درجة أنها بدأت تسند إلى أميين فضلاً عن أنها صارت موضع مساومة لدى القصر السلطاني وكان محتسب فاس

(4) المصدر المذكور ص 206.
(5) درة الحجال ص 222 لابن القاضي.
(6) تاريخ تطوان 1 ص 140 لمحمد داود.
(7) درة الحجال ص 224 ج 1.

جابياً في نفس الوقت كما سيتبين ذلك في موضوع النظام المالي وكان من اختصاصه مراقبة الأسعار والمجزرة ومواد الاستهلاك خصوصاً الخبز الذي كان له وزن موحد واللحم الذي كان يبين ثمنه في بطاقة يشاهدها الزبناء.

العمـــال :

اتسعت سلطة العمال في هذا العهد على حساب سلطة القضاة كما سبقت الإشارة إلى ذلك وقد كانت العمالات أو الأقاليم يومئذ سبعاً هي : 1 — تامسنا ومن كبريات مدنها الرباط وأنفا. 2 — فاس وتمتد إلى سلا غرباً ومن أهم مدن هذا الإقليم سلا، فاس، زرهون، المعمورة. 3 — ازغار (وتكون مع عمالة الهبط منطقة فاس والغرب الحالية) ومن مدنها القصر الكبير وهي أصغر العمالات. 4 — الهبط وتكون منطقة باقي الغرب الحالية مع منطقة غمارة ومن مدنها طنجة وتطوان وأصيلا والبصرة. 5 — الريف ومن مدنها باديس وترغة. 6 — الحوز وهو يكون احواز فاس وتامسنا الجنوبية ومن مدنها صفرو وتازة. أما الإقليم السابع فيشكل الأجزاء الشرقية العليا وهو أفقر الأقاليم المذكورة. ومن مدنه مليلية، وتازوطا، مع العلم بأن مليلية كانت تحت النفوذ الاسباني.

أما اختصاص العمال فكان يشمل السلطة الإدارية والعسكرية، إلى جانب القضاء المدني الذي كان تنفيذ أحكامه يجري تحت إشراف العامل.

وكان العامل يستخلص مبالغ هامة من الذعائر. وكان على بعض التجار والصناع أن يؤدوا إليه ضريبة معينة عن كل سجين تم اعتقاله وكان صاحب الشرطة تحت إشرافه، أما العاصمة فقد خصص لها أربعة من أصحاب الشرطة يتولون السهر على الأمن خاصة بالليل وكانوا لا يتقاضون رواتب معينة وإنما يحصلون من المعتقلين على ضرائب حسب مدة اعتقالهم ونوع العقوبة المنفذة فيهم[8] وقد كان لقصبة فاس صاحب شرطة خاص[9].

وفي هذا العصر بدأ يطلق على بعض الولاة لقب قائد خصوصاً ولاة المراكز التابعة للعمال. والقائد في الواقع لقب إداري وعسكري خصصه الأتراك لولاتهم وضباطهم فضلاً عن لقب الباشا وهو أعظم رتبة والأغلب أن هذا الأخير لم يبدأ استعماله الا في عهد السعديين.

---

(8) Léon l'Africain, Description de l'Afrique T1, P.206

(9) ممتع الأسماع ص 39 لمحمد المهدي الفاسي.

أما إقليم فاس فكان يمتاز بجودة أراضيه الفلاحية كما هو الشأن حتَّى الآن وكان يتوفر على قرى عديدة في تلاله ومرتفعاته وعلى العكس من ذلك السهول التي كانت الحروب قد قللت كثيراً من نشاطها وسكانها ، وفي هذا الإقليم كان عدد من قبائل العرب يشتغل بالزراعة في الإقطاعات غالباً .

أما إقليم الهبط فكان يتوفر على مياه غزيرة ومدن عتيقة ولكن الحسن الوزان الذي استقيت عن كتابه معظم هذه المعلومات يؤكد أن ثروات هذا الإقليم كانت فيما سبق دخول الإسلام أعظم شأناً ، أي أن أهمية الإقليم ضعفت منذ الفتح الإسلامي بسبب الحروب الطاحنة والثروات التي كان مسرحاً لها .

وكان إقليم ازغار يمد غمارة وفاس بالأقوات والماشية والجياد وكان إلى ذلك الحين يتوفر على كثير من الغزلان .

وبالرغم من هذا التقسيم فقد كانت عدة مراكز خارجة عن نفوذ الدولة بشكل مباشر أو غير مباشر كما تقدم .

أما تطوان التي تم تجديد بنائها منذ سنة 889هـ فقد تولتها عائلة أبي الحسن المنظري طيلة العهد الوطاسي ، وأبو الحسن (علي) المنظري كان من قواد جنود ابن الأحمر بالأندلس وقد وفد على محمد الشيخ قبل سقوط غرناطة فأذن له في تجديد بناء تطوان حوالي سنة 889هـ وولاه حكم المدينة ثم خلفه أبو عبد الله في أوائل القرن العاشر وقد تزوج بالست الحرة بنت الشيخ علي بن راشد حاكم شفشاون الذي تعاون كثيراً مع أسرة المنظري في الجهاد ضد البرتغال . وكان اسم الست الحرة ، هو عائشة ، وقد كانت تشارك زوجها مهام الحكم حسبما استنتجه الأستاذ داود في كتابه تاريخ تطوان[10] وتوفي زوجها حوالي سنة 935 وتولت هي نفسها حكم تطوان بعد ذلك ، وتزوجها أحمد الوطاسي سنة 948 وبقيت هناك نائبة عنه حسب استنتاجات المصدر المذكور إلى أن استعادت حكم شفشاون عائلة المنظري سنة 949 حيث تم اقصاء الست الحرة التي لا يعرف مصيرها بعد ذلك على التحقيق ، والظاهر أن سياستها كانت ترمي إلى مهادنة البرتغال وموالاتهم[11] .

وأما دبدو فمدينة قريبة من تازة وكانت تحكمها منذ عهد بني مرين عائلة من بني

(10) مجلد 1 ص 119.

(11) تاريخ تطوان 1 ص 123.

ورتاجن وظلت كذلك حتَّى عهد الوطاسيين وحاولت جيوش محمد الشيخ أن تستولي عليها مرة وكانت الطريق إليها وعرة محفوظة بالمخاطر ، حتَّى إذا أبعدت عن كل نجدة محتملة هاجمها الورتاجنيون فهزموها ، ولكن محمد الشيخ قاد حملة جديدة بنفسه ضد دبدو سنة 904 (1499) فلم يسع أميرها محمد الورْتاجني إلا أن يعلن استسلامه ، بيد أن محمد الشيخ وحلفاءه تركوه وأسرته يتولون أمور هذه القصبة ووثقوا صلاتهم بها عن طريق الصهر كما فعلوا مع امارات أخرى .

ومن المؤكد أن حكم الوطاسيين فتح مجالاً أوسع من ذي قبل لحكم العائلات واستبدادها حتَّى صار ذلك تقليداً لمن بعدهم.

وكانت شفشاون في يد بني راشد ، كما سبق في الكلام عن عهد محمد الشيخ ، وقد ظلوا فيها منذ اختطاطها سنة 876 إلى سنة 969هـ حيث طردهم السعديون .

الجيـــش :

كان قواد الجيش يدعون بقواد الرحَى ، وكان السلطان يقطع كلاً منهم حصناً أو قريتين يكون خراجهما مورداً شخصياً له ويتمكن من الإنفاق على عدد معين من الفرسان الذين تم تجنيدهم في الحروب ، وهم في الواقع جنود نظاميون يظلون تحت إشراف قائد الرحَى حتَّى في ايام السلم حيث يزودهم بكميات من القمح والزبدة واللحم وقليل من الدراهم فضلاً عن كسوة سنوية ، وكل ذلك على حساب موارده من الإقطاع المذكور . أما الجمال التي كانت تحمل المؤن والذخائر فيقودها أسرى مسيحيون .

وكان الجيش النظامي يتكون من ستة آلاف فارس من المرتزقة ، بالإضافة إلى خمسمائة بندقي ، وخمسمائة قواس ، وكلهم على استعداد دائم للحرب ، وهم في الواقع غير الصنف الذي تقدم ذكره . وغير الفريق المحارب كان هناك بطبيعة الحال من يشتغل بالطبخ والتنظيف وتموين الدواب وغير ذلك من لوازم الجيش ، كما أن هناك فرقة من الطبالة الذين كانوا يحملون طبولاً من النحاس عظيمة الحجم على جياد أصيلة ، ويحافظون عليها محافظة الجيش على الرايات ، وفي عهد الوطاسيين بدأ استعمال المدافع والبنادق ولو أن الأسلحة القديمة ظلت مستعملة إلى جانبها ، وقد أتقن الوطاسيون فن الحصار هجوماً ودفاعاً ، فقد تمكن محمد الشيخ من حصار فاس مدة سنتين قبل أن يستولي عليها ، كما أن حصار البرتغال بأصيلا استمر مدة طويلة حتَّى تمكن الجيش الوطاسي من اقتحامها سنة 914 وجرى بها قتال شديد

بين الفريقين داخل الأزقة والأسواق ، وكان الجيش يتكون من عدة عناصر كما كان الشأن في عهد الدول السابقة . أما القيادة فكان يتولاها في الغالب شخصيات سامية ، وربما قاد الحملات السلطان نفسه .

النظـام المـالي :

ظلت مهمة الجباة كذي قبل ، هي استخلاص الضرائب من السكان وتقديم حساباتها إلى القصر السلطاني الذي يتولى مباشرة فرض ضرائب جدد أو إلغاءها ، ويتوفر القصر على خمسين فارساً مهمتهم الإخبار بالضرائب المقررة ، أما استخلاص المكس بالأبواب فيتولاه شخص يشتري هو نفسه حق استخلاص المكس من السلطان في المكان المعين له ، مقابل مبلغ محدد[12] ، وقد يشتري شخص واحد مجموع حق استخلاص المكس بالمغرب ، وكان لهذا النظام سوابق في دول الشرق الإسلامي كالفاطميين وغيرهم ، مما كان يؤدي غالباً إلى عجز هذا الصنف من الجباة عن الإيفاء بتعهداتهم فتعمد الدولة إلى مصادرتهم وتشريدهم ، ومن أمثلة المصادرات التي حدثت بالمغرب في عهد الوطاسيين أن أبا العباس أحمد الوطاسي عين على امكاس المغرب رجلاً يدعى المنجور الإسلامي ، وكان يقدم إلى الدولة عن مكس فاس وحدها ألف دينار سنوياً ، ولكن عجزه عن الإيفاء بها أدى بالسلطان إلى أن ينكبه ويصادر أمواله[13] .

وكان الشخص الذي يتولّى مهمة الجباية بفاس هو المحتسب الذي كان عليه أن يؤدي إلى الخزينة الملكية ثلاثين ديناراً يومياً ، ويتعين عليه أن يقيم على أبواب المدينة حراساً وكتبه يتقاضون تعويضات حسب كميات البضائع الداخلة .

وكثير من الترتيبات المستعملة الآن بالمغرب كانت تطبق تقريباً بنفس الكيفية في العهد الوطاسي ، من ذلك أن حراس الأبواب كانوا يذهبون كما يفعل الدركيون اليوم إلى خارج المدينة للقيام بتفتيشات مباغتة للسلع التي تدخل بها البغال الى المدينة ، ومتى ثبت أن التصريح بالبضائع غير مطابق لنتيجة التفتيش تعين على التاجر أن يؤدي المكس مضاعفاً ، وكانت مواد الاستهلاك الرئيسية من قمح وحطب ودجاج وبقر ، معفاة من الضرائب ، بينما يؤدى عن الأكباش المذبوحة بالمجزرة مبلغ معين عن كل كبش[14] ، وكذا الثياب المستوردة من أوروبا[15] .

---

(12) Léon l'Africain, Description de l'Afrique T1,P.207

(13) تقييد عن البلديين بفاس ــ ورقة 4 للزياني.

(14) Description de l'Afrique T1,P.207

(15) مظاهر الحضارة 1 ص 80 لعبد العزيز بنعبد الله.

2 – الحياة الاجتماعية

السكـان :

وصف الحسن الوزان حياة العرب البدو بالبؤس والفقر ، وبينما استقر بعضهم بسهول الهبط والحوز استمرت كثير من قبائلهم تمارس حياة الرحل ، وكان أكثرهم نشاطاً يشتغل بالزراعة أو بالتجارة في المواشي خصوصاً الإبل وكذا الخيل التي كان يصدر الكثير منها إلى أوروبا ، وكان فيهم من يشتغل بصيد الوعل وحمار الوحش والنعام والمها واللمط .

وكان عرب الصحارى الجنوبية يصحبون نساءهم في الحروب وهم الذين اشتهروا بالتجارة في الإبل والصيد البري . أما عرب السهول فقد كانوا أثرى من هؤلاء ، وكانوا يتوفرون على كمية كبيرة من البقر والغنم حتَّى إن المراعي كانت لا تكفيهم فيلجأون إلى النجعة . وقد امتاز عرب الصحراء بقرض الشعر سليقة ، يستخدمونه في الغزل والمدح والفخر والحماسة .

وكان تأثر الوطاسيين بالعروبة أكثر من بني مرين ، حتَّى لقد أستحدثوا لقب «الشيخ» عوض «امغار» الذي كان أكثر استعمالاً قبلهم[1] .

وقد استقرت معظم القبائل العربية في الأماكن التي تستقر بها اليوم ، وكان أكثر سكان الخيام يعيشون في المناطق الشرقية أو الغربية ، ولم تكن الخيام قد انتشرت في المناطق البربرية إلا في السهول الغربية بدكالة والشاوية ، حيث انصهرت العناصر البربرية والعربية في بوتقة واحدة ، وكان التأثير العربي هناك أكثر وأقوى ولو أنه لم يتم في العهد الوطاسي بل فيما بعد ، غير أن سكان القرى والضواحي قاسوا كثيراً من ظلم الأعراب الذين طالما اعتدوا على مواشيهم وفواكههم ، كما أرهقوهم بالضرائب وساموهم الخسف[2] .

---

(1) Cour Auguste, La Dynastie marocaine des B Wattas, p. 110

(2) الأمثلة على ذلك عديدة في الجزء الأول من «وصف افريقيا» للحسن الوزان.

ومن المؤسف أن كثيراً من القرى والمدن بمناطق الغرب والحوز وتادلا قد تم تدميرها في هذا العهد واختفت أسماؤها بعده كتيط التي خربها عبد الله البرتغالي، والمدينة وهي بينها وبين آسفي في الداخل، وأفزة من مدن تادلا، وتنزة من مدن الأطلس، وكل هذه القرى والمدن المغربية كانت عامرة فضلاً عن ضواحيها التي كانت غنية بمزروعاتها وتجارتها.

ومنذ عهد المرينيين استوطنت عناصر كثيرة من قبائل زناتة وهوارة بتامسنا حتَّى تضخم عددهم في العهد الوطاسي وقدرهم الحسن الوزان بنحو 260 ألف شخص بين فارس وراجل، وقد شهدت أنفا وناحيتها الكبيرة ازدهاراً عظيماً في الماضي، لكن خرابها على يد البرتغال جعل من بساتينها ومزارعها أرضاً موحشة ترتعي فيها الدواب ويخشاها الإنس.

وقد انضاف إلى السكان في هذا العهد عدد كبير من مهاجرة الأندلس الذين استقروا بفاس وتطوان وسلا والرباط، ولو أن هجرة الموريسكيين في عهد السعديين كانت أكثر أهمية وأشد تأثيراً، ومهما يكن من شيءٌ فقد تساكن المسلمون واليهود في عدة مدن وقرى، فضلاً عن المسيحيين الذين استوطنوا المغرب كتجار أو مستعمرين، وقد قدر بعض المسيحيين عدد يهود فاس حينئذ بنحو أربعة آلاف، وكانوا يؤدون جزية باهظة، ومن الطبيعي أن تتكون في عدة مناطق من البلاد عادات وأعراف جديدة ومتنوعة إما بسبب التأثير البرتغالي في السواحل أو بسبب قدوم الأندلسيين الجدد، أو لاحتكاك العرب بالبربر في عدة مراكز. وقد حظي مهاجرة الأندلس خصوصاً الشرفاء منهم كالعراقيين والصقليين والقادريين بمكانة عظيمة لدى محمد الشيخ الذي آواهم بفاس[3]، والشرفاء القادريون ينتمون إلى عبد القادر الجيلالي الذي ولد سنة 471 وذلك عن طريق ابنه إبراهيم[4] دفين واسط 572هـ. أما سكان الريف الذين وصف الوزان عامتهم برثاثة الثياب، كما وصفهم من جهة أخرى بالشجاعة فإن منطقتهم كانت فقيرة في هذا العهد شأنها اليوم، وبينما كان انتاجها من القمح قليلاً، كانت تتوفر على كميات كبيرة من أشجار التين والليمون، كما كان يوجد بها الماعز والقردة والحمر، ومعظم مراكزها العمرانية عبارة عن قصور ومداشر سكانها فقراء يسكنون أكواخاً من القش أو اللحى أشبه ما تكون باصطبلات القرويين بأوروبا، غير أن هذه الصورة التي رسمها

---

(3) Cour, Op. cit.p.103

(4) المسناوي محمد: نتيجة التحقيق ص 4 كراسة 2.

الوزان لا تنطبق بحق على السكان في المدن الساحلية الذين كانوا آخذين بنصيب وافر من الحضارة ، واليوم يعتبر بدو الريف على الرغم من فقرهم أرقَى مدنية من بدو الشاوية أو الغرب مثلاً ، سواء من حيث السكنَى أو غيرها من مظاهر الحضارة . أما مراكش التي نعمت بحضارة زاهرة في عهد المرابطين والموحدين ، والتي كانت يومئذ أكثر مدن المغرب سكاناً ، فقد تحولت في العهد المريني الوطاسي على الخصوص إلى مدينة نقص عمرانها نحو الثلثين عن ذي قبل وكان سماط الكتبيين الذين بلغ عدد دكاكينهم نحو المائة في ذلك الحين قد تحول إلى مكان مقفر أشبه بما يكون عليه اليوم حيث ضاع أثره بجوار جامع الكتبيين ، وتحولت الدور والقصور التر عرفها العهد الموحدي إلى بساتين للكروم والفواكه ، ومع ذلك فقد بقي إلى هذا العهد نحو اثني عشر قصراً فخماً من بناء المنصور الموحدي ، أما الخزانة العظيمة التي كان يملكها الموحدون بمراكش ، فقد تحولت إلى محاضن وقنن ، بينما صار بستان القصر الأمبراطوري مستودعا للأزبال .

ومن المؤسف أن أمراء هنتاتة الذين استبدوا طويلاً بهذه المدينة لم يستطيعوا على الأقل أن يحافظوا على تراث أسلافهم وقد كان بحق جديراً بالصيانة والتخليد .

وقد تحولت الرباط التي نشأت وازدهرت في عهد المنصور إلى مدينة شبه خالية لا تكاد منازلها تتجاوز الأربعمائة.

أما فاس التي فقدت كثيراً من نشاطها في الماضي الذي عرفته في عهد المرينيين ، فقد احتفظت من حيث وضعها الاجتماعي بالطابع العام الذي عرفته آنذاك ، غير أن المارستانات العديدة تناقصت حتَّى قلت وسائلها وعنايتها بالمرضَى وخصص واحد منها للغرباء وصفه الوزان بأنه يتوفر على عدد كاف من الموظفين الذين يتقاضون رواتب حسنة ، وسبق له هو نفسه أن عمل به كاتباً لمدة سنتين وكان يقوم بهذه المهمة أثناء الطلب كعادة كثير من زملائه . أما الفنادق التي كانت فخمة البناء والتي كان بعضها يحتوي على أكثر من مائة حجرة فقد كانت غير مفروشة لأن المكلفين بها لا يقدمون لزبائنهم أكثر من حصير وغطاء ، أما الطعام فيشتريه النزيل لنفسه . وأكثر هذه الفنادق يشغلها أرامل أو عزاب من الرجال ، وقد يَشغل اثنان غرفة واحدة ، وبعض هذه الفنادق عبارة عن مواخير تقيم بها البغايا ويتعاطَى زبناؤها الخمر بترخيص من الدولة(5) .

---

(5) Description de l'Afrique 1,191

وفيما يرجع إلى النسبة العمرية، فأكثر السكان قلما يطول عمره أكثر من خمس وستين أو سبعين سنة[6] ، غير أن الحسن الوزان لاحظ عدداً من الجبلين يبلغون الثمانين أو أزيد، وهم يشتغلون بالزراعة بل ويشاركون في الحروب وينتصرون على الشباب ، وعلى العموم يضعف بصرهم عند الهرم كما تسقط أسنانهم خصوصاً سكان الصحارى الجنوبية الذين يتناولون التمر غذاء رئيسيا.

ولاحظ الوزان كذلك ، انتشار القرع وأمراض المعدة والمفاصل ، وعزا هذه الأخيرة إلى الجلوس على الأرض مباشرة دون سراويل ، كما ذكر أن استهلاك الزيتون والجوز والأطعمة الخشنة يحدث الجرب ، أما الجلوس على الأرض فيسبب شتاء كثرة السعال ، ومن الطريف أن يلاحظ الحسن الوزان أن المساجد تكتظ يوم الجمعة بالمصلين ، حتَّى إذا قام الخطيب فقد يحدث أن يسعل أحدهم فيتلوه آخر ثم ثان إلى أن ينتهي الخطيب وقد فات الناس كلامه بسبب عدوى السعال .

وقد أكد الوزان أن داء الزهري لم يكن منتشراً بالمغرب ، بل كان أشبه بالمجهول حتَّى تم طرد اليهود من الأندلس سنة 1492م ، وقدم عدد منهم إلى الشمال الإفريقي بما فيه المغرب ، فانتشر فيه عن طريق اليهوديات .

وقد نوه الوزان بتدين المغاربة على العموم ، وأبدى اندهاشه من صبرهم على تكرار الوضوء يومياً ، كما مدح ذكاءهم ووصفهم بالطيبوبة والصراحة والبطولة ، يحفظون الوعد ، ويغارون على الفضيلة ولا يرضون العار وهم نشيطون كثيرو التنقل في البلاد ، يوجد عدد منهم بمصر وبلاد العرب وفارس والهند والحبشة وغيرها ويقابلون بالترحيب حيثما حلوا . أما العرب وسكان الشاوية فهم كرماء شجعان مطيعون صبورون . أما سكان الصحراء فأكثر اهتماماً بعلوم الدين من سكان الجبال .

وفي مقابل هذه الخصال يرى الوزان أن سكان الشمال الإفريقي فقراء معجبون بأنفسهم حقودون سذج إلى حد أن يصدقوا المستحيل ، وهم إلى ذلك سريعو الغضب ، قل أن يخلو زقاق لا يوجد فيه منهم من يتضارب بالأيدي ، كما أنهم يجهلون طرق التجارة (كما كان يعرفها الأوروبيون خاصة تجار إيطاليا)، وليست لهم مصارف . أما سكان الشاوية الذين يسميهم بالرعاة فهم قليلو الغيرة على بناتهم قلّ أن تتزوج إحداهن عذراء حتَّى إن الأب يرحب بعاشق ابنته ، وهم في الواقع ليسوا

(6) لم يكن هذا هو متوسط العمر طبعاً ، بل كان الحد الأقصى إلا فيما ندر.

مسلمين ولا يهوداً حتّى ولا نصارى[7]، إذ ليست لهم مساجد ولا صلوات يقيمونها.

اللبـــاس :

كان سكان حاحا يلبسون كساء من الصوف يلفون به جسمهم، كما يسترون عورتهم بمنديل من صوف ويتعممون بعمامة من نفس الثوب، وقل أن يستعمل أحدهم قميصاً لجهلهم نسج الكتان وهم لا يزرعون هذه المادة، وأغلب النساء سافرات الوجوه، والعزاب يحلقون لحاهم ثم يرسلونها إذا تزوجوا.

وتلبس العربيات قميصاً أسود ذا كمين عريضين يعلوه رداء من نفس الثوب يلففن به جسمهن ويتدلّى طرفاه على الكتفين، وتحمل أذنا المرأة عدة أقراط من فضة، كما يستعملن في أيديهن خواتم فضية، وفي كعوبهن وسيقانهن أساور، ويَلتثمن بثوب مثقوب من جهة العينين وذلك في حالة ظهورهن أمام غير أقاربهن.

ويلبس سكان جزولة صدرة بدون أكمام، كما يتسلحون بخناجر معقوفة وعريضة ولكنها ماضية الحدين.

أما أعيان فاس فيرتدون في الشتاء ثياباً من الملف المستورد[8]، ولباسهم عبارة عن معطف يلتف بالجسم مباشرة وهو ذو أكمام نصفية، أما فوق المعطف فيلبسون جبة مخيطة من الامام وفوقها برنس (أو سلهام كما نسميه اليوم وهو في طريق الانقراض)، ورؤوسهم يغطونها بطاقية تلتف بها عمامة خفيفة تمر من تحت الذقن، ولا يلبسون جوارب، أما السراويل فيرتدونها، والطبقة الشعبية تلبس المعطف والبرنس من غير جبة ولا عمامة غير الطاقية.

ويلبس نساء فاس في الشتاء فساتين عريضة الأكمام مخيطة من أمام كجيب الذكور، أما السراويل فتغطي حتّى الساقين، ثم يلتففن بإزار (حائك) يغطي رأسهن وكل جسمهن، كما يستعملن اللثام الذي يغطي من وجوههن ما سوى العينين، ويحملن في آذانهن أقراطا كبيرة من الذهب ويتزين بالأحجار الكريمة

---

(7) يظهر أن التأثير البرغواطي ظل قائماً حتّى هذا العهد بناحية الشاوية التي كانت تشكل حينذاك جزءا من تامسنا. وإذا كان من السهل حدوث انقلاب سياسي فليس من السهل تغيير بعض الأوضاع الاجتماعية التي قد تمتد جذورها أحياناً إلى مئات بل آلاف السنين.

(8) كان الملف معروفاً قبل هذا العصر، إذ كان اللباس الشتوي الغالب بغرناطة أيام بني نصر المعاصرين لبني مرين كما يذكر ذلك ابن الخطيب في اللمحة البدرية ض 27

والمصُوغات كأساور الذهب — واحد في كل ساعد — وقد يزن الواحد أكثر من ثلاثمائة غرام ، والطبقة الشعبية من النساء يتخذن المصوغات من الفضة .

المـرأة :

معلوماتنا عن المرأة المغربية في هذا العهد قليلة ، ولكن إذا تركنا جانباً شخصية الست الحرة التي سبق الحديث عن نشاطها السياسي ، فإننا نعثر على شخصية نسوية أخرى لعبت دوراً سياسياً كذلك ، وهي زهور الوطاسية التي تولت زمام الأمور بفاس بعد تنحية محمد الجوطي الذي بويع بفاس سنة 869 إثر مقتل آخر ملوك بني مرين ، وظلت زهور هذه تدبر أمور المدينة إلى جانبها القائد الشجيري حتَّى استولى محمد الشيخ على زمام الملك .

أما في الميدان الاجتماعي ، فإن أحسن وصف يهم بعض الجوانب المتعلقة بالمرأة ، هو ما سجله الحسن الوزان عن الزواج بفاس ، ولكن من الأحسن تركه إلى الموضوع الآتي :

الحفلات والأعياد :

فضلاً عن الحفلات والأعياد الدينية الإسلامية ، كان سكان فاس يحتفلون بذكرى مولد[9] المسيح (!) ويتناولون عشاء خاصاً في ليلة المولد ، وهو يتألف من حساء مكون من عدة خضر كالكرنب واللفت والجزر ، كما يطبخون عدة خضر وقطان مجتمعة ويأكلونها ، وفي اليوم الأول من السنة ، يتقنع الأطفال بقناع ، ثم يطوفون مرددين بعض الأناشيد ، وطالبين بعض الفواكه من المحسنين .

ومتَى نبتت الأسنان الأولى لأحد الأطفال دعا أبواه أطفالاً من أقرانه إلى مأدبة يقيمها لهم ، وكانوا يسمون هذه الحفلة بالسنية . ويعتبر الوزان مثل هذه الاحتفالات من التأثير المسيحي القديم ، على أن كثيراً من هذه الاحتفالات لم تختف بعد من عوائد المجتمع المغربي .

وفي جزولة كان يقام موسم سنوي بمناسبة المولد النبوي يستمر شهرين ، ويقدم فيه الطعام إلى الغرباء مهما كثر عددهم وإذا وافق الموسم وقت حرب عقدت هدنة بين الأطراف المعنية بالأمر ، ويتولى ممثل عن كل فريق حفظ النظام بمساعدة عدد

---

(9) حسبما يذكره الوزان.

من حراس فريقه ، ويتم قتل اللصوص حالاً ، وينصب الباعة خياماً أو عرائش ويتجمع أهل كل طبقة على حدة ، وبالرغم من المصاريف الباهظة التي يتكبدها المنظمون ، فإن دخل الموسم يغطي المصاريف وتفضل أرباح كثيرة بسبب كثرة الوافدين إلى الموسم من مختلف قبائل جزولة وحتّى من السودان ، ومن المعلوم أن جزولة كانت تطلق على الناحية الممتدة من تخوم حاحا إلى سفوح الأطلس بسوس.

وقد كان طلبة المدارس بفاس يحتفلون سنوياً احتفالاً خاصاً بهم وهو غير حفلة سلطان الطلبة التي لم تعرف الا في عهد العلويين ، وكانوا يدعون أصدقاءهم فيخرجون إلى ظاهر البلد يصحبهم الموسيقيون بآلاتهم ، ثم يقتلعون عنصلة ويضعونها في زهرية جميلة من النحاس ، ويغطونها بخوان صغير ، حتّى إذا عادوا إلى المدينة وضعوا العنصلة في سلة وعلقوها على باب المدرسة هاتفين بقولهم : بهذه الزهرة تزدهر المدرسة ويكثر الإقبال عليها (ترجمة لكلام الوزان).

أما الاحتفال بالزواج في فاس ، فإن والد الزوج يصحب عدلين وعدداً من أصدقائه إلى المسجد بعد موافقة والد الزوجة ، ويحضر الخطيبان اللذان تم كتابة العقد أمامها ، وإذا كان الزوج ضعيف الحال يقدم كصداق نحو ثلاثين ديناراً معجلة ، وجارية سوداء ، تبلغ نصف هذا القدر ثمنا وقطعة ثوب من حرير وكتان ، ومناديل من حرير (سبنيات) للرأس ، وتقضي العادة بأن يهدي ثلاثة قفاطين وثلاثة فساتين وعدة أقمصة ونعلاً (شربيل) وأغطية للفرش مزخرفة ووسائد وثمانية فرش وأربع وسائد مطرزة توضع إلى جانب الصوانين بالإضافة إلى زربية وثلاثة أغطية لسرير النوم وأشياء أخرى.

ومعنَى هذا أن جهاز المرأة كان يكبد الزوج المتوسط الحال نفقات باهظة لا تلبث أن تفقره ، أما والد الخطيبة فيتحمل من ذلك أضعافا مضاعفة.

ومتَى تمّ الاستعداد لخروج الخطيبة إلى بيت زوجها ، أدخلها هذا الأخير صندوقاً كبيراً مملوءاً بالثياب الحريرية والمدبجة ، ثم يحمل الصندوق عدد من الحمالين ، ويتألف الموكب من أصدقاء والد الزوج والزوجة ، وهم يحملون ناياتهم وأبواقهم وطنابيرهم وعدة مشاعل ، ويتقدم الموكب أصدقاء والد الزوج ثم أصدقاء والد الزوجة ويمرون بسوق المدينة الأكبر ، حيث يُحيّي الزوج والد الزوجة وأقاربها ، ثم يعود إلى منزله بانتظار زوجته التي يرافقها والدها وعمها وأخوها إلى بيت العريس حيث يسلمونها إلى أمه ، وحينئذ يغلق العروسان الحجرة عليهما بينما

يكون آهل العريس يعدون طعام المناسبة، وبعد فض البكارة تعلن ذلك خادم تقف بالباب بعد أن يسلمها الزوج منديلاً ملطخاً بالدم ، وقد ظلت هذه العادة البغيضة البهيمية مسترسلة إلى وقتنا هذا في عدة أوساط ، ترى فيها دليلا على محافظة الفتاة العروس على شرفها .

وتقام بمناسبة العرس ثلاث ولائم ، أولاها ليلة قدوم الزوجة ، والثانية تقدم للنساء عشاء في اليوم الموالي ، والثالثة في سابع يوم الزفاف ويحضر فيها والد الزوجة وأقاربها حيث يقدم أبوها هدية مكونة من الحلوى وعدد من الخرفان ، أما العريس فيخرج في اليوم السابع من بيته فيشتري سمكاً ويعود فيقدمه إلى أمه لتضعه تيمناً عند أقدام العروس .

وأما والد الزوجة فيقيم مأدبتين إحداهما ليلة اليوم الذي ستغادر فيه العروس بيت والدها ، ويحضر فيها أصدقاء العائلة ويعبرون فيها عن فرحهم بالرقص والغناء ، وفي اليوم الموالي تحضر الماشطات لتزيين العروس وتخضيب يديها ورجليها بالحناء ، وتجلس على منصة عالية ليشاهدها الحاضرات ، وحينئذ تقدم المأدبة الثانية .

وعندما تدخل الزوجة إلى منزل الزوجية ، تتوارد على العريس هدايا من أصدقائه وتتكون من أوان مليئة بالإسفنج وأخرى بالخرفان المشوية ، كما يقوم هو بدوره بتوزيع هدايا على أصدقائه ، ويقضون ليلة بحضور جوق موسيقي يطربهم بنغمات الموسيقى الأندلسية كما يؤدي بعض الراقصين رقصات بنفس المناسبة ، وللنساء راقصات ومغنيات خاصات بهن .

وهذه المآدب إنما يستطيع أن يتحمل مصاريفها الموسرون ومن إليهم ، أما الطبقة الشعبية فيتكون طعامها بهذه المناسبة من ثريد يشتمل على الخبز والمرق واللحم .

أما العقيقة أو الختان فيحضر فيها حلاق يصحبه مساعده ، كما يحضر أصدقاء الأب الذي يقيم مأدبة على شرفهم بعد أن يقدم كل منهم هدية إلى الحلاق وهي نحو دينار أو دينارين أو أكثر ، ثم يلصقه بخد مساعد الحلاق الذي ينادي باسم المهدي ويشكر له ، وإثر ذلك يختن الغلام ، ثم يتابع الحفل على نغمات الموسيقى وإيقاع الراقصين ويتناول الجميع طعام الوليمة حول موائد مستديرة .

وإن كثيراً من هذه المظاهر التي كانت بدون شك منتشرة بالمغرب بنفس الطريقة أو بما يشابهها ما تزال قائمة عندنا .

الغنـاء :

امتاز هذا العهد بنمو الزجل الذي أصبح يسمى الملحون ، وهو مشتق من التلحين ، إذ هو يتغنى به قبل كل شيء(10) . وقد يطلق عليه أيضاً لفظ «الكلام» ، ولغته على العموم راقية تأخذ من الفصحَى والدارجة على الرغم من أن أغلب ناطقيه من العوام ، وفيهم أدباء وعلماء ، وهو ينظم في مختلف مناحي الحياة ، ومن المؤسف أن قصائد الملحون التي نظمت في العهد المريني لم يحافظ عليها بعد ذلك ، وأقدم قصيدة معروفة هي قصيدة «الحربَى» لابن عبود الفاسي في وصف معركة أبي عقبة بتادلا بين أحمد الوطاسي وأحمد الأعرج سنة (1536م) 943هـ ، وقد أنشدت بين يدي أحمد الوطاسي ، الذي وضع رهن اشارة ابن عبود مكاناً لإنشاد قصائده يوم عيد المولد ابتداء من ذلك التاريخ ، وهو مسيد سيدي فرج بسوق الحناء بفاس ، وخلفه هناك عبد العزيز المغراوي الذي نبه ذكره في عهد السعديين وظل شعراء الملحون يجتمعون بهذه المناسبة لإنشاد قصائدهم حتَّى الآن .

وقد لاحظ السيد محمد الفاسي أن معظم شعراء الملحون النابغين ينتمون إلى تافيلالت بما فيهم عبد العزيز المغراوي المذكور .

أما تكوين قصائد الملحون واصطلاحاتها فيدخل في باب النشاط الفكري كما سيأتي .

والمهم أن شعراء الملحون كانوا كثيرين بهذا العهد ، حسبما يفهم من كلام الناصري على الأقل(11) ، كما أن هؤلاء الشعراء إلى جانب أجواق الموسيقَى الأندلسية ، هم الذين كانوا يطربون المدعوين في مختلف الاحتفالات والأعياد ، وكما رأينا في الموضوع السابق ، فإن مجال الرقص والموسيقَى في الحفلات قد يكون أوسع وأنشط مما هو الآن في أوساط المجتمع المغربي .

وكان دور المغنين والراقصين أبرز من دور آلات الطرب التي كانت قليلة وبسيطة لا تتجاوز في الغالب نايات (غيطات) وطبولاً أو دفوفاً.

---

(10) مجلة البحث العلمي عدد 1 ، الأستاذ محمد الفاسي ، وهو المرجع الرئيسي في هذا الموضوع .

(11) الاستقصا 4 ص 153.

الطـعـام :

يتألف طعام الطبقة المتوسطة والفقيرة من ثلاث وجبات يومية أولاها الفطور الذي يشتمل على الحريرة والخبز والفواكه ، والغذاء الذي يحتوي على خبز وسلطة وزيتون وجبن ، أما العشاء فيتكون من الخبز والحليب أو الخبز مع بعض الفواكه ، وفي فصل الشتاء يستكثر من الكسكس ، أما الطبقة المترفة فتأكل اللحم يومياً وتنوع أطعمتها ، ولم يكن شاع استعمال السكاكين ولا المناديل أثناء الأكل .

وفي حاحا يتناول السكان خبز الشعير ودقيق الشعير الذي يطبخ في الماء ثم يوضع في آنية مجوفة القعر حيث يصب عليه زيت أركان ، أما في الصيف فيغلى هذا الدقيق مع الحليب والزبدة ، وقد يتناولون الخبز مع عسل أو زبدة ، كما يأكلون اللحم مطبوخاً مع البصل والفلفل أو الكسكس الذي شاع منذ قديم كطعام شعبي ، وكان الإسفنج معروفا في هذا العهد بل كان للسفاجين دكاكين خاصة قبل المرينيين بفاس كما سجل ذلك صاحب زهرة الآس[12] .

(12) زهرة الآس ورقة 105 للجزناني .

3 - الحياة الاقتصادية

رسم طيراس صورة مظلمة للاقتصاد المغربي في العهد الوطاسي[1] من غير أن يذكر لذلك أمثلة ولا حتَّى مصادر ، وما من ريب في أن الحياة الاقتصادية قد تعرضت لأزمات تشتد أو تخف حسب الظروف ، غير أن عدة مراكز ساهمت بنصيب لا بأس به في الازدهار الإقتصادي المحلي كما عرض ذلك الحسن الوزان في كتابه الجغرافي .

في منطقة هسكورة كانت تتوفر الأغنام بكثرة مما ساعد السكان على انتاج الجلود ودبغها ونسج الثياب الصوفية الجميلة ، كما كانت هذه الناحية تنتج الزيت بغزارة ويتعامل معها العرب المجاورون ، ويفد إليها التجار من فاس حيث يعقدون صفقات عظيمة الأرباح ، وكانت تتوفر على عدد كبير من الصناع والدباغين والسراجين ، فضلاً عن التجار الذين كان بينهم كثير من اليهود ، وقد كان يوجد في كل المدن والقرى تقريباً نسبة قليلة أو كثيرة من اليهود بل كانت نسبتهم في بعض القرى والأماكن أعلَى من نسبة السكان المسلمين .

وفي آيت عياض بتادلا كان يوجد تجار وصناع يهود ، وكانت هذه القرية تتوفر على بساتين للعنب والتين والجزر والزيتون ، وكانت سهول الناحية خصبة بمزروعاتها المتنوعة .

وكانت ناحية جزولة تنعم بماشية ودواب كثيرة وتنتج الشعير فضلاً عن النحاس والحديد ، حتَّى كانت أواني النحاس التي تصنع هناك تصدر إلى أقاليم المملكة ، وكانت أهم المناطق المعدنية توجد بتسنت وآقا ، وتيزونين وإغرم .

أما ناحية مراكش فكانت تنتج كميات وافرة من القمح ومختلف الحبوب ، وهي منطقة غزيرة المواشي والأنهار والعيون والفواكه من تمر وعنب وتين وإجاص وتفاح .

---

(1) Histoire du Maroc, T.2 P.154

وكانت منطقة تيوت بسوس تنتج الشعير والحبوب والخضر فضلاً عن قصب السكر ، ويتعامل أهلها بالذهب تِبْراً أو بقطع صغيرة من الثوب تبلغ قيمتها نحو دينار ، وتستورد من أوروبا خصوصاً البرتغال .

أما ناحية مليلية فكانت مركزا لإنتاج الحديد والعسل بكميات وافرة .

وكانت ناحية تازا تنتج أطيب الفواكه ، وضمنها العنب الذي كانت تغطي كرومه مساحات كبيرة وفيه الأبيض والأسود والأحمر ، وكان بها نحو خمسمائة يهودي يشتغل كثير منهم بصناعة الخمر الذي وصفه الوزان بالجودة .

وفي ناحية مكناس كانت تتوفر بكثرة أصناف الفواكه والزيتون ، فكان بها أشجار البرقوق والتفاح يعقد مرتين كل سنة ، وأنواع مختلفة من الإجاص والرمان والجوز والخوخ والعنب والتين الذي كان أنواعه الأشكوز والشبلي والحمراء والغدان والحافر والنقال[2] .

وكانت منطقة حاحا كثيرة المعز والخمير ، كما كانت تنتج العسل والخوخ وزيت أركان .

أما منطقة السوس فكانت تنتج قصب السكر واللوز والحامض والتمر[3] وعدداً من البواكير التي كان كثير منها يصدر إلى الخارج تحت إشراف السعديين الذين كانوا حينئذ يتولون أمر هذه الناحية . ولم تكن مادة السكر تنتج قصباً فقط ، بل كانت تحول إلى مادة استهلاك عادية ، ومن المؤكد أن زراعة قصب السكر قد عرفت بزمن طويل قبل الوطاسيين ، ولو أن عملية تصفيته وتحويله كمادة استهلاك لا يعرف تاريخ بدئها بالضبط[4]. وقد تحدث البكري عن إنتاج السكر بالمغرب في القرن الخامس الهجري وذلك بايغلي (سوس) التي كانت بها مزارع ومعامل إنتاج السكر كما تحدث عن استخراج زيت الهرجان (الأركان)ـ انظر كتاب المغرب للبكري ص 162.

وكان أعظم مركز صناعي هو فاس التي كانت تتوفر على أكثر من أربعمائة مطحنة ومصانع للأسلحة ، ومائة وعشرين معملاً للنسيج تتكون من عدة طبقات

(2) الروض الهتون ص 3 لابن غازي

(3) La Petite Hist du Maroc T1 - P.76 لجاك كابي.

(4) مجلة البحث العلمي عدد 1 ، بول برتيي.

تشبه القصور في كبرها . ويعتبر النسيج أهم صناعات فاس ، كما كانت تشتمل على مائة وخمسين مصبغة ، وعدد من معامل النجارة الكبرى التي كان يعمل فيها مسيحيون ، ومعاصر الزيتون وغير ذلك .

وكان في المدينة البيضاء بفاس عدد من المصاغات يملك أكثرها اليهود ، ولم تكن توجد مصاغات بالمدينة القديمة ، وكانت المصوغات تطبع بطابع عند أمين الصياغة قبل بيعها بالثمن المعتاد ، ولا يقبل بيعها قبل طبعها .

أما التجارة بالعاصمة فقد كان لكل نوع من المعروضات باعة يتجولون في سماط خاص بهم ، ولكل حنطة أمين ، وعلى رأس الجميع ، المحتسب الذي كان يراقب الأسعار ويعاقب على الغش ، فكان للكتبيين نحو 30 دكاناً ، وللحذائين مائة وخمسون ، وللفواكه نحو 50 ، وكان لكل من باعة الحليب والأزهار والقطن والملح والجبس واللحم والخضر سماط خاص ، وكانت دكاكين الخياطين تشغل ثلاثة أزقة ، وكان كل من العرض والطلب كثيراً ، حتّى كان الحليب وحده يباع منه نحو خمسة وعشرين برميلاً ، وكان يباع من الجزر واللفت أكثر من خمسمائة حمل يومياً ، وكان لِلّحم مجزرة خاصة على جانب الوادي تحت مراقبة المحتسب ، وكان للصبانين سوق خاص كذلك .

أما سوق العطارين فقد عده الحنس أجمل سوق للعطارين في عصره ، وفي هذه السوق نفسها كانت توجد الصيدليات التي يسلم مستخدموها الدواء إلى المرضَى مقابل وصفة طبية[5] ، كما هو الشأن اليوم وكان الأطباء يعدون الدواء مباشرة في منازلهم ، ويباع الدواء تحت إشرافهم .

وكان تجار الثياب ونحوها من أحزمة وأقمصة وما إلى ذلك تكون قيساريات متقاربة ، وقد جاء استعمال لفظ قيسارية نسبة إلى قيصر ، وذلك أن الرومان في المنطقة الشمالية التي كانوا يحكمونها قبل الفتح الإسلامي خصصوا لكبار التجار أماكن خاصة منعزلة عن باقي المتاجر ، بحيث يمكن لمستخلصي الضرائب أن يتقاضوها في عين المكان ، كما أن دفاع التجار عن أموالهم في حالة الخطر ، يضطرهم بطبيعة الحال إلى الدفاع عن كل المنطقة التجارية التي هم بها فيحمون بذلك أموال الدولة أيضاً . هذه المجموعة التجارية دعيت باسم القيسارية منذ ذلك الوقت . وهذا التحليل ساقه الحسن الوزان في كتابه الجغرافي .

---

(5) Léon, Description de l'Afrique 1.P. 200

وكان بقرب سوق السراجين ميدان خاص بالحمالين الذين يبلغ عددهم نحو الثلاثمائة ، وكان لهم زي موحد ، ويعملون تحت إدارة أمين ويتناوبون العمل أسبوعياً ، ولهم صندوق يوزع دخله على مجموع العاملين ، ومتى توفي أحدهم ، وترك زوجة وأطفالاً تكفلوا بمصاريفهم إلى أن تتزوج الأرملة إذا شاءت ، أما الأطفال فإلى أن يكبروا ويتعلموا مهنة تدر عليهم مورداً . ومتى تزوج أحد الحمالين أو ولد له طفل دعا زملاءه فقدموا إليه الهدايا بهذه المناسبة . وكانوا يعفون من الضرائب وثمن خبز عجينهم . ومتى ارتكب أحدهم جريمة وعوقب عليها بالإعدام فإنه لا يعدم علناً كباقي الجمهور .

وكان من ضمن البضائع المستوردة من انجلترا ، الملف الذي يباع بكثرة في المغرب ، وقد ظل يستورد حتى الحرب العالمية الثانية حيث ندر استعماله ، كما كان يجلب منها بعض أنواع الثياب الحريرية فضلاً عن المدافع والبنادق وصفائح السيوف والبارود والرصاص والقنابل ، وكانت انجلترا تتعامل إذذاك مع السعديين بسوس عن طريق ميناء أكادير الذي كان تحت أيدي البرتغال في أواخر العهد الوطاسي[6] .

وكان أهم ما يصدره المغرب هو السكر ، ولكن بعد أن استولى السعديون على مجموع المملكة الوطاسية . وكان التجار الإيطاليون والإسبانيون يصدرون إلى بلادهم من المغرب نوعاً من البرانس السوداء لبيعها هناك ، وكانت هذه البرانس تصنع بتفزة من ناحية تادلا . أما تجار سجلماسة ، فكانوا يقومون بالتبادل التجاري مع مصر والسودان[7] .

وكان في سلا عدد كبير من التجار الجنويين والبندقيين والانجليز والفلامنديين ، إذ كان ميناء سلا من أعظم موانئ المغرب بعد فترة ركود طويلة قبل أواخر العهد الوطاسي .

وكان أكثرهم نشاطاً الجنويون الذين كانوا يروجون تجارة واسعة بكل من فاس وسلا ، ولذلك كانوا يحظون برعاية السلطان ، إذ كانت تجارتهم تغل دخلاً كبيراً لخزينة الدولة ، وكانوا فيما يخص الوسق إلى الخارج ، يتعاونون فيعمل بعضهم لحساب الآخر . وقد وصفهم الحسن الوزان بالإخلاص واللباقة ، وكانوا ينفقون

---

(6) Caillé, La Petite Hist du Maroc T1 - p. 76

(7) Raymond Mauny - Hespéris 3,4 - p. 13

أموالاً طائلة في سبيل استمالة رجال البلاط وشخصيات الدولة حتّى يضمنوا لأنفسهم حياة كريمة ، وكان أحدهم ويدعَى طوماس دي مارينو ثرياً يحظى بإكرام السلطان ورعايته الخاصة ، حتّى إن هذا الأخير نقل جثمانه بعد موته إلى جنوة ، تنفيذاً لوصيته وترك عدة أولاد أثرياء حظوا بنفس العطف من لدن البلاط .

وكانت تارودانت من أكثر المدن ازدهاراً ، فقد كان سكانها يبلغون تقريباً ثمانين ألف نسمة ، وكانت القوافل تحط بها من مختلف أنحاء المغرب ، وكانت الأسواق تعقد بها دورياً لتجارة الجلد والتبر وريش النعام والأسلحة والصمغ مما كان يحمله السود من السينغال ، وكانت معادن النحاس بالقرب من أكادير تستغل أحسن استغلال [8] .

* * *

(8) Les Portugais au Maroc - Page 13

4 – العمران وفن البناء

نظرة عامة :

ذكر لنا الحسن الوزان في وصف افريقيا كثيراً من المدن والقرى التي كانت آهلة في هذا العهد ثم خبا نجمها وقتئذ أو فيما بعد ، وكانت من بين هذه المدن والقرى التي بنيت قبل الوطاسيين بزمن بعيد أو قريب :

1 – تيد نيست بحاحا ، ومع أن قرية ما تزال موجودة بهذا الاسم هناك ، فليس من المؤكد أنها الموصوفة في كتاب الوزان ، وكانت تيد نيست آهلة باليهود الذين كانوا يؤلفون معظم سكانها ، ثم تهدمت منذ سنة 920 إذ غادرها السكان خوفاً من هجوم البرتغال .

2 – تاكوليت وهي قريبة من الصويرة القديمة ، وقد تم خرابها أيضاً على يد البرتغال سنة 920 (1514).

3 – تنزة بناحية مراكش في جدميوة ، وكانت تنتج حبوباً كثيرة ، ولكن هجمات العرب أضعفت من شأنها .

4 – تاغوداست من إقليم دكالة وكانت توجد بها بساتين كثيرة للفواكه والزيتون ، وكان بها عيون دافقة ، وأهلها طيبو الأخلاق فيهم علم وفضل .

ومن المؤكد أن هجمات البرتغال كان لها النصيب الأوفر في خراب هذه المدن والقرى الآهلة حتى اننا لنعجب اليوم إذ نشاهد مناطق شاسعة من أرض المغرب لا أثر فيها تقريباً لمدشر أو ساكن ، فهل يحق لنا أن نستخلص تأخر العمران من حيث الكم بالنسبة لهذا العصر البعيد؟[1].

---

(1) في كتاب آسفي وما إليه ، ذكر عدد من المدن والقرى التي خربت في هذه الفترة كالغربية وتيط . وانظر أيضاً ليون الافريقي .

المدن المستحدثة :

لا مراء في أن الوطاسيين لم ينشئوا مدينة حقيقية تخلد أثرهم كما فعلت كل الدول التي سبقتهم منذ الأدارسة ، فقد كانت خزينتهم تشكو على الدوام عجزاً خطيراً ، وكانوا أكثر انشغالاً بالحرب منهم بالسلم ، فأثرهم في العمران والبناء يكاد يكون معدوماً إذا اعتبرنا المدة التي قضوها في الحكم . وإذا كانوا لم يشاركوا بنصيب يذكر في هذا المظهر من الحضارة ، فقد شيدت في عهدهم عدد من المنشآت على يد أمراء مستقلين أو على يد البرتغال الذين تركوا عدة آثار من هذا العهد .

ومن أهم المدن المستحدثة في العهد الوطاسي :

1 — شفشاون : تقع بين وزان وتطوان ، وقد تم تأسيسها سنة 876 على يد موسَى بن راشد من نسل عبد السلام بن مشيش وهو الذي بنَى قصبتها وكانت معسكراً تنطلق منه المتطوعة لمقاومة الاحتلال البرتغالي في سواحل البحر المتوسط وبلاد الهبط ، وقد بقيت شفشاون بيد بني راشد أزيد من قرن إلى أن طردهم منها السعديون .

2 — تطوان الجديدة : تقدم أن بناء قصبة تطوان المرينية يرجع إلى عهد يوسف بن يعقوب سنة 685 وأنها خربت بعد هجوم الاسبان سنة 1500م ، وظلت كذلك إلى أن قدم فوج من المهاجرين الأندلسيين 889 بقيادة أبي الحسن علي المنظري ، من كبار ضباط جيش ابن الأحمر ، فاستأذنوا مؤسس الدولة الوطاسية محمد الشيخ في بناء المدينة المذكورة ، أو على الأصح في إعادة بنائها بعد أن عاينوا موقعها وأطلالها ، وعزموا على أن يتخذوها خطاً هجومياً ضد التدخل المسيحي . ولعلهم طمعوا في قربهم من المضيق أن يعودوا يوماً إلى أرض الوطن الذي غادروه مكرهين ، ولذلك أنشأوا أسطولاً للجهاد أمكنه أن يضايق لأمد طويل سفن البرتغال والاسبان في عرض البحر المتوسط . ولم يقبل الرئيس المنظري ولا بنو راشد الهدنة التي عقدها محمد الشيخ وملك البرتغال ألفونس الخامس عند احتلال هذا الأخير لأصيلا ، وتمكن بنو راشد المنظري من تحطيم عدد من السفن البرتغالية في حوض أصيلا[2] .

---

(2) Auguste Cour, La Dynastie marocaine des B. Wattas PP. 85-116.

وقد كانت البناءات الأولى لتطوان الجديدة لا تزيد على بضع عشرات من الدور والمرافق ، بالإضافة إلى السور ، أما العمارة الكاملة فقد تمت قبل نهاية القرن التاسع ، بعد أن تواردت أفواج جديدة من مهاجرة الأندلس ، وهكذا كانت تطوان بلداً مربع الشكل[3] ذات سور مزدوج يبلغ عرض جزئه الداخلي سبع أذرع . وبَنَى المنظري قصبة جديدة في ركن المدينة والملاح ، قرب الجامع الأعظم ، ويدعى الآن بالملاح البالي ، أما الأبواب الثلاثة التي كانت مداخل للقصبة فقد ضاعت آثارها تقريباً ، كما تخربت أو ضاعت معظم أجزاء السور .

وكانت المادة الأساسية من الحجر والآجر كما تشهد ذلك في بعض الأبراج ، وكانت القصبة التي يوجد موقعها الآن في حومة جامع القصبة أول ما بني من المدينة ، ولا يزال جامعها موجوداً ، وكانت الدور في عهد المنظري تبنى معها حدائق ، ثم أبطلت هذه الطريقة بسبب ضيق المساحة داخل المدينة المسورة ، وقد بني مكان الجامع الأعظم الحالي مسجد صغير ظل يؤدي مهمته الدينية ، إلى أن هدمه سليمان العلوي سنة 1223هـ ، وأعاد بناءه . (محمد الهلالي — دعوة الحق — عدد 1 — 1962/1382).

3) الجديدة : على ساحل المحيط الأطلسي ، بنيت في مكان كان يسمى البريجة إذ كان يوجد هناك برج قديم[4] . وفي سنة 907 (1502) خرج الأسطول البرتغالي لشن الغارة على بعض شواطئ الشمال ، فألجأته العواصف الى المحيط الأطلسي عند البريجة ، وبعد أن تركوا بعضهم هناك ، عجلوا بالرجوع إلى البرتغال حيث استأذنوا ملكهم في بناء برج هناك ، غير أن السكان منعوهم حتّى كانت سنة 911 ، فاهتم مانويل بالأمر بنفسه ، وبعث بالخبراء والعمال ، فتمكنوا من بناء حصن مربع في وسطه مأجل لحبس الماء تبلغ مساحة كل من جوانبه 36 خطوة . وكان بناء هذا المأجل سنة 1509 ، ثم بنوا سور المدينة والحصن مركزها ، وكان السور مزدوجاً وله ثلاثة أبواب أحدها يتجه نحو البحر .

التحصينات :

حصنت كثير من المدن والمراكز المستقلة ذاتياً كتطوان وشفشاون ودبدو وتازوطا وغيرها ، وكان من أهم المنشآت العلمية التي تمت على يد الوطاسيين قنطرة وادي

(3) مختصر تاريخ تطوان ص 18 وتاريخ تطوان 1 ص 91 لمحمد داود.
(4) الكانوني : آسفي — 46 وقيل إن الاحتلال كان سنة 1514م.

الرصيف بفاس حيث قاموا بتجديد بنائها ، أما التحصينات التي امتازت بالجدة والأصالة فهي التي تمت على يد البرتغال ولصالحهم ، وكان البرتغال يستخدمون مواد البناء الموجودة في عين المكان ، وكانوا يضطرون إلى جلب بعضها من بلادهم[5] ، وهم أول من استخدم الابراج الخاصة بالمدفعية بالمغرب ، وكانوا يبنونها في غاية المتانة حتّى تقوى على ضرب المدافع هجوماً ودفاعاً ، ويخصصون للمؤن والذخائر أهراء عظيمة أسفلها ، وكان لهم مهندسون لهم خبرة عالية بهذا الفن ممن كانوا يستقدمون للمغرب لهذا الغرض .

واتخذ البرتغال ثلاثة نماذج على التتابع في بناء الحصون كما سجل ذلك طيراس ، فكانت الأبراج على شكل نصف مستدير كما في سبتة وطنجة ، ثم صارت الابراج مربعة بعد سنة 1431 كما في أصيلا . وفي أوائل القرن 16 صارت الأبراج عبارة عن تحصينات واسعة عظيمة كما في أزمور وآسفي وأكوز.

وكانت الجدران الخارجية تنتهي بمنحدرات قد خندق حولها ، وفي آسفي ظهر البرج المستدير المكون من عدة غرف ، أما الجدار الخارجي للجديدة فقد كان يمثل في شكله نجمة ذات أربعة فروع وأبراجه القوية تقع في أركانه .

وفي أكادير بنى البرتغاليون حصن فونتي قريباً من المرسَى وكان بالحصن برج ضخم وعدد من الدور ، وتم لهم احتلال موقعه في عهد محمد الشيخ سنة 910 (1505) كما أخلوه سنة 947هـ . وقيل إنه كانت توجد في أكادير قلعة من بناء أمراء حاحا قبل الإسلام[6] ، ولا نعرف ما إذا كانت في مكان الحصن البرتغالي .

المــدارس

عرف هذا العهد انتشار المدارس بسوس خاصة ، على يد عدد من العلماء والمحسنين ، أما الدولة الوطاسية فلم يكن لها نشاط ملموس في بناء المدارس التي كانت في العاصمة على الأقل قد بلغت الكفاية منذ عهد المرينيين . ولم تكن مدارس سوس ذات بناء نموذجي ، وإنما كان انتشارها يدل على مدى الإقبال على العلم بهذه الناحية التي ازداد نشاطها الثقافي في العصر السعدي ثم في العصر العلوي . ومن مدارس سوس التي لمع اسمها في العصر الوطاسي[7] :

---

(5) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 119

(6) آسفي وما إليه ص 56 للكانوني .

(7) سوس العالمة ص 156 وما بعدها للمختار السوسي .

1 ـ مدرسة آقا التي كان من علمائها محمد بن مبارك المتوفّى سنة 920هـ.

2 ـ مدرسة تازمورت بسملالة ، أسسها أحفاد الإمام ابن العربي ابتداء من سعيد أكرامو المتوفّى سنة 882هـ.

3 ـ مدرسة آل عمرو من أوائل القرن العاشر على يد أسرة آل عمرو.

4 ـ المدرسة البرحيلية قريباً من تارودانت بأولاد برحيل (وهم عرب) ، ومن أوائل علمائها حسين الشوشاوي العالم الأصولي المتوفّى أواخر القرن التاسع وتلميذه داود التونلي.

وبالإضافة إلى هذه المنشآت فقد بنى أحمد الوطاسي سداً عظيماً على وادي فاس بقي على متانته أكثر من نصف قرن حتّى انهار في عهد المنصور السعدي سنة 1009 نتيجة لفيضان عظيم[8].

---

(8) نزهة الحادى ص 265 لليفرني.

5 – الحياة الفكرية

نظرة عامة :

لم تتوقف الحركة الفكرية في العهد الوطاسي ، ولكنها تراجعت من بعض الوجوه ، فلم ينجب المغرب في هذا العهد عدداً كبيراً من العلماء الفطاحل كما حدث في العصر الموحدي والمريني .

وقد ظل التعليم في الكتاتيب والمدارس شبيهاً من حيث المنهج بما كان عليه في الماضي . وانتشرت الكتاتيب في العهد الوطاسي حيث تكاثر حفظة القرآن ، وكانت الآيات الكريمة تكتب في ألواح خشبية وتحفظ ثم تمحى لتكتب الآيات الموالية لها وهكذا إلى أن يتم حفظ مجموع السور كما هو الشأن حتّى الآن في عدد من الكتاتيب القروية ، وبهذه الطريقة يحفظ التلاميذ رسالة أبي زيد القيرواني ثم ألفية ابن مالك أي بعد حفظ القرآن . أما الشرح فيقرأونه في منازلهم ، ويقضون في دراسة الألفية ما بين سنتين إلى أربع ، وبالرغم من أن هذه الشروح تتضمن كثيراً من شواهد القرآن الذي حفظوه من قبل فضلاً عن النصوص الشعرية التي عليهم أن يحفظوها أيضا ، فإن ذلك لم يكن يفيدهم مباشرة في التحرير وإصلاح نطقهم[1] .

وقد أكد الراهب نيكولا كلينار الذي درس بفاس وسجل عن مشاهداته وصفاً مدققاً ، أن المواد العلمية الأخرى كانت دراستها شائعة بتونس إلى جانب القرآن . أما في المغرب فبعد دراسة النحو وحفظ الرسالة يتفرغ الطلبة لدراسة علوم الفقه الذي يولونهْ كامل عنايتهم .

ومن المعلوم أن الراهب لا يصف سوى ما لاحظه بفاس ، ففي هذا الوقت بالذات كانت دراسة الرياضيات قد شقت طريقاً واسعاً بإقليم سوس بعد ركود عام بالمغرب استمر عقوداً من السنين .

---

(1) Le Tourueau, Hespéris 2, 1934

على أن كلام نيكولا كلينار ينبغي أن يؤخذ بعين الحذر فقد أكد أنه (حوالي سنة 1540 ـ 1541) لم يكن في فاس كتبيون ، أما ليون الافريقي (الحسن الوزان) الذي درس هو أيضا بفاس وكتب عن المغرب وصفه ضمن كتاب (وصف افريقيا) سنة 1526 فقد أكد أنه يوجد بهذه المدينة نحو ثلاثين كتبياً ، فهل توقف الكتبيون عن بيع الكتب في متاجرهم بعد هذه المدة؟

ويذكر كلينار أن الكتب كانت تباع وقتئذ بالمزاد العلني يوم الجمعة قرب جامع القرويين وكانت قليلة لأن نشاط النساخين قد فتر قبل ذلك بنحو مائتي سنة ، كما ارتفعت أثمانها حتَّى كانت تتخطفها الأيدي مهما بلغ ثمنها ، وكثيراً ما تباع مبتورة ويتعين شراء الكتاب أحياناً مرتين ليمكن سد بتر هذه النسخة بتلك ، وكان يباح لليهود دخول قاعة البيع مع احتمال تعرضهم للإهانة حسبما يدعيه الراهب ، ولا يزال بيع الكتب بالمزاد العلني جارياً حتَّى الآن بجامع القرويين ظهر كل جمعة .

وكان بفاس نحو مائتي كتاب[2] فضلاً عن المدارس والجوامع ، وكان التلميذ يتعلم القرآن في سنتين أو ثلاث ثم يعيد قراءته مرة أو أكثر حتَّى يحفظه عن ظهر قلب في نحو سبع سنوات ، وكان يتعلم الإملاء والنحو وباقي العلوم في المدرسة ، وكان للمعلمين جراية قليلة ، وبعد أن يختم التلميذ حفظ القرآن يقيم والده مأدبة على شرف المعلم والتلاميذ رفقاء ابنه ، وكذا أصدقاء رب المنزل الذي يقدم للمعلم كسوة جديدة كهدية بينما يقدم التلاميذ إليه شموعاً مزخرفة توقد فجراً وتطفأ عند شروق الشمس وقد يشترك في الحفل عدد من المادحين .

وكان لتلاميذ الكتاتيب والمدارس يومًا عطلة أسبوعية .

وقد استمرت العناية بشؤون المدارس في هذا العهد حتَّى وإن لم يخلد الوطاسيون مآثر في بناء المدارس الجديدة على غرار مدارس المرينيين ، وهكذا كان فقهاؤها وخطباؤها يختارون من ذوي العلم والفضل كأبي عبد الله محمد بن القاضي المكناسي وعبد الرحمن بن محمد الزواري[3] المتوفى سنة 895هـ .

ومع ذلك فقد تقهقرت حركة التعليم بشكل واضح إذا قارناها بما كانت عليه في العصر المريني الذي كان فيه لكل مدرسة عدد كبير من العلماء حسب تخصصهم وكانت لهم رواتب محترمة بفضل الأوقاف المخصصة لهذا الغرض، والتي كانت

(2) Description de l'Afrique 1-p. 215

(3) درة الحجال 2 ص 360 لابن القاضي .

موضع عناية القضاة ، وبينما كانت لكل طالب منحة تكفل له المؤونة واللباس لمدة سبع سنوات ، والسكنَى بالمدرسة . لم يعد له في العصر الوطاسي سوى السكنَى . أما المؤونة فيتصدق بها عليه المحسنون من سكان فاس وضواحيها (فيما يخص مدارس فاس).

وكان الطالب يسرد الحصة الدراسية على العادة التقليدية بمحضر الأستاذ ، في الكتاب المقرر ، ويقوم بالشرح مع بعض التدخلات الخاصة وقد يناقش الطلبة بعضهم بعضاً بمحضر الأستاذ .

والواقع أن هذه الطريقة من أجود طرق التعليم إذا قارناها بالدور السلبي الذي يمثله الطلاب في عدد من مدارس الدول الحديثة .

وفي هذا العهد بدأ الاهتمام بإنشاء الخزانات وتنظيمها وتنميتها على يد الأسر في إقليم سوس كخزانة الأسرة العمرية في بعقيلة قرب تزنيت ، وخزانة تاجارجوست بتاليوين .

وقد كان من أهم مظاهر النشاط الفكري في هذا العصر ظهور عدد من كبار الفقهاء وعلماء التصوف ، ونموُّ أدب المقاومة وشعر الملحون . كما انتقل الاهتمام بالعلوم الرياضية إلى اقليم سوس .

وقد تابع الوطاسيون والمحسنون في عهدهم تخصيص عدة أوقاف لكراسي التدريس بفاس ، منها :

1 — كرسي ابن غازي 1513/919 لتدريس العمدة في الحديث ورسالة ابن زيدون وهو من وقف أبي فارس الورياغلي . وقد خصص للرسالة كرسيان آخران من نصيب عبد الرحمان المشترائي يدرس بهما تناوباً ، وقد توفي هذا العالم سنة 1554/962.

2 — كرسي التهذيب بالمدرسة الصباحية وأستاذه عبد الواحد الونشريسي بعد موت والده أحمد بن يحيَى ، وكان له كرسي آخر للتفسير ومختصر ابن الحاجب في الفقه .

3 — كرسي البخاري بشرح فتح الباري . أنشأه السلطان أبو العباس أحمد

(4) سوس العالمة ص 169 و 173 لمحمد المختار السوسي .

ابن محمد الوطاسي في منتصف القرن التاسع تقريباً بالقرويين وشغله أيضاً عبد الواحد الونشريسي[5].

الأدب :

لا ريب في أن شأن الأدب قد ضعف في عهد الوطاسيين الذين كانت قلة ذات يدهم لا تسمح لهم برعاية الحركة الفكرية على نحو ما تنافست فيه الدول السابقة في مختلف الأقطار الإسلامية.

ولا يختلف النثر في هذا العصر عنه في العهد المريني من حيث الطول والتزام المحسنات البديعية والزخرف اللفظي، إلا أن أسلوب المقالة والتأليف سَلِمَ من هذا التكلف كما نلاحظ في أسلوب الشيخ زروق في كتابه «عدة المريد»، ومن نماذجه[6] :

«أصول طريقتنا التي تنبني عليها عشرة أشياء، خمسة ظاهرة وخمسة باطنة، أما الخمسة الظاهرة فأولها ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامتهم وخاصتهم من أهل الله، فلا يخالف عليهم بقول ولا بفعل، بل إيمان وتسليم. الثاني لزوم الخمس في الجماعة بحسب الإمكان، فإن كان في الجامع الأعظم فهو أولَى، وتكفي المرأةوالصبي وأي كان من المسلمين في تحصيل فضلها».

ومعظم رجال الأدب في هذا العهد من الفقهاء الذين جمعوا بين العلوم الدينية وقرض الشعر ولكن شعرهم تأثر كثيراً بعلمهم كما نرى في شعر محمد بن عبد الرحمان التازي المتوفَّى 920 حيث يقول :

مهما اشتدت أزمة تنفرج   قد أبدل ضيقك بالفرج
مهما اشتدت بك نازلة   فاصبر فعسَى التفريج يجي

وكقول ابن غازي صاحب الروض الهتون :

طلقت مكناسة ثلاثا   والشرع يأبى الرجوع فيه
ليست بدار سوى لقاض   أو عامل الجور أو سفيه

على أن الأدب الذي يصور بطولة الشعب وصراع الدولة للاحتلال الأجنبي قد

(5) محمد المنوني : دعوة الحق 1385/4 ـ 1966

(6) نقلاً عن النبوغ المغربي ص 634، لعبد الله كنون

(7) الأدب المغربي ص 289 لعفيفي وابن تاويت.

شاع في هذا العصر معبراً بصدق عن الحماس الذي كان يذكيه الشعراء في نفوس الأمة وأبطالها حتّى يتابعوا صراعهم ضد المحتل ، قال محمد بن يحيَى البهلولي مخاطباً محمد البرتغالي :

ظهر الرمل مرادي والسكر يا كرام
نفسي على الجهاد سلبت والسلام

وقال يحث على الجهاد أيضا :

قم للجهاد رعاك الله منتهجاً نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندَلُسٍ مازال محتدماً لو كان يمكنني بالليل أحتزم

أما في المدح ، فنلمس في أكثر الأحيان عدم المبالغة ، ونرى الفقهاء يشاركون مرة أخرى في تعداد محامد بعض السلاطين كقول عبد الواحد الونشريسي مهنئاً أبا العباس ببناء قنطرة الرصيف :

جسر الرصيف أبو العباس جدَّده فخر السلاطين من أبناء وطاس
فجاء في غاية الإتقان مرتفعاً لمن يمر به من عدوتي فاس

وأرقّ من هذا الشعر الذي لا يمثل صورة أدبية تذكر قول أحمد بن سعيد الحباك المتوفَّى 870 ، ولو أن شعره مجرد أوصاف معتادة :

بلغت آمالاً ونلت مقاصداً وغدوت ترجى في الأنام وترهب
بهرت محاسنك الأنام فأصبحت أخبار جودك عن سعودك تعرب

هذا مع الملاحظة بأن هذا الشاعر ينتمي إلى العصر المريني المتأخر ، ولم يكن العهد الوطاسي سوى استمرار له .

الفقه والحديث :

نبغ في العهد الوطاسي فقهاء كثيرون على المذهب المالكي وتخصص بعضهم في الفتوى التي كان لها دور مجيد في حل المشاكل القضائية ، أما المؤلفات الفقهية فعظمها يدور حول متن خليل والمدونة شرحاً وتعليقاً .

ومن أهم المؤلفات التي وضعت في هذه الفترة : 1) تحفة الحكام لابن الزقاق المتوفى 912 وهو جد عبد الوهاب الزقاق المشهور . 2) رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن لابن ميمون الإدريسي 918هـ . 3) المفيد في الفقه لابراهيم

الفكيكي 900هـ . 4) شرح مختصر ابن الحاجب لسعيد الكرامي السملالي . 5) الكليات الفقهية لابن غازي . 6) شفاء الغليل بشرح خليل لابن غازي.

ومن أبرز فقهاء هذا العصر :

1 ــ أبو عبد الله محمد بن غازي أصله من مكناس التي درس بها ثم بفاس على الفقيه الصغير والإمام القوري أبو عبد الله وعبد الرحمان القرموني وغيرهم . وكان إلى جانب ضلاعته في الفقه ، مشاركا في علوم أخرى كالحساب الذي وضع فيه «منية الحساب» والحديث الذي وضع فيه «التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد» ، والنحو الذي ألف فيه شرح الألفية ، وغير ذلك ، وكان خطيب جامع القرويين ورافق الوطاسيين في حروبهم ضد البرتغال ، وكان من جلساء محمد البرتغالي ، ومولده بمكناس ووفاته بفاس سنة 919هـ .

2) أبو مالك عبد الواحد الونشريسي ولد بفاس ودرس على والده وأبي الحسن الزقاق وابن غازي ، وكان من تلاميذه أحمد المنجور وعبد الوهاب الزقاق ، وتولّى القضاء بفاس مدة 17 عاماً ، وكان يجمع بين القضاء والفتيا والتدريس كما ذكر ابن عسكر[8] ، وكان كثير الجرأة على السلاطين الوطاسيين ولكنه أخلص لهم حتّى قتل بسبب ذلك إذ يروي ابن عسكر أن أبا عبد الله محمد الشيخ السعدي لما حاصر فاساً وامتنعت عليه قيل له : لا تبايعك فاس إلا إذا بايعك الونشريسي فبعث إليه رسولاً فكان جوابه : بيعة هذا الرجل (أي السلطان الوطاسي) في عنقي ولا يحل لي خلعها إلا بموجب شرعي وهو غير موجود ، فأغرى محمد الشيخ جماعة من المتلصصين الذين ترصدوا له بجامع القرويين ثم سحبوه من مجلس التدريس وقتلوه خارج الجامع بعد أن رفض أن يتبعهم إلى مجلس الملك السعدي ، وكان مقتله سنة 955هـ.

وقد وضع الونشريسي منظومات في الفقه كشهادات السماع ومفوتات البيوع الفاسدة ، وموانع الإقالة ، وله أيضاً فتاوٍ محررة وشرح للبخاري غير تام[9].

3 ــ عبد الوهاب بن محمد الزقاق الفاسي : تلمّذ على عمه أبي العباس وعبد الواحد الونشريسي وابن هارون والحباك ، كما درس عليه الإمام المنجور ويوسف

(8) دوحة الناشر ص 50 لابن عسكر.
(9) شجرة النور الزكية ص 282 ــ 283 لمحمد بن مخلوف.

الفاسي وغيرهما ، وجده علي هو واضع منظومة تحفة الحكام ، التي ظلت تدرس بالمعاهد التقليدية حتَّى يومنا (في بعض نواحي المغرب كسوس).

وكان عبد الوهاب الزقاق من المناهضين للدولة السعدية كأستاذه الونشريسي لذلك أعدمه محمد الشيخ السعدي بعيد وفاة آخر ملوك بني وطاس سنة 961 . ومات ضرباً بالسياط وقيل قطع رأسه بشاقور.

ومن فقهاء هذا العصر كذلك : أبو الحسن علي بن موسَى بن هارون خطيب القرويين المتوفَّى سنة 951هـ ، وعلي الورياغلي المتوفَّى سنة 962هـ ، وأبو القاسم الماجري المتوفَّى بفاس سنة 911هـ.

ولم يخل هذا العصر من علماء الحديث الذين كان من أبرزهم :

1 ــ أبو محمد عبد الرحمان سقين السفياني تلميذ ابن غازي وزروق والقلقشندي (بمصر) وتولى الخطابة بجامع الأندلس بفاس كما قام بجولة في جنوب المغرب والسودان وتوفي سنة 956هـ.

2 ــ ابن هلال المتوفَّى سنة 903 وهو صاحب «اختصار فتح الباري».

علـوم اللغة :

ضعف الاهتمام بعلوم اللغة في هذا العصر ولم تتق الهمم إلى الابتكار في التأليف أو إدخال تغييرات جديدة في الدراسات اللغوية ، وكان معظم رجال اللغة فقهاء من حيث اختصاصهم الرئيسي كأبي القاسم محمد الماجري النحوي المتوفى سنة 911 بفاس وهو أستاذ عبد الرحمان بن المللجوم ، وكيعقوب بن يوسف الرميكي أستاذ بتمانارت بسوس والمتوفى سنة 965هـ ، وموسَى بن سعيد الحافظي الزواوي المقري المتوفى سنة 931هـ.

الـتـاريـخ :

تعتبر الدولة الوطاسية حتَّى الآن أسوأ دول المغرب حظاً من حيث قلة المصادر التاريخية التي تعالج فترتها السياسية ، إذ تكاد تكون كل المصادر التي يعتمد عليها في هذا الباب من تأليف مؤرخين لم يشهدوا العصر الوطاسي نفسه ، ومع ذلك فنحن بفضل التقارير التي دوّنها عدد من المسافرين والمبعوثين الأجانب ، نعرف أشياء غير قليلة عن نشاط الدولة السياسي خاصة من حيث العلاقات الخارجية .ووضع الأجانب بالبلاد كتقارير باستياودي فرجاس البرتغالي وبيير دوبيطون الفرنسي .

أما المصادر المغربية الأصيلة فمن أهمها :

1 — مشاهير بيوتات فاس الكبرى لمؤلف مجهول من تلاميذ أبي عبد الله محمد ابن قاسم وقد عاش المؤلف إلى ما بعد بداية القرن التاسع، واختصر كتابه أبو زيد الفاسي[10].

2 — ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس لأبي عبد الله محمد بن أحمد بوراس المعسكري ، وهو غير موجود حتَّى الآن.

وهناك مصادر لم توضع إلا مؤخراً عن الدولة الوطاسية ، أهمها ضوء النبراس لدولة بني وطاس لمحمد بن علي الدكالي، أما كتاب الحسن الوزان : وصف إفريقيا ففيه كثير من المعلومات التي تفيد في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وحتَّى السياسي للدولة الوطاسية، وهو في تصميمه العام جغرافي أكثر منه تاريخيا.

الجغرافيـا :

لم يشهد العصر الوطاسي رحالة يداني رحالة العصر المريني في طول الرحلات التي قاموا بها ولا في دقة الوصف الذي سجلوه عن أسفارهم ، غير أن العهد الوطاسي امتاز بظهور أدق كتاب جغرافي تم تداوله ألا وهو كتاب الحسن الوزان الذي سبق ذكره .

وقد كان الحسن الوزان نفسه أهم رحالة عالمي ظهر في هذه الفترة ، وهو أندلسي المولد مغربي النشأة والتكوين ، واسم والده محمد الزياتي ، وكان ازدياده بغرناطة فيما بين سنة 1489م و 1495 ، أما لقب الوزان فقد أطلق على أحد أسلافه إذ كان يقوم بمهمة الوزن العمومي ، ولما استولى الاسبانيون على غرناطة سنة 1492 هاجرت عائلة الحسن الوزان إلى فاس حيث تابع هذا دراسته بالقرويين ، واستعان على المعاش بالعمل ككاتب في مارستان فاس ، وقد قام الحسن الوزان بأسفاره الأولى بالمغرب إذ أدى عدة مهمات لحساب السلطان محمد البرتغالي وهو ما يزال حدثاً ، وخلال هذه الأسفار جمع أشعاراً نقلها من قبور الموتَى في مختلف الأماكن وقدمها إلى أخي السلطان ، كما سافر وهو صغير السن إلى القسطنطينية ، وفي سنة 1514 كلفه محمد البرتغالي القيام بمهمة الاتصال بحاكم آسفي البرتغالي ، والظاهر أن

(10) دليل مؤرخ المغرب الأقصَى جزء 1 ص 10 لابن سودة.

ذلك يرجع إلى معرفته المبكرة للغة البرتغالية وهو من أصل أندلسي وقبل هذه الفترة أمكنه أن يزور تمبكتو بصحبة عمه وكان الحسن لا يتجاوز 17 سنة ، حيث قام عمه هذا بسفارة لدى ملك السودان أسكيا محمد توري وبعد أن قام بأسفار أخرى عبْر المغرب ، توجه إلى مصر عن طريق شرقي التشاد ، ثم عاد إلى المغرب عن طريق البحر بعد أن بلغ به المطاف إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج أواخر سنة 1515 ، وأثناء ذلك زار القسطنطينية .

وقد قام الحسن الوزان بنشاط دبلوماسي وسياسي عظيم لحساب الوطاسيين وهكذا شارك في مفاوضات بين أمير هنتاتة الناصر بن يوسف الهنتاتي ومحمد البرتغالي، كما فاوض أمير سوس وحاحا أحمد الأعرج أول ملوك السعديين، وحاكم آسفي البرتغالي (سنة 1514) وأمير دبدو المريني واتصل بعد ذلك بأمير تلمسان أبي عبد الله محمد وبالقرصان عروج التركي، ثم تابع سفره إلى تونس ولكنه لم يتمكن من مقابلة سلطانها الحفصي. وقد تابع طريقه إلى القسطنطينية وكان قدومه إلى مصر سنة 1517، وفي رجوعه إلى المغرب توقف في طرابلس الغرب سنة 1518 ولما وصلت السفينة التي كانت تقله إلى جربة اعترضها قراصنة من صقِلّية وقادوها إلى إيطاليا، ثم قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر في يناير 1520 (927هـ) وسموه بجوهانس ليود ميديسيس Johaninus leo de Medicis أما هو فلقب نفسه بيوحنا الأسعد الغرناطي، ثم دعاه الإيطاليون فيما بعد بليون الافريقي.

ثم استقبله البابا استقبالاً طيباً وأعجب بثقافته ، وتمسح الحسن الوزان لأسباب نجهلها ، كالضغط أو مجرد الرغبة في رضا البابا الذي عاش الحسن تحت كنفه ثم تحت رعاية أحد الكرادلة وكان يعلمه العربية التي كان يقوم بتدريسها أيضاً في جامعة **Bologne** . وأثناء ذلك درس اللاتينية والإيطالية ثم قام بتأليف عدد من الكتب التي تعتبر فذة في بابها ومنها :

1 — قاموس عربي عبراني لاتيني ألفه ببولوني سنة 1524 لأحد الأطباء اليهود .

2 — كتاب عن مشاهير العرب وضعه سنة 1527.

3 — تاريخ حديث عن افريقيا ، ولا تزال الجهود متواصلة للعثور على نسخة كاملة منه لنشرها .

4 — وصف افريقيا وهو الكتاب الوحيد الذي تم تداوله من بين كتبه حتّى

الساعة وقد ألفه وهو في نحو الأربعين من عمره وحصل هذا الكتاب على شهرة فائقة لدى المسيحيين وقد تم نشره منذ سنة 1550 بالبندقية على يد أحد المفكرين الإيطاليين J.B. Ramusio ومن المؤكد أن الحسن الوزان قد ألفه بالإيطالية لكنه اعتمد على مؤلفات مخطوطة بالعربية وقد ضاع أثرها ؛ وفي سنة 1556 ظهرت ترجمة لاتينية وأخرى فرنسية لهذا الكتاب ، واعتبرت الترجمة اللاتينية رديئة . وكان المخطوط الإيطالي الذي وضعه الحسن الوزان نفسه هو الذي تم نشره على يد J.B. Ramusio ولكن النسخة الأصلية تعد مفقودة حتّى الآن ؛ وإنما ظهر مخطوط بالمكتبة الوطنية بروما منذ 1931م منحطاً في أسلوبه عن طبعة راموسيو. وقد تُرجِم الكتاب من جديد إلى الفرنسية عن هذه النسخة مع مقابلتها بنشرة راموسيو على يد « A. Epaulard » ونشر بباريس سنة 1956م مع تعليقات في منتهَى الأهمية .

والكتاب في الأصل يتألف من ثلاثة مجلدات ضخمة خصص أحدها لآسيا وثان لأوروبا وثالث لافريقيا . وهو الذي اكسب المؤلف شهرة خالدة . على أنه ليس من الممكن في إطار هذه الدراسة المحدودة إعطاء نظرة كافية عن كتاب وصف افريقيا الذي لم ينشر بعد بالعربية[11].

ومجمل القول أنه يتألف من تسعة أقسام :

1 — معلومات عامة عن افريقيا جغرافياً واجتماعياً.

2 — وصف ناحية حاحا وسوس ومراكش وجزولة ودكالة وهسكورة وتادلا .

3 — وصف ناحية تامسنا وإقليم فاس وازغار والهبط والريف والصحراء الشرقية والحوز .

4 — وصف ناحية تلمسان.

5 — مملكة بجاية وتونس.

6 — نوميديا (الصحراء الجنوبية لشمالي افريقيا) وصحراء ليبيا .

7 — السودان.

8 — مصـــر.

9 — أهم أنهار ونباتات وحيوانات وأسماك ومعادن افريقيا .

---

(11) عرب ونشر معرباً بالمشرق كما ظهر معرباً بالمغرب على يد الأستاذين محمد حجي ومحمد الأخضر

والأقسام الثلاثة الأولَى هي التي تهم المغرب بالذات ، وتمثل نحو نصف صفحات الكتاب المذكور. وطريقة العرض لديه أن يتحدث في نظرة عامة جد مقتضبة عن الناحية التي سيصفها . ثم يتناول مدنها وقراها وجبالها واحداً واحداً . وقلّ أن يخلو وصفه لمدينة أو قرية من ذكر عدد سكانها . كما يعطي نظرة كافية عن حياتها الاجتماعية من سكنَى وملبس وطعام وعادات ويصف نشاطها الاقتصادي . وقد يتحدث عن حكامها وعن أصل بنائها وكثيرا ما يصف حيواناتها ونباتاتها وأخلاق أهلها ، وإذا كانت مدينة كبيرة تعرض لوصف عمرانها وآثارها ، ولعل أبدع ما قدمه في هذا الباب وصفه لمدينة فاس وسكانها ، فقد شغل هذا الوصف صفحات عديدة وتناول كل ما يتعلق بالمظهر التاريخي والاجتماعي والفكري للمدينة ، وهكذا تحدث عن بنائها وتطورها السياسي ووصف بدقة أسواقها ومساجدها ومتاجرها وعاداتها في المطعم والملبس وحفلاتها وألعابها وطريقة التعليم بمدارسها واختصاصات الموظفين بها وبلاط الملك بها ، ومستشفياتها وحماماتها وفنادقها الخ ...

ويعتبر كتاب الوزان في وصف افريقيا إلى جانب كتابَيْ مرمول وليفيو سانوطو Livio Sanuto أهم المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها الأوروبيون في اكتشاف النواحي المجهولة بافريقيا[12] .

ومن أسلوبه في الوصف قوله[13] :

«تيدسي مدينة عظيمة ذات أربعة آلاف موقد (أي عائلة) وقد بناها الأفارقة على بعد ثلاثين ميلاً من شرقي تارودانت وستين ميلاً من البحر وعشرين ميلاً من جبال الأطلس ، وهذه الناحية ذات خصب وإنتاج ، وينبت بها عدد من المزروعات وقصب السكر والنيلة . وبها ناس يتجرون مع بلاد السودان . والسكان يعيشون في أمن ، والرجال طيبون متحضرون والحكم عندهم جمهوري إذ السلطة في يد ستة أشخاص بالاقتراع ويغيرون كل ستة أشهر .

وبجانب المدينة يمر نهر سوس الذي يبعد عنها بثلاثة أميال وبها كثير من الصناع اليهود كالصياغين والحدادين وغيرهم . وفيها مسجد يتوفر على قومة ومستخدمين والقضاة والأساتذة والفقهاء تؤدي الجماعة أجورهم. ويقام بها سوق كل سبت يجتمع

---

(12) Walckenear : Recherches géographique. P.42

(13) Description de l'Afrique T.1.P. 95

به العرب والقرويون وسكان الجبال ، وقد استسلمت تدسي سنة 920 إلى الشريف (السعدي) التي قام بها إمارته .

أما فيما يتعلق بنهاية الحسن الوزان فإن بعض المراجع تؤكد أنه لم يقم طويلاً بإيطاليا إذ رجع منها حوالي سنة 1528 إلى تونس وعاد إلى الإسلام . أما الطبعة الرابعة من نشرة راموسيو فتقول أنه مات بروما قبل سنة 1550 [14] .

ومن أجود المراجع في الجغرافيا المحلية كتاب محمد بن غازي المكناسي (الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون) وهو في نحو الثلاثين صفحة ، ولكن معلوماته في الجغرافيا الاقتصادية ذات أهمية بالغة ، فقد وصف مختلف أنواع الفواكه والمزروعات التي عرفتها مكناس في عهد الموحدين ثم المرينيين فبني وطاس ، كما وصف تطور عمرانها وأحياءها وأحوالها السياسية .

الطـــب :

بالرغم من وجود عدد من الأطباء بعاصمة الوطاسيين فاس ، فإن أحداً منهم لم ينل شهرة علمية تذكر ، إلا أن بعض العلماء الواسعي الثقافة كانت لهم مشاركة في الطب كعبد الوهاب الزقاق الذي سبق ذكره بين الفقهاء وعبد الرحمان سقين المحدث الذي كان يقوم بتدريس ألفية ابن سينا في الطب بفاس وقد عدّهما بعض الباحثين من رجال العصر السعدي مع أنهما عاشا تحت كنف الوطاسيين[15]

الرياضيات :

بقدر ما قلّ الاهتمام في العهد الوطاسي بالعلوم الطبيعية ، اشتدت العناية بالرياضيات خصوصاً الحساب الذي كان الهدف منه إتقان الفرائض مما كان ضرورياً للاشتغال بمهنة التوثيق والقضاء ، ومن الرياضيين :

1 — عمر بن عبد الرحمان الجزنائي المتوفّى في أوائل القرن العاشر .

2 — عبد الله بن عمر المطغري تلميذ محمد بن قاسم الغوري وأستاذ المهدي السعدي ، وقد توفي بدرعة سنة 927هـ.

---

(14) المراجع عن الحسن الوزان : La petite histoire 1,48 ودائرة المعارف الإسلاميه، وحياة الوزان للحجوي، ومقدمة كتاب : Description de l'Afrique.

(15) الطب والأطباء بالمغرب لعبد العزيز بنعبد الله ص 57 و59 والنبوغ المغربي ج 1 ص 246 لعبد الله كنون.

3 -- يعقوب بن يحيَى اليدري الذي جمع بين الفقه والنوازل والرياضيات .

4 — عبد الحق المصمودي تلميذ أبي عبد الله اليفرني المكناسي جمع أيضاً بين الفقه والرياضيات ، وتوفي سنة 955هـ.

إلا أننا لا نشهد في هذا العصر حركة تأليف في الرياضيات تستحق التنويه . وإنما كان أكثر المشتغلين بالرياضيات من المدرسين الذين درس عليهم طلبة برزوا في العهد السعدي . فكان لهم فضل ازدهار هذا العلم دراسة وإنتاجاً .

الموسيقَى

تقدم الكلام عن الحياة الاجتماعية (موضوع الغناء) معنَى الملحون الذي انتشر في هذا العهد ، وكان نتيجة لتطور فن الزجل . كما سبقت الإشارة إلى أن أقدم قصيدة ظهرت من الملحون هي قصيدة «الحربَى» لابن عبود الفاسي ، والشاعر كما يقول الأستاذ الفاسي هو في نفس الوقت موسيقار أي يلحن شعره بنفسه[16] .

وأقسام القصيدة تبلغ من أربعة إلى عشرة ، وقد تصل إلى الخمسين في «الغزوات» والقسم يتكون من بيتين فأكثر ، أما البحور فخمسة :

1 — المبيت وهو أكثر شيوعاً ، ويتركب فيها البيت من شطرين إلى خمسة ، وبعد كل قسم توضع لازمة تسمَّى حدبة ، وقد يفصل بين أقسام القصيدة بقطع تسمَّى العروبي ، وقد تكون على نمط أقسام المبيت ولكن أبياتها أقل ، وفي هذه الحالة تدعَى نواعير .

2 — مكسور الجناح وهو أقسام تختلف قوافيها وترتيب أبياتها ، ويفتح كل بحر منه بشطر يسمى الدخول ، لأن لكل بحر رئيسي عدة بحور ، وهو يتركب من عشرة تقاطيع تتلوها أشطار صغيرة تسمى الكراسي .

3 — المشتب : ويبتدئ على طريقة المبيت . ثم يوتَى بكراسي بعد الشطر الأول .

4 -- السوسي : يبتدئ القسم ببيت واحد من شطرين ، وليس فيه حرص

(16) مجلة البحث العلمي عدد 1 ص 47 والمعلومات مستمدة من أبحاث الأستاذ الفاسي فقط نظراً لانعدام المصادر . ولأنه أول من توصل إلى استنتاج قواعد الملحون بدقة وتعمق .

على التقفية وهو يستخدم في الحوار بين العاشق ومحبوبته . والتوصل إليها عن طريق الحراز أي الذي يمنعها منه ، ومنه اشتقت قصائد الحراز .

5 — الذكر : وبحوره كالمبيت وهي خمسة وعشرون ولكنه ينشد على طريقة خاصة . ويستعمل لدى الطائفة العيساوية .

أما موضوعات شعر الملحون فمتعددة منها شعر الغزوات ، ويسمَّى الأيوبية ، وقد يكون هذا النوع وصفاً لسير الأنبياء والصلحاء . والألغاز ويسمَّى السولان . والفكاهة ، والرحلات الخيالية حيث يصفون طائراً يزور البقاع المقدسة . ويعرض المراحل التي مر فيها ، وكذا الهجاء ، والمدح ، والرثاء ، وغير ذلك .

ومن المؤسف أن قصائد الملحون التي نظمت في العهد الوطاسي لم يعن أحد بتدوينها ، وإنما كانت أساساً حقيقياً لما بعدها . والملحون لفظة مشتقة من اللحن بمعنَى الغناء . ومن أغرب الظواهر التي تكاد تكون خاصة بشعراء هذا الفن أن بعض هؤلاء ترد عليهم أفكار وعواطف لا يحسنون صوغها نظماً على الطريقة التقليدية فيقصدون ناظماً ويكلون إليه مهمة صوغها في قالب الملحون ، ويدعَى هذا الناظم بالخياط .

وكان ابن عبود المتقدم ذكره معاصراً للملوك الوطاسيين المتأخرين . وكانت قصيدة «الحربَى» تدور حول معركة بين أحمد الوطاسي وأحمد الأعرج بناحية تادلا سنة 943هـ/1536م . ومن أقدم شعراء الملحون في هذه الفترة محمد بن يحيَى البهلولي الذي شارك بإنتاجه في تمجيد المقاومة ضد التدخل البرتغالي[17] .

وقد تنوعت موضوعات شعر الملحون التي شملت غير ما تقدم القصص والشعر التمثيلي وما يسمَّى بالمسخ الذي يقلب الجد إلى هزل[18]

والملحون مع هذا لا يخضع حتماً لنظم البحور العادية . فقد يبتكر الشاعر بحراً أو «قياساً» آخر ، وحينئذ قد يقلده فيه غيره أو ينفرد به . فتسمَّى قصيدته هذه بالغريزة لأنها تغرز ويضيق مجالها ، وهناك كثير من الأساليب والتشبيهات والمقاييس اللغوية الخاصة بالملحون . لجأ إليها شعراؤه تحرراً من تقييد الفصحَى على عادة الأدب العامي واللغة العامية ، وإن كان يحدث التلاقح والتفاعل بين الفصحَى

(17) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ الحضارة 2 — 60.

(18) محمد الفاسي : نظرة عن الأدب الشعبي بالمغرب — مجلة غشت 1962.

والعامية كما هو معروف في علم اللغة، ومن هذه المقاييس المذكورة استعمال الجمع بمعنَى المفرد كرياض ، وقبور (لهجة فاسية) وجنان ، وإدخال جموع لبعض الكلمات غير معتادة مثل جمع قصيدة على قصدان وكأس على كيوس . وقد يستعملون المركب الإضافي للتدليل على معنًى معين مثل أمير الحشا بمعنَى القلب ودم العنقود بمعنَى الخمر إلى غير ذلك ، واستوعب الملحون أسماء الأزهار والألوان والأسلحة والأثاث والأدوات وغير ذلك مما وصفه الأستاذ محمد الفاسي بأنه من عوائق تفهم اللغة وتذوقها بالنسبة لمن ليست لهم خبرة بالانتاج المذكور[١٥] .

* * *

(19) محمد الفاسي : لغة الملحون_ مجلة البحث العلمي ع 4_ 5 سنة 1965/1385م.

السعديون

(1658 - 1510) 1069 - 915

1) العالم في هذا العصر.

2) نشأة الدولة : أصل السعديين ومواطنهم ـ عوامل تأسيس الدولة ـ الملوك الأولون : 1) محمد القائم (915ـ 923) . 2) أبو العباس أحمد الأعرج (953ـ 946)ـ الجهاد ضد النصارى ـ فتح مراكش ـ خلع أبي العباس . 3) محمد الشيخ المهدي (946ـ 964) صفاته ونشأته حكومته ـ الاستيلاء على أكادير ـ الفتح الأول لفاس ـ غزوة تلمسان ـ عودة أبي حسون ثم فتوح فاس ثانياً ـ التحالف مع اسبان الجزائر ـ اغتيال محمد الشيخ ـ السياسة الدينية ـ السياسة الخارجية ـ السياسة الداخلية العامة . 4) أبو محمد عبد الله الغالب (964ـ 981) : صفاته ونشأته ـ حكومته غزوة الأتراك للمغرب فتح شفشاون ـ محاولة النصارى نسف جامع المنصور ـ وفاة الغالب ـ السياسة الدينية ـ السياسة الخارجية ـ السياسة الداخلية العامة . 5) أبو عبد الله محمد المتوكل (981ـ 983) . 6) أبو مروان عبد الملك المعتصم (983ـ 986) . صفاته ـ مطاردة المتوكل ـ معركة وادي المخازن .

3) **دور العظمة** : أحمد المنصور الذهبي (986 — 1012) : صفاته ونشأته حكومته — بيعته — تولية محمد الشيخ ولياً للعهد غزو الصحراء — فتح السودان — الثورات الداخلية — وفاة المنصور — سياسته الداخلية — سياسته الخارجية

4) **دور الضعف** : زيدان بن المنصور (1012 — 1032) : شخصيته — بيعته — الثورات ضد زيدان : (1) ثورة أبي فارس . (2) ثورة محمد الشيخ . (3) ثورة ابن أبي محلي (4) ثورات فاس . (5) ثورة سوس — وفاة زيدان — أبو مروان عبد الملك بن زيدان (1032 — 1040). الوليد بن زيدان : (1040 — 1045) — محمد الشيخ الأصغر (1045 — 1064). العباس بن محمد الشيخ (1064 — 1069). الحركات الاستقلالية : (1) حركة الجهاد البحري . (2) العياشي . (3) الدلائيون.

5) **عوامل سقوط الدولة السعدية.**

6) **أهمية أعمال الدولة.**

7) **السياسة الداخلية.**

8) **علاقات المغرب الخارجية :**

(1) مع البلاد العربية . (2) مع الدولة العثمانية . (3) مع البرتغال واسبانيا . (4) مع فرنسا. (5) مع انجلترا. (6) مع هولندا.

9) **الحياة الدينية** : تطور الحركة الصوفية — حياة بعض كبار المتصوفة : (1) أحمد بن موسَى الجزولي . (2) عبد الله بن حسون . (3) يوسف بن محمد الفاسي . (4) أحمد بن عبد الله بن أبي محلي — متصوفة آخرون — اليهود والنصارى.

1 - العالم في هذا العصر

العالم الغربي

صادف ظهور السعديين ومدة حكمهم حدوث تغيرات عظيمة في سير الأحداث بأوروبا ، ففي هذا العصر بدأت نية فرنسا تتجه إلى إصلاح جهازها العسكري والإداري وازدهرت الحياة الأدبية بهذه البلاد حتَّى سمي هذا العصر بالنسبة إليها عصر النهضة ، كما تم طرد المسلمين نهائياً من اسبانيا في أول نشأة الدولة السعدية بسوس ، وانفصلت البرتغال عن المملكة الاسبانية ، بينما كان الصراع على أشده بين انجلترا واسبانيا في أمريكا من أجل النفوذ السياسي والاقتصادي ، وكانت هذه الفترة عهد اصطدام بين البروتستانية والكاثوليكية ، في عدة بلاد كانجلترا وفرنسا واسبانيا وألمانيا .

العالم الإسلامي :

استمرت الدولة العثمانية في فتوحاتها وتوسعها السياسي ، وكان من ملوكها شخصيات عظيمة كالسلطان سليم الأول الذي قهر جميع أدعياء العرش من اخوته ، وفتح تبريز عاصمة العجم وقضى على السلطان الغوري ملك مصر والشام وضم مملكته إلى نفوذه . أما ولده سليمان فقد استولى على المجر ورودس ، وقهر جيوش النمسا وألمانيا والصرب ، وتمكن ولده سليم الثاني من القضاء على الحفصيين بتونس سنة 983هـ- 1574م، وفي هذه الفترة خضع العالم الإسلامي كله تقريباً للحكم العثماني المباشر ، وما لم يكن خاضعا بهذه الصفة ، اعترف بالنفوذ الرمزي للخليفة العثماني . أما المغرب فلم يشذ هو أيضا عن التقرب إليهم ، حتَّى ولو ظل متمسكاً باستقلاله السياسي كما سنرى .

2 – نشأة الدولة

السعديون : أصلهم – مواطنهم – عوامل تأسيس دولتهم الملـوك الأولون

أصل السعديين ومواطنهم :

تُروى عن نسب السعديين روايات كثيرة ، أهمها ما يلي :

1) قيل إنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين تنتمي إليهم حليمة السعدية مربية الرسول ﷺ ، وهي رواية المقري صاحب (نفح الطيب) .

2) قيل إنما لقبهم العامة بالسعديين تيمناً لأنهم سعدوا بدولتهم ، وهذه من روايات اليفرني[1] .

3) قيل إنهم من ولد النفس الزكية، فهم والحالة هذه أبناء عم للعلويين يجتمعون في محمد بن القاسم بن محمد. وجميع هذه الروايات ساقها الناصري في الاستقصاء، في أول كلامه على الدولة السعدية، ويصحح هذه الرواية الأخيرة ما ذكره صاحب الترجمان المعرب حيث قال[2] : «والذي سمعته من مولانا أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لما جرى ذكرهم، وذكرنا له الخلاف في نسبهم، قال : اسكت، ولا تعد لهذه المقالة، فإنهم إخواننا وبنو عمنا، وجدنا وجدهم واحد، وقريتنا وقريتهم بالينبوع واحدة يقال لها بنو ابراهيم، وجدهم أحمد، خرج للمغرب قبل جدنا الحسن بنحو الثلاثين سنة وهما أخوان، لكنهم لما ملكوا لم يعاملونا معاملة الإخوان، واقتصروا على التعظيم والاحترام، فكان سلفنا يحقدون عليهم اهمالهم لجانبنا... هذا موجب طعن سلفنا في نسبهم، وإلا فالحق أحق أن يتبع».

---

(1) نزهة الحادي ، ص 14 – لليفرني.
(2) الترجمان المعرب ، ص 343 – للزياني .

وبناء على ما نسبه الزياني إلى السلطان محمد بن عبد الله ، يتبين أن الدعاية التي شاعت حول نسبهم من حيث عدم انتمائهم إلى البيت العلوي ، إنما تولى كبرها الأشراف العلويون أنفسهم ، لأن السعديين أقصوهم من المراكز الرئيسية في الحكم ، ثم عادوا إلى الاعتراف بشرفهم على لسان السلطان المذكور ، على أن بعض خصومهم يتهمون أعظمهم وهو المنصور بأنه كان لقيطاً ، ولم يكن ابناً شرعياً لمحمد المهدي[3].

وتروى عن سبب قدومهم إلى المغرب قصة تفيد أنهم قدموا في أوائل القرن الثامن الهجري في عهد بني مرين بطلب من بعض سكان درعة الذين يبدو أنهم اتصلوا بهم وقت أداء مناسك الحج حتّى يتيمّنوا بوجودهم في استصلاح زروعهم وثمارهم ، وهكذا استقروا منذ التاريخ المذكور قرب زكورة عند تاكمدارت .

عوامل تأسيس الدولة :

قامت الدولة السعدية قبل كل شيءٍ ، على أساس ديني سياسي :

1) السعديون أشراف فهم يرون أنهم أحق بالملك من بني وطاس الذين فشلوا كلياً في ضم المغرب في وحدة سياسية متماسكة ، وهكذا لجأوا إلى إقناع الناس بشرف نسبهم حتّى يبرروا أن لقيام دولتهم أساساً دينياً وأنهم ليسوا مجرد مغتصبين خلفوا مغتصبين آخرين .

2 ـ كان من الضروري توحيد صف المقاومة الشعبية التي تصدى لها على الخصوص الصلحاء والمتصوفة ولم يكن بين شخصيات المغرب أحسن مقاماً من الأشراف الذين كانت لهم في نفوس المغاربة مكانة عظيمة ، فكانوا في نظر كثير من العامة أحق الناس بتولي الملك ، وبالتالي بتنظيم المقاومة الحربية ضد الأجانب الذين استولوا على معظم موانئ المغرب .

3) كان الخطر الأجنبي على البلاد قد تفاقم حتّى لم يعد للمقاومة الشعبية فائدة تذكر إذا لم تبادر دولة محكمة الجهاز إلى تبنيها وتنسيقها .

الملوك الأولون

محمد القائم (915 ـ 923هـ / 1510 ـ 1517م)

استقرت أسرة السعديين كما تقدم بنواحي درعة ، حتّى ظهر من بينهم أبو عبد

(3) عبد الودود التازي ، نزهة الأخيار ص 105 .

الله محمد القائم ، وكانت هذه الأسرة لا تمارس في عهد بني مرين ولا الوطاسيين سلطة رسمية ثابتة ، ولكنهم كانوا معظمين لدى السكان في الجنوب شأن بني عمومتهم العلويين ، وفي أوائل القرن العاشر الهجري قام محمد القائم بأداء فريضة الحج ، فبشره بعض الصلحاء بالمدينة بأن ولديه سيملكان المغرب ، وذلك تأويلاً لرؤيا كان قد رآها محمد القائم .

ثم عاد القائم إلى المغرب بما بشره به الرجل المذكور حتّى إذا كانت سنة 915هـ/1510م تمت مبايعة محمد القائم بالسوس ، وكان البرتغال قد استقروا بشمال هذه الناحية حيث بنوا حصن أكادير سنة 1515 ، ولما رأى السوسيون خطر التدخل البرتغالي ، اتصلوا بأحد صلحائهم وهو محمد بن مبارك من آقا في أقصى الجنوب السوسي وطلبوا أن ينصبوه أميراً عليهم حتّى يجمع كلمنهم ويعمم سيادته على باقي التراب المغربي ، ولكنه رفض ذلك وأشار عليهم بتنصيب محمد القائم بأمر الله ، وكان مؤذناً ، فقبل محمد هذه البيعة واستقر بتيدسي فتمت بيعته بها سنة 915هـ ، وهي قرية قرب تارودانت ، وكانت توليته باعتراف الشيوخ والقضاة والفقهاء من المصامدة ، في عهد أبي عبد الله البرتغالي الوطاسي .

وهكذا تم تنصيب محمد القائم بمساعدة محمد بن مبارك تلميذ الإمام الجزولي ، وكانت له سلطة روحية عظيمة على سكان سوس ، وكانت له بأقا زاوية شهيرة .

وكان أول عمل قام به محمد القائم أن هاجم البرتغال عند أكادير ، وكانت له انتصارات أولية رائعة هناك ، عكس ما يذكره طيراس من أنه لم يحصل على أي انتصار هام ، بدليل أن سكان الشياظمة وحاحا سرعان ما استقدموه ليقود جيوش المقاومة ضد البرتغال بهذه المناطق ، وذلك بعد أن عقد البيعة سنة 918هـ لابنه أبي العباس الأعرج كولي للعهد بتيدسي التي سبق أن نصب هو بها أميراً . وقد شارك أبو العباس الأعرج بنصيب وافر في قيادة الحملات ضد النصارى في عهد والده ثم بعد تنصيبه ملكاً ، وقد استجاب القائم لنداء حاحا والشياظمة ، وترك ابنه محمد المهدي بالسوس يدبر شؤونها بينما صحبه ابنه أبو العباس ، وتقول بعض الروايات أن ولدي القائم سبق لهما أن اتصلا بمحمد البرتغالي الوطاسي قبل أن يشتهر أمر والدهما بسوس ، وكانا يتلقيان العلم بفاس ثم أصبحا من مشاهير المدرسين بها حتّى تمكن محمد المهدي من أن يصير مؤدباً لأبناء السلطان ، وأقنعه كل من الأخوين بالدعاية للجهاد فندبهما لذلك ، وصارا يتصلان بالسكان ويبثان الدعوة لأسرتهما بشكل غير

مباشر فينتقدان سياسة الدولة وضعف الوطاسيين عن مجابهة المسيحيين . مما مكنهما من إقناع الناس بضرورة إسقاط الدولة الوطاسية .

وعلى كل حال، فقد كان تدخل السعديين بحاحا والشياظمة حوالي 722 هـ حيث استقر القائم بأفوغال قرب شيشاوة وتوفي بها سنة 923هـ ، وأثناء ذلك استولى الأتراك على المغرب الأوسط ، وقد تم نقل رفات كل من السلطان القائم والإمام محمد بن سليمان الجزولي في عهد أبي العباس الأعرج إلى مراكش .

أبو العباس أحمد الأعرج (923ـ 946هـ / 1517ـ 1539م)

الجهاد ضد النصارى 924هـ :

ولد أبو العباس أحمد الأعرج سنة 891هـ (1486م) وبويع ولياً للعهد سنة 918هـ كما تقدم . وكان أول عمل بادر إليه هو تعبئة الجيوش لجهاد النصارى .

وكان البرتغال يؤيدهم أحد زعماء عبدة ، واسمه يحيَى بن تاعفوفت ، وكان قد تنصر وصار له نفوذ قوي لدى البرتغال . وقد اهتدى أبو العباس الأعرج بفكره الثاقب إلى ضرورة التخلص من هذا الزعيم الوصولي في أسرع وقت . فعمل أولاً على الدس له لدى قادة البرتغال المحلِّيين وبذلك تمكن أبو العباس من كسب انتصار جدي على البرتغال بآسفي حيث قتل عاملهم لوبيز **Lopez Barriga** ثم قتل يحيَى المذكور أثناء مهاجمة السعديين لآسفي ولعله مات اغتيالاً . ويقول طيراس معلقاً على هذه الحملة الموفقة التي اضطر البرتغال خلالها إلى التحصن بآسفي ، ان موت يحيَى قد وضع حداً للسياسة الكبرى للحماية التي بسطها البرتغال على المنطقة الساحلية ، وكذا زحفهم نحو الداخل .

ومهما يكن من شيء ، فقد بدأ انسحاب البرتغال من الشواطئ المغربية منذ أواسط عهد أبي العباس الأعرج ، وكان خروجهم من آسفي حوالي سنة 933هـ / 1526م . وربما كان خروجهم من المراكز الرئيسية على دفعات حسبما يستفاد من اختلاف التواريخ في مختلف المصادر ، وعلى أي حال فقد احتفظوا ببعض المراكز في أيام السعديين .

فتح مراكش 930هـ :

زحفت جيوش أبي العباس زحفاً سلمياً أثناء حرب البرتغال ، وذلك بدعوى الاستنجاد على هؤلاء بأميرها الهنتاتي ناصر بوشنتوف الذي سرعان ما أمدهم

بنجدات دون أن يعرف نواياهم الحقيقية . ثم دخلوها ثانية سنة 930 ، ربما باتفاق مع أمراء آخرين من هنتاتة كانوا يرغبون في تسليم الملك إليهم ، بيد أن أبا العباس لم يكاشف أمير مراكش العداوة بل خرج به إلى الصيد ودس له السم في الطعام فتخلص بذلك من خصم خطير ، وبادرت مراكش حينئذ إلى الدخول في طاعته . ثم عمد أبو العباس إلى تسمية نفسه أميرا ، ونقل رفات والده ورفات الشيخ الجزولي من آفوغال إلى مراكش .

وقد اعترف أبو العباس الأعرج بالسلطة الاسمية للسلطان الوطاسي دهاء منه حتَّى يقوي أنصاره ويتم تدبير خطته ، ولكن الوطاسيين لم يقبلوا تدخل السعديين في مراكش ، ونشبت الحرب بين الفريقين في أنماي سنة 935 ، وبعد تدخل العلماء والصلحاء بينهم تم الاتفاق على أن يعترف بسيادة الوطاسيين على الجزء الواقع فيما بين تادلا والمغرب الأوسط ، وبسيادة السعديين على ما بين تادلا والسوس ، ولكن هؤلاء نقضوا هذا الميثاق وهزموا الوطاسيين في معركة ساحقة عند مشرع أبي عقبة بتادلا سنة 943هـ (1536م)

خلع أبي العباس 946هـ (1539 م):

كان محمد المهدي أخو أبي العباس الأعرج يباشر شؤون منطقة السوس في غيبة أخيه ، وكان المهدي أصغر من أبي العباس وأذكى منه وأكثر جرأة ، ومع ذلك كان أبو العباس يستشيره ويدبر خططه باتفاق معه ، إلى أن دب النزاع بينهما بسبب سعايات بعض رجال الحاشية ، وتحول النزاع إلى حرب حقيقية انتهت بانتصار محمد المهدي وخلع أبي العباس سنة 946هـ حيث أودعه أخوه السجن ومعه سائر أسرته ، وذلك بمراكش التي ظل بها حبيساً يعامل بإكرام إلى أن قتل سنة 964 كما سيأتي ، وقد تمكن من مغادرة مراكش في ظروف غامضة ثم أعيد إلى الاعتقال وكانت حكومته تتألف من شخصيات سوسية في الغالب ، وقيل ان ابنه زيدان بويع بعد خلعه بسجلماسة ولكنه لم يملك ، وقد مات قبل والده .

محمد الشيخ المهدي (946– 964هـ/1539 – 1556م)

صفاته ونشأته :

ولد محمد المهدي سنة 893هـ (1488م) ، وكان يعرف بالشيخ أو بأمغار . وقد تلقَّى دراسته بسوس وفاس، ومن شيوخه علي بن عثمان التامَلِّي المؤرخ، وعلي بن هارون أستاذه في الأدب ، وعبد الله بن عمر المطغري الذي كان من الدعاة

الرئيسيين للدولة السعدية ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد اليَسْتيتْني المشارك في عدة علوم وخصوصاً التفسير.

وكان محمد المهدي يحفظ القرآن وديوان المتنبي عن ظهر قلب ، وينقض بنفسه فتاوى بعض العلماء مما يدل على اطلاع غزير ومقدرة على الاستنباط ومقارعة الحجة بالحجة ، وكان كثير البر بوالدته التي يقبل شفاعتها[4] ، وكان له عدة أولاد أشهرهم أنجاله الثلاثة الذين تعاقبوا على الملك ، وهم : عبد الله الغالب وعبد الملك المعتصم وأحمد المنصور ، وكذا ابنه البكر محمد الحران الذي تولّى القيادة العسكرية في عهد والده.

حكومته :

من أشهر وزرائه علي بن أبي بكر أزيكي الحاجي وموسَى بن أبي جُمادى الغمري ، وقد قام محمد المهدي بتغييرات جوهرية فيما يخص النظام المالي والإداري كما سيتبين ذلك فيما بعد.

الاستيلاء على أكادير 948هـ (1542م) :

لم يتمكن القائم بأمر الله ولا أبو العباس الأعرج من مطاولة البرتغال حتَّى النهاية ، فظل هؤلاء يشكلون خطراً محققاً على منطقة السوس ، إذ ظلوا محتلين لأكادير ، أو حصن فونتي كما كانوا يدعونه إلى أن طردهم منه نهائياً محمد المهدي سنة 948هـ ، وكانت مهاجمته بواسطة المدفعية ، وبعد اخلاء أكادير تزوج محمد المهدي ابنة حاكمها البرتغالي واسمها دنيا ميثيا (Donia Micia) ولكنها لم تلبث أن توفيت من آلام الوضع ، وقد تردد صدى هذا الانتصار العظيم ليس في المغرب فحسب ، بل حتَّى في البرتغال التي عزمت منذئذ على التخلي عن مراكزها بالمغرب واحداً إثر واحد ، وفي هذه السنة نفسها تم اختطاط مرسَى أكادير على يد محمد الشيخ.

الفتح الأول لفاس 956هـ (1549م) :

اقتضت سياسة محمد الشيخ أن يتخذ من مراكش عاصمة الدولة السعدية حتَّى يظل قريباً من أنصاره أهل سوس الذين على عاتقهم قامت هذه الدولة ، فاستقر بها سنة 951هـ ، بعد أن ظل أهلها اثر خلع أبي العباس الأعرج مترددين بين

(4) المنتقى المقصور ورقة 109 لابن القاضي.

الولاء للوطاسيين والسعديين ، وظلت مراكش عاصمة السعديين حتَّى نهاية دولتهم . ثم تابع محمد المهدي فتوحه عبر الشمال مستولياً على مكناس سنة 955هـ بعد أن افتتح حصن فشتالة ، ثم حاصر فاس إلى أن تمكن من فتحها سنة 959هـ ثم قام بتغريب الوطاسيين . وألحق الجنود الأتراك والمسيحيين الذين كانوا في عسكر الوطاسيين بجيشه ، وقد نجا من الأسر أبو حسُّون علي بن محمد الشيخ الوطاسي الذي ذهب يستنجد بالأتراك بعد أن أخفق مسعاه في استمداد البرتغال والاسبان . وبعد أن اعتقل أحمد الوطاسي ، ارتأى محمد المهدي أن يطلق سراحه مقابل اعتراف هذا الأخير بنفوذه على مكناسة وعودة السلطان الوطاسي إلى فاس . ولكن المراجع غير متفقة فيما يتعلق بهذه العودة .

غزو تلمسان 957هـ (1551م) :

كان التجاء أبي حسون إلى الأتراك ، باعثاً لمحمد المهدي على أن يغزو هؤلاء في عقر دارهم بالجزائر . وقبل أن يبزغ عام 957هـ بدأ محمد المهدي حصاره لتلمسان وكان بها يومئذ سلطان من بني عبد الواد تحت حماية الاسبان المباشرة ، واستمر حصار المدينة تسعة أشهر انتهت باستيلاء السعديين على المدينة بعد أن قتل محمد الحران أثناء الحصار وكان قد تمكن من الاستيلاء على مستغانم . وجاءت نجدات تركية أرسلها حسن باشا بقيادة حسن كورسو الذي سرعان ما هزم الجيش السعدي بعد أن مات قائده الجديد عبد القادر ابن السلطان محمد المهدي ثم استرد الأتراك تلمسان . وحاول محمد المهدي أن يجرب حظه في الاستيلاء على تلمسان من جديد ولكنه لم يوفق مما جعله يعتزم التخلي عن فكره ضم المغرب الأوسط ، وقد كان يتعين عليه والحالة هذه أن يجابه صراع الأتراك والاسبان هناك ، فضلاً عن الوطاسيين وأرباب الزوايا وبقايا البرتغال بالمغرب الأقصى ، ولذلك اضطر محمد الشيخ إلى عقد حلف مع إسبان الجزائر ضد الأتراك كما سيأتي .

عودة أبي حسون ثم فتح فاس ثانيا 961هـ (1553م) :

منذ سنة 956هـ بذل أبو حسون جهوداً جبارة لاستعادة ملكه ، فبعد أن اتصل بنائب الملك في اسبانيا التجأ إلى شارل كان بألمانيا . ولما لم تفلح مساعيه هناك ، استنجد بالبرتغال الذين زودوه أخيراً بست بواخر ، ولكنه سرعان ما وقع في قبضة الجيش التركي بعرض البحر المتوسط ، ثم اقنع الرئيس صالح التركي بمساعدته ، وتوجه معه في جيش مؤلف من عناصر جزائرية وتركية . وعبثاً حاول محمد المهدي

الشيخ أن يصد هجوم الجيش التركي عند تازا، ثم فاس التي لم تلبث أن سقطت تحت الاحتلال التركي ، واستقبلت أبا حسون استقبالاً حماسياً رائعاً . لأن سياسة المهدي السعدي المبنية على امتحان الفقهاء والصلحاء لم تكن تتفق وميول سكان فاس . وهكذا عاد الوطاسيون إلى الحكم بفاس أوائل صفر 961هـ ، إلا أن الأتراك لم يحسنوا السلوك تجاه سكان فاس الذين ضجوا من اعتدائهم على الأعراض والأموال . بينما التجأ محمد المهدي إلى مراكش . وقدّم أبو حسون إلى الجيش التركي تعويضات ضخمة .

والظاهر أن أبا العباس الأعرج قد تمكن من الانضمام إلى أبي حسون في ظروف غير واضحة وذلك لينتقم من أخيه الذي اعتقله عدة سنوات . ولكي يعزل محمد المهدي أبا حسون ، فقد أشاع أن أبا حسون قد وقع في قبضته ، وهرع الأعرج إلى أخيه مستسلماً من جديد . أما أبو حسون فقد قتل في معركة مع السعديين بتادلا أواخر سنة 961 ، وبذلك تم القضاء كلياً على الدولة الوطاسية . بعد أن عمد محمد المهدي إلى قتل بقايا الأسرة المالكة من أبناء أبي حسون وغيرهم .

التحالف مع اسبان الجزائر :

لكي يتّقي محمد عواقب فتح واجهات حربية عديدة . عمد إلى التحالف مع الاسبان المستقرين بالجزائر ، بعد أن صفى أمر الوطاسيين بالمغرب ، وكانت ظروف الأتراك بالجزائر مضطربة بسبب تغير القادة العسكريين وانشغال القسطنطينية بالدفاع عن التراب العثماني الذي كانت تهدده أساطيل الدول المسيحية ، وتم الاتفاق بين الاسبان ومحمد المهدي على غزو الجزائر (المدينة) غير أن صالح الرئيس استولى على بجاية ، وتابع مهاجمة الاسبان بعد وفاة حسن كورسو الذي لم يلبث أن استبدل بحسن بن خير الدين على رأس الجيش التركي بالمغرب الأوسط ، إلا أن الاسبان سرعان ما تخلوا عن حلفائهم السعديين الذين هاجموا تلمسان وكادوا يستولون عليها للمرة الثانية لو وفّقوا إلى التوصل بنجدات من الجيش الاسباني المرابط بوهران . وهكذا تخلّى محمد الشيخ نهائياً عن غزو الأتراك بعد فشله هذا .

اغتيال محمد الشيخ 664هـ (1557م) :

لم يفكر محمد الشيخ يوماً ما في الاعتراف ولو رمزياً بالسيادة العثمانية على المغرب ، وكان يدعو السلطان سليمان العثماني الملقب بالقانوني (1520 ـ 1566) بسلطان الحواتة . لأن البواخر العثمانية كانت تجوب بكثرة عرض البحر المتوسط .

ولما تم لمحمد الشيخ أمر الاستيلاء على فاس والقضاء على الدولة الوطاسية، بعث إليه سليمان القانوني بسفارة وخطاب يدعوه فيه إلى الدعاء له على منابر المغرب. واستقبل محمد المهدي هذا الوفد، وما كاد يعلم بفحوى الخطاب حتّى بادر إلى السفير العثماني قائلاً: قل لسلطان الحواتة: لا أجيبه حتّى أكون بمصر إن شاء الله.

وحينئذ لجأ السلطان العثماني بإشارة حاشيته إلى إرسال جماعة من الأتراك لاغتيال محمد المهدي، وفي هذه الأثناء، كان حسن بن خير الدين قد اهتدى إلى خطة مشابهة، فبعث بأحد ضباطه واسمه صالح بن الكاهية إلى المغرب متظاهراً بفراره من الجيش العثماني واتصل هذا الضابط بمحمد المهدي فألحقه بحاشيته، وصار من أكبر مستشاريه، ثم التحق الفتاك المذكورون بصالح بن الكاهية وسلموه خطاباً من سليمان القانوني الذي يدعوه إلى مساعدتهم على اغتيال السلطان السعدي ويعده بالأموال الطائلة، وحينئذ أبلغ صالح محمد المهدي أن وفداً من كبار الضباط الترك قد فروا من الجزائر ورغبوا في الالتحاق بحاشية السلطان حتّى يساعدوه على تملك المغرب الأوسط، فاستقبلهم محمد المهدي بغاية الترحاب، ودعا شيوخ القبائل إلى إكرام كل من حل منهم بينهم، وظلوا يلازمونه في غدواته وروحاته، إلى أن تمكنوا من مهاجمة خبائه واغتياله بأكلكال قرب تارودانت في آخر سنة 964هـ، ثم حملوا رأسه إلى البلاط العثماني، وبقي معروضاً بباب القلعة بالعاصمة إلى أن اتصل ابناه عبد الملك وأحمد المنصور بالسلطان سليم فسلمه إليهما، أما أبو العباس الأعرج الذي كان قد أعيد إلى الاعتقال بمراكش، فقد بادر عامل مراكش علي ابن أبي بكر إلى قتله وسائر أسرته خشية أن يدعو لنفسه فينتقم منه، وذلك بمجرد أن علم بمقتل محمد المهدي، وقد تم دفن جثتي الأخوين بمراكش (جثة المهدي بقبور السعديين وجثة أبي العباس قرب ضريح الإمام الجزولي قبل نقلها إلى مقبرة السعديين).

أما الحامية التركية بتارودانت فقد تحصنت بها إلى أن تمكن الغالب بالله من استدراجها لتتبع جيشه في انسحاب مصطنع، ثم ليكر عليها فيأتي عليها تماماً.

السياسة الدينية :

على الرغم من أن دور الصلحاء في قيام الدولة السعدية كان دوراً أساسياً إيجابياً، فإن محمد الشيخ كان يعاملهم بكثير من الحذر، وكان يلجأ إذا اقتضى الحال إلى امتحانهم كما فعل تجاه الفقهاء أيضاً. وقد دلت اجراءات الاعدام التي

اتخذها ضد عدد منهم على مبلغ قسوته وعدم اكتراثه لموقف الشعب ؛ كما دلت الاجراءات أيضاً على مدى حرصه على نفوذه ومركزه كملك . وهكذا أرسل سنة 958هـ (1552م) جيشاً إلى الأطلس وآخر إلى سوس لمحاربة ثورة تزعمها بعض الصوفية . وقد هزم الجيش السعدي في الأطلس وكان فيه أتراك وعلوج ؛ وقد أسر معظم العلوج وعاملهم البربر كأسارى ؛ وزوجوهم بناتهم وبدأوا يصنعون لهم الأسلحة والبارود ؛ أما ثورة سوس التي تم القضاء عليها فقد قتل زعيمها سيدي بوزيد بعد اعتقاله[5] ، وكان من جملة من امتحنهم المهدي الشيخ محمد الكوش الذي نقله إلى فاس وأخلى زاويته بمراكش ؛ كما دس إلى الشيخ عبد الواحد الونشريسي جماعة من الفتاك الذين اغتالوه سنة 955هـ أثناء حصار فاس الأول وقد رفض التخلي عن بيعة الوطاسيين .

وحكم بالاعدام على الفقيه عبد الوهاب بن الزقاق الذي حاكمه شخصياً ، كما أمر بإعدام الشيخ حرْزوز المكناسي خطيب أحد جوامعها ، وكلاهما كان ضد قيام الدولة السعدية لا يرى في القضاء على الوطاسيين مبرراً شرعياً ، وقد تم إعدامهما سنة 961هـ ، والغريب أن قتل ابن الزقاق والسلطان محمد المهدي تم بنفس الطريقة حيث قطع رأس كل منهما بشاقور .

السياسة الخارجية :

أنف محمد الشيخ من التقرب إلى الأتراك الذين آزروا بالسلاح والجنود خصمه أبا حسون ؛ كما حاولوا أن يلزموه بمبايعة الخليفة العثماني ، ولا يستبعد أن تكون معلومات محمد المهدي عن قوة العثمانيين وسعة نفوذهم ، قليلة أو خاطئة ، بيد أن محمد المهدي حاول أن يتحالف مع الاسبان ضدهم ولو أن الحلف كان يتسم بكثير من الحذر وعدم الثقة المتبادلة ، وقد استفاد منه السلطان السعدي على كل حال لأنه ضمن عدم تمالؤ الفريقين عليه .

أما الخطر البرتغالي فقد ضمن صده أو مواجهته على الأقل الصلحاء الذين عمل أكثرهم لفائدة السعديين وبذلك أتيح للسعديين أن يزحزحوا البرتغال عن كثير من مراكزهم بالمغرب وخصوصاً أكادير التي أجلاهم عنها محمد الشيخ سنة 947هـ ؛ وعلى الرغم من أن الجيوش السعدية أبعدت مرتين في المغرب الأوسط ، فلم يحاول البرتغال أن ينتهزوا الفرصة لتسديد ضربة قاضية إلى المراكز السعدية بالمغرب حتى يطعنوا خصومهم من خلف ، وهذا دليل على أنهم كانوا يخشون المقاومة الشعبية

(5) Auguste Cour, l'établissement des dynasties des Chorfa, P. 102.

حتّى في غيبة السعديين. وكانت للمهدي مع هذا علاقات تجارية مع بعض الدول الأجنبية خصوصاً انكلترا التي أمدته بالأسلحة والثياب مقابل السكر والقمح وغيرها من المنتجات المحلية.

السياسة الداخلية العامة

كانت النفقات العسكرية التي تتكبدها الدولة تقتضي وضع سياسة مالية جديدة، من شأنها أن تضمن مزيداً من الموارد للحكومة، ولقد اعتادت قبائل كثيرة في عهد الوطاسيين أن لا تدفع لهم من الضرائب شيئاً أو أن تؤدي أقل مما يلزم. فكانت موارد الوطاسيين لا تفي والحالة هذه بحاجياتهم العسكرية والمدنية. ولذلك لجأ محمد المهدي إلى وضع نظام (النائبة) الذي يهدف إلى تنسيق عملية الضرائب وأدائها.

وكان عبد المومن الموحدي أول ملك مسلم بالمغرب فرض الخراج على الأراضي التي أسقط منها الجبال والأنهار، بحجة أن الأراضي المذكورة قد افتتحها المسلمون عنوة، وأقر المرينيون نظام الخراج على السهول، ولما كان عهد محمد الشيخ المهدي ألزم سكان الجبال أيضاً بدفع الخراج، واستصدر بذلك فتوى من العلماء، وأعدم شيوخ البربر الذين رفضوا تبني سياسته هذه. كما أرغم حتّى أرباب الزوايا على أداء نصيبهم من هذه الضريبة التي دعيت بالنائبة. وكان القائم قد سبق أن أحدث ضريبة مشابهة على سكان سوس وهي بيضة ودرهم لكل دار. أما المهدي فجعل مبلغها صحفة شعير وعشرين مداً من القمح لكل نائبة وصاع سمن وكبشاً لكل أربع نوائب (أي أربع دور أو أسر).

وقد أحدث فرض النائبة قلقاً عظيماً في كثير من الأوساط خصوصاً بدرعة التي امتحن من أجلها أرباب الزوايا سنة 958هـ. ولكن السكان اعتادوها بعد ذلك في عهد كل من الغالب والمعتصم. ثم حولها المنصور إلى ضريبة نقدية.

وقد اتسمت سياسة السعديين على العموم بالشدة في استخلاص الضرائب والاكتتابات، ولكنهم في مقابل ذلك قاموا بأعمال عمرانية وعسكرية جديرة بالتمجيد.

وقد كان محمد المهدي أول من وضع للتشريفات الملكية نظاماً خاصاً، وذلك بمعرفة شخص يدعى قاسم الزرهوني الذي دله على الترتيبات الملائمة في الاستقبال والاتصالات وما إلى ذلك. كما نظمت العريفة بنت خجو عوائد السلطان الداخلية.

وقام محمد المهدي بأعمال عمرانية من بينها تحصين تارودانت وبناء مرسَى أكادير وإنشاء عدد من المساجد خصوصاً بسوس.

أبو محمد عبد الله الغالب (964 ـ 981هـ/1556 ـ 1573م)

صفاته ونشأته

ولد عبد الله الغالب بن محمد الشيخ بتارودانت[6] سنة 933هـ ، وكان مستدير الوجه ، يميل إلى القصر ، أسود العينين. وقد حفظ القرآن في صباه ، كما تعلم علوماً مختلفة.

وكان مستقيم السلوك ، عادلاً في أحكامه محباً للصلحاء. كثير الاعتقاد فيهم حتَّى تردد مراراً على الشيخ أحمد بن موسَى السملالي يستدر بركته. وكان مع ذلك قاسياً على بعض أرباب الزوايا.

حكومته :

اعتمد الغالب بالله على وزراء مقتدرين على العموم ، ومن بينهم ابن أخيه محمد ابن عبد القادر بن محمد الشيخ وقاسم الزرهوني وعبد الكريم بن مومن. كما عين في مختلف الأقاليم قضاة أكفاء ، وقد تلقب بالخليفة منذ بيعته. وكان عاملاً على فاس أيام والده ، مما سهل ممارسته للإدارة والسياسة.

وعلى الرغم مما وصف به من استقامة تجاه الرعية ، فقد كان قاسياً في معاملته لأقاربه حتَّى أمر بقتل أحدهم وكان عاملاً على مكناس وأعدم أخاه عثمان كما اعتقل كثيراً من الموظفين الذين كانوا ضد سياسته ، وعلى العكس من ذلك كان حليماً تجاه بعض وزرائه وكبار موظفيه ممن كانوا يتهمون بشرب الخمر وتعاطي الملذات المحرمة.

غزو الأتراك للمغرب 965هـ (1557م) :

لم تكد تمضي سنة على تنصيب الغالب خليفة حتَّى قام الجيش التركي بهجوم على التراب المغربي بقيادة حسن بن خير الدين باشا ، واصطدم الفريقان عند وادي اللبن ، وانهزم الأتراك منسحبين إلى المغرب الأوسط ، وكانت مراكبهم قد نزلت بسبتة وطنجة حسبما يذكره صاحب الترجمان المعرب.

---

(6) هذا ما سجل على قبره ، أما صاحب نزهة الحادي فيذكر أن مولده بعد 920هـ.

وبينما تتحدث بعض الروايات المسيحية عن هجوم مضاد قام به الغالب، على مدينة تلمسان، فإن الروايات العربية لا تكترث لهذا الهجوم. وتفصيل ذلك أن الغالب ظل ملازماً لحلفه مع الاسبان الذين جابهوا الأتراك في مستغانم التي خسروها سنة 1558م ثم هاجموا المراكز التركية بأساطيلهم ومشاتهم، مما مكن الغالب بالله من الانقضاض على تلمسان التي استطاع أن يحتلها ثم يجلو عنها[7] سنة 967 (1560). وقد أثار هذا التحدي غضب الأتراك الذين لم تسعفهم الظروف الداخلية بالمغرب الأوسط، بشن عمليات حربية واسعة النطاق بالمغرب.

فتح شفشاون 975هـ (1567م) :

كانّ بنو راشد يتعاونون مع (القراصنة) الأندلسيين والمغاربة الذين اتخذوا من ميناء مارتين ميناء لهم، وبما أن هؤلاء (القراصنة) كانوا يضايقون السفن الاسبانية، وأن الاسبانيين كانوا يتعاونون بدورهم مع الغالب، فقد قام الأولون بتخريب الميناء المذكور، وعمد الغالب إلى احتلال شفشاون سنة[8] 975، حيث انجلَى عنها بنو راشد بعد أن استقروا بها قرابة قرن وكانوا هم الذين أنشأوها سنة 876هـ، وقد هاجر آخر أمرائها محمد بن راشد إلى المدينة المنورة.

وحاول الغالب في سنة (969) أن يطرد البرتغال من الجديدة التي كانت ما تزال تدعى البريجة غير أنه لم يوفق، على الرغم من الجموع الغفيرة التي انضافت من متطوعة الحوز إلى جيشه النظامي.

محاولة النصارى نسف جامع المنصور 981هـ (1573م) :

حاول أسارى البرتغال بقصبة مراكش أن يستغلوا فرصة أداء المسلمين لصلاة الجمعة بجامع المنصور لينسفوا المسجد ويقتلوا من فيه، فحفروا حفرة ببعض جوانبه وملأوها باروداً ثم أوقدوه فانهدت قبة بيت الصلاة وتشققت الصومعة التي لا تزال آثارا الشقوق بها حتّى[9] الآن، وقد أتَى عليهم السلطان قتلاً، أما المسلمون فلم يلقوا ضرراً.

---

(7) انظر طيراس : Hist. du Maroc,2, 181 نقلا عن :
Chronique anonyme de la dynastie saâdienne

(8) النبذة التاريخية (ملحق مختصر المناهل ص 252).

(9) وقع تجديد الصومعة قبيل سنوات.

وفاة الغالب 981هـ (1573م)

أصيب الغالب بمرض الضيقة فتوفي منه في رمضان من السنة المذكورة ، ودفن بمقبرة السعديين بمراكش .

السياسة الدينية :

امتازت سياسة الغالب الدينية ، بمحاربة أصحاب البدع وعدم التحرر الفكري أيضاً . وهكذا فإن الفقيه الأندلسي أبا عبد الله محمد الذي أمكنه أن يوفق إلى إقناع كثيرين من المغاربة بالعمل بالمذهب الظاهري خصوصاً بمراكش ، حاربه المالكيون بشدة مما أدى إلى تدخل الغالب وقتل الفقيه المذكور[10] سنة 980.

وتقرب الغالب مقابل ذلك إلى بعض الصلحاء وخصوصاً أتباع الإمام الجزولي كأحمد بن موسَى السملاني وأضرابه . وحارب إلى ذلك طائفة الشراقة الذين ينتسبون إلى أحمد بن يوسف الراشدي من صلحاء الجزائر ، وكان هو نفسه يتبرأ منهم لأنهم كانوا يتهمون بالإباضية . على أن كثيراً من أرباب الزوايا حتَّى الجزولية منها لم ينجوا من بطش الغالب. وهكذا استولى على بعض زواياهم كزاوية تامصلوحت، وكان ضد سياسته عدد من أرباب الطرق الذين اكتفوا إلى ذلك الحين بموقف سلبي في انتظار فرصة سانحة، وقد بطش بإخوته وأبنائهم الذين لم ينج منهم إلا عبد المؤمن الذي لجأ إلى حسن بن بربروس فزوجه ابنته وجعله حاكماً لتلمسان ولم يلبث أن اغتيل[11].

السياسة الخارجية :

صمد الغالب في وجه الأتراك بشدة ، ووفق في قهر جيوشهم بالمغرب ، وفي أحيان كثيرة بالمغرب الأوسط ، وكان يرمي من وراء الاستيلاء على بعض المراكز بهذا القطر ، إلى إحداث خط أمامي ، يمكنه من مراقبة تحركات الأتراك عن كثب ، وليس من شك في أنه كان يطمح إلى توسيع رقعة نفوذه خارج المغرب ، ورفض مطلقاً أن يعترف بالسيادة الرمزية للعثمانيين كما فعل والده من قبل ، واتخذ هو نفسه لقب الخلافة ، ولكي يحافظ على توازن سياسته الخارجية لم ينفك عن موالاة الاسبان بالمغرب الأوسط فناصروه أحياناً ، ووقفوا منه موقفاً سلبياً ، في

---

(10) هذه رواية الناصري ، أما رواية درة الحجال فتؤرخ وفاته بسنة 984 ونزهة الحادي بسنة 985 ، فقتله تم على يد الغالب أو المتوكل او المعتصم .

(11) Hoffer : Empire du Maroc page 353

أحيان أخرى ، وقد سلم إليهم حجر باديس بالشمال حتّى يتخذوه مركزاً لمراقبة الأتراك ، وقد أثار ذلك سخطاً جديداً في الأوساط المغربية[12].

وكانت للغالب بعض المحاولات السرية في مد يد المساعدة إلى الموريسكيين الذي استقبل عدداً منهم . كما وجه إليهم مبعوثاً ، ولكن الاسبان اعتقلوه وقتلوه . ومن الممكن أن يكون الغالب قد اتفق مع هؤلاء على أن يُرحَّل عدد من الموريسكيين إلى الشواطئ الشمالية . وبعضهم يلحقون بالكتائب السعدية بمراكش وفاس . وهذا ما نقله طيراس عن مصدر مجهول المؤلف (تاريخ الدولة السعدية ..)

وقد ظل التجار الانجليز يزودون المغرب في عهده ببضائع بلادهم ويصدرون منه السكر والمنتجات وبعض المصنوعات المعدنية .

السياسة الداخلية العامة :

على الرغم من التشدد الذي أظهره الغالب بالله في سياسته تجاه بعض أرباب الزوايا فقد كان يتقرب إلى أرباب الطريقة الجزولية ، ولم يقم الغالب برد فعل يذكر ، ضد البرتغال الذين ظلوا مستقرين ببعض المراكز . فلم يُبْد اهتماماً جدياً بالاستيلاء على البريجة مثلاً ، ولم يلتفت إليهم في باقي المراكز.

أما في الميدان السلمي ، فقد شهد عهد الغالب أعمالاً عمرانية هامة . فبنَى بمراكش مارستاناً وجدد مدرسة جامع ابن يوسف التي بناها أبو الحسن المريني ، كما بنَى بحومة المواسين من مراكش ، جامع الأشراف ، وهو لا يزال قائماً ، وقيل إنه بني مكان مقبرة لليهود ، كما شاد حصن أكادير[13] سنة 1572.

* * *

أبو عبد الله محمد المتوكل (981– 983هـ / 1573 – 1575م)

كان محمد المتوكل قد ولاه أبوه عهده ، وبعد موت والده بويع بفاس أولا[14] ثم بمراكش . وهو ابن أمة وكان من أنبغ خلفاء السعديين ثقافة ، ولا سيما في الأدب وقرض الشعر . وقد عرف بالمسلوخ ، لأن المنصور أمر بسلخ جلده وحشوه جلداً بعد موته .

---

(12) انظر بحثاً مترجماً في الموضوع تحت عنوان من زوايا التاريخ المغربي للسيد محمد بن تاويت مجلة تطوان 1960.

(13) Hoeffer : Empire du Maroc P. 23

واشتهر المتوكل بقسوته مثلما كان محمد المهدي والغالب بالله ، إلا أنه لم يهنأ بالملك طويلاً ، وذلك أنه منذ وفاة محمد المهدي التجأ كل من أحمد المنصور وأخيه عبد الملك إلى الجزائر ، ولما تولى محمد المتوكل عزما على أن يخلعا ابن أخيهما هذا عن العرش ، فاتصلا أولاً بالسلطان سليم ومعهما والدة أحمد فأحالهما على والي الجزائر الذي كان منشغلاً بإعداد الجيوش لغزو وتونس ، فاقترح الأخوان عليه أن يشاركا في هذه الحملة التي انهزم فيها الاسبان، ثم عادا إلى القسطنطينية يبشران الخليفة العثماني بالفتح ويطلبان منه امدادهما بالجيوش لانتزاع الملك من يد المتوكل ، فأحالهما مرة أخرى على والي الجزائر الذي وجَّه إليه بهذا الصدد ، تعليمات كتابية ، وبعد أن ألح الوالي في أن يتكفلا بنفقة الجيش مقدماً ، تنازل عند رغبتهما في أن يعوضا الجيش مادياً بمجرد تحقيق الانتصار على المتوكل ، وهكذا رافقتهما فرقة من خمسة آلاف مقاتل ، ثم التقَى جيش المتوكل بالعساكر التركية شمالاً عند وادي سبو سنة 983 . وكان في جيش المتوكل فرقة من جند الأندلس بقيادة الدغالي الذي لم يلبث أن تخلَّى عنه لينضم بجنده إلى عبد الملك ، ثم انهزم المتوكل مرة أخرى عند وادي الريحان قرب سلا ، بعد أن سهل على عبد الملك أن يدخل إلى فاس دخول الظافر في أواخر 983هـ ، وبفضل الغنائم التي استولى عليها من محلة المتوكل والمساهمة الاجبارية التي أداها أثرياء فاس تمّ تسديد تعويضات الجيش التركي وتقديم هدايا للسلطان العثماني . أما المتوكل فقد نهب خزائن مراكش ثم صار يبحث عن ناصر جديد .

أبو مروان عبد الملك المعتصم (983 — 986هـ / 1575 — 1578م)

صفاته :

أبو مروان عبد الملك بن محمد الشيخ المهدي تمت بيعته بفاس بعد فرار ابن أخيه المتوكل ، في الأيام الأخيرة من ذي الحجة 983هـ . وكان أبيض اللون ، أسود اللحية ، يتزيى بالزي التركي ويقلد عادات الأتراك لأنه خالطهم طويلاً بكل من الجزائر وتركيا ، وكان يعرف الاسبانية والتركية إلى جانب اتقانه للعربية .

وكان يقيم بسجلماسة مع أخيه أحمد المنصور في أيام محمد المهدي والدهما ، ثم لجأ إلى المغرب الأوسط منذ تولية الغالب . وقد اهتم بالتنظيم العسكري لجيشه الذي جمع عناصر بربرية وعربية ، كما كان يضم فرقة من جند الأندلس وأخرى من الأتراك الذين تخلفوا بفاس ، وأسس أسطولاً وزع قطعه على موانئ الشمال والعرائش وسلا .

مطاردة المتوكل :

بينما كان أبو مروان يتقبل بيعة سكان فاس ، كان المتوكل يباشر أمر الاستيلاء على مراكش بمساعدة بعض الرعاع ، ولكنه عجز عن اقتحام القصبة التي كانت تستقر بها مريم أخت أبي مروان ، ومعها ثلاثة آلاف بندقي ، أما المدينة فقد بايعت المتوكل ، وحينئذ قدمت جيوش أبي مروان الذي حاصر مراكش إلى أن تمكن من اقتحامها بمساعدة بعض أعيانها ، بينما فر المتوكل عبر الشمال .

وتقول بعض المراجع [15] إن السوس ظلت متمسكة بدعوة المتوكل مدة سنة إلى أن التجأ إلى البرتغال ، ثم استمر تمرد هذه المنطقة على أبي مروان الذي وجه إليها أخاه أحمد المنصور .

معركة وادي المخازن 986هـ (1578م) :

لم يلتجئ المتوكل إلى الأتراك ، لأنهم هم الذين نصروا عبد الملك المعتصم وخلعوه هو عن عرشه ، ولم يلتجئ إلى إسبانيا التي حافظ المعتصم على علائق ودية معها ، بل استغاث بدون سباستيان ملك البرتغال الذي تذكر الروايات المسيحية أنه لقي معارضة من حاشيته ، ولكنه كان أكثرهم تحمّساً ، ليس فقط لمساعدة المتوكل ، بل لقيادة الحملة البرتغالية بنفسه أيضاً .

ويذكر صاحب نزهة الحادي أن الاتفاق تم بين المتوكل ودون سباستيان على أن يتخلّى الأول للبرتغال عن الشواطئ المغربية ويحتفظ هو بالداخل .

ثم عبرت الجيوش البرتغالية إلى طنجة ، ومنها توجهت إلى أصيلا التي عسكرت بها . وكانت خطة أبي مروان ذكية للغاية ، لأن المنطقة الشمالية كانت معرضة على الدوام لخطر التدخل الأجنبي ، وكانت بعض المراكز بيد البرتغال كأصيلا وسبتة مثلاً . فارتأى أبو مروان أن يفسح المجال لجيش البرتغال حتّى يتوغل قليلاً في الداخل ويبعد عن المراكز التي يمكن أن تصلها الامدادات بسرعة أو أن ينسحب منها بسهولة . وقد بالغت كل من المصادر الأجنبية والعربية في تقدير عدد جيوش ومعدات الفريق الآخر .

---

(15) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 354.

وهكذا قيل إن مجموع جيش البرتغال كان يبلغ 125 ألفاً وقيل مائة ألف كما قيل 60 ألفا أو 14 ألفاً. أما جيش المغرب فأغلب الاحتمالات أنه كان يتقارب عدداً مع جيوش النصارى. فأوسط التقديرات أن الأول يبلغ ما بين 40 و 50 ألفاً، والثاني حوالي ستين ألفاً. وفي الواقع لم يكن للاعتبار العددي معنًى في هذه المعركة التي كان للمدفعية فيها أكبر دور، وكانت مدافع البرتغال 36 وهو تقريباً نفس عدد مدافع الجيش المغربي.

واشترك في المعركة من الجانب البرتغالي متطوعة من الاسبان والفرنسيين والايطاليين والألمان وغيرهم، ومعهم بطبيعة الحال محمد المتوكل الذي نصحهم باحتلال تطوان والعرائش قبل التوغل في الداخل ولكنهم لم يفعلوا وفضلوا الاصطدام المباشر بجيش عبد الملك. وكان معهم قليل من المسلمين الموالين للمتوكل، وضمنهم محمد بن عسكر الذي قتل في المعركة، وهو صاحب دوحة الناشر.

وأخيرا تحركت القوات المسيحية متقدمة نحو منطقة قصر كتامة ومتخطية قنطرة وادي المخازن. وفي الضفة الجنوبية لهذا الوادي، التقَى الجيشان يوم آخر جمادى الأولى 986هـ (1578م) رابع غشت. وما كاد البرتغاليون يعبرون القنطرة حتَّى عمدت القوات السعدية إلى دكها لتتم الخطة المدبرة ضد المسيحيين حتَّى يتعذر عليهم الانسحاب من غير خسارة محققة للسعديين.

وكان الجيش المغربي يتألف من عناصر عديدة فيها بربر وعرب وأتراك، وحضر المعركة عدد كبير من الصلحاء والعلماء حباً في الجهاد، كما حضر عبد الملك المعتصم وأخوه أحمد المنصور، إلا أن الأول كان مريضاً قيل دس إليه المتوكل أو الأتراك من سمه، وكان ذلك فيما قيل بتدبير من القائد رضوان الغلج الذي كان في حاشية المعتصم.

وكانت القوات المسيحية والمغربية، تتقدمها المدفعية التي تحمي المشاة بينما تحيط بهم الخيالة من الجناحين، وبينما انغلقت صفوف البرتغال في شكل مربع متماسك، اصطف الجيش المغربي على شكل نصف دائرة، متخلياً بذلك عن الطريقة العتيقة التي سلكها اسلافهم والتي لم يشذ عنها البرتغال في هذا اللقاء، على الرغم من أن المدفعيين أصبحوا يمثلون دور الرماة.

ومهما يكن من شيء، فلم تكن القوات العددية هي السبب المباشر في تحديد الانتصار أو الهزيمة، وإنما كان دون شك، الحماس الديني العظيم الذي قابل به المغاربة أعداءهم، وإن كان المسيحيون حضروا بروح صليبية أيضاً. وكان للصلحاء دور فائق في حمل المسلمين على الثبات. وهكذا تم اندحار المسيحيين الذين تراجعوا نحو النهر فوجدوا القنطرة قد اندكت، وتراموا إلى النهر فغرق كثير منهم وبينهم دون سباستيان، كما غرق محمد المتوكل[16]. وفي أثناء المعركة توفي عبد الملك المعتصم متأثراً فيما قيل بالسم الذي دس إليه، وكان محمولاً في محفة وهو مريض حتى يتشجع المسلمون بوجوده، ولما مات كتم سائس المحفة خبر وفاته عن المسلمين إلا عن أخيه المنصور، وبقي السائس يبلغ الأوامر إلى قواد الجيش باسم عبد الملك، إلى أن تم انتصار الجيش السعدي. وهكذا مات في هذه الوقعة ثلاثة ملوك هم عبد الملك المعتصم ومحمد المتوكل ودون سباستيان، ولذلك يسميها المسيحيون «معركة الملوك الثلاثة» ويسميها المسلمون معركة وادي المخازن. وهذا الوادي هو فرع من نهر اللكوس الذي يصب قرب العرائش.

وبمجرد أن تم انتصار الجيش المغربي وانسحاب فلول المسيحيين إلى أصيلا أعلنت وفاة المعتصم الذي نقل جثمانه إلى مقبرة السعديين بمراكش، كما أعلنت بيعة أحمد المنصور. أما المتوكل فقد سلخ جلده وحشي تبناً ولقب من أجل ذلك بالمسلوخ. وأما جثمان دون سباستيان فقد افتداه خلفه وخاله فيليب الثاني مع من افتدى من أسرى البرتغال، وقيل إن المنصور لم يأخذ عن دون سباستيان أي فدية كما سيأتي في موضوع أنظمة الدولة.

وكتب المنصور إلى الخليفة العثماني بالفتح، وقصدته الوفود مهنئة من القسطنطينية ومصر والجزائر وتونس وفرنسا واسبانيا، بعد أن كان قائد الجيش العثماني بالجزائر يتهيأ لحملة جديدة ضد المغرب، وذلك قبيل التدخل البرتغالي الفاشل. وتبدو أسباب الاستعدادات التركية ضد المغرب غامضة في الوقت الذي كانت فيه بعض كتائبهم تقف إلى جانب المعتصم.

وكان لهذه المعركة آثار بعيدة المدى، ليس فقط بالمغرب، بل في العالم الإسلامي والمسيحي أيضاً، فبالنسبة إلى المغرب، استعادت الوحدة الوطنية قوتها

---

(16) Hoeffer : Empire du Maroc P. 353

طيلة حكم المنصور السعدي ، كما فرضت الدولة الحاكمة هيبتها ، وأمكن لها أن تحقق أعمالاً عمرانية وتوسع نطاق النشاط الاقتصادي وتبذل جهوداً موفقة في الميدان الفكري بموازاة العمل الشعبي الرائع .

وأما بالنسبة للعالم الإسلامي فقد اغتبط المسلمون كافة بهذا الانتصار العظيم الذي اتخذ إلى حد ما طابعاً دينياً ، فماذا يكون مصير المغرب لو سحق جيشه في هذه الوقعة؟ لقد كان من المرجح أن يعمد البرتغال إلى سلوك سياسة التنصير قهراً وبدون هوادة ، كما كان من غير المستبعد أن يوسعوا أطماعهم شرقاً فيحتلوا المغربين الأوسط والأدنَى وقد يتعاونون في ذلك مع أجناس أوروبية أخرى ليرغموا الأتراك على الانسحاب منهما .

أما بالنسبة للمسيحيين فقد تحولت كلياً نظرة الازدراء التي كانوا ينظرون بها إلى المغرب وسكانه وصارت دولهم تتنافس في خطب وده وتتقرب إليه بعقد المعاهدات والتسهيلات التجارية ، وتبعث إليه بالسفراء محملين بالهدايا إلى السلطان ، وتوقفت الأطماع السياسية الأجنبية لأمد طويل عن الجرأة على سيادة المغرب .

* * *

3 – دور العظمة

أحمد المنصور الذهبي[1] 986– 1012هـ/1578– 1603م)

صفاته ونشأته :

أحمد بن أبي عبد الله الشيخ محمد المهدي ، ولد بفاس سنة 956هـ من أم تدعى مسعودة بنت أحمد الوزكيتي الورْزازي، وكان جميل الصورة طويل القامة أسود الشعر واسع المنكبين يميل لونه إلى الصفرة .

وكان من أساتذته في النحو ومواد اللغة : أبو العباس أحمد بن قاسم الأندلسي وأبو مالك الحميدي ومحمد الحارثي . وأخذ الفقه عن أبي عمران السوسي وعبد العزيز بن إبراهيم الدمناتي وأحمد بن علي المنجور ، والحديث عن أبي نعيم رضوان الجنوي ، وقرأ على أساتذة آخرين ، وكان يجمع بين علوم كثيرة ، كما كان يقرض الشعر ويتذوق فنونه .

وكان المنصور مشهوراً بحزمه وتتبعه لأخبار رعيته ، وقد أسس مجلساً للشورى كان يجتمع يوم الأربعاء وكان يسميه يوم الديوان ، وهو أول من استعمل المنصورية في لباسه ثم شاع استعمالها خصوصاً بين الفقهاء والوجهاء ، وكانت والدته ذات

---

(1) من أهم المصادر عن شخصية المنصور :
1 – نزهة الحادي لليفرني .
2 – درة الحجال لابن القاضي .
3 – المنتقى المقصور لابن القاضي.
4 – نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري .
5 – الاستقصا للناصري .
6 – الترجمان المعرب للزياني .
7 – Caillé, La Petite Histoire du Maroc .
8 – Hespéris عدد 2 سنة 1924 و 1 و 2 سنة 1953.
9 – تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي.
10 – مناهل الصفا للفشتالي الخ ...

شغف بالعمران والبناء ، وأوعزت إليه ببناء عدة منشآت . وكان شديد الحنو على أولاده ، وقد اتخذ الاحتفال بعيد المولد كعيد رسمي ، وكانت له علاقات طيبة مع عدة دول ، وكان إلى ذلك إدارياً ممتازاً لا يقبل تهاوناً في الرد على العمال والولاة ، ويلزم الكتاب بالحضور والخروج من مكاتبهم في أوقات معينة . وكان إلى ذلك ذا طموح بالغ حتَّى قيل إنه راودته فكرة غزو اسبانيا وحتَّى الهند .

حكـومتـه :

تألفت حكومة المنصور من وزراء ذوي ثقافة عالية ومن مساعدين عهد إليهم بمهمة الكتابة الخاصة أو القيام بسفارات مؤقتة . وكان من بين وزرائه أبو فارس عبد العزيز الفشتالي الأديب المؤرخ وعبد العزيز المزوار ، ومن كتابه أبو عبد الله بن عيسَى ومحمد بن عمر الشاوي وعلي بن أحمد الشامي .

بيعتـه :

بويع أحمد المنصور بوادي المخازن غداة الموقعة التي تقدم الحديث عنها ، ثم جددت بيعته بفاس التي توافدت عليه فيها أعيانها وأعيان مراكش وغيرها ، وكانت بيعته بفاس بعد مرور عشرة أيام على قدومه إليها ، والظاهر أن المنصور عجل بالذهاب إلى فاس قبل مراكش ، خشية أن تحدث بها ثورة ضده . ولم يكد يستقر بفاس حتَّى توافدت عليه وفود من أوروبا والبلاد الاسلامية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وقدمت إليه هدايا نفيسة من طرف وفود هذه الدول .

تولية محمد الشيخ المامون العهد 987هـ (1579م) :

على إثر مرض عضال كاد يذهب بحياة المنصور ، رشح محمد المامون ولده لولاية العهد بإشارة جماعة من الوزراء والأعيان ، وتم عقد البيعة في آخر شعبان 987هـ (1579م) بمحضر عدد من العلماء والوجهاء ورؤساء القبائل الذين توافدوا من فاس ومراكش وغيرهما ، ثم جددت البيعة بحضور المامون في صفر 987 خارج مراكش ، وقد أدت هذه البيعة إلى ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ بجبل سكسيوة ثم بهوزالة ، وطارده القائد محمد بن إبراهيم إلى أن اضطره إلى الانسحاب إلى الصحراء ملتجئاً عند بني معقل ، ولكنه لم يلبث أن توفي هناك في سنة 988.

غزو الصحراء 989هـ (1581م) :

كانت منطقة توات وتيكورارين قد بعد عهدها بالخضوع لسلطة الدولة ، فوجه

المنصور إليها جيشاً بقيادة أحمد بن بركة وأحمد بن الحداد الغمري المعقلي ، وبلغ الجيش إلى هذه الناحية بعد شهرين ونصف تقريباً من السير ، ثم أخضعت قبائلها بالقوة بعد أن رفضت الاعتراف بسلطة المنصور . وهكذا أعيد ضم هذه المنطقة إلى المغرب سنة 989هـ .

فتح السـودان 999هـ (1591م) :

يمكن حصر الأسباب التي أدت إلى فتح المنصور للسودان ، فيما يلي :

1) عامل التوسع السياسي :

فالمنصور السعدي كان يعتبر نفسه خليفة ، ويستمد سلطة الخلافة من نسبه ، وشجعه فتح تيكورارين وتوات على التمادي في فتوحه جنوباً لأنه أمن كل مضايقة من الخارج ، ولم تكن بلاد ما وراء الصحراء قد فتحت بعد صدرها للأجانب غير الأفارقة .

2) العامل الاقتصادي :

كانت موارد المغرب أدنَى من أن تتسع لسد حاجيات الدولة من نفقات عسكرية ومنشآت عمرانية واجتماعية ، وكان معروفاً عن السودان أنها تتوفر على معادن الذهب التي طمع المنصور في استغلالها .

3) العامل العسكري :

لم تكن السودان تتوفر على قوة عسكرية حديثة التنظيم والتسليح ، فليست للجيش مدافع ، حتَّى ولا بنادق ، وعلى العكس من ذلك ، الجيش المغربي الذي كان بالرغم من قلة أفراده مجهزاً على أحدث طراز بالنسبة لذلك العصر .

على أن أحمد المنصور الذهبي كان طموحاً إلى اعادة فتح الأندلس وحاول باستمرار أن يضغط على بريطانيا للقيام بتعاون عسكري ضد اسبانيا ، وحصول المغرب على مناجم السودان كان الهدف منه بالدرجة الأولَى تقوية الجيش المغربي عسكرياً ضد اسبانيا .

هذه هي الأسباب الرئيسية التي شجعت المنصور على غزو السودان . ولكن يتبين من خلال المراجع المعاصرة ، أن المنصور قام بمحاولات تمهيدية لإخضاع السودان سلمياً ، وعن طريق معاهدة اقتصادية وسياسية دون اللجوء إلى تدخل عسكري .

أما المراحل التي مرت بها عملية الفتح منذ بداية التفكير فيها فهي كما يلي :

1) المناوشات الأولى من أجل الملح :

في نهاية القرن التاسع الهجري توجه محمد سكية إلى الحج ، وهو أول من ملك من آل سكية الذين قيل إن أصلهم من صنهاجة ، ثم اتصل بالخليفة العباسي بمصر واستأذنه في أن يحكم باسمه بلاد السودان ، وأثناء إقامته بمصر درس على بعض علمائها واقتبس بعض عوائدها ، وكانت مملكته تجاور نهر النيجير ، ولما كان عهد سكية اسحق طلب منه محمد المهدي الشيخ أن يتنازل له عن ممالح تيغازَى ، فرفض سكية اسحق ، واشتبكت قوات من الطوارق مع جيوش السعديين بدرعة ، ثم انسحب الطوارق بعد أن قاموا بعمليات السلب والنهب في غيبة الملك السعدي ، وكان ذلك على التقريب في أواخر الثلث الأول من القرن العاشر الهجري . وعلى كل ، فقد دخلت تغازَى منذ عهد المهدي في حكم الدولة السعدية كما أوضح ذلك الفشتالي في المناهل (مختصر المناهل 55).

2) مبايعة ملك برنو 990هـ :

في سنة 990هـ وجه ملك برنو إلى المنصور خطاباً يطلب فيه منه أن يمده بقوات من المغرب وأسلحة تمكنه من إخضاع بعض قبائل السودان ، وذلك بعد أن أخفق في مسعاه لدى السلطان العثماني وأرفق ذلك بهدايا ضمنها عدداً من النساء والرجال ممن كانوا يعتبرون رقيقاً يومئذ ، فرد عليه المنصور بهدية أخرى وأصحب الوفد مبعوثاً إلى أبي العلاء ادريس ملك برنو مشترطا عليه الدخول في طاعته أولاً ، وكتب له نص البيعة . ولم يلبث ملك برنو أن وجه جوابه بالموافقة ، وبعث المنصور بدوره إلى برنو بعض كبار موظفيه للقيام بجولة استطلاعية في عين المكان وزوده في نفس الوقت برسالة إلى اسحق بن داود في شأن ملح تغازى

3) اتصال ثائر من السودان ، بالمنصور (990هـ؟) :

يقول مصدر اسباني مجهول[2] ، إنه في سنة 1591[3] ورد على مراكش أسود فرّ من غينيا ، وكانت مهمته أن يتصل بالمنصور الذي كان بفاس حينئذ ، فاتصل به وأخبره أنه أخ لسلطان كاو ، وهو سكية اسحق وزعم أن هذا قد اغتصب منه

---

(2) نقلا عن هسبريس عدد 1 و 2 سنة 1953 لـ G. Pianel

(3) ربما قبل هذه السنة ، لأن فتح السودان تم في أوائل 1591 بالذات .

الملك ، وأنه سيسلم الى المنصور أموالاً طائلة ، إذا ساعده على استرجاع ملكه منه ، وبين له إمكانية فتح السودان بسهولة ، وأنه سيؤدي إليه ضريبة سنوية إذا فتح بلاده ، وكان يدعَى ولد كيريفيل (قرنفل)[4] ولم يكنْ ينتسب عن طريق الدم الى العائلة المالكة ، بل كان خادماً لها ، ولد من أمة بالقصر الملكي ، وكان سيده سكية اسحق قد غضب عليه لأنه كان خليعاً فسجنه بتغازَى من مملكة سنغاي ولكنه فر من السجن إلى مراكش وأثار طموح المنصور ، الذي كتب على الفور الرسالة المشار إليها ، والتي بعث بها إلى سكية اسحق يخبره فيها بأن ممالح تغازى تدخل ضمن حدود مملكته ، وأنه سيفرض ضريبة على ملحها المستخرج ؛ كما ينهي إليه وصول الثائر المذكور . ولا بأس بذكر نصِّ هذه الرسالة فيما يلي ؛ وهي من أسلوب أبي فارس عبد العزيز الفشتالي :

«إلى كبير كاغو ، ومالك زمام أمورها وتدبيرها ، والمرجوع إليه عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأثير الأحفل ، الأمير سكية ، وصل الله كرامته ، وجعل التقى سمته وعلامته .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد حمد الله ، مسهل المرام وميسر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء ؛ إلى الخاص والعام ، والرضَى ؛ عن إله الأئمة الأعلام وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذابين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم بالعز السامي المقام ، والنصر المنشور الرايات والاعلام ...

فإنا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله ، وعنايةُ الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والاقبال دائمة الهبوب بالبكر والآصال . لله المنة .

هذا ، وموجبه إليكم ، سدد الله طريقكم ، وجعل التقى رفيقكم ، إعلامُكم أن معدن الملح بتغازى التي من إيالتنا وفي محكم إمامتنا ، هو كما لا يكاد يخفاكم من جملة المعادن التي يختص بيت مال المسلمين بخراجها المستفاد ، وللإمام فيها النظر والاجتهاد .

(4) ضبطه عبد الرحمن السعدي هكذا (كرنفل ــ بكسر الكاف والراء والفاء) تاريخ السودان ص 286.

وبحسب هذا ، فإنا رأينا ، إن شاء الله من الرأي السديد ، والنظر المبارك الرشيد ، أن نضع عليه خراجاً يعود إن شاء الله بمزيد النفع على المسلمين ، وبالضر على أعداء الله المشركين ، وهو أن فرَضنا مثقالاً على كل جمل من سائر الإبل التي ترده ، وتؤمه من سائر الجهات وتقصده ، وقصدنا بما يحصل من ذلك ، صرفه إن شاء الله في سُبل الغزو والجهاد ، وفي أرزاق ما لنظرنا العلي من العساكر والأجناد ، التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، وأعتدناها للذب عن كلمة الإسلام ، وحياطة البلاد والعباد ، وهي جنود الله التي لولا ما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفها القاصمة ، وضربت في وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك ، باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام في عقر داره ، لفاض عليكم طوفانه الهائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوب هاطل ، وكفحت عنكم عنان الكفر حتَّى نتمم في كفالتها آمنين ، وفي حياطتها وادعين مطمئنين ، وأنفذنا إليكم هذا الخطاب الكريم ، لتعلموا ما وقاكم الله بسيوفنا التي أقرتكم في سكون وهدوء ، في جنات وعيون ، وتقابلوا ما رأيناه من النظر الكريم ، بالإسعاف والإسعاد ، جرياً على مقتضَى إشارتنا العلية في إصلاح البلاد والعباد ، وأن لا تسعوا فيما يبطل هذه الفريضة العائدة بالنفع على الإسلام ، وتؤيد حزب الله على مواصلة قتال عبدة الأصنام .

ثم اعلم أن أخاكم الذي قد نزل بنا ، واستجار بحرمنا الكريم النبوي ، وأمَّ إلى هذا الجناب العلي العلوي قد وصل إلى حضرتنا المراكشية ، وأناخ منها على أبوابنا الشريفة ، وعتباتنا السامية المنيفة ، وكتب لمقامنا العلي من هنالك لأول وصوله ، ومناخه ونزوله ، وها كتابه يصلكم طي هذا المكتوب الكريم لتتأمله وتقف على ما قصده من جانبنا العَلي وأمَّله، وها نحن أمهلناه في الجواب، وعاملناهُ بما نعامل به كل من يرد على مقامنا العلي من القبول والبر والترحاب ، حتَّى نرى إن شاء الله ما يبدو منكم ، ويصل في أمره عنكم ، وبهذا وجب الكَتْب إليكم ، والله يرشدكم بمنته ، والسلام».

وبعد هذا الخطاب استمرت إنذارات المنصور ومراسلاته بشأن الدخول في طاعته توجه من آن إلى آخر ، والأمير السوداني لا يحفل بهذه الانذارات إلى أن تقرر تجهيز حملة لإخضاع بلاده ، وقيل إن جوابه على الخطاب المذكور كان قبيحاً إلى حد أنه أرفقه بحرشان ونعلين من حديد[5]

(5) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 137 .

4) الحملة الأولى 999هـ (1591م) :

بعد أن فشلت محاولات المنصور السلمية في إقناع آل سكية ببيعته ، فكر في غزو السودان ، ولكنه قبل أن يقدم على ذلك ، جمع العلماء والمستشارين الذين يركن إلى وجهات نظرهم ، واستشارهم في توجيه حملة إلى السودان ، فاستقر رأيهم على العموم ، على ما يلي :

أولاً — لا ضرورة لغزو هذه البلاد ما دامت مسلمة .

ثانيا — إن بُعد المسافة سيكبد الجيش المغربي خسائر لابد منها مهما كانت النتائج .

ثالثا — إن هذه المحاولة لم تكن لها سابقة من لدن المرابطين ولا الموحدين ولا المرينيين ، لأن محاولة أبي بكر بن عمر كانت تلقائية وانفرادية ، وكان للمرابطين الفضل في نشر الإسلام هناك قبل أن يكونوا دولتهم .

إلا أن المنصور لم يقتنع بهذه المبررات جملة ، فقد صارح مستشاريه بأن غزو السودان ذو نتائج محققة ، وهو يقصد بذلك ما ستدره على الدولة من ذهب ، أما من حيث بعد المسافة والمخاطر ، فقد رد عليهم بأن التجار يغامرون فرادى وجماعات ويتوجهون إلى هذه البلاد من أماكن قاصية من غير أن يقدروا مقدماً نتائج مغامراتهم ، وفيما يخص عدم انشغال الدول المغربية الماضية بفتح السودان ، فقد رد على ذلك بأن كلا من المرابطين والموحدين كانوا مهتمين بحرب الأندلس ، أما المرينيون فقد جابهوا حروب بني عبد الوادي . وهكذا اقتنع المستشارون بفكرة المنصور ، ولكن توجيه الحملة مع ذلك ، تأخر إلى مطلع سنة 999هـ (1591م) بعد أن استمر الاستعداد لها عسكرياً مدة ثلاث سنوات .

وقد تم إعداد كل ما يلزم لهذه الحملة من خيل وبغال وإبل وبارود ومدافع ومهاريس وبنادق وخشب للمراكب ومقاذيف وحديد وقنابل وبراميل للماء وغير ذلك من اللوازم .

(6) سبقت حملة 999 هـ حملة استطلاعية أولية ابتدأت سنة 992 بقيادة محمد بن سالم وعبد المولى بن عيسَى وقد توغل الجيش المغربي في الأراضي الساحلية حتَّى وصل نهر النيجير وقد دانت له بالطاعة عدة قبائل ثم قفل راجعاً . (الفشتالي : مختصر المناهل 58). وهناك أيضا محاولات للتدخل من عهد المهدي (السياسة والمجتمع في العصر السعدي ، للمؤلف)

وتم استعراض الجيش في سادس عشر من ذي الحجة بظاهر مراكش سنة 998هـ (1590م) ، ولكنه لم يتحرك إلا يوم فاتح سنة 999هـ ، وأسندت قيادته إلى جؤذر ، وهو من أصل إسباني من إحدى قرى غرناطة **Las Cuevas** وكان قد التحق مع أخيه محمود باشا بجيش المنصور وصارا من كبار قادته وقد ساهمت قبائل المغرب إجبارياً في تزويد الجيش بالمؤونة والعتاد.

وبلغ عدد أفراد الجيش السعدي ما بين أربعة آلاف و 5000 من الخيالة ، فيهم نصارى ومسلمون من الأندلس ، بالإضافة إلى ألفي راجل و 1500 عربي مسلحين بالرماح و 100 أبّال وحوالي ألفين من قوات المدفعية والبحرية ، ولا يوجد اتفاق بين المؤرخين حول مجموع الجيش الذي يتراوح حسب الروايات بين ثلاثة آلاف فقط واثنين وعشرين ألفاً ، وكان يصحب الجيش حوالي 8000 جمل وألف من الخيل محملة بالأمتعة ، على أن تقديرات الروايات المسيحية أقل من هذا بكثير.

وبلغ مجموع قادة هيئة أركان حرب الجيش السعدي عشرة عينهم جميعاً المنصور ، إلى جانب جؤذر باشا.

وقطع الجيش وادي درعة حيث تزود من جديد بالماء والقمح والشعير ودقيق التمر ثم مر عبر تندوف وتغازى وتاودني ، وكارابارا وتمبو كتو ، ثم قصدوا كاغو عاصمة آل سكية بعد أن استغرقت رحلتهم أزيد من أربعة أشهر ونصف ، وكان عدد أفراد الجيش السوداني يتراوح بين 80 ألف ومائة ألف مسلحين بالرماح والسيوف والسهام ، ويصحبهم عدد من السحرة ، وكان في مقدمته عدد من الثيران التي اقتادها ليحتمي بها من قصف المدافع ، وعلى مقربة من كاغو بنحو ثلاثين كيلو متراً شمالاً بتُنديبي التقى الجيشان يوم 16 جمادي الأولى 999 الموافق لـ 13 مارس 1591 ، وكانت الثيران التي احتمى بها السودان أول من تخلّى عن مكانه فزعاً من قصف المدافع التي قتلت عديداً من السودان ، ولم يدبر النهار حتّى وقعت الهزيمة على الجيش السوداني الذي فتكت به القنابل شرّ فتك ، وبدأوا يتصايحون : نحن مثلكم مسلمون ! نحن مثلكم مسلمون! ودخل الجيش السعدي تواً إلى كاغو بعد أن نهب أسلاب السودان ، وخابت آمال جؤذر بعد أن لم يجد بكاغو ما كان يتوقعه من كنوز الذهب ، ووجد بالمدينة أرزاً وعسلاً وزبداً !..

أما سكية إسحق فقد عرض على جؤذر أن يدخل في طاعة المنصور على أن يؤدي إليه حالاً مائة ألف متقال ذهباً وألف عبد ، وأن يؤدي ضريبة سنوية ، وكل

هذا بعد مراسلات ومفاوضات كان الجيش السعدي ينهب خلالها ما تقع عليه عيناه وما تصل إليه يده من ممتلكات السودان ، كما عرض الأمير السوداني على جؤذر أن ينسحب الجيش السعدي في مقابل هذه التنازلات .

ثم كتب جؤذر إلى المنصور بذلك مستأذنا ، ووجه إليه مع الرسول هدايا قيمة ، ولكن المنصور رفض هذا العرض غاضباً ، وبعث حالاً بالقائد محمود باشا ابن زرقون مع كتيبة من الجيش .

5) الحملة الثانية 1000هـ (1591م) :

قد يكون جؤذر نفذ شروط الصلح فعلاً ، إلا ما كان من انسحاب الجيش المغربي ، ولذلك اشتد غضب المنصور الذي بادر بتوجيه محمود أخي جؤذر ، وطلب منه أن يحتفظ به لمساعدته ، وفي هذه الحملة التي تم اللقاء فيها من جديد بين الجيشين في مطلع سنة 1000هـ ، انهزم سكية اسحق واحتل محمود كاغو وترك بها أخاه ، ثم كان لقاء ثان وثالث بجيش سكية الذي اضطر أخيراً إلى الانسحاب حيث اغتاله بعض رعيته في السنة الموالية .

وليس صحيحاً أن محموداً تخلص من أخيه جؤذر بقتله في إحدى المعارك ، لأنه طمح فيما قيل إلى الاستبداد بالرئاسة ، إذ نراه مرة أخرى يتولّى قيادة بعض جيوش زيدان كما سنراه من جملة وزراء عبد الملك ابنه .

وقد بعث محمود زرقون إلى المنصور يبشره بأخبار هذه الانتصارات.

وحوالي سنة 1003هـ — 1594 م حدثت ثورة بتومبوكتو ضد الجيش المغربي ، فعمد محمود إلى اعتقال وجوه أهل السودان وكبار علمائهم ، ومنهم أحمد بابا الشهير ، ثم بعث بهم مصفدين إلى المنصور ، بعد أن صادر أموالهم وأملاكهم ، وتومبوكتو نشأت على أيدي الطوارق من مسوفة في القرن الخامس الهجري ، وقد عمرت بالمغاربة القادمين من الشمال ، خصوصاً صنهاجة ، كما سكنها مصريون ومهاجرون من ليبيا وإفريقية وغيرها[7]

فما هي إذاً ، النتائج التي ترتبت عن هذا الفتح؟

1) لقد وسع المنصور رقعة نفوذه ، فشملت مجموع الأراضي الواقعة شمال نهر النيجير ، كما وطد نفوذه في الأجزاء القاصية من الصحراء ، والتي كانت موئلاً

(7) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 20

للثوار والمغضوب عليهم من قِبل الدولة ، كما شملت سيادته مملكة بورنو المتاخمة لحدود السودان الشرقي ، ولم يعمد الأتراك إلى الرد بالعنف على هذه السياسة التي سلكها المنصور ، فقد رفضوا من قبل مساعدة ملك بورنو على القيام بإخضاع بعض القبائل التي رغبت في الإطاحة بعرشه ، وقد كانوا لا يستصوبون الزج بجيوشهم في أماكن قاصية ، كناحية تشاد ومالي والنيجير ، وكانت الدول الأوروبية في حالة تكتل ضد الباب العالي الذي استولى على أجزاء هامة من بلادها ، مما شكل أكبر خطر على مصير الدولة العثمانية نفسها .

2) أصبح المنصور يتوفر بحرية على معادن الذهب التي تحتوي عليها أراضي السودان ، والتي طالما هفت نفسه إلى الاستيلاء عليها ، وبذلك حقق ما كان يصبو إليه من تنمية اقتصاد المغرب ، وإحداث عملة ذهبية ثقيلة صارت لها قيمة دولية ، حتَّى قيل إن أربعمائة وألف مطرقة كانت معدة باستمرار لضرب الدينار الذهبي في دار السكة بمراكش ، وأن الذهب عم انتشاره بالمغرب حتَّى صنعت منه أوان وحلية لا تعد حصراً، ولذلك أطلق لقب «الذهبي» على أحمد المنصور، وقيل كان معروفاً به قبل هذه الغزوة . وتكاثرت بفضل هذا الذهب ، المنشآت العمرانية والصناعية ، كما نشطت الحركة التجارية مع الخارج بشكل لم يعرف له مثيل فيما سبق . وقد تشكك أندري جوليان فيما إذا كان المنصور قد استطاع أن يستغل معادن الذهب لبعدها ، وإنما الذي مكنه من الحصول على كميات وافرة من الذهب ، هو في نظره ، ما حصل عليه من مصادرة أعيان تومبوكتو ، ومن واردات الملح[8] .

3) لم يجن المنصور ربحاً معنوياً يذكر ، فقد تسلطت جيوشه بمنتهَى القسوة على مسلمين أبرياء غير متكافئين معهم تسلحاً وتنظيماً .

وكان من الممكن قبول الشروط التي تراضَى عليها ملك كاغو والقائد جؤذر منذ الحملة الأولَى ، ولكن أهداف المنصور لم تكن عسكرية وسياسية فحسب ، بل كانت كذلك اقتصادية . ولم تتحقق آمال المنصور في القيام بعمل عسكري حاسم ضد الإسبان والبرتغال في عقر دارهم .

4) لم يستفد أهل السودان شيئاً يذكر من خضوعهم للدولة السعدية ، بل خلت تومبوكتو التي عرفت عصراً علمياً زاهراً ، من معظم مثقفيها ، وكذلك الشأن بالنسبة لكاغو .

---

(8) استنتاج خاطئ كما سيأتي .

وقد اقتبست السودان عن الجيش المغربي هندسة البناء ، وكان أول عمل قام به الجيش هو بناء قصبة تومبوكتو ، دون أن يقوم بنقل فن البناء الأندلسي ، وإنما اكتفى بنقل هندسة مباني الجنوب المغربي . ولا زلنا نجهل لحد الساعة ، مدى الدور الذي يمكن أن يكون هذا الجيش قد قام به في ميدان نشر الإسلام بين القبائل الوثنية هناك . وعلى كل حال ، فقد استقر أعقاب الجيش المغربي بالسودان ، وانصهروا في أهله عن طريق النسب . ومع ذلك ، فتدخل الجيش السعدي السعدي لا يمكن أن يقاس بالتدخل الاستعماري الغربي الذي جعل من الافريقيين مجرد أداة لخدمة أهدافه .

الثورات الداخلية :

لم يخل عهد المنصور من بعض الثورات الداخلية التي لم يكن لها أثر طويل الأمد ، باستثناء ثورة محمد الشيخ المامون ، ومن الثورات التي ينبغي تسجيلها :

1) ثورة داود بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ سنة 987هـ ، وكانت احتجاجاً على تولية محمد المامون العهد ، من لدن والده أحمد المنصور .

2) ثورة عرب الخلط ، الذين رفضوا أن يشتركوا في فتح تيكورا راين ، فجردهم من الخيل والسلاح وشردهم[9] .

3) ثورة الحاج قراقوش ، وهو بربري ثار بغمارة التي كانت في الماضي من أكبر مناطق الثورة ، وقد سمى نفسه خليفة ، لكن ما لبث أن تم قتله والقضاء على ثورته فوراً سنة 993 أو 996هـ[10] .

4) ثورة الناصر بن عبد الله الغالب سنة 1003هـ ، وكان قد التجأ إلى الإسبان منذ وفاة عبد الملك المعتصم عند نشوب معركة وادي المخازن ، واستغل هؤلاء الفرصة ، فحرضوه على تدبير محاولة لقلب عرش المنصور في السنة المذكورة ، بعد أن رأوا ما وصل إليه ملكه من سعة وفخامة ، خصوصاً بعد فتح السودان ، واستطاع الناصر أن يحصل على سند في منطقة الريف وتازا وناحية مكناس حيث تتكاثر العناصر الزناتية التي ظلت تتوق إلى السلطة من جديد . وقد تمكن جيش المنصور بقيادة المامون من سحق جنوده ومطاردته إلى أن اعتقله ثم احتز رأسه سنة 1105هـ.

---

(9) الفشتالي ، المناهل ، ص 109

(10) الفشتالي ، المناهل ، ص 46.

5) ثورة محمد المامون بن المنصور، وكان والده قد ولاه عهده سنة 987هـ، ثم جدد له العهد سنة 992هـ، وعينه نائباً له بفاس، ولكنه كان سيئ السيرة. يبتز أموال السكان، ولا يحفل بواجباته الدينية، كما أنه اتخذ بعض كتائبه من العرب الذين خصص لهم أعطيات كثيرة من غير إذن والده الذي حاول أن يرجعه باللين عن سلوكه، ولكن توجيهاته ذهبت أدراج الرياح حيث إن المامون كاد يلتجئ إلى تلمسان ليستعين بالأتراك، وأخيراً ظفر به المنصور بعد مطاردة طويلة وسجنه بمكناس التي ظل منفياً بها إلى أن فر من السجن في عهد زيدان، واستمرت ثورته إذذاك سنوات عديدة.

وفاة المنصور 1012 هـ (1603م) :

تسلط على المغرب وباء هلك من أجله آلاف من السكان، واستمر من 1007 إلى 1016هـ (1599 — 1607م)، كما أهلك عديداً من الشخصيات البارزة، ومن بينها أحمد المنصور الذي توفي ودفن بفاس الجديد في ربيع الثاني 1012هـ (غشت 1603م)، بعد أن استمر في الملك ستاً وعشرين سنة، ونقل رُفاته إثر ذلك ابنه زيدان إلى مراكش حيث دفنه بقبة «الأشراف». وتقول رواية أخرى إنه مات مسموماً، سمته زوجته عائشة بنت أبي بكر الشيبانية أم ابنه زيدان لأنه أوصَى ببيعة ابنه أبي فارس، وهكذا بويع الأول بفاس والثاني بمراكش. ومات المنصور في الطريق من فاس إلى مراكش، فكتم موته جؤذر حتّى دخل العاصمة. وهذا هو سياق الرواية الأخيرة(11).

ساسة المنصور الداخلية :

فتر نشاط الصلحاء في الميدان السياسي، وبينما استمروا يمارسون نشاطهم الروحي، فقد كان بعضهم يترقب الفرصة للتدخل السياسي، وعلى الخصوص ضد الاحتلال الأجنبي الذي عاد يركز نفسه من جديد بعد موت المنصور، وبوجه عام، فإن البرتغال، وهم إلى ذلك الحين أعداء المغرب الرئيسيون، لم يجرأوا على القيام بأية حركة في التراب المغربي غير ما كانوا قد احتفظوا به، وذلك طيلة عهد أحمد المنصور الذي وطد انتصار المغرب في معركة وادي المخازن سمعته الشخصية، وهيبة أسرته كدولة حاكمة.

---

(11) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص 203.

وأحدث المنصور عادات خاصة في الاحتفال بعيد المولد الذي كان فرصة لاجتماع الصلحاء والأولياء من مختلف بقاع المغرب ، حيث يتم الاحتفال بمراكش وغيرها في غاية الأبهة ، ويخرج الصحافون بالشموع في جولة طويلة بالمدينة.

وكان من أبرز مظاهر الضعف في سياسة المنصور ترشيح ابنه محمد المامون ولياً للعهد ، وإقراره بهذه الصفة مدة طويلة ، رغم ما كان يعرفه عنه من سوء سيرة ، كما أنه عمل على تقسيم المغرب بين أبنائه ، مثلما فعلت من قبل ، زوجة إدريس الأول ، كما سنوضح ذلك في موضوع العمال والولاة ، ولحسن الحظ ، فإنه تمكن من القضاء على أخطر ثورة قامت في عهده ، وهي ثورة الناصر بن الغالب التي استمرت حوالي سنتين.

أما في الميدان المالي والاقتصادي ، فقد حول المنصور ضريبة النائبة إلى ضريبة نقدية ، وأقرّ الخراج ، وأحدث عدة مكوس تجارية ، وقلل من التعامل بالعملة الفضية ، بعد أن كثر الذهب بخزائنه ، وكان التجار الأجانب يتهافتون على تهريب العملة الذهبية المغربية التي كانت قد اكتسبت سمعة دولية حقيقية ، واحتكر المنصور صناعة السكر التي عرفت نشاطاً واسعاً. وكان لا يترك فرصة تمر دون أن يبحث عن مزيد من الموارد لخزائنه التي نما دخلها بشكل لم يتقدم له نظير ، وذلك بفضل المصادرات والفدية التي أداها البرتغال لتحرير أسراهم إثر معركة وادي المخازن ، فضلاً عن الضرائب المذكورة وموارد استغلال الذهب.

وبالرغم من القيمة النقدية التي اكتسبتها عملة أحمد المنصور ، فإن المغرب عرف سنوات من الغلاء المفرط نتيجة لارتفاع الضرائب وكثرتها ، حتّى قيل إن السكان رحبوا بثورة الناصر وآزروها بسرعة ، تخلصاً من الضغط الذي عاشوه في الميدان الاقتصادي على الخصوص ، ولكن عهد المنصور عرف أيضاً فترات من الرخاء والازدهار الشامل.

وقد نشط العمران وحركة البناء في عهد هذا العاهل ، وإن انصب الاهتمام على قليل من المدن الرئيسية دون اعتبار لضرورة تعمير عدد من المناطق المهجورة والمدن المخربة سيما على الساحل الأطلسي. ومن أهم البناءات الخاصة ، قصر البديع بمراكش. وقد أقيمت جملة قناطر لتنشيط حركة المواصلات ، سيما على وادي سبو ووادي أم الربيع التي شادت على كل منهما قنطرة والدة المنصور التي نسب إليها جامع باب دكالة بمراكش وغيره.

وأحدث المنصور مصانع جديدة للسكر بحاحا ومراكش وشيشاوة ، كما بنَى أكبر قسم من مقبرة السعديين بمراكش ، وعدداً من الحصون والمعاقل بمدن مختلفة .

السياسة الخارجية :

عمل المنصور على تقوية علاقاته مع الدول الإسلامية والمسيحية على السواء ، فوافته رسلها بالتهاني والهدايا منذ انتهاء معركة وادي المخازن ، ولكن الرئيس علي علوج الذي كان يمثل الباب العالي بالجزائر ، حاول أن يقنع السلطان مراد بغزو المغرب إثر حادث دبلوماسي عرف المنصور كيف ينقذ نفسه من عواقبه المحتملة . وتفصيل ذلك ، أن أحمد المنصور لم يبد احتفاء لائقاً بالوفد العثماني الذي جاء لتهنئته بالمناسبة المذكورة ، بحجة أن هدايا السلطان العثماني دون مقام الملك المغربي ، واستغل الرئيس علوج الفرصة لإعداد حملة عسكرية ضد المغرب ، فبادر المنصور يوجه وفداً إلى الباب العالي، محملاً بهدايا نفيسة سنة 989هـ/ 1581م، ومنذئذ، والعلاقات مستقرة بين الطرفين، سائر حياة المنصور.

وكان للمنصور مراسلات مع أمراء مصر والحجاز ، ولم ينس أن يستجيز أكابر فقهاء مصر الذين سجلوا في حقه شهادات تنويه قيمة .

أما البرتغال ، فقد سلموا إلى المنصور تلقائياً مدينة أصيلا ، التي أخلوها سنة 997هـ — 1589م ، وتم التسليم رسمياً سنة 1592 بعد أن خشي فيليب الثاني أن ينجد المنصور أحد المطالبين بعرش البرتغال التي كانت قد ألحقت بإسبانيا ، ومع ذلك فكرت إسبانيا مراراً في الاستيلاء على العرائش التي كانت حينئذ أعظم موانئ المغرب[12] . وفي مقابل ذلك ، وطد المنصور علاقاته بالملكة اليزابيث البريطانية ، حتَّى لقد اتفق الطرفان قبيل وفاة المنصور على غزو إسبانيا وتقاسمها . وكانت بريطانيا قد غزت قادس سنة 1595 إلى جانب هولندا ، بينما عرض المنصور على الأولى إمدادها بثلاث بواخر حربية ، فامتنعت بلباقة . وكان التجار الرحالة الإنجليز يتوافدون بكثرة على المغرب ، ولم تكن الحكومة البريطانية تتبنَّى مباشرة التجارة مع المغرب ، بل كانت هناك شخصيات إنجليزية توفد عنها وكلاء لاستيراد السكر والجلود وغيرها من البضائع المغربية ، مقابل الثياب التي اغرقت الأسواق المغربية ؛ ثم حاول التجار أن يتجمعوا في إطار مؤسسة ضخمة . وقد كانت للمنصور

(12) كان ملك إسبانيا في هذا العهد هو فيليب الثاني الذي شمل نفوذه إسبانيا وهولندا وإيطاليا فضلاً عن البرتغال والمستعمرات الأمريكية .

مراسلات كثيرة مع البلاط الإنجليزي[13] تدل على ما كان بين الطرفين من ودّ ومجاملة .

وفي عهد المنصور توارد على المغرب بعض قناصل فرنسا التي لم تتمكن مع ذلك من ربط علائق متينة مع المغرب ، بسبب الحروب الدينية التي مزقتها ، والتي استغرقت أربعين سنة بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعمّ خطبها عدة بلدان مسيحية .

* * *

(13) انظر De Castries, Sources inédites (Angleterre).

4 - دور الضعف

زيدان بن المنصور (1012 – 1037هـ/1603 – 1627م)

شخصيته :

كان زيدان أذكَى أبناء المنصور ، وأحقهم بالملك من حيث قوة الشخصية ، ولكنه لم يكن مستقيم السلوك في حياته الخاصة ، كما كان يوصف بالشدة والعنف شأن أكثر أسلافه .

وقد كان زيدان نائباً عن والده بتادلا وأحوازها ، ذلك أن المنصور وزع عمالات المغرب في حياته على أنجاله اتقاء لتناحرهم على السلطة بعده ، فكان ما حدث عكس ما أمّل .

وكان زيدان ذا ثقافة عامة متينة ، تخصص في العلوم الدينية مع مشاركة في فنون الأدب . وكانت له خزانة ضخمة نهب قراصين الإسبان منها ثلاثة آلاف مجلد كان زيدان قد عمل على نقلها في بعض أسفاره إلى آسفي عندما عزم على اللجوء إليها أثناء بعض الثورات المحلية . وتمثل هذه المخطوطات اليوم أهم محتويات الإسكوريال قرب مدريد .

بيعتـه :

توفي المنصور وولي عهده الرسمي (محمد المامون) في سجن بمكناس ، وهكذا تم تنصيب زيدان بفاس بتدبير من المفتي محمد القصار والقاضيين ابن أبي نعيم وعلي السلاسي ، وبموافقة قواد الجيش وشخصيات فاس . أما محمد المامون الملقب بالشيخ ، فقد نقل بتدبير من جؤذر باشا إلى سجن مراكش تحت مراقبة أخيه أبي فارس عبد الله الذي بايعه أهل مراكش لأنهم لم يوافقوا على تولية زيدان الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً كثيراً .

الثورات ضد زيدان :

لم يهنأ زيدان بالملك طول مدته ، فقد تكاثر الثوار والمطالبون بالعرش من كل جانب ، وعاد أرباب الزوايا إلى نشاطهم السياسي ، بعد أن لمسوا تناحر الأمراء على العرش ، وفغر الاستعمار البرتغالي أفواهه الشرهة من جديد . وفي هذه الفترة نشطت حركة الجهاد الشعبي البحري التي اتخذت هدفاً مزدوجاً : المقاومة الوطنية ، وإضعاف السفن المسيحية اقتصادياً .

وعلى الرغم من أن زيدان أظهر كثيراً من الحزم في محاربة الثوار ، فقد كان هو نفسه ضحية سياسة والده الفاشلة ، فيما يتعلق بتوزيع المملكة بين أنجاله الذين لم يتعاونوا معه ، فضاعت كل جهوده في سبيل إقرار الوحدة الوطنية ، وضاعت معها النتائج الإيجابية التي كان سيجنيها المغرب لو استقر النظام والوحدة الوطنية على ما كانت عليه أيام المنصور .

1) ثورة أبي فارس 1012هـ :

كانت بيعة أبي فارس عبد الله بمراكش ، نذيراً بإعلان الحرب بينه وبين زيدان ، فأطلق سراح أخيه محمد الشيخ ، وبعثه لمجابهة جيش يقوده جؤذر باسم زيدان ، ومرة أخرى يدبر هذا الإسباني مكيدة ضد زيدان ، فينهزم أمام محمد الشيخ المامون بحضور زيدان الذي شهد هزيمة جيشه بنفسه عند وادي أم الربيع ، فلاذ بالفرار إلى فاس التي لم تلبث أن تخلت عنه بدورها لتبايع محمد الشيخ المامون . ومنذ هذه الفترة تصبح هناك مملكتان سعديتان إحداهما بفاس والأخرى بمراكش ، ولكن هذه تظل نسبياً ، أوسع نفوذاً وأكثر استقراراً . وأمام خروج كل من فاس ومراكش عن بيعته ، اضطر زيدان إلى اللجوء إلى تلمسان في انتظار ما ستسفر عنه الأحداث .

2) ثورة محمد الشيخ 1015 ــ 1022:

انقلب محمد الشيخ ضد أخيه أبي فارس ، باستيلائه على فاس التي بايعه أهلها ، ثم بعث بابنه عبد الله في جيش من ثمانية آلاف مقاتل ، فاستولى على مراكش وأساء بها السيرة هو وجيشه ، مما جعل أهلها يستقدمون زيدان ويبايعونه ، غير أن عبد الله بن محمد المامون عاد معززاً بكتائب أخرى من فاس ، ولقي عسكر زيدان عند تيفلت وكان يقوده مصطفَى باشا ، فانهزم عسكر زيدان واسترجع عبد

الله بن المامون مراكش ، فاستباح أموالها ونساءها، فثاروا عليه ونصبوا عليهم محمد ابن عبد المومن بن محمد المهدي الشيخ، ثم عادوا يستقدمون زيدان مرة أخرى، فاستعاد مراكش سنة 1016 ، ثم هزم جيش عبد الله عند وادي أبي رقراق ، واستولى على فاس ، فالتجأ محمد الشيخ إلى الإسبان يطلب منهم نصرته . وفي هذه الأثناء حدثت ثورة بمراكش ، فتوجه إليها زيدان ، وانتهز الفرصة عبد الله بن الشيخ ، فاحتل فاساً ، وقتل القائد مصطفى باشا سنة 1018 ، وكان أبو فارس برفقة ابن أخيه ، عبد الله ، وقد أصبح مجرد أمير تابع لأخيه محمد الشيخ المامون ثم لابنه هذا ، وبدأ يدبر الخطة ليملك فاساً ، فقتله ابن أخيه خنقاً سنة 1016.

وعاد زيدان إلى فاس يحتلها وينكب أهلها ، ثم زحف عبد الله بن الشيخ لقتاله عند رأس الماء ، فاندحر جيش زيدان سنة 1019 . وحينئذ ، تخلّى زيدان نهائياً عن فاس التي تركها وشأنها وركز جهوده في مراكش وعدد من المناطق التابعة لها شمالاً وجنوباً .

على أن زيدان حاول أن يستعين على خصومه بالدولة العثمانية التي جهزت إليه أسطولاً من اثني عشر ألف جندي ، فغرقت كل قطعه إلا غرابان اثنان ، وذلك بعد أن أدى إلى السلطان العثماني هدية تحتوي على عشرة قناطير من الذهب[1].

أما محمد الشيخ المامون فقد عاد من اسبانيا بعد غيبة سنتين ، حيث اتفق مع ملكها على أن يتخلّى له عن العرائش مقابل إنجاده بالسلاح والرجال لاسترجاع فاس ، وسلمت المدينة إلى الإسبان سنة 1019هـ — 1610م ، إذ كانت خارجة عن نفوذ زيدان . وقد أغضب هذا العمل كل العناصر الوطنية ، وامتحن محمد المامون عدداً من الشخصيات الفكرية التي رفضت الموافقة على التنازل عن العرائش ، كما اختفى بعضها عن فاس تجنباً لبطشه . وفي نفس السنة استولى المامون على تطوان ، وبقي سكان الشمال يتربصون به الفرصة إلى أن اغتالته بعض عناصرهم سنة 1022هـ/ 1613 م. وكان من أقبح أبناء المنصور سيرة، يسكر جهاراً، ويغتصب أموال الناس قهراً، ولا يبالي بعواقب مظالمه.

---

(1) محمد بن اسحق العثماني . تقييد في تاريخ الدولة العثمانية . ص 258 . والقصة ذكرها أيضاً كل من اليفرني في النزهة . والناصري في الاستقصا . وكان المبعوث المكلف من لدن زيدان هو الكاتب عبد العزيز التغلبي .

3) ثورة ابن أبي محلي 1022هـ/ 1613م :

أحمد بن عبد الله بن أبي محلي ، من مواليد سجلماسة سنة 967هـ ، تلقى دراسته الأولى بفاس ، ثم لازم الشيخ محمد بن مبارك الزعري مدة ثمانية عشر عاماً ، وهكذا تحول من فقيه إلى صوفي ، وعاد إلى سجلماسة يدعو إلى نبذ الدعوة السعدية ، وسار يتنقل في النواحي الجنوبية الشرقية ، حيث أشاع أنه المهدي المنتظر ، وشنع على أولاد المنصور تناحرهم ، مما أدى إلى اختلال شؤون الدولة وانتشار الفساد ، ثم جمع جيشاً قوامه أربعمائة مقاتل ، تمكنوا من سحق 4000 من جنود زيدان قرب سجلماسة ، وسرعان ما دخل ابن أبي محلي إلى هذه المدينة ، ثم الحق بها درعة بعد أن هزم جيشاً بعثه زيدان بقيادة أخيه عبد الله ، وأخيراً زحف إلى مراكش التي استولى عليها بمؤازرة بعض الخونة من قواد زيدان ، وحينئذ استنجد زيدان بفقيه سوس أبي زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي وكانت له مكانة عظيمة بين سكانها ، فحشد له منهم جيشاً ، ثم كان اللقاء قرب مراكش ، فانهزم جند ابن أبي محلي الذي قتل في أول الوقعة سنة 1022هـ ، وكان زيدان لاجئا بآسفي أثناء احتلال ابن أبي محلى لمراكش .

ومن الراجح أن مؤازرة سجلماسة لابن أبي محلي لم تكن ذات طابع سياسي أو ديني محض ، فقد بدأت هذه المدينة تفقد أهميتها الاقتصادية العظيمة التي كانت لها في الماضي كمعبر للقوافل التجارية المنطلقة من السودان حتّى مصر ، فهناك المضايقات البرتغالية على شواطئ الأطلسي والوجود التركي في كل من الجزائر وتونس ، وهكذا كان للعامل الإقتصادي أثر في هذه الانتفاضة .

أما أبو زكرياء أحمد، فقد كاد يستبد بمراكش، ولكن جنده اختلفوا معه بشأن رواتبهم ، فعاد إلى سوس متخلياً عن مراكش لزيدان ، بعد أن أخذ منه ميثاقاً أن لا يعود إلى ما افتضح من شذوذه الجنسي ، وقد كانت بينهما مراسلات كثيرة تدل على أن زيدان كان يرهب جانبه .

وقد استولى الإسبان سنة 1022هـ على المعمورة (المهدية) في عهد فيليب الثالث ، فأسند زيدان إلى أبي عبد الله العياشي قائده السابق بأزمور مهمة مقاومة المحتلين في منطقة دكالة أولاً ، وهنا تبدأ صفحة ناصعة من تاريخ النضال المغربي بزعامة هذا الصوفي الشعبي الذي هدد الوجود البرتغالي بالمنطقة ، حتّى إن قادة الاحتلال بها أفسدوا ما بين العياشي وزيدان ، وألانوا موقف هذا بالهدايا والتحف حتّى انسحب العياشي إلى سلا مستجيباً لنصح العاطفين عليه .

4) **ثورات فاس** 1020 — 1033هـ (1611 — 1623م) :

أما فاس فقد استبد بها عبد الله بن الشيخ بعد مقتل والده ، وسرعان ما ثارت ضد جنوده من شراقة ابتداء من سنة 1020هـ ثم عينت ولاة محليين إلى سنة 1027 حيث عادت إلى تنصيب عبد الله بن الشيخ ، بينما بايع سكان الهبط أخاه محمد المعروف بزغودة الذي تمكن من الاستيلاء على فاس ، ثم استرجعها عبد الله وبقيت فاس تتأرجح بينه وبين الثوار المحليين إلى سنة 1033 وفيها توفي عبد الله .

5) **ثورة سوس** :

بينما كان زيدان يعمل على استرجاع مراكش من يد ابن ابي محلي ظهر بسوس ثائر سوسي هو أبو حسون علي بن محمد ، حفيد أحمد بن موسَى السملالي الصوفي ، وكان أبو حسون يعرف أيضاً ببو دميعة ، وقد تمكن من الظهور بسوس بمؤازرة قبائل جزولة التي ينتمي إليها، وهكذا احتل تارودانت، مما جعل الفقيه يحيَى الحاحي يحاربه ويسترجع منه تارودانت ، على أن أبا حسون عاد إلى الظهور من جديد إثر وفاة يحيَى سنة 1035هـ ، فدانت له مجموع المنطقة السوسية ، بإضافة سجلماسة ودرعة ، وهي كلها مناطق متكاملة اقتصادياً وجغرافياً ، وكانت الدولة السعدية في طريقها نحو الاضمحلال . واتخذ أبو حسون إيليغ بسوس عاصمة لحكومته .

وفاة زيدان 1037هـ — 1627م :

توفي زيدان في مطلع 1037هـ ، ودفن بمقبرة «الأشراف» بمراكش بجانب والده . وقد كانت لهذا السلطان علاقات دبلوماسية مع عدة دول .

والجدير بالذكر أن الثورات التي حدثت في عهد زيدان تتخذ ثلاثة اتجاهات حسب المناطق أو الوضع السياسي :

1) ثورات في الأسرة الحاكمة ، وتتركز مبدئياً في المدن الكبرى خصوصاً فاس ومراكش .

2 — ثورات شعبية ذات طابع محدود ، وتنشأ غالباً بسبب سوء سيرة الولاة كما حدث في سلا .

3) ثورات ذات صبغة وطنية أو إقليمية قام بها صوفية أو فقهاء كالعياشي وابن أبي محلي ويحيَى الحاحي وابي حسون السملالي . ومعظم هذه الثورات منطلقها الجنوب .

أبو مروان عبد الملك بن زيدان (1037 ـ 1040هـ/1627 ـ 1630م)

بويع عبد الملك بن زيدان إثر وفاة والده زيدان بمراكش ، وتمكن من إلحاق فاس بمملكته بينما ثار عليه أخواه أحمد والوليد ، أما الأول فقد اعتقله عبد الملك في سجن فاس لمدة طويلة ، وأما الوليد فقد استعان بقواد الجيش على تمهيد الأمر لنفسه ، وحاول أن يستولي على الملك بالقوة في البداية ، ثم عمد إلى اغتيال أخيه عبد الملك بتعاون مع القواد المذكورين ، سنة 1040هـ . وكان عبد الملك سكيراً فاسقاً ، وقد تم دفنه أيضاً بضريح السعديين بمراكش .

الوليد بن زيدان (1040 ـ 1045هـ/1630 ـ 1635م)

لم يكن الوليد بأحسن سيرة من أخيه عبد الملك ، فقد بطش بعدد كبير من أفراد أسرته ، وهي سنة درج عليها جلّ ملوك السعديين ، كما اعتقل أخاه محمد الشيخ الأصغر ، خوفاً من أن يثور عليه ، وكان الوليد مع هذا مولعاً بالسماع سخي اليد ، ولكنه كان قليل الاهتمام بشؤون شعبه سكيراً كسلفه ، وقد اغتاله العلوج من جيشه بعد أن رفض أداء رواتبهم . وإليه تنسب قصبة الوليدية. وتقول رواية افرنجية إنه كان محبوباً من رعيته ، كما تذكر خطأ أنه حكم اثني عشر عاما[2] . وقد قتل خمسة عشر من إخوته وأبنائهم وأبناء أعمامه .

محمد الشيخ الأصغر بن زيدان (1045 ـ 1064هـ/1635 ـ 1653م)

كان محمد الشيخ الأصغر سجيناً بمراكش أيام أخيه الوليد ، فأخرج من معتقله ، ونصب غداة موت الوليد . وكان مستقيماً في سلوكه ، لكنه على الرغم من طول عهده لم يحاول أن ينقذ بحزم ما خرج من المملكة عن سلطته ، فقد استولى الدلائيون على فاس ، واستفحل أمرهم حتّى هزموه في أبي عقبة سنة 1048هـ ، بينما شملت سلطة العياشي سلا ومنطقة الغرب ، وبدأ العلويون يتحفزون لنشر دعوتهم . وكان تحت حكمه ، المناطق الممتدة بين الأطلس وآسفي وأزمور ومراكش ، وكان أكثر مستشاريه علوجاً أو عناصر غير وطنية . وتوفي بمراكش حيث دفن بمقبرة السعديين سنة 1064هـ/ 1653.

---

(2) Hoeffer : Empire du Maroc p. 356

وانظر بشأن سيرته : Fagnan, Extraits inédits, p. 445

العباس بن محمد الشيخ الأصغر (1064 ـ 1069هـ / 1653 ـ 1658م)

هو آخر ملوك السعديين ، ولم يلبث طويلاً في الملك بعد تنصيبه ، لأن أخواله من الشبانات رغبوا في أن يحولوا الملك إلى أسرتهم ، حتَّى حاصروه مدة طويلة بمراكش ، ثم عمدوا إلى اغتياله سنة 1069هـ ـ 1658م ، واستولى عبد الكريم الشباني وهو كبيرهم على الملك ، حيث صفت له الأحوال بمراكش وأحوازها مدة إحدى عشرة سنة ، وشذت عن نفوذه آسفي بالإضافة إلى سائر أنحاء البلاد ، وكان يلقب بكروم الحاج ، وقد تم اغتياله هو أيضا سنة 1079هـ فخلفه ولده أبو بكر الذي انتهَى أمره على يد السلطان رشيد العلوي .

* * *

الحركات الاستقلالية الكبرى
في عهد السعديين

1 – حركة الجهاد البحري الشعبي(1)

هجرة الموريسكيين :

منذ أن دخلت إمارة غرناطة تحت الحكم الإسباني سنة 898هـ/ 1492م في أوائل عهد الوطاسيين استمر المسلمون لفترة قصيرة يؤدون طقوسهم في عين المكان مع شيئ من الحرية . على أن عدداً آخر من المسلمين كانوا يعيشون في كنف الممالك الإسبانية منذ عهد المرابطين ، وكان الإسبان يسمونهم يومئذ بالمدجنين ، وهم أرقَى حضارة من المسيحيين . أما إمارة غرناطة ، فقد أطلق الإسبان على سكانها المسلمين اسم الموريسكيين ، ثم عمموا هذه التسمية على سائر المسلمين . على أن سكان غرناطة لم ينعموا طويلاً بهذه الحرية الدينية التي خولتها لهم شروط تسليم غرناطة . فقد عرف القرن السادس عشر أفظع مظاهر الاضطهاد الديني ليس فحسب في إسبانيا ، بل في معظم البلاد المسيحية التي تطور التناحر فيها بين الكاثوليكية والبروتستانية ، إلى حد أن امتدت الحروب الأهلية في بعضها أربعين سنة ، وأخيراً ، كان التحمس للكاثوليكية يكتسي طابع التعصب المفرط في البلاد الإسبانية التي قرر ملكها فيليب الثاني أن يشهر الحرب ضد جميع الأمم التي لا تتمذهب

---

(1) انظر حول هذا الموضوع : الناصري ، استقصا ، ج 6 ص 11 ، 24 ، 73 ، 84 . الأفرني ، نزهة الحادي ، ص 435 . محمد داود ، تاريخ تطوان ، ج 1 . بوجندار ، مقدمة الفتح من رباط الفتح . أبو أملاق ، الخبر عن ظهور العياشي .

— **De Slane, Revue africaine, T1 n.4/1856**
— **R. Coindreau, les Corsaires de Salé.**
— **De Castries, les sources inédites**
— **Juan Penella, Etudes sur les mauresques andalous en Tunisie**
— **J. Caillé, la ville de Rabat, T1. La petite histoire du Maroc.**
— **R. Ricard, Hespéris, 1,2/1935.**
— **Ch. Penz, les Captifs français**
— **H. Terrasse, Histoire du Maroc, T.2**

بالكاثوليكية، وأحرق من أجل ذلك في إسبانيا حوالي عشرة آلاف شخص في مدة ثمان عشرة سنة ، وأحدث محاكم التفتيش التي كان ضحيتها المسلمون أيضاً ، فقد اتهموا بالتآمر على الدولة ، وألزموا بالدخول قهراً في المسيحية . وفي غمرة هذا القمع ، كان معظمهم يحتفظ بتقاليده ودينه الذي يضطر إلى ممارسة شعائره خفية ، على الرغم من أنهم قد تخلوا مكرهين عن اللغة العربية التي احتفظوا منها بالخط ، وكانوا يكتبون به الإسبانية أو اللهجة العامية . ففي سنة 1568م ، وقبل طرد المسلمين بأكثر من ثلاثين عاماً ، أمر أسقف غرناطة أن يلزم أبناء المسلمين ، ابتداء من الخامسة من عمرهم إلى سن الخامسة عشرة بتعلم الإسبانية وتلقي تعاليم الديانة المسيحية[2] ، وظلوا مع هذا متمسكين بحبهم لوطنهم بشكل غريب ، حتى إنهم حاولوا بعد أن أهينوا في أنفسهم ودينهم وأموالهم ، أن يشهروا الحرب على النصارى ، فتكتلوا بزعامة محمد بن أمية ، الذي يحتمل أن يكون من سلالة أمويي الأندلس ، وكانت ثورتهم بضواحي غرناطة في جبل البوشرات ، ولكن حب الرئاسة أعمى أحدهم ، وهو المدعو ابن عبو ، لينفرد بزعامة المسلمين ، ومن ثم أصبحوا أكثر تعرضاً للاضطهاد الديني والسياسي ، خصوصاً بعد أن استغاثوا بالأتراك فلم ينجدوهم وقد كانوا هم أنفسهم في حرب مع الإسبان في حوض البحر المتوسط . وهكذا أرغموا على مغادرة الأندلس في فترات متعاقبة ، ابتداء من السنوات الأولَى للقرن السابع عشر الميلادي ، وقد هاجر معهم عدد كبير من اليهود .

وتقاطر الموريسكيون على عدة أقطار إسلامية كمصر والشام وتركيا ، ولكن إفريقيا الشمالية استقبلت أكبر عدد منهم ، سيما شمال تونس وشمال المغرب ، وتعرض كثير منهم للنهب وسبي بناتهم من قِبل الأعراب ، قبل أن يتمكنوا من الاستقرار نهائياً بالمراكز التي اختاروها ، وتوجهت فئة منهم إلى تطوان التي كانت بها جالية أندلسية قدمت في عهد الوطاسيين ومارست الجهاد البحري منذ مطلع القرن 10هـ/16م، وكانت تطوان توجه في نفس الوقت حملاتها ضد البرتغال المجاورين لها بسبتة وطنجة وأصيلا .

أما أهم مركز استقر به الموريسكيون فهو الرباط وسلا حيث قاموا بنشاط عظيم في غزو البواخر الأجنبية والاستيلاء عليها .

---

(2) De Chénier, Recherches historiques p. 370

وكان المغاربة يطلقون على جميع المسلمين واليهود القادمين من الأندلس نسبة الأندلسيين. وكان الموريسكيون على جانب عظيم من الحضارة، متفوقين في الميدان العسكري والعمراني، وقد قدموا إلى المغرب وغيره من الأقطار الإسلامية يحملون شعوراً مزدوجاً بالحنين إلى وطنهم الأصلي والتشبث بدينهم وتقاليدهم، وكان اختلاف الأوضاع الاجتماعية عما ألفوه في إسبانيا يحدو بهم إلى حب الانعزال والتكتل وكراهة الخضوع لغيرهم، وكانت لهم مهارة خاصة في الفلاحة والصناعة، وبفضلهم شهدت إسبانيا نمواً كبيراً في حاصلاتها الزراعية ومنتجاتها الصناعية من ثياب وأوان وزجاج وزيت وغير ذلك مما كانت هذه البلاد تصدره إلى الخارج، حتّى إن إسبانيا بعد طردها للموريسكيين قد تأخرت كثيراً في زراعتها وصناعتها، ولولا الذهب الذي درته عليها أمريكا ثم دولاراتها في الفترة الأخيرة لاستمرت إسبانيا تشهد تضعضعاً كبيراً في اقتصادها وتأخراً مذهلاً في مجتمعها.

وقد استخدم الملوك السعديون كثيراً من الموريسكيين في الجيوش المحاربة في السودان والمغرب، على الرغم من أن العنصر الموريسكي لم يقم على إخلاص دائم للدولة كما سيتضح ذلك في هذه الدراسة.

جمهورية الرباط – سلا:

كان القادمون من الموريسيكيين إلى البلاد الإسلامية:

1) من بلنسية، وهم أول من قرر في حقهم الطرد سنة 1609م.

2) من قشتاله وإسترامادور (Estramadura)، وكان بين الوافدين من هذه الناحية موجة وردت من حرناشو **Hornacho**، وهي مدينة في الجنوب الشرقي لماردة، وكانوا يزوّرون العملة الإسبانية وغيرها، ولما خشوا من معاقبة محاكم مدريد، هاجروا طواعية إلى الرباط، فاستقروا به أواخر 1609م.

3) من أراغون وجنوب الأندلس سنة 1610م.

4) من قطلونيا سنة 1611.

5) من مرسية سنة 1614.

وقد استقر الحرناشيون بقصبة الأوداية، فانضموا بذلك إلى الجالية الأندلسية التي هاجرت إليها من قبل، ثم استقدموا موريسكيين آخرين من مختلف نواحي المغرب، وعمروا مدينة الرباط، كما استقر عدد منهم بسلا.

وكان الحرناشيون ذوي ثروة ضخمة ، ومهارة في استعمال الأسلحة النارية ، مما جعل زيدان بن المنصور يجند منهم حوالي أربعمائة لمحاربة أبي حسون السملالي في ناحية درعة ، وبما أن السلطان السعدي أبطأ في أداء رواتبهم فقد فروا من الجيش عائدين إلى الرباط وسلا ، وبمجرد استقرارهم أخذوا يمارسون عمليات اعتراض السفن المسيحية والاستيلاء عليها ، ويقدمون عشر مواردهم إلى السلطان زيدان الذي اعترف لهم بهذه الطريقة ، بممارسة العمليات المذكورة ، ولكن عدم مساعدتهم له عسكرياً ، جعلته يلجأ إلى الغض عن هجوم العياشي على جمهوريتهم .

وكانت علاقات مجاهدي هذه الجمهورية مع إخوانهم مجاهدي الجزائر طيبة ، بل علاقة تعاون[3] ،فكثيراً ما انطلقت سفنهم في أسطول واحد لمهاجمة السفن الأجنبية في عرض البحر ، وكانوا مع هذا يتبادلون الزيارات ، وكثيراً ما لجأ مجاهدو الجزائر بسفنهم إلى العرائش يتزودون بالمواد ويصلحون سفنهم في ترسانتها .

وكان الأندلسيون قبل قدوم الحرناشيين يقبلون سلطة القائد الذي تعينه الدولة ، دون أن تكون له عليهم سلطة حقيقية . ولما قدم الحرناشيون سكان قصبة الأوداية ، اختلفوا مع سكان سلا ثم كونوا في الأخير مجلساً للحكم نصف أعضائه من الرباط والنصف الآخر من سلا بعد أن استبد الحرناشيون بالحكم لفترة . وهكذا تكونت جمهورية حقيقية بحوض أبي رقراق ، ابتداء من 1614م ، وكان من حق ديوان الجمهورية تنفيذ جميع العقوبات إلا الإعدام الذي كان البت فيه راجعاً إلى السلطان .[4]

2– النزاع بين العياشي وجمهورية الرباط – سلا :

محمد بن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي ينتمي إلى أسرة بني مالك بن زغبة من قبائل بني هلال التي استوطنت المغرب ، وهو تلميذ عبد الله بن حسون أحد أولياء سلا . وفي سنة 1013هـ بُعيد وفاة المنصور استقر بناحية آزمور ، حيث شاع هناك فضله ورغبته في الجهاد حتّى ولاه زيدان قيادة آزمور وناجيتها بناء على طلب السكان ، وهناك تصدى لحرب البرتغال الذين كانوا يقيمون بالجديدة ، فوفق في الحصول على غنائم كثيرة منهم ، كما كان يبعث بالأسرَى منهم إلى زيدان . ولكن

(3) Coindreau, Les corsaires de Salé, p. 48

(4) Ibid. p. 63

حاشية السوء أوعزت الى السلطان بالقضاء عليه حتّى لا يتسع نفوذه ، فبعث زيدان أربعمائة فارس بقيادة محمد السنوسي ، ولكن القائد أشفق عليه فأشار عليه بالافلات ، وحينئذ انسحب العياشي إلى سلا من جديد ، فاجتمع عليه سكانها وحثوه على أن يقود حركة الجهاد ضد البرتغال الذين كانوا يحتلون المعمورة ، ويجرأون على التحرك بناحية الغرب حتّى وادي المخازن ، كما كانوا ينبثون بالغابة المجاورة ويقتطعون خشبها ويستصلحونه لحاجياتهم كصناعة السفن وغير ذلك ، ووفق في حملته الأولى إلى أن يقتل منهم عدداً كبيراً ، فلم يجرأوا على مغادرة المعمورة . وحينئذ أمر زيدان قائده الزعروري بالقبض على العياشي ، ولكن الزعروري لم يعجل بذلك ، بل أطلق عليه جماعة من الجواسيس لتتبع حركاته ومعرفة نواياه ، وأثناء ذلك جرى نزاع بين الجالية الأندلسية وقائد سلا ، حيث رفضوا المشاركة في حملة جديدة وجهت إلى درعة ، ونهبوا دار القائد ، ثم قتلوا خلفه عجيباً . أما العياشي فقد انسحب إلى داره ملازماً للصمت، فتواردت عليه الشكايات من التجار والمسافرين الذين صاروا عرضة للنهب ، وكانت سلا قد أصبحت بدون وال ، فطلب منهم العياشي ومن رؤساء القبائل الوافدين أن يوقعوا له ميثاقاً يلتزمون بموجبه بمساعدته وترشيحه عن طواعية لتدبير شؤونهم . وهكذا ضمن العياشي لنفسه وجوداً قانونياً كحاكم سياسي وإداري يمتد نفوذه من تامسنا[5] إلى تازا ، ثم هاجم البرتغال بالمعمورة ، كما هاجم العرائش والجديدة وطنجة .

الحرب بين العياشي وحركة الجهاد البحري :

ومعظم حملاته كان يساعده فيها قبائل العرب ، أما الموريسكيون فقد عملوا في أغلب الأحيان لحسابهم في عرض البحر حتّى تفاقم خطرهم على السفن الأجنبية واضطر القبطان الانجليزي **Mainwaring** إلى أن يفاوضهم في شراء كل أسرى المسيحيين . وكانوا يبلغون في تحركاتهم شواطئ إسبانيا ويحملون الأعلام الإسبانية فيخدعون السفن التي تصادفهم . وفي الواقع لم يكن المسلمون وحدهم يحتكرون تجارة الأسرى ، فقد كان الجنويون يزودون بلاط الشراكسة والبلاط المغربي بالنساء المسيحيات ، بينما كان أرباب السفن من الجنويين أنفسهم يخدمهم بربريات[6] .

أما موارد الحركة الجهادية فكانت تقتسم هكذا : عشرة في المائة لديوان سلا ،

(5)اليفرني ، نزهة الحادي ، ص 440.

(6) Coindreau, Les Corsaires de Salé, p.27

و 45 في المائة لصاحب المركب أو رئيسه ، و 45 في المائة للربان وقائد المدفعية والجراح والبحارة والضباط . وعندما يخضع المجاهدون مباشرة للسلطان ، يتقاضى منهم الخمس ، ثم نصف الباقي بوصفه صاحب المركب ، والبحارة والضباط يقتسمون النصف الآخر(7).

ولقد كان السلطان زيدان يشجعهم وكان معجباً بنشاطهم حتّى لقد فكر أن يعهد إلى أحدهم وهو يوسف بسْكاينو بقيادة تافيلالت أو السودان ، ثم رغب أن يستفيد من مواهبهم العسكرية ، فجند منهم كما تقدم حوالي أربعمائة لمحاربة أبي حسون ، ولكنهم رفضوا التجنيد في حملة ثانية ، وعمدوا إلى قائد سلا فقتلوه سنة 1034هـ (1624) ، حتّى إذا أصبحوا سادة البلد طردوا سكانه الأصليين ، وكوّنوا مجلساً سموه بالديوان ، وعينوا حاكماً ينتخب لمدة سنة .وكانت انجلترا أول من اعترف بالجمهورية الجديدة ، مما جعلهم يحررون أزيد من 190 أسير انجليزي ، وكان دور الحرناشيين كما سلف بارزاً في نشاط هذه الجمهورية ، وقد رحب العياشي بثورتهم على السلطان زيدان ، بينما ساعدوه من جهتهم على مهاجمة الإسبان مدة ، ثم ملوا مواصلة الحرب إلى جانبه ، واختاروا البقاء مستقلين .

وفي سنة 1039هـ (1630م) توصل الحرناشيون والأندلسيون إلى اتفاق يقضي بأن يقطن القائد المنتخب بالقصبة وأن ينتخب كل من الطرفين نصف أعضاء الديوان على أن يجتمعوا كافة بالقصبة .

وأثناء مهاجمة العياشي للمعمورة تأكد له أن الموريسكيين لم يكونوا متحمسين لمحاربة النصارى ، وأنهم على العكس من ذلك كانوا يبطلون خططه ويقدمون إليهم المؤونة حتّى استصدر فتوى بجواز مقاتلتهم بعد أن لاحظ خيانتهم .

وكان ممن أفتى بذلك الشيخ العربي الفاسي والشيخ عبد الواحد بن عاشر الذي لمس عن كثب موقفهم . وهكذا اضطر إلى أن يعلن عليهم الحرب خصوصاً بعد أن رفضوا أن يمدوه ببعض المدافع لمهاجمة المعمورة ، وحينئذ اقتحم سلا القديمة سنة 1040هـ (1631م)، وبقي يحرس الميناء بينما استقر ولده بشالة دون أن يكون لتدخله نتائج إيجابية . إلا أن تولية الوليد في نفس السنة جعلتهم يفضلون الخضوع لحكمه ومهاداته ، وكان هو نفسه من أم اسبانية ، ولكن حصار العياشي

---

(7) Op. Cit, p.64

للموريسكيين لم يزدهم إلا عناداً ، وقد أمدهم الإسبان بالمؤن أما العياشي فأخذ يخفف من ضغطه عليهم شيئاً فشيئاً عاملاً على استرجاع ثغور أخرى .

وفي سنة 1045هـ (1636م) حدث نزاع بين الحرناشيين والأندلسيين الذين طردوا هؤلاء من القصبة ، فالتجأوا عندئذ إلى العياشي ، ولكنه كان مشغولاً في جهات أخرى ، مما جعل حاكم سلا الجديدة عبد الله بن علي القصري ينتهز الفرصة للاستيلاء على سلا القديمة . وأثناء ذلك قدمت بواخر انجليزية لحصار الموريسكيين بعث بها ملك انجلترا شارل الأول لفك عدد من أسرى بلاده ، ثم زحف محمد الشيخ الصغير في نفس السنة المذكورة متجهاً نحو الرباط وسلا . أما العياشي فقد اكتفى بتخريب نواحيها واعترض جيوش السلطان التي لم تتمكن من تجاوز فضالة . وفي سنة 1046هـ (1637م) انقسم قراصنة أبي رقراق إلى ثلاث فرق : إحداها مستقلة بزعامة القصري ، والثانية تناصر السلطان ، والثالثة تناصر العياشي ، وأخيراً اعترف القراصنة جميعاً بسيادة السلطان الذي عفا عن القصري ورده إلى قيادته . أما العياشي فقد اشتبك في حرب مع نصارى الجديدة وقتل حاكمهم في إحدى المعارك سنة 1640م ، ثم عاد إلى محاربة الموريسكيين الذين التجأوا إلى الاستنجاد بالدلائيين ، وبعد محاولات سلمية قام بها الدلائيون لإقناع العياشي بالعدول عن قتالهم اشتبكوا معه في حروب متواصلة إلى أن هزموه بأزغار ، فالتجأ إلى الخلط الذين اغتالوه[8] سنة 1051هـ (1641م). وأصبحت سلا والرباط تحت سلطة الدلائيين إلى أن خضعت للدولة العلوية . ومع ذلك فقد استمر الموريسكيون يباشرون حركة الجهاد البحري إلى أواسط القرن التاسع عشر.

ولقد نشط الأندلسيون للجهاد في مراكز أخرى غير أبي رقراق ، ولا سيما أهل تطوان الذين كانت لهم علاقات دبلوماسية وتجارية مع عدة دول أجنبية . إلا أن القضاء على حكم أولاد المنظري ثم أولاد النقسيس لم يمكنهم من الاستمرار في نشاط الجهاد على غرار أندلسي أبي رقرار الذين كونوا رأسمال الحركة بفضل الثروات الطائلة التي قدموا بها من اسبانيا .

قوة غزاة البحر :

لم تكن لدى موريسكيي أبي رقراق فيما ترويه بعض الوثائق أكثر من أربع بواخر

(8) دفن العياشي رحمه الله بفشتالة .

سنة 1617م (1026هـ) ثم أصبحت في سنة 1036هـ (1626م) تبلغ الستين.
وقد اقترح قائد أسطول فرنسي على ريشيليو وزير فرنسا المشهور أن يسمح بإغراق باخرة فرنسية في حوض ميناء أبي رقراق حتَّى يضطر السلطان إلى عقد اتفاق مع فرنسا من شأنه أن يوقف القرصنة الموريسكية التي كانت حسب هذا القائد تستولي على أكبر عدد من البواخر الفرنسية بالقياس إلى مراكز القرصنة الأخرى. وهكذا يضطر القراصنة إلى تحرير الأسرى الفرنسيين، وعلى الرغم من أن الأسطول الفرنسي طبق هذه الخطة فعلاً فإنها لم تؤد الى نتيجة.

ثم نزل عدد البواخر الأندلسية إلى 22 سنة 1044هـ (1635م) وإلى عشرين سنة 1058هـ (1647م)، وكانت بواخرهم تجلب في الغالب من أوروبا، كما كانوا يصنعون عدداً منها بمساعدة الهولنديين في عين المكان، وكانوا يصلون في مغامراتهم إلى الشواطئ الإنجليزية ويهاجمون السفن الأجنبية على غرة لأنها تأمن جانبهم حيث كانوا يرفعون الأعلام الإسبانية وغيرها إيهاماً.

علاقة الموريسكيين بالنصارى :

كانت للموريسكيين علاقات دبلوماسية مع كل من هولندا وفرنسا وانجلترا، وقد كان لليهود دور بارز في السمسرة التجارية بين الموريسكيين وهولندا، وكان هؤلاء يضايقون أشد مضايقة سائر المراكب التي تخرج للصيد في عرض المحيط الأطلسي، مما جعل فرنسا تفكر في عهد لويس الثالث عشر أن تؤمن سلامة صيدها بحراسة قوية كل سنة، تمنع خروج المجاهدين من سلا أيام الصيد، ولكن فرنسا اضطرت إلى أن تعقد اتفاقاً في عهد لويس الثالث عشر سنة 1038هـ (1629م) و 1039هـ (1630م) يقضي بإرجاع كل باخرة احتجزها أحد الطرفين من الآخر، وأن تفتح موانئ كل من الفريقين لتجارة الطرف الآخر، ويسمح باستقرار قنصل فرنسي بالرباط، ولا يباع الأسرى الفرنسيون بسلا.

ومنذ سنة 1626م قدم مبعوث عن البلاط الإنجليزي واسمه جون هاريسن بقصد الاتصال بالمجاهدين حول القيام بهجوم مشترك ضد اسبانيا، وكان ملك انجلترا في ذلك الوقت هو جاك الأول، وكان ضمن شروط الاتفاقية تحرير أسرى الانجليز وتسليم أربعة عشر مدفعاً مع ذخيرة إلى المجاهدين، وقد عاد المبعوث في السنة الموالية يقدم ستة مدافع وكمية من الذخيرة، ولكن قضية الحلف ضد اسبانيا

لم تقبلها الحكومة البريطانية التي لم ترتح إذ ذاك لمساعدة المجاهدين الذين كانوا قد قطعوا علاقتهم مع السلطان زيدان ، وحينئذ تم تحرير أسرى الانجليز بعد أن توصلت جمهورية أبي رقراق في مقابل ذلك بالاسلحة المتفق عليها .

وفي عاشر ماي 1036هـ (1627م) تم الاتفاق بين الجمهورية وجون هاريسن على أن تفتح كل من موانئ الطرفين لترويج بضائع الطرف الآخر مع عدم التعرض لسفن أي منهما والتزام انجلترا بتحرير جميع الموريسكيين الأسارى بمملكتها ، وتعهد جمهورية أبي رقراق بمساعدة انجلترا حربياً على أعدائها . وكان الذي أمضى الاتفاق على الجمهورية إبراهيم بركاش ومحمد باركو ، غير أن شارل الأول رفض توقيع الاتفاق . ولم يمض قليل حتَّى استولت السفن الانجليزية على باخرة للمجاهدين ، ورد الموريسكيون بالاستيلاء على عدد من البواخر الانجليزية ، وعلى الرغم من أن جون هاريسن عاد إلى المغرب يؤكد باسم ملكه أنه يتبرأ من مسؤولية تصرفات السفن الانجليزية التي استولت على الباخرة الجمهورية ، فإن المجاهدين قد اشتد غضبهم على المبعوث حتَّى رفضوا أن يسمحوا له بالنزول من باخرته ، وقد قضَى جون هاريسن ست سنوات في التردد بين أبي رقراق وبلاده (من سنة 1626 — 1631) حتَّى يعمل على تحسين العلاقات بين الجانبين ، ولكنه لم يوفق إلى ذلك كثيراً .

ولقد وصف قبطان انجليزي يدعى جون سميث في رحلة له عن المغرب ما كانت تعانيه السفن الانجليزية من مجاهدي أبي رقراق ، حتَّى لقد كان لكثير من العائلات الانجليزية أقارب أو أصدقاء في الأسر لدى هؤلاء ، وكانت تقام صلوات عمومية من أجلهم ، وتلقى الخطب استدراراً للعطف عليهم .

وقد كانت حركة الجهاد البحري التي يسميها الأوروبيون بالقرصنة كسائر أنواع القرصنة نشاطاً دولياً ذا طابع قومي لدى مجاهدي المغرب الإسلامي ، وفي الوقت ذاته ، كان القرصان لا يراعي مصلحة وطنه في أي بلد كان ، بل يعتز بانتمائه إلى أسرة القراصنة أكثر مما يعد نفسه انجليزياً أو هولندياً أو فرنسياً أو اسبانياً بل حتَّى مسيحياً أو مسلماً[9].

---

(9) مجموعة دوكاستري — هولندا مجلد 1.

3 – الدلائيـون[١٠]

الدلائيون نسبة إلى دلاء ، قبيلة من صنهاجة ، ومنها فخذة آل مجاط الذين كانوا يقطنون أعالي وادي ملوية ، ثم استقر جدهم أبو بكر بن محمد المجاط الملقب بالوجاري والزموري بتادلا حيث بنَى الزاوية الدلائية المشهورة وذلك بشرقي خنيفرة في قبيلة آيت اسحاق . وكان رئيس الزاوية يسمى أحياناً صاحب جبل دَرَن . وقد ولد أبو بكر هذا سنة 943هـ (1536م) ولمع نجمه في عهد المنصور ، وكان ذا فضل وعلم ، فأصبحت زاويته ملجأ لرجال الدين ، وبدأت الوفود تتوارد عليه حتَّى اشتهر أمره . ومع أن المنصور لم يرق له ظهور الدلائيين ، فقد أبدى عطفه على حركتهم كرجال دين ، ولكن سرعان ما اتخذت هذه الحركة اتجاهاً سياسياً بعد موت المنصور . وكانت وفاة أبي بكر هذا سنة 1021هـ (1612م) ، ومن تلاميذه أحمد ابن يوسف العياشي، وقد اشتهر أبو بكر الدلائيُّ بكرمه.

محمد بن أبي بكر (1021 – 1046هـ/1637م)

خلف محمد والده أبا بكر وقد توفي سنة 1046هـ (1637م) بعد أن عاش حوالي ثمانين سنة . وفي أيام محمد بن أبي بكر امتد نفوذ الدلائيين إلى جنوب الأطلس الكبير ، وطلب بنو الزبير من تبوعصامت بتافيلالت أن يساعدوهم ضد مولاي الشريف وسيدي علي بن محمد السملالي ، غير أن الجيشين تقابلا عند سجلماسة من غير قتال سنة 1041هـ (1632م).

ولقد أصبحت الزاوية الدلائية في عهد محمد بن أبي بكر مركزاً سياسياً ودينياً وعلمياً في آن واحد . وكانت الدراسة لا تنقطع بها . أما ثقافة محمد بن أبي بكر فكانت تتناول خصوصاً العلوم الدينية ، حيث نبغ في التفسير والحديث والفقه ، واتصل به عدد من كبار العلماء كمحمد ميارة وابن عاشر وأبي العباس المقري . وكان سكان المغرب يتواردون عليه في عيد المولد فتلقى بين يديه القصائد والأمداح النبوية ويجيز عليها .

---

(10) انظر Sources inédites لدوكاستري (فرنسا مجلد 3) ــ La petite hist. du Maroc لكاييي ج 1 ــ البدور الضاوية مخطوط خزانة عامة بالرباط رقم 1454 ــ نشر المثاني ــ Historia del Rif. وقد صدرت منذ سنوات دراسة جديدة عن الدلائيين للسيد محمد حجي من أساتذة الجامعة بالرباط (ثم عميد كلية الآداب بها)

محمد الحاج (1046 ـ 1079هـ/1637 ـ 1668م)

هو أبرز رؤساء الزاوية وأطولهم عهداً ، لقب بالحاج لأنه حج مراراً مع والده وجده ، وقيل إنه أمَّ بالناس مرة في يوم عرفة ، وهو ابن محمد بن أبي بكر .

وفي عهده امتدت سلطة الدلائيين إلى مكناس وفاس وكل مناطق تادلا ؛ وهو الذي هزم جيش محمد الشيخ الأصغر في بو عقبة سنة 1050هـ . وقد توافد عليه الأندلسيون من سلا فارين من انتقام العياشي الذي استصدر فتاوي بتكفيرهم . ولما انتصر العياشي على جيش البرتغال سنة 1640م ، زحف نحو سلا فطلب الأندلسيون مساعدة الدلائيين الذين حاولوا فض النزاع سلمياً بين العياشي والأندلسيين ، ولكنه تمسك بقتالهم ، فأشهر عليه الدلائيون الحرب ، وبعد انتصارات متعددة كسبها العياشي هزموه في أزغار ، ثم اغتاله الخلط سنة 1051هـ كما تقدم . وهكذا تمكن محمد الحاج من الاستيلاء على سلا وأكثر ناحية الهبط ، وأنزل حامياته بأصيلا والقصر الكبير وسلا التي أنزل بها قوة كبيرة لمراقبة الأندلسيين ومهاجمة نصارى المعمورة ، واستعمل عليها ولده عبد الله الحاج .

وأثناء ذلك ، كان العلويون يمدون نفوذهم إلى أعالي وادي ملوية ، وبعد معارك متوالية ألجأهم الدلائيون إلى سوس سنة 1050هـ (1641م) فأصبح محمد الحاج سيد تافيلالت ودرعة والصحراء ، ثم حاول الفريقان أن يخططا حدوداً تفصل بين مناطق نفوذهما وهي أن يكون ما بين الصحراء وجبل عياش في ملك العلويين ، وما وراء الأطلس الكبير في ملك الدلائيين ، ولكن ما لبث النزاع أن احتدم من جديد بعد أن نشبت ثورة بفاس على عامل الدلائيين أبي بكر التاملي ، فاستغاث سكان فاس بمولاي محمد الشريف ، ولكن سرعان ما انهزم أمام محمد الحاج الذي عين على المدينة عاملاً جديداً هو ابنه أحمد سنة 1061هـ، وقد ضبط شؤونها هو وأخوه الذي ولي بعده.

وفي هذه الأثناء ظهر الثائر الخضر غيلان أحد رفقاء العياشي، بالهبط واحتل القصر الكبير سنة 1063هـ، وتتابعت قبائل الغرب تخضع لنفوذه، بينما قتل مولاي محمد في معركة مع أخيه مولاي الرشيد سنة 1075هـ بعد أن اغتيل بمراكش آخر ملوك السعديين سنة 1069هـ، ثم سقطت فاس في قبضة مولاي الرشيد سنة 1076هـ. واشتبك الدلائيون في حروب متوالية مع الرشيد إلى أن احتل زاويتهم سنة 1079هـ (1668م) وبقي محمد الحاج مكرماً مدة بفاس إلى أن ذهب هو وأسرته إلى تلمسان

بطلب من السلطان رشيد. وكانت وفاته بتلمسان سنة 1082هـ، ودفن بضريح محمد السنوسي. وهكذا قضت أسرة الدلائيين قرابة ثلثي القرن الحادي عشر في حكم جزء كبير من المغرب. وكانت جهودها السياسية تمثل آخر محاولة لاعادة صنهاجة إلى الحكم، بعد محاولات بني غانية وبني وطاس (إذا ثبت أن الأخيرين صنهاجيون وهو ما نرجحه).

وقد أمكن للدلائيين بفضل نفوذهم على عدد من موانئ المغرب خصوصاً ميناء أبي رقراق أن يعقدوا بعض المعاهدات مع دول أجنبية وخصوصاً هولندا التي كانت قد اتسعت تجارتها الخارجية في هذه الحقبة.

* * *

5 – عوامل سقوط الدولة

لقد توافر من عناصر سقوط الدولة السعدية أكثر مما توافر في عهد الدول الماضية . فقد تفاقم خطر التدخل الأجنبي براً وبحراً ومن كل جهات المغرب عدا الجنوب . ولم يكن يكفي في هذه الظروف أن تتولّى شخصية ذات كفاءة عليا أمر الملك لتصلح البلاد ويلتئم شملها . بل كان لابد مع ذلك أن تخف أطماع الدخلاء لتتفرغ هذه الشخصية المرموقة للشؤون الداخلية ولكن الدولة السعدية مع الأسف لم تسعفها الظروف لا بملوك أكثرهم أهل للملك ، ولا بالأمن من كل خطر أجنبي . وهنا ما يمكن بسطه فيما يلي :

1) مشاكل العرش :

كل الملوك السعديين قبل المنصور اهتموا بوضع الأسس الحقيقية للدولة ولكن المتوكل أحدث مشكلة وراثة العرش قبل أن تقف الدولة على أقدامها . وأخطر من ذلك أنه لجأ في حلها إلى التدخل المسيحي . أما المنصور فعلى الرغم من الأمجاد التي حققها في مختلف الميادين ، أساء إلى الدولة نفسها بتوليته العهد أحد أسوأ أبنائه سيرة ، ففتح بذلك خرقاً استحال رتقه ، وقضت الدولة قرابة نصف عمرها في نزاع مسلح على العرش منذ وفاة المنصور ، وهذا النزاع عطل كل جهود الدولة تقريباً عن العمل السلمي المجدي وعن مواجهة المحتلين الدخلاء ، وكان تقسيم المغرب بين أبناء المنصور أكبر مشجع لهم على التمرد وعدم الامتثال للملك المنصب .

2) الاعتماد على العلوج في الجيش :

كانت القيادة العسكرية كثيراً ما توكل إلى العلوج ومن على شاكلتهم كالمملوك عجيب وجوذر وأشباههما . وكان في الجيش عناصر مسيحية كثيرة من عدة أجناس ، مما جرأ أدعياء العرش على أن يستنجدوا مراراً بالمسيحيين ، وبذلك فقدت الثقة في العناصر الوطنية التي كانت توجد في الغالب تحت قيادة أتراك أو مرتزقة من أصل مسيحي . وقد رأينا كيف كان مصير عدد من ملوك هذه الدولة على يد الأتراك كمحمد المهدي وعبد الملك بن زيدان ، والوليد بن زيدان . أما الأتراك فكان منهم

كثير في الجيش ، وهم أيضاً قاموا بدور ملحوظ في الدس للدولة وإحباط كل خطة تهدف إلى تقويتها وتركيز دعائمها كما فعلوا في تسميم عبد الملك المعتصم والاتصال سراً بأتراك الجزائر وقتل المهدي الشيخ .

3) التدخل الأجنبي

كان التدخل الأجنبي من عوامل قيام الدولة ، كما كان من عوامل سقوطها أيضاً فمنذ بدأ القائم بنشاطه السياسي تصدى لحرب البرتغال الذين لم يتوقف الصراع ضدهم إلا في عهد المنصور لستأنف بعده على يد الصوفية . وقد تبنَّى فيليب الثاني سياسة الدس والحقد التي سلكها البرتغال من قبل ومن بعد ، فدبر مع الثائر محمد الشيخ الخطة لـلاستيلاء على العرائش . ثم استولى فيليب الثالث على المعمورة . وتعاون الإسبان أحياناً مع الموريسكيين على حساب المغرب ، ولولا محمد العياشي والدلائيون لفقد المغرب كل مؤانئه على الأقل . أما الباب العالي فلم يستطب أن يشذ المغرب عن الاعتراف بالسيادة العثمانية ، وراح يدبر المكيدة لقتل المهدي بينما غزا جيشه أرض المغرب سنة 965هـ من غير أن يحالفه الحظ ، ولكن المنصور وأخاه عبد الملك اضطرا إلى الاستنجاد به لخلع المتوكل سنة 983هـ ، ودخلت القوات التركية من جديد لتخلع ملكاً وترفع آخر إلى العرش . ثم كانت المحاولة الأخيرة من الباب العالي في تهديد عرش المغرب منذ تولية المنصور الذي عرف كيف ينقذ الموقف ، فبادر بتوجيه بعثة ود مصحوبة بأنفس الهدايا إلى الخليفة العثماني ، وتوالت الصعوبات بعد ذلك على العثمانيين الذين انشغلوا بحرب الدول الأوروبية وبصراع الإسبان في الجزائر ، وبذلك أمن المغرب جانب الخطر التركي إلى حين .

4) الحركات الاستقلالية :

كانت الحركات الاستقلالية نتيجة لضعف الملوك عن ضبط شؤون الدولة ومواجهة التدخل الأجنبي ، وبدأت هذه الحركات تبرز إلى الوجود بسبب ثورة أبي فارس ومحد الشيخ ، وعلى كل حال فقد أدت إلى إضعاف هيبة الدولة وحَدت من مواردها ومزقت صفوفها . وعلى الرغم من أن محاولات التمرد ظهرت في عهد المنصور، إلا أن هذا الأخير كاد يقضي عليها في مهدها لولا أنه كان ضعيفاً جداً في موقفه تجاه ابنه محمد الشيخ .

أما باقي حركات الانشقاق فكلها تقريباً كانت تحت قيادة الصوفية. وكان من الصعب في بلد متمسك بتقاليده الدينية كالمغرب أن يبرز فيه زعماء ذوو نفوذ قوي

من غير أن يكون لهم سند ديني، فكان الصوفية والحالة هذه أحق الناس بقيادة الجهاد. وكان كل ثائر لا يستند إلى نفوذ روحي يستحيل عليه أن يجد في أوساط الشعب آذاناً صاغية. ومن المؤسف أن المؤرخين الأجانب كثيراً ما يضعون قضية الصوفية كمشكل سياسي عجزت أكثر دول المغرب عن حله. مع أن الصوفية لايتطور اتجاههم إلى حركة سياسية وعسكرية إلا عندما تختل أوضاع الدولة الحاكمة ويحيد ملوكها عن سبيل الشريعة ويقفون موقفاً سلبياً من خطر التدخل المسيحي مع أن واجبات هؤلاء كانت سياسية ودينية معاً.

ومن الاتجاه الذي اتخذته حركة العياشي والدلائيين وثورة ابن أبي محلي وأبي حسون السملالي نفهم أن هؤلاء جميعاً دفعهم إلى الانفصال منذ البداية لا حب الملك والرئاسة، ولكن أداء الواجب الديني الذي هو إما جهاد النصارى وإما العمل على جمع شتات المسلمين وتوجيههم توجيهاً سليماً في الميدان الروحي بعد أن لمسوا في بعض ملوك الدولة ما لمسوه من سوء أخلاق وخروج عن الفضيلة وهم ليسوا إلا مثالاً للرعية على كل حال.

5) السياسة المالية :

أكثر السعديون من الضرائب التي أثقلت كاهل الشعب. وكان السكان ينتظرون ظهور أول فرصة تسنح ليمدوا يدهم إلى أي شخص يمكن أن يعمل على تخفيف الضرائب عنهم. وقد كانت فاس مثالاً بيناً على ما كان سكانها يأملونه من تغيير في السياسة المالية. وكانت ثورة أهلها تشجع الملوك والحكام على مصادرتهم وإلزامهم بالمساهمة بنصيب عظيم في النفقات العسكرية.



6 – أهمية أعمال الدولة

وقف السعديون بكثير من الشدة في وجه الخطر المسيحي والتركي على السواء، وذلك إلى غاية وفاة المنصور، ووفقوا عدة مرات في صد الهجوم الأجنبي، ويكفي أن معركة وادي المخازن قد اعادت للمغرب اعتباره في الخارج والداخل على السواء.

ولحسن الحظ فإن السعديين لم يبقوا مكتوفي الأيدي أمام تطور الأساليب العسكرية في دول أوربا، فجهزوا جيوشهم بأحدث الأجهزة المعروفة في ذلك العصر، واتخذوا الجيوش النظامية، وعملوا على تدريبها أحسن تدريب.

وكانوا أذكياء في علاقاتهم الديبلوماسية، ففتحوا موانئهم للتجارة الأجنبية، واقتادوا من دول أوروبا آلافاً من الأسرى وتردد مبعوثوهم بين المغرب وتركيا والشرق الإسلامي وهولندا وانجلترا والبرتغال وغيرها، ولكن كان ينقصهم في الغالب وزراء ذوو شخصية يمكنهم أن يحدثوا توازناً في سياسة الدولة كلما بدرت بادرة ضعف وأن يسدوا النقص الذي اتسم به سلوك عدد من الملوك.

وقد كان الملوك الأولون ذوي طموح سياسي عالٍ، فذهبوا في تحركاتهم العسكرية متوغلين في الجزائر وفي وسط افريقيا، فاكتسبوا بذلك مزيداً من الهيبة في الخارج ولو أنهم لم يوفقوا الى طرد النصارى كلياً من المغرب.

واقتبس السعديون عن الأتراك عادات وأنظمة جديدة، فقلدوهم في الزي والاستقبالات والحفلات والتنظيم العسكري. وبلغت التجارة الخارجية أقصَى ما تكون رواجاً إذا قيست بما كانت عليه في عهد دول المغرب الماضية، كما نشطت الحركة الصناعية نشاطاً ملموساً، وضرب الملوك أحسن مثال في الأخذ بنصيب وافر من المعرفة والثقافة، كما شجعوا رجال الفكر وأنشأوا الخزائن ونشروا العلم.

7 – السياسة الداخلية

1) احترم السعديون جانب الصوفية بوجه عام ، ولكنهم عجزوا عن إخضاع أخطر حركاتهم وهي حركة العياشي والدلائيين.

2) بطش عدد من الملوك بأفراد أسرتهم ، وكانوا لا يتورعون عن سفك الدماء أحياناً من غير مبرر.

3) قام السعديون بالتنظيم العسكري لجيوشهم ، ولكنها كانت في الغالب دون الكفاية من حيث العدد ، وكانت العناصر الوطنية تمثل دور التبعية بالنسبة للعناصر الأجنبية ، وأبرز قادة الجيش غير عرب ولا بربر في الغالب.

4) لم يعتمد السعديون على هيئة سياسية وطنية تساندهم في تدبير الشؤون وتشير عليهم بما تقتضيه مصلحة الدولة ، ولسوء الحظ فإن محاولة المنصور لم تتكرر ، إذ من المعلوم أنه أسس مجلساً استشارياً كان يجتمع بصفة دورية ولا نعلم عن مصير هذا المجلس شيئاً بعده.

5) قامت الدولة على عاتق أهل سوس الذين ناصروها بالدعاية وبالرجال والأموال وكانت أول ضريبة فرضها ملك سعدي تؤدى بإقليم سوس ، ولكن السوسيين الذين لم يتحملوا الخضوع لملك غير محظوظ وهو زيدان ، لم يلبثوا أن انقلبوا على الدولة بزعامة أبي حسون السملالي خصوصاً وقد فقد الملوك السعديون كثيراً من الحماس الديني الذي امتاز به الأولون منهم.

6) لم تستند الدولة إلى عنصر قبلي أو مذهبي معين سوى النسب العلوي ، بل استندت إلى العون الإقليمي الذي أمدها به السوسيون كما تقدم.

7) قامت سياسة الدولة المالية على توحيد الضرائب وأداء قيمتها بالعملة ، وكان هذا إصلاحاً جذرياً ، ولكن فداحة الضرائب وكثرتها أثارت أزمات اقتصادية وأغضبت السكان الذين كانوا ضحية لمطامع بعض الملوك.

8 - علاقات المغرب الخارجية[1]

I) مع البلاد العربية :

كان المنصور السعدي أكثر ملوك دولته اهتماماً بربط العلاقات مع الدول العربية بوصفها دولاً إسلامية. وكان في جملة مَن وَفد عليه بعد انتصار المغرب في معركة وادي المخازن وفد عن مصر وآخر عن تونس بقصد التهنئة . وكان المنصور لبقاً فمتن علاقاته بمصر عن طريق استجازة علمائها ليكتسب بذلك مزيداً من السمعة . وكان ممن أجازه الإمام محمد البكري وبدر الدين القرافي ، وقد أورد الناصري نص إجازة الأول ، وبعضاً من إجازة الثاني فلا حاجة إلى نقل ذلك هنا ، وقد كانت له معهما مراسلات عديدة حتَّى كان يخبرهما بفتوحاته ، وقد أوصاهما مرة بمساعدة بعض من بعثهم لشراء كتب لخزانته .

كما كتب إلى أمير مكة والحجاز حسن بن أبي نمى إيصاء لصالح رئيس الركب المغربي في الحج ، ومما جاء في هذا الخطاب بعد الديباجة :

«...هذا وإن شيخ الركب المغربي وهو المرابط الخيِّر الحاج محمد بن عبد القادر ، لما أزمع إلى المعاهد الشريفة الرحيل لتجديد رسم الطاعة الذي ليس بعافٍ ولا محيل ، وهبّ له من محارم الله نسيم جميل ، وآن للمطايا أن تعمل الوخد والذميل، مَدَّ لِعَلِيِّ مقامنا أكف الرغبة في كتاب كريم يتشرف بحمله، ويتعرف منه السعادة بحول الله في مرتحله وحله ، يتضمن الإيصاء به إليكم في المورد والمصدر ، ومدة مقامه من جواركم بحرم الله تجاه البيت والمشعر ، فحملناه هذه العجالة لترعوا له إن شاء الله عنها الحق المعتبر ، وتولوه من جانبكم بما يصدق به الخبر وتُدنوا له من آماله قطوف كل فن مهتصر...»

---

(1) أنظر كتاب الاستقصا — درة الحجال لابن القاضي — النفحة المسكية للتمكروتي — تاريخ تطوان للأستاذ داود — مجلة تطوان —

Histoire du Maroc (Terrasse)-Hespéris- la Petite Hist. du Maroc (J. Caillé). Sources inédites (De Castries)

نزهة الحادي لليفرني — معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بنعبد الله —

Le Bel : Les Voyageurs français-Ch. André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord.

ثم طلب منه بعد هذا أن يدعو له بالبيت الحرام ، ومما ورد في ذلك قوله :

«...أن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دينه على الدين كله ، ويسهل لنا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها ...».

والفقرة الأخيرة تؤكد ما كان للمنصور من رغبة ملحة في فتح الأندلس وفي توسيع فتوحاته بوجه عام .

وممن ترددوا من المغاربة على البلاد العربية بقصد الدراسة :

1) محمد بن علي الدادسي (999هـ) وقد درس على الصفوي المقدسي .

2) أبو القاسم بن سلطان وهو قسنطيني الأصل ، وقد درس بالمغرب على أحمد المنجور وبالمشرق على أبي زيد التاجوري وأبي الحسن البكري وغيرهما .

3) محمد الجزولي الدرعي سفير المنصور (988هـ) درس على ابن فهد في مكة وعلى محمد العلقمي ونجم الدين الغيطي بمصر.

2) مع الدولة العثمانية

دشنت العلاقات العثمانية المغربية بعهد محمد الشيخ المهدي منذ أن التجأ أبو حسون الوطاسي إلى الجزائر ، فعمد محمد المهدي إلى غزو تلمسان سنة 957هـ (1551م) ، وكان رد الأتراك أن احتلوا فاساً في صفر 961هـ ونصبوا أبا حسون ، ولكن لم يلبثوا أن انسحبوا بعد أن حصلوا على تعويضات هامة . وفي سنة 964هـ (1557م) تمَّ اغتيال محمد المهدي على يد جماعة من فتاك الأتراك الذين أرسلهم السلطان سليمان القانوني وساعدهم على ذلك ضابط التحق من الجزائر لنفس الغاية بجيش المهدي . وكان السلطان العثماني قد بعث إليه بوفد يهنئه بملك فاس ويطلب منه الدعاء له على منابر المغرب ، فأنف من ذلك ورد الوفد أسوأ ردّ . والواقع أن تركيا حاولت منذ عهد سليمان القانوني أن تقضي على الملوك السعديين أو على الأقل أن تخضعهم ، وظلت على ذلك مدة مائة سنة وكانوا يعرضون مساعيهم الحميدة لمجرد نزاع تافه عن طريق العون المادي ومقابل صك اعتراف بسيادة الباب العالي[2] .

(2) Auguste Cour, L'établissement des dynasties des Chorfas au Maroc, P. 155

وقد هاجم الأتراك المغرب بقيادة حسن بن خير الدين باشا ولكنهم انهزموا عند وادي اللبن وذلك في عهد الغالب سنة 965هـ ، ولم يقبل الغالب بدوره الاعتراف بالخلافة العثمانية .

أما عبد الملك وأحمد المنصور (أخوَا الغالب) فقد التجآ منذ وفاة والدهما إلى البلاط العثماني الذي أمدهما بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل من أتراك الجزائر ، وبفضل هذا الجيش احتل عبد الملك فاساً ، بينما انسحب الأتراك مقابل تعويضات التزم الأخوان من قبل بأدائها وكان ذلك سنة 983هـ.

وقد دشن المنصور علاقاته بالبلاط العثماني كملك بمجرد تنصيبه ، فكتب يبشره بهزيمة المسيحيين في معركة وادي المخازن سنة 987هـ ، وحينئذ بعث إليه السلطان مراد بتهانئه التي حملها وفداً خاصاً مع هدية هي عبارة عن سيف صقيل محلًّى. ولما كانت الوفود الأخرى قدْ قدمت بهدايا أعظم وأهم ، فإن المنصور لم يراع مقام الوفد العثماني ، وكان من عادة المنصور أن يتقبل الهدايا ويحتفل لذلك أعظم احتفال . وقد أغضب هذا الموقف الخليفة العثماني خصوصاً وقد أوعز إليه الرئيس علي علوج قائد الترك بالجزائر أن يأذن له بمحاربته وطلب لذلك تجهيزاً إضافياً . إلا أن المنصور بادر يعتذر عن غلطه على لسان كاتبه أحمد بن يحيَى الهوزالي الذي حمل إلى الخليفة العثماني هدية عظيمة من المنصور . ثم ترددت الوفود بعد ذلك بين المنصور والباب العالي وبقيت العلاقة بينهما حسنة إلى وفاة المنصور . وقد كررنا ذكر هذه النقطة هنا لأهميتها .

ومن أهم وفود المنصور إلى تركيا سفارته التي ترأسها أبو الحسن التمكروتي الدرعي الذي قضَى بها حوالي سنتين . وقد خصص لرحلته إلى تركيا كتاباً ضمنه ارتساماته ومشاهداته خلال القيام بمهمته هذه من سنة 997 إلى 999هـ ، وسيأتي تلخيصها بإيجاز في موضوع الحركة الفكرية . على أن أبا الحسن هذا لم يتمكن من مقابلة السلطان العثماني إلا مرتين الأولى إثر قدومه والثانية قبل رجوعه ، وقد عاد مصحوباً برسل الخليفة العثماني مع رسالة وهدايا إلى المنصور ، وقد فترت العلاقات المغربية التركية بعد موت المنصور بسبب المشاكل الخاصة التي شغلت كلاً من الطرفين .

3) مع البرتغال واسبانيا

منذ سنة 920هـ دشن القائم بأمر الله عهد الصراع بين السعديين والبرتغال:

وكان البابا قد خوَّل للبرتغال حق فتح البلاد المغربية، وكانوا في الواقع قد دشنوا احتلالهم للمراكز المغربية بالاستيلاء على سبتة منذ عهد المرينيين سنة 818هـ. وتوالى فتحهم للموانئ بعد ذلك. وقد وفق أبو العباس الأعرج في طردهم من آسفي سنة 933هـ (1526م) ومن أكادير 947هـ (1541م).

وبمجرد القضاء على الوطاسيين عقد محمد المهدي حلفاً مع الإسبان يتعاونان بموجبه على طرد الأتراك من الجزائر، ولكن عدم تبادل الثقة بين الطرفين لم يضمن أي نتيجة مرضية، وواصل الغالب بالله محالفة الإسبان حيث تمكن بفضل مساعدتهم من احتلال تلمسان لمدة قصيرة 967هـ (1560م). أما محمد المتوكل فقد حالف البرتغال قبيل معركة وادي المخازن على أن يتخلَّى لهم عن الموانئ المغربية ويحتفظ هو بالداخل في مقابل مساعدته على استرداد ملكه. ولكن هزيمة البرتغال سنة 986هـ (1578م) وضم مملكتهم إلى اسبانيا حتَّى سنة 1640م جعل علاقات المغرب مع شبه الجزيرة الإيبرية تدخل في طور جديد. فكان الوفد البرتغالي في مقدمة الوفود التي هنأت المنصور بالانتصار وقدم بهدايا عظيمة إلى المنصور سنة 1579م كانت تقودها العربات، كما كانت هدية الوفد الإسباني تنافسها قيمة وكان ضمنها صندوق من الدر ويواقيت وقضبان من الزمرد.

وكان رئيس الوفد الإسباني حاكماً سابقاً بمليلية؛ وكان من المهمات التي كلف بها مفاوضة المنصور بشأن تسليم العرائش إلى فيليب الثاني! وكان المتوكل قد وعد بها دون سباستيان فيما سبق، وقد نزل الوفد بآسفي، ثم بعث المنصور بأحد قواده لمرافقته إلى مراكش، وعلى أبواب آسفي اتصل القائد في ستمائة من الجيش المجهز بالمدافع بالسفير الإسباني الذي تقدم الموكب ثم تبعه القائد والحرس، واستغرق سيرهم ستة أيام في حرارة شديدة، وكان في استقبالهم أوروبيو العاصمة وحوالي مائتين من جنوود اللفيف الأجنبي يتقدمهم القائد رضوان ومعه عشرون قائداً، وبعد تبادل السلام الودي سار الحاجب رضوان مع السفير جنباً إلى جنب، ثم وضع تحت تصرف هذا الأخير ثلاث دور فخمة، ووجدوا ست موائد قد جهزت على الطريقة الإسبانية، وأخيراً استقبل الوفد من لدن المنصور الذي كان يحمل سيفاً وخنجراً من ذهب ويتزيَّ هو وحاشيته بالزي التركي وكان في عنقه طوق من الذهب مرصع باللآلي والجواهر. وصحب السفير ترجمانه وعدد من موظفيه معه قريبان له، واستقبل الخليفة السفير وقريبيه ووصيفيه، وبعد أن أدى السفير التحية

أبلغ المنصور تشكرات فيليب له على إرجاع جثة دون سباستيان ، وأنه قدم له باسم ملكه كمية من الحجارة الكريمة كدليل على المودة لا كجزية ، ثم تسلم القائد رضوان الهدية ، وبدأ الخليفة يريها لحاشيته قطعة قطعة وهو يظهر ابتهاجه وارتياحه ، وبعد ذلك قدم إليه السفير رسالة من فيليب الثاني وقبل هو وقريباه ووصيفه يد الملك . وقد استقبله المنصور مرتين أخريين بعد هذه . وظلت العلاقة طيبة بين إسبانيا والمغرب طيلة عهد المنصور ، وتنازلت الأولى عن أصيلا التي سلمتها مع إنجلترا منذ سنة 1595م على غزو إسبانيا ، إلا أن وفاته ووفاة اليزابيث ملكة انجلترا حالت دون قصده .

وفي سنة 1019 هـ (1610م) تخلّى محمد الشيخ المامون الثائر على أخيه زيدان ، عن مدينة العرائش لإسبانيا وبذلك حققت إسبانيا حلماً راودها قبل ذلك بسنين ، إذ كانت العرائش أعظم ميناء بالمغرب ، وقد أثار ذلك غضب الشعب المغربي ، ولم يلبث المامون أن اغتيل بالشمال سنة 1022هـ (1613م) ، وفي هذه السنة بالذات استولى الإسبان في عهد فيليب الثالث على المعمورة (المهدية)، وقد قام العياشي بدور مجيد في غزو المراكز التي احتلها الإسبان والبرتغال وأمكنه على الأقل أن يحدّ من توسع هؤلاء ، وقد احتفظت إسبانيا بعد استقلال البرتغال سنة 1049هـ (1640م) بالعرائش وسبتة والمعمورة ، بينما احتفظت البرتغال بالجديدة وطنجة .

4) مع فرنسا

لم تكتس العلاقة في هذا العهد بين فرنسا والبلاط السعدي صفة ديبلوماسية على الدوام ، فقد تتناول أحياناً مسألة تبادل الأسرَى أو استخدام بعض الرعايا الفرنسيين كأطباء أو فنيين ، ومهما يكن ، فإن العلاقة بين المغرب وفرنسا ترجع إلى أيام علي بن يوسف[3] المرابطي .

وقد تعرف الملك المعتصم خلال مقامه بالجزائر كلاجئ ، بفرنسي يدعى لويس كابريط أحد أرباب السفن المغامرين ، ولما تولى المعتصم أسند إليه مهمة تبليغ رسالة إلى هنري الثالث الفرنسي يخبره فيها بتنصيبه وكان ذلك سنة 1576م ، وحينما كان المعتصم بالقسطنطينية اتصل به حلاق جراح يدعى «غيوم بيرارد» فعالجه من مرض

---

(3) انظر موضوع العلاقات الخارجية في عهد بني مرين في هذا الكتاب .

كان به سنة 1574م ، ثم صار طبيباً رسمياً له بعد أن تولى الملك ، وندبه المعتصم سنة 985هـ (1577م) لعقد اتفاق بينه وبين فرنسا ، كما تدخلَ في نفس الوقت لدى هنري الثالث لاعتماده قنصلاً لفرنسا ، وقد وافق هنري على هذا الطلب ، وصار غيوم أول معتمد دائم لهذه البلاد بالمغرب .

ولمّا حدثت ثورة ابن أبي محلى 1022هـ (1613م) والتجأ السلطان زيدان الى آسفي مرافقاً بعض أمتعته عهد بنقل ثلاثة آلاف كتاب إلى القنصل الفرنسي بآسفي واسمه جان فيليب كاسطيلان الذي كانت له سفينة بميناء هذه المدينة ، وكان الاتفاق بينهما على نقل الأمتعة والكتب من آسفي إلى اكادير مقابل ثلاث آلاف دوكة ، غير أن السلطان لم يؤد المبلغ قبل إنزال الشحنة بأكادير ، فرفض رب السفينة التفريغ قبل تسلم المبلغ ، ثم عاد متجهاً بالأمتعة والكتب نحو فرنسا ، ولكنه ما كاد يقرب من سلا حتَّى سطت على سفينته بعض البواخر الإسبانية ، وأثناء ذلك بعث زيدان بأحمد الجزولي سفيراً عنه إلى فرنسا لاسترجاع الأمتعة وذلك قبل أن تسقط في أيدي الإسبان، وكان يرافقه ناصر الكارطة وعدة خدم، ونزل السفير أولاً بهولندة ، أما فرنسا فقد رفضت مطلقاً استقبال المبعوث المغربي ، وحتَّى مساعي هولندا لم تجد لدى البلاط الفرنسي ، وعاد أحمد الجزولي من هولندا من غير جدوى . وهكذا سلِّمت الكتب إلى فيليب الثاني الذي حبسها على كنيسة عظيمة بناها بالأسكوريال قرب مدريد .

وفي سنة 1029هـ (1619م) قدم «كلود دي ماس» الفرنسي بقصد تحرير أسرى بلاده ، فاشترط زيدان حل مشكلة أمتعته أولاً ، فعاد دي ماس يرافقه سيدي فارس كمبعوث مغربي ؛ ولكن هذا المبعوث احتجز في الدار التي نزل بها ومنع من الخروج منها مدة أربعة أشهر وعاد هو أيضاً من غير فائدة .

وكان في بلاط زيدان فرنسي يدعى انطوان دو ساليت الذي عمل في كل من فرنسا والمغرب كعسكري أو ربان أو قرصان وأحياناً سفيراً أو مهندساً أو مستشاراً فنياً ، وظل نديماً للسلطان اثني عشر عاماً ، كما كان في بلاطه أيضا شخص يدعى سان ماندري الذي أتى في البداية مبعوثاً عن دوق سافوا لمحاولة إقناع المجاهدين ببسط حماية سافوا على المعمورة ، ثم صار مستشاراً لزيدان ، وقيل إنه عمل على تحسين وسائل صناعة السكر عن طريق التصفية ، كما أنشأ بالمغرب صناعة مسحوق البارود .

وقد بدأ إرسال المبعوثين الرسميين الفرنسيين إلى المغرب في عهد محمد الشيخ المهدي ، حيث قدم إلى المغرب سنة 949هـ (1543م) مبعوث عن فرانسوا الأول ويدعَى باكلون جان بغية مفاوضة المهدي في أن يقدم إلى فرنسا كميات من القصدير مقابل المواد اللازمة لصناعة المدافع .

وفي سنة 966 (1559م) افتتحت مفاوضات بين عبد الله الغالب وملك نافار حول حِلف عسكري بين الطرفين ، ذلك أن الغالب طلب من انطوان دوبوربون أن يجعل تحت تصرفه 500 جندي مسلحين مقابل تسليم القصر الصغير إليه ، وهو مرسًى صغير بين طنجة وسبتة أخلاه البرتغال سنة 967هـ (1550م) وكان من الشروط أيضاً أن تزود المدينة بحامية مغربية وأن يسمح السلطان بعقد سوق أسبوعية بها وتسخير الوسائل اللازمة للعمال والفنيين النصارى ، ويكون المرسَى كمركز انطلاق هجومي يوجه ضربته إلى السفن التي تحاول اغتصاب التراب المغربي .

ولم تقتصر بنود الحلف المقترح على هذه الشروط فقط ، بل تضمنت السماح للبواخر الفرنسية بالرسو في الموانئ المغربية مقابل السماح للسفن المغربية بالرسو في موانئ فرنسا . ومن أجل تحقيق هذه الشروط التي تراضى عليها الطرفان مبدئيا ، قدم مبعوث عن أمير نافار سنة 968هـ (1560م) إلى المغرب وهو مونتفور مع وسيط برتغالي ، ولكن القصر الصغير لم يتم تسليمه على الرغم من أن الأمير زود السلطان المغربي ببعض الفنيين والأسلحة .

وبعث شارل التاسع سنة 969هـ (1561م) مبعوثاً يدعى روبير بوردو الذي كان تاجراً ، وذلك من أجل مفاوضة الغالب في شأن احتكار فرنسا لتصدير النحاس والسكر ، إلا أن الحروب الدينية بفرنسا وسائر أوروبا أوقفت هذه المفاوضات .

وفي سنة 985هـ (1577م) عين غيوم بيرارد قنصلاً عاماً لفرنسا بصفة رسمية لدى عبد الملك المعتصم ، وظل غيوم بيرارد في نفس الوقت طبيباً رسمياً للسلطان إلى وفاة هذا الأخير. وكانت مهمته السياسية الأساسية ، هي حماية السفن الفرنسية والتجارة الفرنسية من حركة الجهاد البحري ، وقد نجح في حمل الموريسكيين عن طريق تدخل السلطان على إرجاع عدد من البواخر الفرنسية إلى أربابها ، ولكنه كان يلاقي صعوبات من مواطنيه التجار في استخلاص ضريبة اثنين في المائة ، المفروضة على جميع البضائع التي يصدرها الفرنسيون من المغرب وغيره ، وتمثل تكاليف

القنصلية . وكان غيوم شأن خلفائه ، يزود بلاده بمعلومات عن معاملات المغرب مع دول أوربا ، وفاوض السلطان سنة 987هـ (1579م) حول سلف من المغرب لفرنسا وتزويد هذه بأربعة آلاف طن من النحاس والفولاذ ، و 2500 طن من ملح البارود ، ولم تؤد مفاوضاته هذه إلى نتائج إيجابية ، ولكنه مع ذلك أحسن تمثيل بلاده التي ظل ممثلاً لها بالمغرب إلى سنة 997هـ (1589م).

وفي سنة 996هـ قدم لِيل أرنول ليخلف غيوم بيرار الذي يمكن أن يكون قد تأخر بالمغرب حوالي سنة بعد ذلك ، ثم حضر أرنول مرة أخرى سنة 1015هـ (1606م) كقنصل أيضاً ، وظل بالمغرب إلى سنة 1607م حيث قام بمفاوضة الموريسكيين في تحرير أسرى بلاده التي كان ملكها آنذاك هنري الرابع .

وكان ممثلو فرنسا بالمغرب بعد هذا التاريخ جان فيليب كاسطيلان الذي أفسد العلاقات بين البلدين بسبب قضية أمتعة زيدان وكتبه ، وقد تقدم ذكرها ، وورد بعده جاك فابر يحمل رسالة من لويس الثامن عشر حول تحرير الأسرى الفرنسيين ، ولكن زيدان رفض المفاوضة إلا بعد حل مشكلة الأمتعة ، ثم عمل لحساب السلطان الذي أوفده إلى هولندا ليطالب بدين له عليها ، وليسهر على تذويب عدد من المدافع بأحد مصانع روتردام ، وانتهت مهمة هذا الممثل بعد عامين من قدومه الذي كان سنة 1023هـ (1614م).

وفي سنة 1029هـ (1619م) رفض زيدان مفاوضة المبعوث الفرنسي «كلود دوما» حول تحرير الأسرى الفرنسيين ، قبل الحصول على ترضيات بشأن أثاثه وكتبه ، ولكن دوما عاد إلى المغرب في نفس السنة ، فبَنَى كنيسة بآسفي ، وسلم إلى الإسبان تصميم بناء ميناء «أيّر» فاعتقله السلطان ، إلى أن مات بعد عام من اعتقاله سنة 1034هـ (1624م).

وفي عهد عبد الملك بن زيدان تم تحرير مائة أسير فرنسي بمراكش وحوض أبي رقراق ، على يد أحد فرسان فرنسا ، واسمه إسحق دو رازيلي . وفي عهد الوليد سنة 1040هـ (1631م) عقدت معاهدة سلمية بين لويس الثالث عشر والوليد ، كان المفروض أن يتم بمقتضاها تحرير 180 أسيراً على يد «دو شالار» الذي عاد إلى المغرب سنة 1044هـ (1635م) لمفاوضة الوليد وجمهورية أبي رقراق في تحرير كافة الأسرى الفرنسيين . وهكذا وفق إلى تحرير أزيد من ثلاثمائة أسير ، بعد أن أخفق مبعوث سابق في هذه المهمة ، ذلك أن الوليد كلف اليهودي «داود بالاش» بأن

يتسلم من لويس الثالث عشر نسخة من معاهدة 1631م ممضاة من قبَله ليقدمها إلى العاهل المغربي ، ولكن اليهودي عاد إلى المغرب من غير أن ينجز هذه المهمة ، فبعث لويس الثالث عشر «أنطوان كابيرون» ليقدم للوليد نسخة من المعاهدة المذكورة ويطالب بمعاقبة اليهودي الذي تهاون في أداء واجبه ، غير أن الوليد اكتفَى بسجن اليهودي بالاش ، ولم يقم بالتنفيذ الفوري لنصوص المعاهدة ، مما جعل لويس يرسل مفاوضاً جديداً هو «دوشالار» المذكور الذي أدى مهمته بنجاح .

5) مع انجلترا :

يرجح أن العلاقات التجارية بين البلدين ، تعود إلى أيام محمد المهدي الشيخ ، والوطاسيون لا يزالون في الحكم ففي سنة 1551م قدمت بواخر بريطانية بقيادة «طوماس ويندهام» فأفرغت مجموعة من الأسلحة والبضائع بآسفي لتوجيهها إلى مراكش ، ثم تابعت طريقها إلى أكادير حيث أفرغت باقي البضائع وحملت شحنات من السكر والتمر واللوز ، وعادت إلى لندرة بعد أن أفلتت من قبضة قراصنة البرتغال في طريقها . ثم اتسع نطاق المبادلات التجارية بعد ذلك ، فبدأت السفن الإنجليزية تجلب إلى المغرب الأسلحة والملف وسائر الثياب الثمينة ، في مقابل منتجاته الخاصة . وكان تصدير الأسلحة وبعض قطع السفن موضع انتقاد واحتجاج من لدن بعض دول أوروبا خصوصاً البرتغال التي كانت تعتبر المغرب من مناطق نفوذها ! واستمرت العلائق متوترة لمدة طويلة بين انجلترا والبرتغال بسبب تصدير الأسلحة المذكورة ، وتعاون انجلترا مع المغرب في الميدان الاقتصادي ، وأوّلت البرتغال ذلك بأنه مساعدة عسكرية للمغرب على حساب البرتغال التي تضررت من الضغط على مراكزها بهذه البلاد بسبب تقوية الجيش المغربي .

ولم تمض بضع سنوات على أول تعامل تجاري بين المغرب وأنجلترا عن طريق تجار محنكين حتَّى تكاثرت البضائع الإنجليزية بالأسواق المغربية ، نتيجة لتعاطي عدة أشخاص لمهمة التجارة ، وفيهم نساجون وصناع وبحارة وغيرهم ، وكان يحتكر التبادل باسم المغرب وملكه يهوديان فحسب ، وبعد أن كان تجار الإنجليز يتناولون أثمان بضائعهم أول الأمر عملة ذهبية أجبروا على أن يبادلوا البضاعة بالبضاعة ، مما جعل جماعة منهم يتكتلون ويطالبون بتدخل ملكتهم سنة 1567م لتمنع على التجار الذين ليس لهم خبرة، مزاولة نشاطهم ومزاحمتهم للرعايا القدماء. وفي نفس السنة منع عبد الله الغالب استيراد نوع من الثياب الزرقاء من بريطانيا.

ولم يلبث التعامل التجاري بين البلدين أن دخل في طور الرسميات أكثر من ذي قبل ، فكتب الغالب إلى إيزبيلا طالباً منها أن تسمح لسفنه التي كان يقودها في الغالب مسيحيون ، بحمل البضائع المغربية إلى انجلترا لترويجها هناك ، كما طلب منها أن تزود ربابنته بصك تأمين حتَّى لا تعترض طريقه السفن الإنجليزية ، وجاء في خطاب الغالب قوله :

«الحمد لله وحده ، ولا معبود سواه ، الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤاً أحد .

من عبد الله تعالى أمير المؤمنين ، المؤيد بالنصر والتمكين ، والظفر والفتح المبين ، الشريف الحسني ، أيد الله بعزيز نصره أمره ، وأعز بتأييد نصره وأسعد زمانه المبارك وعصره ، وأبقَى في مراقي المجد الأسمَى فخره ، وأعلَى أمره في الخافقين وأظهره .

إلى ملكة لنجلطرة وإيرلانظا المعظمة الشهيرة الأثيلة ، إيزابيلا بنت السلطان إنريك ، سلك الله بها سبيل الخير والهداية ، وحفظ صحتها بحسن الرعاية .

سلام على من اتبع الهدى ،

أما بعد ، فموجب كتابنا هذا إليك ، أن خديم أبوابنا التاجر «لوز» رغب منا الكَتْب إليك في تأمين أجفان صاحبه التاجر سلبدروس ننيس ، في قدومه برسم التجارة لبلادنا ، وانصرافه عنها ، بحيث لا يتعرض أحد من تحت حكمهم بسوء ولا أذية ، ولا يقرب ساحتهم بمكروه ولا نكاية ، في ورودهم وبعد رجوعهم ، وتعطونهم تأميناً يتصرفون به من غير معارض ، فكتبنا إليكم تكميلاً لرغبته وإسعافاً لطلبته ، لأجل تعلقه بجانبنا ، وخدمته لابوابنا ، وكل ما يتعرض لكم من المآرب والأغراض ، يقضَى لكم على أكمل المراد إن شاء الله .»

وقد وافقت إيزابيلا على طلب الغالب ، ولكنها اضطرت تحت ضغط البرتغال الديبلوماسي إلى منع تصدير الأسلحة إلى المغرب من بلادها ، وعبثاً حاولت البرتغال أن تحملها على منع كل تعامل تجاري مع المغرب .

وبعثت اليزابيث ملكة بريطانيا أول سفير لها إلى المغرب سنة 1577م في عهد عبد الملك المعتصم ، وهو «إدمونود هوجان» الذي تمكن من الحصول على ضمانات جديدة لرعايا انكلترا وخصوصاً التجار ، وكانت اليزابيث أكثر جرأة من إيزابيلا حيث كانت تبعث إلى المتوكل السلاح مقابل ملح البارود . مع كثير من الحيطة ،

خشية غضب المسيحيين ، وعقدت مع هذا الملك اتفاقاً بشأن التعامل التجاري والبحري بين الطرفين ، ويسمح لأنجلترا بتوجيه مبعوث دائم إلى المغرب «باشادور».

وفي عهد أحمد المنصور ازدادت العلاقة تحسناً بين البلدين ، وقد تم إنشاء الشركة المغربية Barbary Company سنة 993هـ بقصد احتكار تصدير منتجات المغرب إلى انجلترا ، وعينت اليزابيث ، هنرى روبير أحد أعضائها ، فجمع بين التمثيل الدبلوماسي والتجاري ، وقد كتب هذا المبعوث عن مقامه وصفاً ممتعاً تضمن الحديث عن نزاعه مع تجار اليهود والشركة المغربية ، وعن مختلف مشاهداته ، وعاد روبير هذا بعد ثلاث سنوات إلى بلاده بصحبة الرئيس مرزوق موفداً من قِبَل المنصور إلى اليزابيث . ولم توفق الشركة المذكورة كثيراً إلى لمّ شتات التجار الإنجليز الذين فضل بعضهم أن يعمل مستقلاً عنها . وقد كتب المبعوث الإنجليزي المذكور إلى جاك الأول الذي خلف اليزابيث ، مذكرة يقترح فيها عليه القيام بغزو المغرب والاستفادة من ثرواته الطبيعية ، مع العلم بأن جاك الأول لم يعاصر المنصور .

وقد سجل كثير من التجار الإنجليز مذكراتهم عن حياتهم بالمغرب ، وتعرضوا لأحداثه السياسية ووضعيته الاجتماعية ، وعلى الرغم من أن الباحث غير ملزم بتصديق أو تكذيب كل ما تورده هذه المذكرات التي حفظت خزائن المغرب وأنجلترا بعض ما نشر منها ، فإنها تلقي مزيداً من الضوء على أحوال المغرب في هذه الفترة .

ومن أشهر المغامرين الإنجليز «طوماس ستوكلي» الذي خدم في عدة دول ، حتَّى ورد على المغرب في عهد زيدان ، واتصل بأخيه أبي فارس في مراكش موفداً من قِبَل امبراطور النمسا بقصد عقد حلف مشترك ضد تركيا ، ولكنه لم ينجح بطبيعة الحال ، نظراً لظروف المغرب حينئذ .

ومن المغامرين الذين قدموا في عهد زيدان أيضاً «أنطوني شيرلي» الذي وفد إلى المغرب بعد سنتين من تولية هذا السلطان ، ونزل بآسفي سنة 1015هـ (1606م) ، واستقبله أبو فارس بعد خمسة أشهر من مقامه . وقد أظهر بذخاً عظيماً في حياته الخاصة ، وفيما قدمه من الهدايا لضيوفه ومرافقيه من خدم وموظفين وغيرهم ، حتَّى أثار بذلك دهشة المغاربة والأوروبيين المقيمين بالمغرب .

وبما أن «شيرلي» صادف بالمغرب ظروفا غير ملائمة ، فإنه لم يستطع أن يحصل على مساعدة عسكرية لرودولف الثاني الذي بعث به من براغ ، وكان رودولف يرغب في عقد معاهدة حربية مع المغرب ضد تركيا .

ومهما يكن من شيئ ، فقد كان شيرلي لا يعمل لحساب بريطانيا إلا في إطار محدود ، إذ كان مجرد مغامر يتنقل هو أيضاً بين الدول . وقد دوّن بدوره مذكرة قدمها إلى امبراطور بلاده مقترحاً فيها تحويل «الصويرة» و «فضالة» إلى ميناءين للصيد مع تحصينهما .

وفي لجة الاضطرابات التي شهدها المغرب في عهد زيدان كانت انجلترا تتعامل رأسا مع الموريسكيين في تطوان وسلا ، ومع المجاهد العياشي[4] ، وكانت تتبادل معهم المراسلات والمبعوثين ، وكانت العلاقة تتناول مسألة التجارة ، واستعمال مينائَيْ تطوان وسلا ، وعرض العياشي على انجلترا فكرة القيام بحرب مشتركة لطرد الإسبان من المعمورة .

وفي عهد الوليد بن زيدان جددت معاهدة الود والصداقة بين البلدين سنة 1044هـ (1634م).

وقد كان التعامل لحساب المغرب ، يستفيد منه في الغالب ، اليهود والملك شخصياً . ولا ريب أن أحسن فترة مرت بها العلاقات الدبلوماسية هي عهد المنصور الذهبي ، وقد أوشك أن يمهد عملياً لغزو مشترك مع بريطانيا في كل من إسبانيا ومستعمراتها ، ولكن المنية اخترمته هو وامبراطورة انجلترا قبل أن يتم تحقيق هذا المطمح .

وعلى الرغم من فترة الفوضَى التي سادت بالمغرب في أيام زيدان وخلفائه ، فإن النشاط التجاري بين المغرب وانجلترا لم يتوقف ، وكان أكبر خطر تتعرض له السفن البريطانية ، هو الاستيلاء عليها من قِبَل الموريسكيين ، وكانت علاقة انجلترا بأندلسيي تطوان أحسن منها كثيراً بالنسبة إلى العلاقة البريطانية بجمهورية أبي رقراق ، وكان الملك المغربي يضطر كثيراً إلى التدخل لحسم النزاع بين الموريسكيين والتجار الإنجليز ،

(4) أورد دوكاستري في وثائقه الخاصة بانجلترا عدداً من نصوص الرسائل المتبادلة بين البلاط الانجليزي من جهة ، والموريسكيين والعياشي من جهة أخرى ، وانظر أيضاً في تاريخ تطوان ج 1 لمحمد داود ترجمة عدد من هذه النصوص .

ولو أن سلطته عليهم كانت رمزية في الغالب ، وعندما هاجمت بواخر بريطانيا مدينة قادس اتخذت ميناء تطوان قاعدة لها ، إذ كان الأندلسيون يرون في مهاجمة الشواطىء الإيبيرية مساعدة لهم غير مباشرة.

6) مع هولندا :

لقي الهولنديون عنتاً كبيراً من الاستعمار الإسباني ، فما أن تم تحرُّرهم من هذا الاستعمار ، حتَّى كان المغرب أحد البلدان الأولى التي ارتبطوا معها بعلاقات تجارية وسياسية ، وكانت اسبانيا عدواً مشتركاً للبلدين .

وعندما غزا الهولنديون بالاشتراك مع الأسطول البريطاني مدينة قادس وفتحوها ، وجدوا بها مغربياً من أعيان فاس تحت قبضة الإسبان ، فبعثوا به إلى أحمد المنصور سنة 1596م.

وكان المنصور يتتبع باهتمام وإعجاب أنباء انتصارات الهولنديين في بلادهم على الغزاة الإسبان ، حتَّى إنهم سلموا فيما بعد الى ابنه أبي فارس سنة 1013هـ (1604م) مائة أسير مغربي وجدوهم في اسبانيا بعد أن غزوا شواطئها .

على أن أهم حادث دشنت به العلاقات بين البلدين هو أن الهولنديين أجروا مفاوضات مع المنصور على يد أحد أبناء «دون أنطونيو» وأثاروا خلالها موضوع تسليم قادس إلى المغرب ليمكن عن طريقها إعادة فتح الأندلس ، إلا أن خلافاً نشب بين أسطولي هولندا وانجلترا منع من تحقيق ذلك .

وفي أوائل القرن السابع عشر الميلادي بدأت هولندا تستورد من المغرب السكر والزيت واللوز والعسل والتين والشمع والجلود ، وتصدر إليه الأسلحة والأقمشة .

وكان أول قنصل رسمي لهولندا بالمغرب هو «بيتير مارتينز كوي» **Peter Martentz Coy** الذي عين من سنة 1605 إلى 1609م، وكانت مهمته سياسية وتجارية ، وقد استقر بمراكش ، وبذل جهوداً عظيمة لتوثيق الروابط بين المغرب وبلاده .

على أن أهم شخصية تدخلت في العلاقات بين البلدين هي شخصية صمويل بالاش (باء مثلثة)، وهو يهودي من أصل أندلسي قام بمهمات سياسية في عدة دول ، إذ كان من المعتاد أن يتنقل بعض الأشخاص المشهورين بالمغامرة والذكاء للعمل في هذا البلاط أو ذاك ، حتَّى إن بالاش هذا عمل في البداية لصالح

هولندا ، ثم صار ممثلاً للمغرب فيها ، وقامت أسرته بمهام مماثلة وكانت مع هذا تحتكر التجارة بالمغرب خصوصاً التجارة الخارجية .

ونادرا ما كانت سفن المجاهدين تتعرض للبواخر الهولندية ، ذلك أن عدداً كبيراً من اليهود المهاجرين من الأندلس استقروا بهولندا التي كانت تدعى بالولايات العامة ، وهم الذين كانوا يقدمون القروض لحركة الجهاد البحري الشعبي من أجل التسلح .

كما تعاملت هولندا رسمياً مع الدلائيين وجمهورية أبي رقراق ، واستقبلت عدداً من ممثليهم ، حيث إن الدول الأجنبية كانت ترعَى مصالحها الاقتصادية أكثر مما تراعي الاعتبارات الإنسانية .

* * *

9 - الحيــاة الدينية

تطور الحركة الصوفية :

بعد أن كان الصلحاء يكتفون في عهد الدول التي سبقت الوطاسيين ، بالتدخل السياسي أحياناً لحمل الدولة على الاهتمام بشؤون الدين والرعية ، دون أن يلجأوا إلى التدخل الحربي إلا في ظروف محدودة ومن غير أن تكون لهم مطامع سياسية ، تغير موقف بعضهم أيام الوطاسيين ، فمالوا إلى قيادة حركة الجهاد ، وقويت هذه الرغبة لديهم أيام السعديين ، فكان أنصار الجزولي أول من ساند السعديين في تكوين دولتهم ، ووقفوا موقفاً محايداً في عهد المنصور السعدي الذي استغل نتائج انتصار وادي المخازن لصالحه كملك بقدر ما استغلها لصالح دولته وشعبه .

وعلى الرغم من أن الصوفية ساندوا الدولة السعدية في أول نشأتها فإن الشيخ محمد المهدي وعبد الله الغالب سلكا سبيل الشدة ضد كثير منهم ، وكان المهدي أشد قسوة على بعض الفقهاء ، وهكذا قتل عبد الواحد الونشريسي وعبد الوهاب الزقاق والشيخ حرزوز على يد المهدي . وكان هؤلاء لا يرون في القضاء على الوطاسيين مبرراً شرعياً ، كما أن عدداً من أرباب الزوايا الذين كانوا ينتقدون سلوك المهدي والغالب امتحنوا بشدة من قبلهما وإن كانا يتقربان إلى أرباب الزاوية الجزولية .

وقد اتخذ السعديون من الانتماء إلى السلالة النبوية وسيلة لكسب مزيد من احترام الشعب وتقديسه ، وكان هذا الانتماء إحدى الدعائم الكبرى التي ارتكزت عليها الدولة حين قيامها ، ولكن سوء السيرة وسياسة البطش التي سلكها أغلب أنجال المنصور أفقد هذا الانتماء العلوي قيمته وكان السبب الرئيسي في تمرد أرباب الزوايا من جديد فقاموا يباشرون بأنفسهم إلى جانب عدد من الزعماء الشعبيين ، حركة الجهاد ، وبعضهم عمل على إحداث بديل للدولة القائمة كما رأينا .

وهكذا كانت أول ثورة عسكرية قادها صوفي في عهد زيدان ابن المنصور ابتداء من سنة 1022هـ ، وهو أحمد بن عبد الله بن أبي محلي الذي سترد ترجمته .

وفي نفس الوقت تقريباً حدثت ثورة أبي حسون السملالي الذي قام هو أيضا ضد السعديين بسبب الفراغ السياسي الذي كان يعيشه المغرب في هذه الفترة ، وكان الذي قضَى على ثورة الأول وأوقف ثورة الثاني هو الفقيه يحيَى بن عبد المنعم الحاحي ، غير أن أبا حسون لم يلبث أن عاد إلى الظهور من جديد بسوس .

والجدير بالذكر أن جزولة التي ساندت السعديين في استيلائهم على السلطة انطلقت ثورتها الأولى للقضاء على الوطاسيين من منطقة سوس ، ثم صارت هذه المنطقة معقلاً من معاقل الثورة على السعديين أنفسهم وبقيادة جزولة أيضاً .

أما محمد العياشي فقد وجه همه قبل كل شيئ ، إلى طرد النصارى من شواطئ الغرب ودكالة ، كما حارب الموريسكيين الذين اتهمهم بالتعاون مع الإسبان .

ومن خلال النشاط المتواصل الذي أبداه العياشي قرابة أربعين سنة حتَّى وفاته يمكن القول بأن رغبته في الجهاد وإصلاح الوضع كانت صادقة لأنه لم يهاجم جيوش الدولة السعدية إلا في حالة الدفاع .

أما الدلائيون الذين أسسوا زاويتهم قرب خنيفرة ، وقاموا في البداية بقصد نشر المعرفة ولمّ شمل الصوفية الذين كانوا يتوافدون عليهم من كل بقاع المغرب ، فلم يلبثوا أن تحولوا إلى العمل السياسي المباشر . ومن المؤسف أن حركتهم لم تهدف إلى عمل إيجابي حاسم ضد الاستعمار البرتغالي ، فقد صارعوا جيوش الدولة السعدية وهي تلفظ آخر أنفاسها ، كما قضوا على حركة العياشي التي ربما كانت نتائجها من حيث نشاط المقاومة تفوق نتائج الحركة الدلائية . وأخيراً ، جابهوا مؤسسي الدولة العلوية في كفاح طويل إلى أن قضت هذه نهائياً على حركتهم في عهد السلطان رشيد العلوي .

ولقد أصبح للصوفية في هذا العهد نفوذ على العامة لا يكاد يصدق ، ونسبت إليهم كرامات تتفق والظروف السياسية ، ونذكر منها على سبيل المثال أن الولي المحجوب أبا الرواين جاء إلى محمد الشيخ المهدي وقال له : اشتر مني فاساً بخمسمائة دينار ! فأجابه : إن الشريعة لم تأت بشيئ من هذا ! فقال : والله لا دخلتها هذه السنة ...ثم أدى اليه المال بعد إلحاح من بعض أنجاله ، ففرقه أبو الرواين على المحتاجين ، ودخل السلطان فاساً بعد انقضاء السنة .

وقد تنبأ الشيخ عبد الله بن حسون بمستقبل العياشي ، كما تنبأ أبو عمرو القسطلي بمقتل أبي العباس الأعرج ...وقصص الأولياء في هذا الموضوع كثيرة .

وفي هذا العهد انتشرت الزوايا على نطاق واسع ، وكانت تتخذ للذكر والعبادة ، وأحياناً لدراسة العلم ونشره أيضاً . وقد يتخذ بعض أربابها أوراداً وأدعية خاصة في التصوف ، فينشؤون من أجل تعميمها مزيداً من الزوايا بهدف نشر الطريقة . ومن أشهر الزوايا في هذه الحقبة :

1) الزاوية الفاسية ، نسبة إلى يوسف الفاسي الفهري الذي سترد ترجمته ، ومركزها فاس ، ولها عدة فروع .

2) الزاوية الناصرية ، ومؤسسها ناصر بن ناصر الدرعي ، وهو عربي الأصل (1011 ــ 1085هـ) وقد ذاع صيته في أواخر السعديين وأوائل الدولة العلوية .

3) الزاوية المصلوحية التي نسبت إلى عبد الله بن حسين (977هـ) ولكن بناء مقرها نفسه تأخر إلى العهد العلوي على يد بعض مريدي طريقته .

4) الزاوية الجزولية ومركزها بسوس ، ولها طريقة وعدة فروع ، وتأسست في عهد الوطاسيين على يد الشيخ محمد الجزولي ، ولكنها لم تشتهر الا في عهد السعديين حيث شمل نشاطها الميدان الفكري والسياسي .

5) زاوية محمد الكوش بمراكش.

6) الزاوية الدلائية، وقد أسسها بخنيفرة أبو بكر بن محمد المجاط المتوفَّى سنة 1021هـ.

7) الزاوية العيساوية ، منسوبة إلى شيخ الطريقة العيساوية أبي عبد الله محمد ابنعيحَى المهدي السفياني أو السملالي[1]. وقيل هو من أولاد أبي السباع الأدارسة ، سكن بمكناس ، حيث يوجد ضريحه غربها ؛ ويفد إليه أصحابه من سائر أقطار المغرب في المولد النبوي ، وطريقته جزولية شاذلية ، وقال عنه البعض : إنه كان آية في المحبة الإلهية ، حتَّى قيل : المحبة عيساوية ، والسنة مسناوية ، وكانت وفاته سنة 941هـ .

وكانت هذه الزوايا مأوى للوافدين ، خصوصاً المريدين والأنصار ، وكان أربابها والمشرفون عليها يتلقون الهدايا والصدقات والتبرعات من مختلف الوافدين والعاطفين ، فكثرت بذلك أرزاقها وضرب المثل بكرم بعضها . وعلى سبيل المثال ،

(1) الكتاني ، سلوة الأنفاس ، 1 ، 186 . عباس بن إبراهيم المراكشي ، الإعلام ، 4 ، 147.

كانت زاوية الكوش تتوفر على قدور ضخمة يسع كل منها ثورين ، وتقدم الكسكس إلى الوافدين في جفان ضخمة . واشتهر محمد بن أبي بكر الدلائي بأنه كان كثير العطاء ، يقدم لزواره يومياً ما يعادل 25 صحفة من الزرع ، وكان السمن ينصب في زاويته من قواديس تحمله من قدور نحاسية ضخمة[2] ، وندع صاحب البدور الضاوية يصف هذا الكرم بأسلوبه إذ يقول :

«وكان يجعل قيمات من النساء على الطعام ، تحت كل قيمة عدد كبير من إماء الحرفة ، وكان له بُرمتان لإطعام المساكين ، لكل واحدة قيم يخصها ، وتسع كل منها بقرتين أو ثلاثاً ، والكسكاس الذي يوضع على كل واحدة يسع أكثر من وسق ...والجفنة التي كانوا يتناولون فيها الطعام تكفي المئين من الناس ، وتدعَى فركة ... وكان في سنة من سنّي الغلاء يطعم كل يوم سبعة آلاف من أهل المرقعات الواردين عليه.»

ومن الملاحظ أن هذا العصر امتاز في الميدان الديني بثلاثة أشياء :

1) ظهور طائفة الشراقة الذين يسمون أنفسهم بالطائفة اليوسفية ، نسبة إلى أحمد بن يوسف الراشدي من أهل مليانة ، وقد غالوا في تقديس إمامهم هذا إلى حد أن وصفوه بالعصمة ، بل نسبه بعضهم الى النبوة ، على الرغم من أنه كان مجرد ولي ككثير من معاصريه ، وكانت وفاته سنة 930هـ ، وكان مثقفاً فاضلاً ، ولكن الشراقة (وهم في الأصل بدو من عرب ناحية تلمسان) قدموا إلى المغرب عاملين على نشر الدعوة باسم وليهم المذكور حتَّى نسبوا إليه الخوارق التي تبرأ منها ، وقاتلهم عبد الله الغالب حتَّى أخمد حركتهم ، وكانوا يبيحون ترك الصوم والصلاة .

2) ادعاء ابن أبي محلي للمهدوية ، حتَّى انقاد إليه كثير من العامة في الجنوب وتمكن من الاستيلاء على مراكش ، وألجأ السلطان السعدي إلى آسفي ، وقد تمّ قتله في الظروف التي تقدم ذكرها في الحديث عن عصر زيدان .

3) ظهور الفقيه أبي عبد الله محمد الأندلسي بمذهب ابن حزم الظاهري وانتقاد المذاهب الأربعة ، ومحاولته إرجاع الناس إلى العمل بنصوص الكتاب والسنة ، وقد عدّ خصومه من الفقهاء هذه الأفكار تضليلاً للعامة ، مما أدى إلى قتله .

---

(2) سليمان الحوات ، البدور الضاوية ، ص 148.

وقد وقف الفقهاء بوجه عام موقفاً مشرفاً من القضايا الوطنية ، بالرغم من تعرضهم لأخطر العقوبات ، وكان محمد المامون قد استصدر فتوى من بعض فقهاء فاس بشأن تسليم العرائش إلى الإسبان ، وقد خشي الفقهاء بطش المامون ومن بينهم محمد بن القاسم بن القاضي . على أن أهل فاس تربصوا به مدة طويلة قبل أن يتمكنوا من اغتياله سنة 1040هـ . وكان ممن عارضوا محمد الشيخ المامون وانتقدوه بشدة، أبو الحسن علي الأغصاوي الذي تمّ إعدامه، بينما تملص من الفتوَى أكثر الفقهاء والمثقفين كأبي العباس المقري والعربي الفاسي وعلي البطوئي ، وعلي الحسن الزياتي ، وابن عاشر ، ومحمد الجنان ، وأحمد الفاسي .

وقد رحب كثير من الفقهاء والمثقفين بحركة العياشي بعد أن لمسوا عجز الدولة عن جهاد النصارى واشتغال ملوكها بشهواتهم .

حياة بعض كبار الصوفية

أحمد بن موسَى الجزولي السملالي[3] :

ولد أبو مروان أحمد بن موسى في إيدا وسملال بسوس، وأمه «لالاً تاونُّوت»، وتنسبه بعض الزوايا إلى زروال الجزولي.

وهو تلميذ أحمد بن يوسف الملياني وعبد العزيز التباع وأحمد الدجاني وقيل إن شيوخه يتجاوزون الثلاثمائة . وكان مقامه بتازروالت بسوس ، ومن الخوارق التي نسبت إليه أن رجلاً شكا إليه الفاقة ، فأخذ شيئاً من الرمل ووضعه في صرة ثم أمره أن يذهب به إلى صائغ ، فلما أتَى به إليه وجده تبراً فسكه له .

وتجعل منه بعض الأغاني الشعبية القديمة بهلوانياً في طفولته يساهم في جماعة من البهلوانيين الصغار ، فورثت ذريته ممارسة البهلوانية كحرفة ، ولا زالوا كذلك ، وهو جد أبي حسون السملالي الذي قاد ثورة شعبية في إقليم سوس عندما تردّت الاوضاع السياسية في العهد السعدي . وكانت وفاة أحمد بن موسَى سنة 971هـ (1563م) ، ومدفنه بإيدا ولتيت، وكان الغالب السعدي يعظمه حتَّى قيل إنه أقام في ضيافته أياماً يستمد بركته .

---

(3) إبراهيم الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 14 ، و 159 . ابن القاضي ، درة الحجال . اللكوسي ، مناقب الحضيكي ، ورقة 1 . المراكشي ، إعلام ، 2 ، 26.

عبد الله بن حسون[4].

عبد الله بن أحمد بن الحسن الخالدي السلاسي نسبة إلى «سلاس» قرب فاس ، كان مولده بهذه الناحية في أوائل الدولة السعدية . درس على عليّ بن هرون وأحمد الحبّاك وعبد الواحد الونشريسي وآخرين ، ثم انتقل إلى سَلا ، بسبب ما كان يدب من نزاع وما ينشب من قتال بين أهل «سلاس». ثم اشتغل بالخطابة في الجامع الأعظم بسلا حيث كان يكتب الحروز أيضاً . ومن تلاميذه محمد العياشي المالكي ومحمد بن سعيد العتابي الذي دفن إلى جانبه في ضريحه بسلا ، وكل هؤلاء الثلاثة من كبار الصوفية والمتضلعين في العلوم الدينية .

وكان بعض محبيه يهدون إليه الكساوي الفاخرة فيهملها في حجرة مغلقة حتّى تأتي عليها الأرضة ، وقد وصفه ابن القاضي معاصره ، بأنه لا يخاف في الله لومة لائم . وبلغ من تقديره لدى أهل سلا أن كانت الطبول تقرع على باب داره كل يوم . وكانت وفاته سنة 1013هـ (1604م).

يوسف بن محمد الفاسي[5]

أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسي من أسرة بني الجد المعروفين بالأندلس[6]. استقرت عائلته بفاس في أواخر القرن 9هـ (15م)، ثم اشتغلت بالتجارة في القصر الكبير حيث ولد يوسف بن محمد سنة 937هـ (1530م)، وارتحل مع والده من جديد إلى فاس ، فدرس على عبد الوهاب الزقاق ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن جلال التلمساني وعبد الرحمان بن إبراهيم الدكالي وخروف التونسي وغيرهم ، ثم درس التصوف على جماعة من شيوخه كعبد الله الهبطي والحسن بن عيسَى المصباحي وعبد الرحمن المجذوب . كما تلمَّذ على يده كثير من الصوفية كمحمد أنوار وعلي أبي الشكاوي . وقد توفي يوسف الفاسي سنة 1013هـ (1604م) بفاس حيث يوجد ضريحه قرب باب «الفتوح». وألف ابنه العربي كتاباً في مناقبه ومناقب شيخه المجذوب ، وهو «مرآة المحاسن» ، كما وضعت في ترجمته كتب أخرى .

---

(4) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 346 . الأفرني ، نزهة : ص 436 ، صفوة من إنتشر ، ورقة 10 . ابن علي الدكالي ، الإتحاف الوجيز ، ورقة 144 . إتحاف أشراف الملا ، ص 42 اليوسي ، محاضرات .

(5) محمد العربي الفاسي ، مرآة المحاسن . القادري ، نشر المثاني ، 1 ص 89.

(6) انظر عن هجرة هذه الأسرة المالقية : مرآة المحاسن المذكورة ، ص 142.

أحمد بن عبد الله بن أبي محلي[7]

ولد أحمد بن عبد الله بن أبي محلي بسجلماسة سنة 967هـ (1559م) وهو ينسب نفسه إلى العباس بن عبد الله بن عبد المطلب ، ويجهل هو نفسه سبب تكنية جده بأبي محلى .

وقد انتقل ابن أبي محلي إلى فاس لمتابعة دراسته بها سنة 980هـ فاشتغل بدراسة النحو والفقه ، وأخيراً ، صحب الشيخ محمد بن مبارك الزعري (نسبة إلى زعير ، وهم عرب كانوا يستقرون بسهل سوس)، وظل في صحبته مدة ثمان عشرة سنة ، وهو الذي حول اتجاهه الفقهي إلى التصوف ، ومن شيوخه ، سالم السنهوري وأحمد المنجور وأحمد بابا .

ثم سلك ابن أبي محلى طريق التصوف حتّى شاع خبره في الجنوب ، وصار يكاتب الولاة ورجال القبائل ويحضهم على اتباع السنة ، ويسمي نفسه المهدي المنتظر . وبقدر ما كانت أوضاع المغرب تقتضي إصلاحاً مستعجلا كان ابن أبي محلى يخفي طموحاً نحو القيادة المباشرة لهذا الإصلاح . وهكذا تولى عبء الدعوة لنفسه في مناطق الجنوب ، وباشر العمل المسلح ضد السعديين إلى أن استولى على مراكش سنة 1022هـ (1613م)، وحينئذ استنجد زيدان بالفقيه يحيَى الحاحي الذي كان له نفوذ قوي على مجموع المنطقة السوسية ، حيث استطاع أن يقرض سلطته بفضل تخلي السوسيين عن الولاء للسعديين بعد ظهور عجزهم ، وقد أنجد زيدان بعد أن اشترط عليه شروطاً منها أن يتخلّى عن شذوذه الجنسي ، وقد تم قتل ابن أبي محلى اثناء المعركة التي جرت على أبواب مراكش ، سنة 1022هـ فدفن بروضة أبي العباس السبتي.

وقد وضع ابن أبي محلى جملة من التآليف ، منها 1) الإصليت الخريت . 2) منجنيق الصخور في الرد على أهل الفجور . وجل ما ألفه في تأييد دعوته والرد على معارضيه . وقد بقي بعض أتباعه ينتظرون ظهوره مدة طويلة كما حدث بالنسبة لكثيرين ممن ادعوا المهدوية .

متصوفة آخرون :

ومن أبرز صوفية هذا العهد أيضاً :

---

(7) اليوسي ، محاضرات : القادري ، نشر المثاني 1 ، 121 . المراكشي ، الإعلام ، 1

1) محمد المالكي العياشي (1051هـ (1641م) وقد تقدمت ترجمته.

2) أبو عمرو القسطلي دفين مراكش 974هـ (1566م).

3) رضوان بن عبد الله الجنوي وهو من أب نصراني من جنوة، وأم يهودية، توفي ودفن بفاس 991هـ (1583م).

4) أبو زيد عبد الرحمن بن عياد الدكالي الصنهاجي المعروف بالمجذوب، دفين ظاهر مكناس 976هـ (1568م).

5) أبو الشكاوي علي بن منصور دفين شالة 1003هـ (1594م).

6) أبو زيد عبد الرحمن الفاسي 1036هـ (1626م).

اليهود والنصارى

كان ضمن الموريسكيين الذين هاجروا من الأندلس إلى المغرب في أوائل القرن 11هـ (17م) أفواج من اليهود الذين نشطت حركتهم الاقتصادية، وكادوا يحتكرون إلى جانب اليهود القدماء، التجارة الداخلية فضلاً عن التجارة الخارجية، فقد حظوا بعطف بالغ من لدُنْ ملوك الدولة السعدية، على الرغم من أنه لم يكن لهم نفوذ سياسي مباشر بعيد المدى كما كان الأمر في أيام ضعف الدولة المرينية، وقد كان لأسرة بالاش دور أساسي في علاقات المغرب الاقتصادية مع الخارج.

وقد حظيت الأحياء اليهودية بحماية الملوك مباشرة، وكان أغلب النصارى القادمين من الخارج في مهمات دبلوماسية أو تجارية أو غيرها ينزلون بالملاح، وعلى الرغم من أن اليهود قد منعوا من بناء بيعهم في بعض جهات المملكة[8]، فإن العهد السعدي على العموم، امتاز بتسامحه الديني. وسواء في مراكش أو الجهات التي يكثر بها المسيحيون واليهود في الشواطئ المحتلة فقد تعايش المجتمع المغربي الإسلامي مع اليهود والمسيحيين من غير أي حرج في ظروف السلم التي لم تكن مستمرة على كل حال. وقد تكاثر عدد النصارى الذين تواردوا من عدة بلاد، وفيهم تجار وأسرى وأرقاء أو سجناء، وكان لكل دولة أجنبية بآسفي مقر أو دور خاصة بها.

وعندما تم سحق الأسطول الإسباني في قادس على يد الهولنديين والإنجليز كانت

(8) الناصري، الاستقصا، 6، 79.

جالية الطرف المنتصر تطوف في مراكش حاملة المشاعل فرحاً بهذا الانتصار ، دون أن تلقى إزعاجاً من الأهلين(٥).

على أن المقاومة العنيفة التي لقيها النصارى لم تكن في واقعها إلا كفاحاً ضد الاستعمار وما كانت صراعاً دينياً الا في حدود المقاومة الوطنية ، ولم يكن كذلك موقف الطرف المعادي من المسيحيين ، والدليل على ذلك ، أن التاريخ لم يسجل انتقاماً من نصارى الجالية البرتغالية وغيرها من الجاليات المسيحية بعد انتصار وادي المخازن ، بل من المؤكد أن الاضطهاد الديني الذي عرفته أوروبا بين الكاثوليكية والبروتستانتية في القرن 16م ، قد جعل أفواجاً كثيرة منهم تفد على المغرب حيث يعملون في الجيش أو يزاولون مهمات تقنية أو تجارية كما رأينا ذلك بالنسبة إلى الجالية الهولندية التي كان لها مكان الصدارة بين الجاليات المسيحية.

وفي هذا الوقت بالذات كان اليهود يلاقون عنتاً شديداً في أوروبا على الرغم من أن كرومويل الذي ارتقى إلى منصب رئيس الجمهورية بانجلترا سنة 1649م حاول أن يقبل اللاجئين منهم الى هذه البلاد ، وتعصبت الكنيسة ضدهم فلم توافق على هذه الهجرة(١٥).

وكان لليهود بالمغرب محاكمهم الخاصة ، وسجنهم الخاص أيضاً : وقد ذكر الرحالة المسحي «ماندوصا» أنه زار أحد سجون اليهود ، فوجد به شخصاً متمتعاً بالعافية ، ولما استخبره عن أمره أكد له أن إخوانه سجنوه لأنه لا يحتمل إهانات المسلمين الذين كان يرد عليهم بالضرب دون أن يخشى عقاباً(١١).

وبلغ عدد اليهود بمراكش وحدها ستة آلاف في عهد أحمد المنصور ، وقد لعبت البيع بالنسبة إليهم دوراً لا يقل عن دور المسجد بالنسبة إلى المسلمين ، فقد كانت إلى جانب مهمتها كأماكن للعبادة ، معاهد للدراسة ، ومنتديات ومراكز لإدارة الشؤون الدينية والاجتماعية ، وفيها كان يحكم بالتكفير على المرتدين من اليهود .

وكما قام السعديون برعاية حقوق اليهود ومنحوهم حمايتهم الخاصة ، فقد منعوا على المسلمين كل تعصب ضد الأوروبيين الذين كان يمكنهم أن يتجولوا بكل حرية .

---

(9) Champion, le Maroc et ses villes d'art, p. 113

(10) Léon Paliacov, Du Christ aux Juifs, p. 224

(11) R. Ricard Hespéris, 3,4-1957,P. 179

وقد أدخلت على الكنيسة الموحدية تحسينات كثيرة سنة 1579م حتَّى يمكنها أن تستقبل نصارَى البرتغال لا سيما الأشراف من أسراهم ، ولم نكن تحمل جرساً ، فكان القومة عليها ينادون للصلاة بواسطة نداء ديني خاص .

وكما يقول دوفردان ، فقد كان السعديون أكرم من الرومان ، إذ سمحوا للمسيحيين أن يتخذوا مقابرهم الخاصة ، ومنها أرض الكنيسة وما جاورها[12] وتنفيذاً لهذه السياسة المبنية على التسامح وحسن التعايش ، فقد عرف اليهود أجمل حقبة في تاريخهم ، لا بمراكش وحدها كما يقول «دوفردان» ، ولكن في كل أرجاء المغرب ، وفي أقصَى بقاعه كما سيتضح في الفصول التالية .

---

(12) Deverdun, Marrakech 1,446-450

(13) Ibid. p.454

الحضارة في عهد السعديين

1) **الدولة ونظامها** : الملك – ولي العهد – الوزراء والحجاب – الكتّاب – القضاة – العمال والولاة – الجيش – النظام المالي .

2) **الحياة الاجتماعية** : السكان – اللباس – المرأة – الغناء – الحفلات والأعياد – الطعام والمسليات .

3) **الحياة الإقتصادية**: الفلاحة – الصناعة – التجارة.

4) **العمران وفن البناء** : نظرة عامة – المدن – الحصون – القناطر – قصر البديع – المدارس – المساجد – الزوايا – ضريح السعديين .

5) **الحياة الفكرية** : نظرة عامة – الأدب – العلوم الدينية – علوم اللغة – التاريخ – الطب – الرياضيات والهيئة .

1 - أنظمة الدولة

الملك :

لم يبادر أبو عبد الله القائم بأمر الله باتخاذ ألقاب الخلافة بوصفه مؤسساً للدولة التي تنتمي إلى الأشراف ، بل اكتفَى بلقب الأمير بعد احتلاله مراكش ودرعة[1] ، وأول من اتخذ لقب الخليفة محمد المهدي الشيخ[2] ، ثم سار على ذلك خلفاؤه[3] . وهكذا نجد لقب أمير المؤمنين في مختلف مراسلات أحمد المنصور وإخوته وذريتهم ، ونرى أن ننقل فيما يلي فقرة من إحدى مراسلات المنصور إلى سكية إسحق بشأن إقناع هذا الأخير بالخضوع لسلطة ملك المغرب ، وفي هذه النبذة ، يتجلّى طموح أحمد المنصور وآماله البعيدة من وراء إشادته بالخلافة النبوية .

تقول الرسالة[4] :

«...وإذا تقرر لديكم ، أن من البر اقتفاء الأبناء أثر الآباء والجري في المآثر الجميلة على جادتهم البيضاء ، وأخبرتم أن جدكم ابن ذي يزن[5] أول من آمن بجدنا المصطفَى ﷺ وصدق ، وبشر جده شيبة الحمد بما أمره قد تحقق ، وأتحفه لذلك بأجل التحف ، وخصه من بين عشيرته بمزية الفضل والشرف ...فأحرى أن تؤمنوا أنتم باتباع شرائعه ﷺ التي هي بعد البعثة أوضح من شمس الظهيرة ، وأضوى من الكواكب المستنيرة ، وأمره «ﷺ» قد لاح كالفلق ، وطلع طلوع البدر في الغسق ، وتأتمّوا بهذه الإمامة المقدسة التي عمت أنوارها مشارق الأرض ومغاربها ، وجابت جيوب البسيطة ومناكبها ، وتمتثلوا أوامره الشريفة ، فما افترض الله لهذه الخلافة النبوية من السمع والطاعة والانخراط بمبايعتها في ملك الجماعة ، وتساجلوا جدكم في هذا المضمار ، وتقتفوا أثره في هذا الارتقاء الى ذروة هذا

---

(1) الناصري ، استقصا ، 5 ، 11

(2) Terrasse, Histoire du Maroc 2, 175

(3) Ibid.p. 66

(4) Georges Pianel, Haspéris, 1, 2, 1953

(5) اشارة إلى أصل «سكية» الحميري . لأنه ينحدر من صنهاجة التي ينسبها بعضهم إلى حمير .

المنار، والاستضاءة بهذه الأنوار، وتحرزوا ببركتها خير الدارين في الإيراد والإصدار، وتنتظموا في سمط حزب الله الملحوظ بعين العناية والاعتبار....»

وإذا كان قيام الدولة قد بدأ بتنصيب القائم بأمر الله سنة 915هـ «1510م» فقد تطلب افتتاح المراكز الرئيسية بالمغرب لتصبح جهازاً حقيقياً مدة لا تقل عن نصف قرن، فباستثناء دولة الموحدين، وإلى حد ما دولة المرابطين، لم تلجأ أي دولة مغربية أخرى إلى دعاية منظمة للاستيلاء على الحكم وتدعيم النظام، فكان العمل العسكري والحالة هذه، الوسيلة الفعالة لقهر السلطة القائمة. وهكذا فلم تخضع كل مناطق المغرب للسعديين بسهولة.

وبلغت الامبراطورية السعدية أوج فتوحها في عهد المنصور بعد صراع تجاوز ثلاثة أرباع قرن، وخضعت مملكة بورنو الشاسعة لحكم المنصور لأسباب سياسية وبصفة تلقائية، بينما اقتضى ضم السودان تدخلاً عسكرياً.

واتخذ السعديون مراكش عاصمة لهم، هذه المدينة العظيمة التي أفل نجمها أو كاد إبان العصر المريني المتأخر، وأيام الوطاسيين، ولم يكن قربها من سوس حيث منطقة أنصار الدولة الأولين هو السبب الوحيد في اتخاذها عاصمة، ولو أنه فعلاً عامل رئيسي، فهناك أيضاً آمال ملوك الدولة في مد فتوحهم جنوباً حيث المنطقة الوحيدة التي تتوفر فيها كل عوامل الخضوع بسهولة، اذا راعينا الأساليب العسكرية حينئذ. فعلى الرغم من أن أطماع السعديين في التوسع شرقاً قد تجسمت في وقت مبكر نسبياً، ودولتهم لم يقر بعد قرارها في الداخل، فإنهم سرعان ما تخلوا عن مضايقة الأتراك بعد موت الغالب، وبذلك أقاموا دولة شاسعة الأطراف بعيدة عن منطقة نفوذ الدولة العثمانية.

وقد كان من الأعمال الأولى التي يباشرها السلطان السعدي، الاعتقال الاحتياطي لبعض أقاربه تجنباً لتمردهم[6]. ومع ذلك، فإن الذين كانوا يتمتعون بحريتهم وامتيازاتهم الأميرية أكثر خطراً على العاهل، من هؤلاء المعتقلين.

وكان على السلطان أول بيعته أيضاً، أن يفرق المال على العساكر والفقهاء والمساكين، ويعين ولاة جدداً[6] ويتلقى البيعة مراسلة وحضوراً[7].

---

(6) مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 29.

(7) ن. م. ص 40.

(8) الناصري، استقصا 5 ص 8، 15، 18، 21، 38، 57، 91.

ولكل ملك مهما ضاق نفوذه لقب وكنية فضلاً عن الاسم ، من ذلك مثلاً : أبو فارس عبد الله الواثق بالله . وهكذا[9] فإن أول ملوك الدولة لم يتخذ لقب السلطان ولا الخليفة ، ولكن كان له كنية ولقب ، فهو ابو عبد الله محمد القائم بأمر الله ، وهذا يعني إعلاناً للملكية في وقت مبكر ، وبصفة غير مباشرة .

ويختلف مكان البيعة بحسب الظروف ، فؤسس الدولة مثلاً بويع بتيدسي قرب تارودانت بسوس ، التي بويع بها أيضاً أبو العباس أحمد الأعرج ومحمد المهدي الشيخ ، على أن هذا استطاع أن ينتزع اعتراف مراكش والوطاسيون لا يزالون في الحكم ، بينما تمت بيعة الغالب وعبد الملك المعتصم وزيدان وعبد الله بن الشيخ بفاس ، والمتوكل وأبي فارس بمراكش ، كما بويع المنصور بوادي المخازن ثم بفاس ، أما الملوك الثلاثة الأخيرون فقد بويعوا بمراكش حيث انحصر نفوذ السعديين قبيل سقوط دولتهم ، وذلك بالإضافة إلى الجهات المجاورة . وبين الأمراء من أعلنوا أنفسهم ملوكاً بطريق غير شرعي كمحمد المامون وعبد الله ابنه . وحيث إن مشكلة العرش واكبت حياة الدولة السعدية منذ تأسيسها ، فقد كان أهم مظهر لها أن البيعة لم تنعقد على شخص واحد دائماً ، فقد رأينا ما حدث من نزاع بين أبي العباس أحمد الأعرج وأخيه محمد المهدي الشيخ ، ثم ما فعله المتوكل من لجوء إلى البرتغال ، وهم من الوجهة السياسية أعداء المغرب ، غير أن أخطر مشكلة حول وراثة العرش إنما أحدثها أحمد المنصور بتقسيم البلاد إلى إمارات بين أبنائه ، تلك السياسة التي سلكها الأدارسة قديماً بإشارة زوجة إدريس الأول ، فلم يكد الشعب يطلع على وفاة المنصور حتَّى أعلنت كل من فاس ومراكش ملكاً بها ، فقد كان التنافس على أشده بين المدينتين في العهد السعدي ، وظلت فاس محط أنظار الدول الحاكمة منذ ما قبل هذا العهد بقرون ، نظراً لمركزها الاقتصادي والاجتماعي والعلمي ، لذلك كان تخلف إحدى المدينتين عن بيعة ملك ، يعني انتصار قسم كبير من السكان لجانب المدينة المتخلفة .

وقد كانت البيعة تتم بمحضر القضاة والفقهاء والوجهاء ، ويسجل نصها كتابة حتَّى يصبح نصها صكاً ملزماً ، وقد جرى هذا الإجراء قبل قرون ، سواء بالمشرق أو المغرب ، حيث توقع الشخصيات الأكثر تمثيلاً للسكان ، من فقهاء وزعماء وقضاة وغيرهم على نص البيعة .

---

(9) الافرني ، نزهة ، ص 309.

ومن أهم عقود البيعة ، النص الذي كتبه أبو فارس عبد العزيز الفشتالي عن المنصور بمناسبة موافقة ملك بورنو على الدخول في طاعته[10] ، ونلاحظ إسهابه وتأكيده لقرشية الخليفة وانتماء المنصور إلى الأسرة النبوية ، وفيه يلتزم ملك بورنو شخصياً ، وباسم رعيته ، بمبايعة أحمد المنصور ، مع التأكيد بواسطة اليمين على إقرارهم مقدماً ، بالتحلل من الإسلام في حالة خروجهم عن طاعة الخليفة . وقد كتب نص البيعة أول سنة 990هـ «1582م».

وكان ملوك السعديين يتخذون نواباً عنهم في المدن الكبرى من أمراء الأسرة الحاكمة[11] ، ويحمل كل منهم لقب خليفة (أي الذي يخلف العاهل في تدبير شؤون الإقليم).

وكان من التنظيمات البارزة التي أحدثها أحمد المنصور مجلس استشاري أطلق عليه اسم الديوان أو مجلس الملأ ، على أن لفظ «الديوان» استعمال فارسي ثم عربي ، ولكن كان يقصد به في العصور الاسلامية الماضية الإدارة أو المصلحة .

أما أحمد المنصور فقد استمد فكرة الديوان وحتى التسمية نفسها من تقاليد العثمانيين الذين كان لهم في كل من افريقية والمغرب الأوسط ، ديوان هو عبارة عن مجلس عسكري ، مهمته مراقبة تصرفات الباشا وموافاة الباب العالي بما يهمه من أخبار في هذا الصدد . وكان يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع ويتولى النظر في المظالم والشؤون الادارية والعسكرية والسياسة الخارجية[12] .

أما ديوان المنصور فكان يجتمع مرتين في الأسبوع : الأربعاء والاثنين ، ويستعرض مختلف القضايا السياسية والعسكرية وغيرها من قضايا الساعة . ويتركب الديوان من شخصيات كثيرة ، فيهم ممثلو السكان والقواد العسكريون وعدد من القضاة والفقهاء والموظفين السامين ، وهذا المجلس نفسه هو الذي بت في قضية إشهار الحرب على السودان وترشيح محمد المامون ابن المنصور ولياً للعهد ، كما أثبت ذلك الفشتالي في المناهل ، والأفرني في النزهة . ومن أعضاء هذا الديوان : القائد

---

(10) الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 106.

(11) م.م. تاريخ الدولة السعدية ، ص 33 . الافرني ، نزهة ص 83 ، الناصري . استقصا ، 5 ، 38

(12) Mercier, l'Afrique Septentrionale, 3, 134

مومن بن الغازي الغماري[13]، والوزير عبد العزيز الفشتالي، والمفتي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف السجلماسي[14].

وكان الديوان ينظر في المظالم التي كانت أهم ما يعرض عليه من القضايا أيام السلم. وقد كان المنصور يوليه أهمية بالغة[15].

وقد كان لهذا الديوان نظير بجمهورية الرباط – سلا بعد أن تحول حوض أبي رقراق إلى يد الأندلسيين. ومن مزايا هذا الديوان المحلي أنه كان منظماً عن طريق الانتخاب، بينما كان ديوان المنصور عن طريق التعيين.

والجدير بالذكر أن هذا المجلس الشوري الذي اهتدى المنصور وحده من بين ملوك السعديين إلى تأسيسه لم يكن أول من ابتكره من بين ملوك المغرب، إذ لا يخفَى أن كلاً من المرابطين والموحدين والمرينيين اعتمدوا على مؤسسات استشارية تختلف اختصاصاتها وكفاءاتها.

وفي القضايا ذات الأهمية القصوى كان مجلس المنصور يضاف إليه شخصيات فكرية أو ذات مكانة اجتماعية، من فاس ومراكش وسائر المدن والبوادي[16].

واشتهر عن المنصور خاصة أنه كان في مقابلاته يتحدث إلى الناس من وراء حجاب حتَّى انتقد عليه العالم أحمد بابا هذا الإجراء ورفض أن يتحدث إليه قبل أن يرفع حجابه[17]. والراجح أن الملوك السعديين غيره لم يتخذوا الحجاب.

وتزودنا عدد من المراجع المعاصرة بتفاصيل عن حياة الملوك الخاصة ومظاهر الملك بوجه عام، مما يلقي مزيداً من الضوء على تصرفات هؤلاء وسلوكهم تجاه الرعية، حتَّى إن مظاهر بعض الاحتفالات الراهنة نجد لها صورة طبق الأصل مما جرى عليه السعديون قبل أربعة قرون.

وكان للعاهل عدد من كبار الموظفين ومساعديهم يتولون القيام بمهمات مختلفة خاصة بالبلاط أو الملك نفسه، وفي مقدمتهم المشرف على الحفلات العامة ومنظم المجلس الملكي والمسؤول عن تنفيذ العقوبات والمصادرات التي يقررها القضاة.

---

(13) الأفراني، نزهة، ص 148.
(14) الناصري، استقصا، 5، 111.
(15) ن. م. ص 179.
(16) ابن القاضي، لقط الفرائد، ص 178.
(17) المكوسي، مناقب الحضكي، ورقة 16.

وهناك خمسون جندياً يركبون المهارى ، وهم مدربون أحسن تدريب ، ويقومون بتبليغ أوامر الملك إلى العمال وكبار الموظفين ، وبلغ عدد الحرس الخاص في أيام «مرمول» وهو شاهد عيان ، خمسين ألف رجل ، وهناك عدد من حملة الرايات إلى جانب المكلف بخيام الملك ، وعلاّف الدواب والسائس الذي كان تحت يده ستون ألفاً (؟) من الإبل ، وللجيش عدد كبير من الطبول النحاسية التي يعْنَى بها عناية خاصة ، ويخصص لأصحابها جياد خفيفة ، وكان من العار أن يسقط طبل أو راية[18].

ونقل السعديون أكثر عوائد البلاط الداخلية عن الوطاسيين ، من طريق العريفة بنت خجّو التي نظمت حياة الملوك الداخلية في مطعمهم ومشربهم ولباسهم وعلاقاتهم بالحريم ، منذ عهد محمد الشيخ المهدي ، وكانت من قبل في خدمة البلاط الوطاسي[19].

كذلك يعود الفضل في تنظيم التشريفات والاستقبالات إلى شخص عمل بالبلاط السعدي في أيام العاهل المذكور ، ويدعى هذا الشخص قاسم الزرهوني[20].

ولقد رسم «دوفران» صورة مظلمة عن حياة البلاط السعدي الذي قال عنه إنه كان مسرحاً للفضائح المختلفة والرشوة والخيانة ، أما الشعب في العاصمة ، فكان كما يقول : «لا يرى إلا قصبة تموج بالحياة : مواكب ضخمة من الأشراف ، بطنابيرها وراياتها وزيها التركي الرائع ، وحرسها من العلوج وذلك في المناسبات الدينية ، بينما كان هو نفسه ، يعاني الكثير من البؤس والضنك»[21].

وعلى الرغم من أن كلام دوفران أقرب ما يكون إلى الحقيقة فإن شعوب العالم في كل الجهات لم تكن أسعد حالا في جملتها من الشعب المغربي ، كما أن البلاطات الغربية في هذه الحقبة كانت تعيش في بذخ دونه بذخ البلاط المغربي بكثير.

وكان من موظفي القصر أيضاً ، القهرمانة (أمينة المال بالقصر) ، وصاحب الثياب[22] وعدد من الفتيات المغربيات والمسيحيات اللواتي يصحبن نساء الملك عند

---

(18) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 178

(19) الأفرني ، نزهة ، ص 55.

(20) ن. م. ص

(21) Deverdun, Marrakech, 1 : 417

(22) الناصري ، الاستقصا ، 5 : 171.

خروجهن[23]. ومن مظاهر الملك التي اتخذها الملوك السعديون بالمغرب لأول مرة ، الاحتماء من عوارض الجو بواسطة مظلة يحملها موظف من البلاط ، وكان أحمد المنصور أول من فعل ذلك في خرجاته الرسمية[24].

والتزم ملوك السعديين ببعض التقاليد المعينة في استقبال السفراء ، لا سيما أحمد المنصور الذهبي الذي توافد على بلاطه سفراء وشخصيات من بلاد كثيرة ، كتركيا وفرنسا وبورنو والحجاز وبيت المقدس واسبانيا والبرتغال وغيرها[25].

ومن أشهر البعثات الدبلوماسية لدى البلاط السعدي ، سفارة فيليب الثاني إلى أحمد المنصور ، برئاسة «دون بيدرو فينيكاس» سنة 1579 ، وقد وفدت محملة بهدايا إلى العاهل المغربي وتطلب منه أن يتنازل لإسبانيا عن ميناء العرائش (!) كما تشكره على تسليم جثة دون سباستيان دون مقابل[26].

وتضم السفارة راهباً مترجماً، مع العلم بأن أحمد المنصور لم يكن يجهل الاسبانية ، وعدداً كبيراً من الملحقين ، ونحو خمسين خادماً ، وقد نزل هذا الوفد بميناء آسفي في 11 يوليوز حيث حيته كوكبة من الحرس الشرفي من مائتي جندي ، وصدحت موسيقى الكوكبة ، كما قصف المدفع بمجرد نزول الوفد إلى الميناء . وبعد مقامه أسبوعاً بدار خصصت له قدم قائد باسم المنصور لمرافقته إلى مراكش ، وقد استغرق السفر ستة أيام ، وقبل وصوله بمرحلة ، وجد خيلاً مطهمة بسروج مذهبة غير التي قدم بها من آسفي . وما كاد يدخل مراكش حتّى هب الأوروبيون القاطنون بها لتحيته ، كما استقبلهم القائد رضوان وبمعيته عشرون من قواد المملكة الرئيسيين ، وهم جميعاً بلباس تركي . وهناك خصص للوفد ثلاث دور بما فيها منزل السفير. وفي 30 يوليوز ، مثل الوفد بين يدي المنصور الذي كان يرتدي حلة مذهبة ويحمل سيفاً وخنجراً من الذهب كما يضع في عنقه طوقاً ذهبياً مزخرفاً بالجواهر واللآلئ .

غير أن أحمد المنصور لم يستقبل من شخصيات الوفد إلا السفير وقريبين له رافقاه وترجمانه ، والباقون ظلوا في ساحة مقابلة لقبة الاستقبال ، بحيث يشاهدون

---

(23) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 173

(24) الافرني ، نزهة ، ص 198 و 200 . وقد كان العبيديون من أسبق الملوك بالشمال الافريقي الى اتخاذ المظلة .

25 ــ ن. م. ص 211.

(26) De Castries, Sources inédites, France, 3. Champion.
Le Maroc et ses villes d'art, p. 97. J.Caillé, la petite histoire du Maroc, p. 88

ويسمعون ما يجري بها من مراسيم وأحاديث ، وكانت القاعة مغطاة بالزرابي ويحرس مدخلها أسودان يرتدي كل منهما قفطاناً من الديباج .

ثم تقدم السفير ، فأظهر المنصور كأنه يهم بالوقوف تشريفاً له ، ثم انحنى بين يديه ، فوضع المنصور يده على رأسه ، ودعاه إلى الجلوس بقربه على زربية ، وبعد أن أعرب السفير عن امتنان ملكه لمبادرة المنصور بشأن جثة دون سباستيان ، طلب منه أن يقبل هديته الودية التي لا يعتبرها جزية أو فدية ، وهي مجموعة أحجار كريمة ذات قيمة عالية ، وقد سُر لها المنصور كثيراً ، وكان يريها لحاشيته قطعة قطعة بمحضر الوفد الإسباني .

وقد تقابل دون بيدرو مرتين أخريين مع العاهل المغربي ، وكانت الثالثة مقابلة وداع . ولم تنتج نتيجة تذكر في الميدان السياسي ، ولكنها وطدت العلاقات الودية بين البلاطين .

وكان أحمد المنصور يصحب في أسفاره فسطاطاً عظيماً يمكن فكه ، حيث يتألف من عدد كبير من الحجرات والحواجز ، وكان يدعَى بـ «السياج[27]». ولم يكن المنصور الذهبي أول من اتخذ هذا القصر المتنقل كما ذكر اليفرني وغيره ، فقد سبقه الوطاسيون إلى ذلك كما سبق في الحديث عنهم ، غير أن «السياج» كان أعظم وأجمل .

وفيما يخص جهاز الحكم ، لم يحدث تغيير يذكر بالنسبة لشكل الحكومة المرينية وهكذا فإن الموظفين الأساسيين ظلوا هم : الوزير والحاجب وقاضي الجماعة ، إلى جانب عدد كبير من الكتاب[28] .

وحظي أهل سوس بنصيب لايستهان به من وظائف الدولة ، فكان فيهم قواد جيش وسفراء ورؤساء شرطة وحتَّى الحرس الخاص[29] .

وكانت الدولة بمجموع أجهزتها تعرف باسم «المخزن» كما كانت قبل ذلك بقرون . غير أن الطبقة المحافظة من أقصَى اليمين كانت تكره العمل في وظائف الدولة التي لاتلجأ إليها إلا اضطراراً[30] .

---

(27) الافرني ، نزهة ، ص 204.

(28) Deverdun, Op, Cit.

(29)محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 20.

30 ــ محمد العربي الفاسي ، مرآة المحاسن ، ص 170.

ولاية العهد :

لم تنظم وراثة العرش أو ولاية العهد بشكل يضمن أكثر ما يمكن من الاستقرار للدولة . لذلك فإن أدعياء العرش من الأسرة المالكة كثروا بشكل لم يتقدم له مثيل في أي دولة سابقة ، حتَّى إن قاضي فاس ابن أبي النعيم ، ومفتيها القصار أصدرا فتوى من نص الحديث : « إذا بويع لخليفتين ، فاقتلوا الأخير منهما ». وكان ذلك حكماً صريحاً ضد مبايعة أبي فارس بمراكش خلفاً للمنصور الذهبيِ. وكان أهل فاس قد بادروا بمبايعة زيدان ، وعرضوا على أهل مراكش بيعته فرفضوها مبايعين أبا فارس[31] .

وقد حاول مؤسس الدولة ، القائم بأمر الله أن ينظم ولاية العهد عن طريق ترشيح ابنه الأكبر أبي العباس الأعرج ليخلفه ، ولكن الظروف لم تكن مواتية لتتخذ هذه المبادرة صفة إجْمَاعية، إذ لم يكن نفوذ السعديين يتجاوز حينئذ منطقة سوس (سَنة 918هـ 1512م) كما أن كلا من أحمد المنصور وأخيه أبي مروان عبد الملك لم يقرّ بيعة ابن أخيهما المتوكل ، بينما اهتدى بعض كبار الدولة إلى ترشيح محمد المامون ولياً للعهد بعد سنة من مبايعة والده ملكاً (أي عام 987هـ1579م). وكان المامون سيئ السيرة ، وقد جددت بيعته ولياً للعهد سنة 992هـ «1584م» ، ولكنه لم ينعم بالملك أبداً ، إذ ظل في حرب مستمرة مع زيدان حتَّى هلك سنة 1022هـ «1613م».

ولم تنقطع ثورة أدعياء العرش قط ، فإن محمد المامون الملقب بزغودة نصبه أهل الهبط بمحضر الشيخ الحسن بن ريسون ، غير أن أخاه عبد الله قضَى على ثورته بعد جهد سنة 1030هـ «1620م» فاستولى على فاس وسمى نفسه سلطاناً وضرب السكة باسمه ، وهو الذي قتل ابن عمه المذكور الملقب بزغودة[32] سنة 1037هـ «1627م».

وعلى الرغم من الاحتياطات الكثيرة التي كانت تتخذ في عهد الملوك الأولين لضمان أكثر ما يمكن من الاستقرار عن طريق الترشيح المبكر لمن سيخلف الملك القائم فمن المؤكد أن الاختيار كان غير موفق في الغالب بسبب تعدد الأدعياء من جهة ، .وعدم إعداد ولي العهد للملك إعداداً لائقاً وشعبياً من جهة أخرى ، كما

---

31 ـ الأفرني ، نزهة ، ص 310 . الناصري ، استقصا ، 6 . 4 .

(32) Mercier, l'Afrique Septentrionale, 3,201 et 219

كان الشأن في عهد المرابطين، ولمدة سبعين سنة من عهد الموحدين. وهكذا فإن تأهيل ولي العهد للعرش لم يكن يكفي أن يكون بطريق تعيينه عاملاً أو «خليفة» للملك في منطقة من البلاد، ذلك أن وراثة العرش لم يكن لها ضابط قانوني ولا تراعى فيها مصلحة الأمة. فإذا كانت هناك ردود فعل عنيفة لدى السكان فإن في داخل القصور وكواليس الدولة تحبك مؤامرات لا تعبأ بمصلحة الأمة. وحتّى نساء القصور وأمهات الملوك وكلهن تقريباً من أصل مسيحي لعبن دوراً لا يستهان به في تدبير المؤامرات والتضريب بين الإخوة والأقارب.

على أن الملوك الأولين باشروا وهم أولياء العهد، مهمة الصراع ضد الاحتلال الأجنبي كما تولوا مناصب سياسية وإدارية. وهكذا قاد أبو العباس الأعرج إلى جانب والده، حملات لطرد البرتغال من الشواطئ الأطلسية، وكان المتوكل الملقب فيما بعد بالمسلوخ، عاملاً على فاس من قبل والده الغالب، وكان المنصور عاملاً بها في أيام عبد الملك المعتصم.

وقد حاول أحمد المنصور أن يجعل من شخص ولي العهد ملكاً أصغر، أي يتوفر بصورة مصغرة على جميع مظاهر الملك، فيكون له هو أيضاً عدا وزيره الخاص، قائد للمحلة وحاجب وكاتب سر وصاحب مشور وصاحب مظالم، وما يلزمه من الجند والرماة وغير ذلك، اقتداء بالدول السابقة. غير أن المامون لم يكن في مستوى مسؤوليته، وقد كان من بوادر استخفافه بهذه المسؤولية أن اتخذ كتّاباً لا يحسنون الإنشاء حتّى انتقد عليه ذلك والده إذ كان على هؤلاء أن يحرروا المراسلات إلى عدة دول فضلاً عن المراسلات الداخلية[33].

ومن مستحدثات المنصور الذهبي التي أصبحت بعده تقليداً متبعاً، إلزام الذين يعنيهم أمر البيعة بأداء اليمين على المصحف وصحيحي البخاري ومسلم[34].

الوزراء والحجاب :

سبقت الإشارة إلى أن السعديين لم يقوموا بتغيير يستحق الذكر في جهاز الحكم الذي ظل في شكله العام كما تركه المرينيون والوطاسيون.

على أن أول ظاهرة يمكن أن نلاحظها بهذا الصدد أن الملوك الأولين كثيراً ما

---

(33) الناصري، الاستقصا، 5، 174.
(34) الأفرني، نزهة ص 174.

اتخذوا الوزراء من أقرب أقربائهم ، فقد كان أبو العباس أحمد الأعرج بمثابة وزير وحاجب لوالده القائم بأمر الله قبل أن يتولى هو نفسه الملك . وكان محمد المهدي يتولى مهام الوزير المستشار لدى أخيه الأعرج ، وكان أبو محمد عبد القادر الحران وزيراً لوالده المهدي الشيخ(35) ، وقد توفي في حياة والده سنة 959هـ ، كما أن محمداً ابن هذا الوزير استوزره عمه الغالب بالله(36) الذي كان له وزير آخر أيضا يسمّى ابن شقراء(37) . على أن الناصري سمى في الاستقصا بعض الحجاب وزراء للغالب أيضاً وهو غير ما في نزهة الحادي(38) .

ومن وزراء المنصور عبد العزيز المزوار ، ومولاه مولود ، والناصر بن علي بن شقراء ، وأبو سالم إبراهيم السفياني(39) ، وعلي بن منصور الشيظمي(40) .

ومن وزراء زيدان ، الباشا محمود ، ويحَيى أجانا الوريكي ، ومن وزراء عبد الله بن الشيخ ، أحد الثائرين بفاس : القائد حمو بن عمرو والقائد أحمد ابن عميرة .

ومن وزراء عبد الملك بن زيدان : جؤذر باشا ومحمود باشا ويحَيى أجانا الوريكي الذي وزر هو وابنه محمد ، لمحمد الشيخ بن زيدان .

ويختلف هؤلاء الوزراء مقدرة وكفاءة ، كما يختلفون سيرة وسلوكاً ، فقد كان ابن شقرا وزير الغالب مثلاً ، خليعاً ، يسكر جهاراً ويرتدي أزياء متخنثة(41) ، في وقت ضرب فيه الصلحاء المثل في الزهد والقناعة . وكان عبد العزيز المزوار وزير المنصور من رجال العلم والحرب معاً ، حتّى لقد زعموا أنه جمع خزانة تحتوي على خمسين ألف مجلد(42) . وكان من بين الوزراء ذوي الشخصية القوية(43) .

---

(35) الأفرني ، نزهة ، ص 69.
(36) نزهة ، ص 97 . وعباس المراكشي ، إعلام ، 4 ، 172.
(37) الناصري ، م ، س ، ص 54.
(38) ن. م، ص 57 ، ونزهة الحادي ، ص 99.
(39) ناصري ، ص 169.
(40) ن. م. ص 152.
(41) الأفرني ، نزهة الحادي ، ص 87 و ص 357.
(42) ن.م. ص 274.
(43) ن.م. ص 294 و 318 ، ناصري ، 5 ، 66 ، 116 ، 178.

وكان بعض الوزراء يكلفون بمهات حربية . حتَّى يمكننا أن نقول إن محمود باشا قائد حملة السودان ووزير زيدان وعبد الملك ابنه . كان بمثابة وزير الحربية والقائد الأعلَى للجيش في عهدهما . والواقع أن هذه الشخصية العسكرية السياسية بحاجة إلى دراسة خاصة أكثر تفصيلاً . وقد شغل هذا الرجل فيما سبق ، أي في عهد احمد المنصور مهمة أمين المال أي أمين الخزينة العمومية . كما كان مدير صندوق القصر الخاص[44] وقائد العلوج ، وهو من الوزراء القليلين في الدولة السعدية . الذين وفقوا إلى أن يحظوا بثقة ثلاثة ملوك على التوالي . غير أنه من المؤكد أن الملوك السعديين لم يحظوا في الغالب بوزراء مقتدرين يستطيعون أن يفرضوا وجودهم في دولة مزق شملها تطاحن الأدعياء وانحراف الأمراء . وعلى العموم ، فهؤلاء الوزراء هم مستشارون أكثر مما هم ذَوو نفوذ حقيقي واختصاصات محددة .

وكان لأنجال الملوك وزراؤهم الخاصون . لا سيما المرشحين المنتظرين للملك ، أو الذين توكل إليهم مهمات سامية في الدولة . وعلى سبيل المثال كان القائد عبد الرحمن بن تودة وزيراً لمحمد المتوكل أيام والده السلطان الغالب[45] .

أما الحجاب . فكانت مهماتهم لا تختلف في شئ عن مهمات الحجاب أيام الوطاسيين ، ومن الحجاب الأولين في عهد أبي العباس الأعرج : محمد بن علي الأنكراطي اليملالي ، ومحمد بن أبي زيد المنزاري ، ومن حجاب محمد المهدي الشيخ : علي بن أبي بكر أزيكي الحاحي ، وهو الذي فتك بأبي العباس الأعرج وأسرته ، وموسَى بن جمادى الغماري .

ومن حجاب عبد الله الغالب : عبد الكريم بن موسَى الجندي، والقائد ابن تودة الذي تقدم ذكره ، وأصله من العلوج الذين دخلوا الإسلام كما ذكر الأفرني . ثم قاسم الزرهوني الذي عمل من قبل في البلاط الوطاسي وأحمد الهبطي .

ومن حجاب عبد الملك المعتصم : رضوان العلج ، وهو من قواد الجيش .

ومن أبرز حجاب المنصور ، أبو محمد عزوز بن سعيد الوزكيتي[46] .

ومن حجاب الملوك المتأخرين ؛ محمد بن قدار[47] (1037هـ).

---

(44) افرني . ص 196 ، 198.

(45) ناصري . 5 . 42.

(46) الفشتالي . مناهل . ص 25.

(47) عبد الكريم بن المجذوب . تذكرة المحبين ، وفيات سنة 1037هـ.

الكتـاب

اعتمد أغلب الملوك السعديين على كتاب ذوي أسلوب جيد وثقافة واسعة متينة ، وكان فيهم من يجيد الشعر والنثر معاً ، ولعل أهمية الكتاب الخاصين لم تكن تقل أهمية من غيرهم من الوزراء والحجاب . فقد كان الأكفاء من هؤلاء الملوك يعلقون أهمية بالغة على الأسلوب الرصين الذي لابد منه في مراسلة ملوك وأمراء الخارج فضلاً عن الإدارة المركزية والإقليمية . ومن ثم كان اختيار الكتاب يقوم على سعة أفقهم الأدبي وقدرتهم الإنشائية لدى الملوك المقتدرين خاصة .

ومن بين كتاب أحمد الأعرج : سعيد بن علي الحامدي . ومن كتاب عبد الله الغالب : محمد بن عبد الرحمن السجلماسي ومحمد بن أحمد بن عيسَى[48]. كما استكتب عبد الملك المعتصم : أبا محمد السرغيني[49] وأبا عبد الله بن عمر الشاوي الذي كتب للمنصور أيضاً[50].

واستكتب أحمد المنصور ألمع الشخصيات الفكرية التي انجذبت إلى الوظائف الرسمية، ومن بينها : أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ، وأبو عبد الله محمد بن عمر الشاوي ، وأبو الحسن علي بن أحمد الشامي ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسَى صاحب «الممدود والمقصور من سنا السلطان أبي العباس المنصور»، وأبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي ، وأبو عبد الله محمد بن يعقوب اليوسي صاحب الفهرست[51] (وهو غير أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي صاحب الفهرست أيضاً) و «المحاضرات» الذي توفي سنة 1102هـ «1691».

ومن كتاب زيدان ابن المنصور : عبد العزيز بن محمد التغلبي[52] أما محمد الشيخ المامون فأبرز كتابه : ابن الغرديس أحمد بن محمد التغلبي الذي كان كاتباً مؤرخاً نسابة مبرزاً في الإنشاء[53]، توفي بفاس سنة 1020هـ «1610م».

---

(48) الافرني . نزهة . ص 100.
(49) م. م. تاريخ الدولة السعدية ، ص 35.
(50) نزهة ، ص 210.
(51) ن. م. ص 271.
(52) استقصا 6 . 70.
(53) نزهة ، ص 324 . القادري ، نشر المثاني ، ج 1 ، الاستقصا . 6 . 23 المراكشي . اعلام . 2 . 78.

واشتهر عن المنصور الذهبي أنه نظم أوقات عمل الكتاب وتشدد في ذلك حتّى كان يعاقب المخالفين. وكان للكتاب رئيس يرجعون إليه. وممن شغل منصب رئاسة الكتاب في بلاط المنصور أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، وأبو عبد الله محمد بن يعقوب اليوسي(54). وفي فاس كان رئيس الكتاب أيام محمد المامون هو ابن الغرديس التغلبي(55).

وقد اخترع المنصور حروفاً خاصة أو ما نسميه اليوم بالشيفرة، وكان يمزجها بالحروف العادية ولا يطلع عليها إلا أبناءه أو كبار المسؤولين الذين يزودهم بنسخة منها متى كلف أحدهم بمهمة، ويراسلونه بنفس الطريقة، حتّى إذا ضاع الخطاب لسبب ما لم يعرف ما فيه(56). كما أن العناوين نفسها تكتب بالشيفرة. وكان المنصور مع ذلك يتقن الخط المشرقي. ونلاحظ أن إدخال تعليم الخط وتخصيصه بمدرسين متخصصين كان له شأن في هذا العهد بالمؤسسات التعليمية.

وكانت هناك تقاليد خاصة بالمراسلات الملكية، من ذلك أن أكثر ملوك السعديين لم يكونوا يوقعون الرسائل بأيديهم، باستثناء عبد الملك المعتصم الذي كان يتقن الإسبانية والإيطالية، فضلاً عن العربية(57)، ويمضي الرسائل بخط يده. ومن الوثائق الاوروبية رسالة وجهها هذا العاهل بالإيطالية، وبإمضائه اللاتيني إلى شارل التاسع، من بلاد الجزائر، حيث كان لاجئاً سنة 1574م، كما وجه رسالة بالإيطالية سنة 1576م إلى القناصل الموجودين بمرسيليا، وثالثة بالإسبانية إلى فيليب الثاني حول مشروع معاهدة(58) سنة 1577م.

وكان ملوك الاسبان يعتبرون عدم إمضاء الرسائل من قِبل السعديين نوعاً من الإهانة، حتّى لقد كانوا يكتبون أحياناً أسفل جوابهم أو مراسلاتهم: (أنا الملك!)(59).

وكان من علامات المصادقة على صحة الرسائل الملكية إلى الخارج، عبارة:

(54) افرني، نزهة، ص 273.
(55) ن. م. ص 324. استقصا. 5. 188.
(57) De Castries, les signes de validation,p.3
(58) Ibid
(59) Ibid.p. 6

صحح ذلك ، وكذا الحمدَلة التي تمتاز بسعتها وتعقدها ، وهي أشبه ما تكون بالطغراء .

وكانت كتابة الحمدلة (الحمد لله) العادية عرفاً جارياً منذ العهد الموحدي في أول الرسائل . وقد كان يعقوب المنصور الموحدي أول من استعمل هذه العبارة في مقدمة الرسائل ، ثم شاع هذا الاستعمال في الدول الاسلامية[60] . كما استخدم السعديون علامة الحمدلة في عُملتهم أيضاً . وكانوا كثيراً ما يختمون رسائلهم بعبارة «توكلت على الله وحده»[61] .

ومن مخلفات السلطان زيدان رسالة كتبها إلى هولندا في 24 دوال 1025م (4 نونبر 1616) وفيها يتبرأ من وكيله بلياش الذي زور علامته . ومما جاء فيها :

«...مما نعرفكم أن الذمي بلياش قد استعمل علامتنا في براءتين وقعتا بأيدينا هنا ، ولما اتصلنا بالبراءتين وعلمنا خيانته خشينا أن يكون استعمل أيضا ، علامتنا في كتب هنالك ببلادكم ، ولأجل ذلك ، عرفناكم لتمعنوا النظر فيما عسَى أن يستظهر هناك علامتنا ، وتميزوا علامتنا التي هي علمنا ، وما هو مستعمل عندنا ....»

ونلاحظ أن أسلوب المراسلات في جملته جيد[62] ، وإن كان يسوده بعض الزخرف وخصوصاً السجع ، مع شيْ من طول الجمل[63] . ونفس الأمر يقال عن نصوص البيعة الملكية[64] . أما المراسلات الدبلوماسية فتمثل في جملتها أروع نماذج الأسلوب السعدي إذا صح هذا الوصف ، وهي على الرغم من أسجاعها لا تستثقل ، كما أنها تمتاز بإيجازها وترابط معانيها مع تأدبها في المخاطبة والعرض[65] . ومن مزايا الظهائر جودة أسلوبها واختصارها ، حيث تدل كل فقرة أو جملة على معنَى محدد[66] .

---

(60) Op. Cit.pp. 10-11 واستعمل الزيريون الحمدلة من قبل ولكن لم تشع أيامهم.

(61) Op.Cit. p.8

(62) الناصري ، استقصا ، 5 ، 66

(63) ن. م. ص 147 و 170

(64) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي ، ص 370

(65) انظر نماذج منها في مجلة تطوان ، ع 2 ، 3 ، ص 54 ، لمحمد بن تاويت ، كما أورد دوكاستري في مجموعته عدداً كبيرا منها .

(66) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 67 .

ولما كان بعض الأمراء والملوك لا يتوفرون على كتاب مقتدرين ، فقد تجلت الركاكة والأسلوب العامي في خطاباتهم . ومن ذلك مثلاً ، ما ورد في كتاب من محمد الشيخ المامون إلى فيليب الثاني ملك اسبانيا : «...ورجع لنا من غير قضيان الغرض » وقوله : «...وأما نحن ما نحتاجو فيكم شيْ...»[67].

وورد في بعض رسائل الناصر كلمات دارجة لا زلنا نستعملها ، مثل «نخلّيو» (أي نترك) و «باش» و «أنا بداتي نخدمه». كما نجد عبارات وألفاظاً دارجة أصبحت نادرة أو مهملة مثل : «التجاير» عوض «التجار». وقوله : «لا يعمل فينا لوم[68]».

وقد أطلق على بعض رؤساء الكتاب لقب «وزير القلم الأعلَى» نظراً للمكانة الحقيقية التي حظوا بها لدَى الملوك السعديين ، ومن بينهم .

1) محمد بن علي بن إبراهيم القشتالي الذي انتدبه المنصور سفيراً بالقسطنطينية .

2) أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن أبراهيم القشتالي مؤرخ الدولة السعدية وصاحب «مناهل الصفا» و «ديوان المتنبي» الذي رتبه على حروف المعجم بأمر المنصور .

3) محمد بن أحمد بن عيسَى الذي توفي بالسجن سنة 990هـ ، وكل هؤلاء ناظم ناثر[69].

وقد استخدم السعديون في مراسلاتهم عدة لغات كالعربية والفرنسية والإسبانية والايطالية . وإن استعمال اللغات الأجنبية في خطابات ملكية يدل على أن اعتبار اللغة كعامل في الوعي القومي وتقدير المسؤولية الوطنية لم يكن يدخل في التقاليد الملكية لهذا العهد . ومن جهة أخرى ، فقد استخدم السعديون في أواخر دولتهم ، الطابع عوض الإمضاء باليد على رسائلهم .

القضـــاة

لعب القضاة دوراً بالغ الأهمية في عهد الدولة السعدية ، حيث كان اختيارهم يقع في الغالب على أساس ثقافة فقهية واسعة ، وكان لهم إلى جانب ذلك مواقف

---

(67) De Castries, les signes de validation, p. 18

(68) Robert Ricard et Ch. De la Véronne, Sources, Espagne, 1, 192, 194, 196, 230, 231

(69) ابن القاضي . درة الحجال . أرقام 630 . 656 . 1056 . المقري . نفح الطيب . 9 . 277.

سياسية برهنوا فيها عن شجاعتهم ، وأكثرهم كانوا مثال الاستقامة والنزاهة ، وتقدم المراجع أسماء وتفاصيل عن عدد كبير منهم ، كدرة الحجال ، وصفوة من انتشر ، ونزهة الحادي ، وحتّى بعض كتب التراجم الحديثة كالإعلام لعباس ابن ابراهيم المراكشي ، وتاريخ تطوان لمحمد داود ، وإتحاف أشراف الملا لابن علي الدكالي .

وظل منصب قاضي الجماعة بالمدن الكبرى خصوصاً فاس ومراكش ، من أهم الرتب القضائية إذا لم يكن أهمها من حيث سعة نفوذ صاحبه وحظوته . ومن أبرز من تولوا هذا المنصب في عهد عبد الله الغالب بمراكش أبو القاسم بن علي الشاطبي ، وبفاس عبد الواحد بن أحمد الحامدي ؛ وفي عهد المهدي أبو الحسن علي بن أحمد الاخصاصي بفاس ، والحسن بن أبي بكر بمراكش .

وفي عهد أحمد المنصور عاد إلى هذا المنصب أو أقِرّ فيه بعض قضاة الجماعة السابقين كالشاطبي بمراكش والحامدي بفاس . وخلف الشاطبي بفاس أبو عبد الله محمد الركراكي 1022هـ «1613م».

وفيما يلي ترجمة موجزة لكل من الحامدي والشاطبي بوصفهما أشهر قضاة الجماعة في هذا العهد وأطولهم مدة في تقلد هذا المنصب :

1) أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي أو الحامدي[70] من أسرة مثقفة بفاس ، وكان على اطلاع واسع في الفقه المالكي حتّى كان يرجع إليه في مسائله ، وهو من تلاميذ أحمد الونشريسي وعبد الوهاب الزقاق ، كما أنه أستاذ أبي المحاسن الفاسي والقاضي ابن أبي نعيم ، وقيل إنه اشتغل بتجارة الثياب الخلقة مدة قبل أن يستكمل دراسته ، وقد اطلع اليفرني على مخطوط «جذوة الاقتباس» لابن القاضي الذي كتب فيه ترجمة الحامدي ثم شطب بالحمرة على قوله : «كان حافظاً لمذهب مالك ، إلا أنه نبذ الشريعة المحمدية وراء ظهره ، وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه ، إلا أنه لا يبالي بما فعل ، حتّى إنه اكتسب هو وأولاده شهرة جليلة ».

على أن آخرين وصفوه بأنه أعدل قضاة المغرب ، وقد استقضي بفاس منذ عهد المتوكل سنة 970هـ ، واستمر في منصب قضاء الجماعة إلى وفاته سنة 1003هـ «1594م» حيث دفن بروضة أبي زيد الهزميري بباب الفتوح بفاس ، وهو من

(70) الافرني ، صفوة من انتشر ، ورقة 98 ، ابن القاضي ، جذوة ، الكتاني ، سلوة الأنفاس 2 ، 60 ، عباس المراكشي ، أعلام ، 4 ، 171 .

أطول القضاة ولاية . وقد حضر جنازته محمد الشيخ المامون ، وعدد كبير من سكان فاس وبينهم النساء والأطفال «وكان الناس يقتتلون من شدة الازدحام» كما يقول صاحب «سلوة الأنفاس».

2) أبو القاسم علي بن مسعود الشاطبي قاضي الجماعة بمراكش[71] ، ولد سنة 933هـ «1526م» جمع بين الخطابة والقضاء والتدريس ، وسمع صحيح البخاري من المنصور الذهبي وكان يحفظه من كثرة تكراره . وهو أستاذ أحمد المنجور .

وقد عمل الشاطبي سنوات طويلة في القضاء قبل أن يتوفّى سنة 1002 هـ «1593م» .

أما السودان فكان يعين بها قاضي القضاة الذي يستقر بتومبوكتو ، ويشرف على سائر المنطقة[72] . وأول من تولى هذا المنصب بعد الفتح أبو جعفر عمر بن العاقب الصنهاجي . وجل سكان تومبوكتو لهذا العهد وما قبله من صنهاجة ، وكثير من القضاة الذين كانوا يعينون بالسودان ينتمون إلى مناطق المغرب الجنوبية كأحمد الفيلالي وأحمد بن سعدون الشياظمي[73] ، وذلك ليألفوا بسهولة طقس السودان وطبيعة الحياة فيه ، وهي تتقارب مع شكل الحياة في الأقاليم الجنوبية .

ومن قضاة الأقاليم عبد الله بن عمر المطغري قاضي درعة في عهد محمد المهدي الشيخ ، وأبو مهدي عيسَى بن عبد الرحمن السكتاني قاضي تارودانت في عهد زيدان ، وأبو زيد عبد الرحمن الغنامي الشاوي المعروف بسيدي رحو قاضي تامسنا في عهد محمد الشيخ بن زيدان[74] ، وعبد الواحد الصديق التازغدري بتازروالت أيام أحمد المنصور[75] ، وأبو العباس أحمد بن العربي الغماري الكومي بمكناس أيام المهدي[76] .

---

(71) الافراني . صفوة ما انتشر ، ورقة 50 ، نزهة ، ص 276 ، ابن القاضي ، درة الحجال رقم 1338 القادري ، نشر المثاني . 1 . 24.

(72) الافراني ، نزهة ، ص 279.

(73) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 308.

(74) الاستقصا ، 6 ، 61 ، و 86.

(75) محمد البشير الفاسي . قبيلة بني زروال . ص 11.

(76) عبد الرحمن بن زيدان . اتحاف . 1 . 304.

ومن كبار قضاة الأقاليم في عهد المنصور محمد بن الحسن بن عرضون بشفشاون ، وهو فقيه نحوي أديب[77] ، والحسن بن مسعود الحاجي فقيه نوازلي بأغمات[78] ، وأبو القاسم بن محمد الغساني بأزمور وهو تلميذ المنجور وعبد الواحد الحامدي ويحيى السراج[79].

ومن الملاحظ أن أكثر هؤلاء القضاة جمعوا بين الفقه والأدب ، أو بين الروح القضائية والأدبية حتّى لقد كان أشهرهم كالشاطبي والحامدي وابن عرضون وغيرهم يقرضون الشعر ويتذوقونه ، بل وقد يسفون فيه[80] ، وهذا مما لم تعرفه الأسرة القضائية على العموم في دول المغرب الماضية ، ذلك أن ملوك الدولة السعدية كانوا أكثر تحرراً من سابقيهم ، وهم مع ذلك مثقفون ، بل متضلعون في عدد من فنون المعرفة ، كالمنصور وزيدان والمهدي وغيرهم ، أضف إلى ذلك كثرة احتكاك المغاربة بعناصر أجنبية من أتراك واسبان وغيرهم ، فضلا عن العناصر الأندلسية الإسلامية التي كانت تمثل أكثر الفئات الإسلامية تحرراً.

وفي المراكز الكثيرة السكان يوجد أيضاً نائب للقاضي كما في سلا[81] ومكناس[82] وتطوان[83] وتامنارت[84].

على أن أهم تجديد أدخله السعديون في ميدان القضاء هو إحداث منصب خاص بصاحب المَظالم يباشر اختصاصاته بصفة دائمة، وإليه ترد أحكام القضاة والولاة على اختلافهم ، فقد كان ملوك المغرب فيما سبق يتولون النظر في المظالم بأنفسهم ولا ينيبون عنهم فيها أحداً إلا بصفة مؤقتة كما في عهد بني مرين . أما ملوك السعديين فقد أحدثوا هذا المنصب لتقبل الشكايات واستئناف الأحكام ، وإن كان يبدو أن صاحبه كان عمله إدارياً أكثر منه قضائياً ، إذ كان على الملك أو نائبه أن يبت في المظالم بنفسه كما هو معروف عن المنصور مثلاً.

---

(77) ابن القاضي ، درة الحجال . رقم 679.
(78) درة الحجال . رقم 375.
(79) درة الحجال . رقم 1340.
(80) نزهة ، ص 276.
(81) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 377.
(82) ن . م. رقم 1271.
(83) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 1 ، 278.
(84) درة الحجال ، رقم 1488.

وممن ولي المظالم في عهد هذا السلطان : علي بن سليمان التاملي الجزولي[85] وفي عهد نائبه بفاس (محمد المامون) : ابن الغرديس التغلبي[86].

وكان هناك كتاب مساعدون لصاحب المظالم الذي يعد منصبه من أرفع الرتب ، إذ هو كالوزير والحاجب ، من أقرب المساعدين للملك ، وبذلك أخذ قسماً من اختصاصات قاضي الجماعة بالعاصمة الذي كانت له درجة مماثلة فيما سبق، ومع ذلك ظل كل من قاضي الجماعة بالعاصمة بمراكش، وزميله بفاس يَحْتَلُّ الصدارة بالنسبة إلى من دونهما من سائر القضاة، وكان يشتركان في المجالس الاستشارية والمناقشة في القضايا الهامة.

أما مجلس المظالم الذي يترأسه السلطان فهو يشكل أعلى سلطة قضائية حيث يشترك فيه عدد من الفقهاء والقضاة والمفتين . ومتَى خرج الخليفة من العاصمة إلى مدينة فاس ، اشترك في مجلس المظالم عدد من هؤلاء من كلتا المدينتين[87].

وقد كان المنصور مع هذا ينظر في المظالم بصفة يومية تقريباً : يجلس بمقصورة مسجد القصبة بمراكش ، وتارة في الضريح المجاور لجامع القصبة ، وينظر في الشكايات والقضايا ويحكم فيها ، ولا يتخلّى عن ذلك حتَّى أيام الديوان . وإلى ذلك ينتدب سنوياً ، مفتشين لتفقد أحوال السكان في الأقاليم[88] ويقدمون إليه التقارير بذلك ، حتَّى يكون اطلاعه أكمل ، على مجرى العدالة والإدارة في نواحي البلاد .

وكان تعيين المفتين من اختصاصات الملك[89] ويشمل نفوذهم منطقة واسعة ، وممن تولى منصب الفتوى في ناحية الهبط ، أبو القاسم علي بن خجو الحساني[90] . وفي فاس يحيَى بن محمد السراج النفزي[91] ، تلميذ عبد الوهاب الزقاق ، وعبد الواحد الونشريسي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن جلال ؛ وفي مراكش محمد

(85) ن. م. رقم 1275 .
(86) عباس المراكشي ، أعلام ، 2 ، 78 .
(87) ن. م. ج 4 . 265 .
(88) ابن القاضي . المنتقى المقصور . ورقة 62.
(89) الأفرني . صفوة . ورقة 9.
(90) ابن القاضي . درة الحجال . رقم 1441 .
(91) درة الحجال . رقم 647.

شقرون ابن هبة الوجديجي التلمساني[92]، وأبو مالك عبد الواحد الشريف[93].

ولعل أشهر المفتين في هذا العهد وأغزرهم علماً، مفتي فاس محمد القصار القيسي[94] الغرناطي أصلاً وأباً، وهو تلميذ أبي نعيم رضوان، وجار الله محمد خروف الأنصاري وغيرهما. وبلغ من سعة اطلاعه فيما قيل، أن المغاربة لم يكونوا يعتنون في هذا العهد بما عدا النحو والفقه والقرآن، حتَّى انتفعوا بالقصار والمنجور في فنون كثيرة. وبديهي أن الأدب والرياضيات والتاريخ قد نفق سوقها في هذا العهد أكثر من أي وقت مضَى على يد مثقفين كثيرين. ويظهر أن تجهيل المغاربة عن طريق هذه الرواية إنما هو من عمل العناصر الأندلسية، خصوصاً وأن كلا من المنجور والقصار من أصل أندلسي.

ومع غزارة معلومات القصار، لم يكن يشتغل بالتأليف، كما لاحظ ذلك الافرني في «صفوة من انتشر». غير أن تقاييده كانت في بطاقات، حتَّى بيعت تركته منها بالأرطال كما قيل. وكانت وفاته سنة 1012 هـ 1603م بمراكش، حيث دفن إلى جانب أبي العباس السبتي.

وكان كثير من المفتين يجمعون بين الخطابة والفتوى، كيحيَى السراج، وابن جلال، وكان كلاهما خطيباً بجامع القرويين. ومهمة المفتي أن ينظر في حل القضايا المستعصية التي لا يتسع وقت القاضي لتخريجها. وكان كثير من ملوك الدولة السعدية على درجة عالية من المعرفة القضائية والفقهية، حتَّى لقد كانوا هم أنفسهم يصححون أخطاء القضاة، كما عرف عن المهدي والمنصور وغيرهما[95].

أما العدول، فنجد أنفسنا أمام رأيين متناقضين عن تصرفاتهم، فبينما نوه مرمول بنزاهتهم، وقد عاش كما يقول، عشر سنوات بين المغاربة[96] نرى كاتباً قديراً من كتاب أحمد المنصور، وهو محمد بن عمر الشاوي. يصفهم في شعر له بالخلو من الكفاءة والعلم بالتوثيق، كما يصفهم بحداثة السن[97] وعدم النزاهة. ورأي الشاوي

---

(92) ابن القاضي، لقط الفرائد، ص 177.

(93) الأفرني، نزهة، ص 204، الناصري، الاستقصا، 5، 152.

(94) المحبي، خلاصة الأثر، 4، 121، الأفني، صفوة، ورقة 9، عبد الكريم الفاسي، تذكرة المحبين، ص 315، القادري، نشر 1، 62.

(95) الأفرني، نزهة، ص 221، الناصري، الاستقصا، 5، 35.

(96) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 142

(97) الأفرني، نزهة، ص 270.

قد يكون موضوعاً للنقد أكثر من رأي مرمول . فمع ما نعلمه من كفاءة معظم القضاة وغزارة معارفهم الفقهية بوجه عام ، لا نرى أن هؤلاء يسمحون بالتعاون مع موثقين كالذين وصفهم الكاتب الشاعر.

وفي هذا العهد ، بل قبله بكثير ، نجد نظار الأحباس ، قد استقلوا كلياً أو كادوا عن القضاة فهم أصبحوا موظفين إداريين ، يساعدهم عدولهم الخاصون ، وجباة أو قابضون[98].

ويمكن القول إن اختصاص القضاة لم يتجاوز الميدان الشرعي ، وبالتالي ، اختصاصات قضاة العهد الوطاسي ، ذلك أن الولاة الإداريين (الباشا ، العامل ، القائد) ظلوا يبتون فيما نسميه اليوم بالجنح والقضايا المدنية[99]. غير أن بعض القضاة قد توكل إليهم مهام استثنائية كما في الميدان السياسي مثلاً[100].

وكلمة القضاء في جل الحالات محترمة بقوة الظهير السلطاني[101]، إذ كان الملوك وحتّى رؤساء الأقاليم المستقلة يحمون كلمة القضاء . وكثيراً ما يحملون القضاة على التزام جانب العدالة والنزاهة[102] ، وندر أن يتحدوا السلطة القضائية[103].

ويمتاز قضاة العهد السعدي بشجاعتهم ، وكونهم لا يخافون في الحق لومة لائم[104]. وقد روي أن الحامدي انتقد أمام المنصور السعدي مشهد امرأة وسط جماعة من الرجال والنساء ، وكلهم مغلولون ، وهي بينهم على هذه الصفة تتألم من المخاض ، فلفت العاهل نظره إلى وجوب أخذ الناس بالشدة ...

وكان في القضاة من لا يحيد عن مبدئه مهما كان الثمن ، كالقصار الذي تسمك بدعوة أحمد المنصور وهو لما يتول الفتيا والخطبة[105] ، كما تمسك بدعوة زيدان بعده حتّى كاد يكون فيها حتفه ؛ وقد هلك فعلاً وهو في الطريق إلى مراكش ،

(98) عبد الكريم الفاسي ، (ابن المجذوب) ، تذكرة ، ص 317 ، 398.
Milliot, Démembrement des Habous, p. 45
(99) محمد داود ، تاريخ تطوان 1 ، 397.
(100) الناصري ، الاستقصا ، 6 ، 98 ؛ الأفرني ، نزهة ، ص 408.
(101) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 67 ، 68.
(102) الزياني ، قصة المهاجرين البلديين ، ص 478.
(103) ن. م. ص 477.
(104) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1341 ؛ الأفرني ، نزهة ، ص 258.
(105) استقصا ، 5 ، 145.

حيث كانت تنتظر محاكمته من لدن أبي فارس[106] ؛ وكأبي مهدي السكتاني قاضي تارودانت الذي رفض التخلي عن بيعة زيدان ، حتّى كاد زعيم سوس أبو زكرياء الحاحي يبطش به[107].

العمال والولاة :

كان على رأس الأقاليم عمال أو نواب عن السلطان يطلق عليهم لقب الخليفة ؛ وكان تحت إشراف العامل جماعة من القيادات على رأس كل منها قائد أو باشا ؛ وقد تحدد استعمال لفظ «القائد» أو «الباشا» على الصعيد الإداري منذ عهد الوطاسيين، ولو أن لقب الباشا لم يشع إلا أيام السعديين، وهو استعمال تركي يعطي لحامله صلاحيات إدارية وقضائية ومالية . وكان الباشا أو الداي من الألقاب التي استعملها الأتراك في تونس والجزائر ، وكلاهما يعني الحاكم العام الذي كان تحت إمرته ، القواد في الأقاليم ، وهؤلاء يليهم شيوخ القبائل[108].

ويمكن القول بتعبير أدق ، أن الفرق بين القائد والباشا لم يتحدد لدى السعديين على الصفة المذكورة ، بيد أن لقب الباشا كان يعني امتيازات خاصة في الميدان العسكري ، وممن حمل هذا اللقب ، جؤذر باشا ، ومحمود بن زرقون قائد حملة السودان.

وأول مبادرة لجأ إليها السعديون فيما يخص التنظيم الإداري للأقاليم ، أن أسندوا إدارتها إلى أشخاص من الأسرة الحاكمة . فعبد الله الغالب مثلاً ، أسند إقليم فاس الى أخيه عبد المومن[109] .وفي سنة 969هـ 1562م عين مكانه محمد المتوكل ابنه ، كما عين على مكناس نجله أبا النصر، وعلى تادلا ابنه الناصر، ثم نقل أبا النصر إلى تادلا[110].

وفي عهد المنصور قسمت عمالات المغرب كما يلي بين أبنائه : أبو فارس : سوس . أبو الحسن علي : عمالة مكناس ونواحيها . زيدان : تادلا . ثم نقل زيدان إلى مكناس وأبا الحسن إلى تادلا[111] . أما فاس فقد ميز بها ولي عهده محمد

---

(106) الأفرني ، صفوة من انتشر ، ورقة 9 ؛ الاستقصا ، 6 ص 4 و 6.

(107) استقصا . 6 . 61.

(108) Pellegrin, Histoire de la Tunisie, p. 146

(109) Mercier, l'Afrique Septentrionale, 3, 86

(110) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 350.

(111) الافرني ، نزهة الحادي ، ص 175.

المامون حيث كان نائباً حقيقياً عنه بها ، ثم أقصاه عنها بعد أن ظهر فساد سيرته . وفي أواخر حياته عين أبا فارس خليفة عنه بمراكش[112] .

وظلت فاس غالباً تحت السلطة المباشرة للأمراء السعديين الذين كانوا يعينون بها عمالاً أو خلفاء ، وعلى العموم فقد كان المرشحون لهذه العمالة الهامة مرشحين في ذات الوقت لتولي السلطة الملكية . وهكذا تولى الغالب عمالة فاس أيام والده محمد المهدي الشيخ ، وتولاها محمد المتوكل أيام والده الغالب ، وتولاها أحمد المنصور أيام أخيه عبد الملك ، كما تولاها محمد الشيخ المامون في عهد والده المنصور .

أما مراكش فلم تكن ولايتها تسند دائماً إلى الأمراء ، فكثيراً ما استعمل عليها غيرهم ، مثل علي بن أبي بكر أزناك أيام محمد المهدي الشيخ وعبد الله أعراس الذي ولاه هذه المدينة ، عبد الله بن المامون أحد الأمراء الثائرين من أحفاد أحمد المنصور[113] .

غير أن المناطق الإدارية التي كانت تسند إلى الأمراء تبلغ درجة كبيرة من الامتداد ، فقد كانت منطقة فاس في عهد المعتصم مثلاً ، تشمل شمال المغرب حتَّى العرائش وما والاها[114] ، وكان عليها في هذا الوقت أحمد المنصور ، على أنها كانت مقسمة إدارياً بين عمال تابعين لسلطته . وقد شهدت هذه المنطقة أحداثاً أليمة في عهد الخليفة محمد المامون وابنه عبد الله ، وكان كلاهما سيئ الإدارة ، فقد حدثت مظالم كثيرة في عهدهما ، وكان المامون لا يصلي ، كما كان يعتدي على الأعراض ويتعاطى التبغ والحشيش ويغتصب أموال السكان ويصادر أموال ضباطه وحاشيته[115] . وعندما وجه إليه المنصور قائده إبراهيم السفياني لمحاولة نصحه وإرجاعه إلى رشده تخلص منه بتسميمه[116] .

أما القواد فمهامهم كذلك إدارية وعسكرية ، وتتوفر مراجع التاريخ السياسي على أسماء الكثيرين منهم ، كالقائد بركة بسلا[117] ، وأحمد بن موسَى بالعرائش[118] وعبد المولى بن عيسَى بتكاوست (كوليمين) ووادي نول .

(112) الناصري . استقصا . 5 . 176.

(113) الاستقصا . 5 . 34 . و 6 . 8 . نزهة . ص 314.

(114) نزهة . ص 139 .: استقصا . 5 . 67.

(115) Fagnan, Extraits inédits, p. 419

(116) Op, Cit.p.

(117) نزهة . ص 288.

(118) الاستقصا . 5 . 83.

وبلغت مملكة المغرب أوج اتساعها في عهد المنصور الذهبي ، حيث تاخمت من جهة الجنوب الشرقي بلاد مصر ، لأن العثمانيين لم يكن لهم اهتمام بالأقاليم الصحراوية . وهكذا اقتضى تضخم مساحة المملكة توظيف عدد كبير من الولاة والقواد ، ومنذ أيام محمد المهدي الشيخ ظهرت رغبة السعديين في التوسع شرقا على حساب الباب العالي الذي بادر بإرسال سفير إلى هذا الملك يطلب منه وضع تخطيط مشترك للحدود بين المغرب وإيالة الجزائر[119] . والظاهر أن هذا السفير لم ينجح في مهمته ، حيث تم اغتيال محمد المهدي بعد قليل من وفادته .

أما إدارة إقليم السودان فقد كلفت السعديين غالياً لبعدها السحيق ، على أن السودانيين لم يرحبوا بهذه الإدارة على الدوام ، فقد ثاروا أكثر من مرة ضد السعديين[120] . غير أن حسن إدارة بعض القواد العامين ضمن احتفاظ هذا الاقليم بولائه لهذه الدولة[121] ، على الرغم من الحروب الأهلية التي نشأت داخل المغرب بسبب التناحر بين الأمراء على العرش . فالسودان والحالة هذه لم تشهد دائماً فترات سيئة من الحكم السعدي ، وممن عرفوا بحسن القيادة يوسف القصري ، وحدو بن يوسف الأجناسي[122] .

وقد احتفظ السعديون مع هذا بأمراء السودانيين يباشرون سلطة رمزية على مواطنيهم بإشراف القواد المنتدبين من المغرب[123] ، على أن الجيش بدأ يعين قواده مباشرة ابتداء من 1021هـ 1612م .

أما الرباط وسلا فقد احتفظتا باستقلال ذاتي منذ عهد السلطان زيدان سنة 1023هـ 1614م ، غير أن السلطان ظل يباشر سلطته الرمزية عليهما ، وكان السكان ينتخبون قائدهم لمدة سنة كما ينتخبون ديوانهم (المجلس الاستشاري) الذي يستقر بالقصبة ، ومن القواد سنة 1038هـ 1629م محمد بن عبد القادر صيرون . وفي سنة 1039هـ 1630م احمد بن علي البشير . وكان الانتخاب مقصوراً على سكان القصبة ، ثم سمح للأندلسيين سنة 1630م باختيار ممثل عنهم إلى جانب

(119) نزهة ص 78.
(120) عبد الرحمن السعدي . تاريخ السودان . ص 181.
(121) ن. م. ص 223.
(122) ن. م. ص 223 و 226.
(123) عبد الرحمن السعدي . تاريخ السودان . ص 303 و 310.

العامل ، وبانتخاب الديوان مناصفة بين الفريقين[124]. وكان سكان القصبة من الموريسكيين ، وهم الأندلسيون الذين خضعوا مدة لحكم الاسبان قبل طردهم . أما القضاة فكان يعينهم السلطان .

غير أن النزاع استمر مع ذلك بين سكان القصبة والأندلسيين بالرباط من جهة ، وبين سلا والرباط من جهة أخرى ، حتَّى تدخل المجاهد العياشي الذي أخضع المدينتين معاً لسلطته قبل سنة من وفاته ، أي عام 1051هـ 1640م ، فخلفه ابنه عبد الله الذي انتصر عليه الدلائيون[125] سنة 1054هـ 1643م .

وعندما استولى الدلائيون على الرباط وسلا عين أبو عبد الله محمد الحاج رئيسهم ولده البكر عبد الله قائداً عسكرياً وإدارياً عليهما ، فاستقر بالقصبة ، ونوب عنه بسلا الحاج الجنوي ، وهو علج من جنوة . وقد مارس الدلائيون نفوذهم على الرباط وسلا مدة عشرين سنة لم يحدث فيها نزاع بين المدينتين[126].

ولنأخذ صورة حقيقية عن مدى نفوذ السعديين على مناطق المغرب منذ عهد السلطان زيدان إلى نهاية دولتهم ، ينبغي أن نذكر الأقاليم والجهات التي خرجت عن سلطتهم كلياً أو جزئياً :

1) سبتة ومليلية (إسبانيا)، والجديدة (البرتغال) .

2) سوس وسجلماسة ودرعة : أبو حسون السملالي ، ثم ابنه أبو عبد الله الذي احتفظ بسوس .

3) الغرب والمناطق الممتدة من تازا إلى تامسنا : العياشي .

4) الرباط وسلا : العياشي ثم الدلائيون .

5) تطوان : أولاد النقسيس .

6) نفوذ الدلائيين شمل فاس والقصر الصغير وتطوان شمالاً ، وتامسنا غرباً ، وامتد إلى ملوية شرقاً ، متجهاً في الجنوب نحو ناحية سجلماسة ودرعة (وهاتان تحت نفوذ أبي حسون السملالي ، ثم العلويين).

وشهدت فاس ظهور عدد من الثوار المحليين الذين حكموها في أوقات مختلفة :

---

(124) Mission Scientifique, Villes et tribus...Rabat, 1, 67

(125) Op. Git, p. 76

(126) Op. Cit, p. 78

1) أبو الربيع سليمان الزرهوني سنة 1020 ــ 1026هـ .
2) عبد الرحمن الخنادقي سنة 1027هـ.
3) محمد بن سليمان اللمطي وعلي بن عبد الرحمن وآخرون سنة 1032هـ .

وفيما بين ذلك كانت فاس تتأرجح بين ثوار الأسرة المالكة ، ثم موالاتها للعياشي فالدلائيين .

وأكثر ملوك الدولة السعدية اهتماماً بحالة الأقاليم ونشاط الولاة والعمال ، هو أحمد المنصور الذهبي الذي كان لا يقبل من كتابه تأخراً في الرد على مراسلات الولاة ، وكان يقول : كل شيء يقبل التأخير ، إلا أن يجاب العمال على رسائلهم[127] . وكان لا يتردد في عزل ومعاقبة الطغاة منهم[128] . وإذا كان خلفاؤه قد اشتهروا بضعف السياسة وسوء التدبير ، فإن الزعماء الشعبيين كان فيهم من وفق إلى إدارة المناطق الموالية له عن جدارة ، وعلى الخصوص العياشي والدلائيون ، فقد كانت لهم مواقف نبيلة في معاملة السكان بالعدل واللين[129] ، مع الشدة على الممالئين للأعداء الدخلاء . ذلك أن كثيراً من العناصر ، أمراء وموظفين وغيرهم ، كانوا يتعاونون مع العدو لأسباب سياسية أو مادية ليست من مصلحة الوطن في شيء[130] .

ومن أهم المناصب الإقليمية والمحلية ، منصب صاحب الشرطة وصاحب الأشغال ، وقد سبق ذكرُ اختصاصاتهما ، ويبدو أنه لم يلحقهما تغيير في عهد السعديين .

الجيـش :

انضم إلى عناصر الجيش السعدي منذ البداية ، عنصر الأتراك في عهد محمد المهدي الشيخ ، وقد كانوا من قبل في خدمة الوطاسيين . وكان قائد هذه الفرقة هو صالح باي ، ثم تعاقب بعده قواد آخرون . غير أن أهم عنصر استعانت به الدولة في بدايتها من حيث العدد والولاء للدولة ، هو عنصر المصامدة ، وعلى الخصوص عنصر المصامدة الذين نشأت الدولة بين ظهرانيهم .

(127) الأفني ، نزهة ، ص 202.
(128) الفشتالي ، المناهل ، ص 43 ، 44 ، 143.
(129) أبو أملاق ، الخبر عن ظهور العياشي ، ص 50 ، الزياني ، قصة المهاجرين البلديين ، ص 480.
(130) Robert Ricard, Sources inédites, Espagne 191, 204, 452

أما عبد الله الغالب ، فقد جمع من أهل الأندلس طوعاً أو كرهاً نحو أربعة عشر ألفاً ، وسجلهم في الديوان بقيادة سعيد بن فرج الدغالي أحد مجاهدي تطوان ، وهو من أصل غرناطي[131] ، ثم أسكنهم بالجانب الغربي بمراكش وسماهم جيش النار.

وقام أبو مروان عبد الملك المعتصم من جهته بإعادة تجميع عناصر الجيش حسبما ساقه الزياني في الترجمان المعرب[132] :

1) العناصر التي قدمت معه من الجزائر أو في طريقه إلى مراكش ، وتتركب من علوج وصعاليك من الأتراك تخلفوا عن الحملة التركية التي ساعدته على تبوإ العرش مكان أخيه ، ومنهم اتخذ موظفي القصر الخاصين من خدم وحجاب وطباخين وغيرهم. وكان العلوج ينتمون إلى بلاد مختلفة كإسبانيا والبرتغال[133] ، وكان المسيحيون يسمونهم بالمرتدين ، لأنهم غالباً ما يعتنقون الإسلام.

2) عسكر الأندلس بفاس ومراكش «14 ألفاً».

3) بربر الشمال وغيرهم كزواوة ووهاصة ومديونة وبني يزناسن وأهل الريف ، الخ ...«خمسة آلاف» وقد سماهم عسكر العجم «!».

4) عرب الشراقة من حشم وبني عامر وغيرهم «خمسة آلاف». والشراقة أو الشراكة «بالكاف المثلثة» هم أعراب بادية تلمسان ، سموا بذلك ، لأنهم قدموا من النواحي المتاخمة لشرقي المغرب.

5) عسكر الغرب : سفيان ومالك والخلط «خمسة آلاف».

6) عسكر الحوز : الشبانات وأولاد جرار ومطاع «خمسة آلاف».

أما أحمد المنصور فقد أعاد تنظيم الجيش على أسس جديدة تتفق وأحدث التنظيمات العسكرية ، ويقدم الفشتالي[134] وصفاً شيقاً لتوزيع فرق الجيش والحرس الخاص وعناصره ومهامه ، وقد نقل هذا الوصف عنه كل من «الأفرني» في نزهة الحادي و «الناصري» في الاستقصا وغيرهما ، فلا طائل في نقله هنا برمته ، ونجتزىء منه بما يلي :

---

(131) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 350.

(132) الترجمان المعرب ، ص 353.

(133) Champion. Le Maroc et ses villes d'art, p. 109. Deverdun, Marrakech, 1, 444

(134) الفشتالي ، مناهل ، ص 162.

كان حرس المنصور يتألف من مجموعتين رئيسيتين : الترك من جهة ، والعلوج ومن انضاف إليهم من جهة أخرى ، وهاتان المجموعتان تكونان الجيش النظامي ، ومن قسم منهما تشكلت ست فرق :

1) البياك ، وهم حراس القبة والفسطاط .

2) السلاق «بضم فشد» ، ويقفون خلف هؤلاء .

3) بَلْبَردوش ، وهم مسلحون برماح قصيرة ركبت عليها أسنة عظام ويقفون خلف السلاق .

4) الشنشرية ، لشؤون المطبخ .

5) القبجية «بفتح القاف» لحراسة الأبواب والمشور وتعهد المجلس الملكي بالتنظيف .

6) الشواش ، لترتيب صفوف الجيش وتبليغ الأوامر السلطانية .

ومن جهة أخرى ، فهناك ثلاث فرق تشارك في الحرب ، وثلاث لخدمة السلطان الخاصة[135] . ولكل من هذه الفرق زي خاص على النمط التركي .

وتمثل حملة السودان مدى أهمية الجيش السعدي ، فقد قيل إن المنصور استمر يهيئ لهذه الحرب مدة ثلاث سنوات ، وأنه أمر بخروج المضارب والمباني إلى وادي تانسيفت حيث وزعت الأعمال والأثقال وقسمت الفرق بحيث يكون تحت كل قائد ألف من الفرسان والرجالة ، ومجموعهم عشرون ألفاً يضاف إليهم من المعلمين والبحرية والطبيجية ألفان[136] . وكان إقلاعهم عن العاصمة سنة 999هـ . والظاهر أن محمود باشا الذي تابع فتح السودان قد صحب معه قوات احتياطية هامة ، إذ نرى السعديين قد فقدوا آلافاً من رجالهم لأسباب أكثرها غير عسكري[137] . وقد صرح المنصور أثناء استشارته لرجال الدولة بصدد الحملة ، أن القصد منها هو البحث عن موارد ثمينة لتقوية جيشه ، وقد كان طموحاً إلى أن يبسط نفوذه على ما وراء المغرب ، خصوصاً الأندلس ، بل كان يتمنَّى أن يعيد إلى الإسلام وحدته[138] .

---

(135) Terrasse, Histoire du Maroc 2, 193

(136) الزياني ، الترجمان ، ص 354.

(137) باذل دافيدسن ، إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ص 180.

(138) نزهة ، ص 159 و 170.

وكان من عادة الملوك السعديين قبل شن الحرب ، أن يلجأوا إلى أسلوب المفاوضة أولاً ، والنصح ثانياً ، وأخيراً إلى الإنذار الذي يشفعونه بإجراءات الحرب العادية[139] .

وكانت الدولة تلجأ إلى إلزام السكان بنفقات الحامية التي تستقر بأرضهم ، ولكن التنظيم الذي أحدثه المنصور جعل أرزاق الجند منتظمة من مال الدولة ، الذي نما بفضل ازدهار صناعة السكر من جهة ومناجم الذهب التي أصبحت تحت تصرف الدولة من جهة أخرى ، مع العلم أن حملة السودان قد ساهم الشعب في نفقاتها الخاصة .

أما زي الجيش الذي تم توحيده حسب التنظيمات السابق ذكرها ، فيتألف أساساً من كساوي الملف بسراويلها الفضفاضة التي لا يزال يمثلها إلى حد ما ، زي الحرس الملكي الحالي ، بالإضافة إلى شعارات خاصة بفرق الحرس .

ولما كان من الضروري تحصين المراكز الرئيسية ضد الهجمات التركية والاسبانية ، فقد أعيد بناء الحصون على أساس صلاحيتها لاستخدام المدافع ، وهكذا بنى أحمد المنصور حصن تازا وأبراج فاس بالشمال والجنوب ، والأبراج الركنية عند أسوار فاس الجديد ، كما أعيد بناء تحصينات قصبة مراكش ، بحيث تحتمل أبراجها المدفعية الخفيفة[140] . وإلى جانب تجهيزات دفاعية في عدد من الموانئ والمراكز الداخلية ، استخدم السعديون التحصينات البرتغالية التي ظلت سليمة في جملتها .

والواقع أن السعديين لم يفتروا عن الاهتمام بالجيش حتَّى وفاة المنصور . وقد ظلت بعض الأسلحة العتيقة كالسيوف تستعمل إلى جانب الأسلحة الحديثة ، من بارود وبنادق ورصاص ومدافع وقنابل ، غير أن الأسلحة العتيقة فقدت أهميتها بطبيعة الحال ، حتَّى لقد كادت تترك مكانها كلياً للآلات والأدوات الحربية الحديثة في أواخر الدولة .

وكان الجيش يتوفر أثناء الحملة على كل ما يلزمه من جراحين وأدوية وضمادات فضلاً عن عدد من الحلاقين والنجارين والتقنيين على اختلافهم[141] .

---

(139) ن. م. ص 152 و 154. G. Pianel, Hespéris 1,2 - 1953

(140) Terrasse, Op. Cit. p. 194

(141) م.م. تاريخ الدولة السعدية ، ص 51.

واستعملت كل المصطلحات العسكرية التركية تقريباً ، ومنها :

1 — الأودباشي «ملازم» . ولا يزال في مراكش حي رئيسي يدعى بدرب ضباشي وهو تحريف للاصطلاح المذكور كما لاحظ ذلك دوفردان[142].

2 — بُلكُباشي «قبطان» . 3 — كاهية «كولونيل» ، ولا تزال بالمغرب عائلة تدعى بيلكاهية . 4 — شاوش ، وقد تقدّم معناه ، مع العلم بأن هذا المصطلح ظل يستعمل حتَّى الآن مع تغيير في مدلوله . 5 — الباي ، بمعنَى قائد القواد . 6 — الطوبجي «المدفعي».

وهناك مصطلحات تقدم ذكرها كالباشا والقائد[143] ، بالإضافة إلى مصطلحات أخرى عربية الأصل ، ومنها : المحلة التي كانت لدى الأتراك بمعنَى الحملة أو الغزوة ، ولكن المغاربة استعملوها بمعنَى الحامية أو فريق من الجيش ، بينما استخدموا عوض «الغزوة» لفظ (الحركة ، بجزم الراء).

وتسند قيادة الجيش إلى عناصر كثيرة . وبعض الملوك يكلونها إلى أبنائهم ، فحمد الحران قاد جميع العمليات العسكرية حتَّى وفاته في عهد والده محمد المهدي الشيخ[144] . وقد تكون قيادة ابن الملك رمزية ، ويتولى الإشراف الفعلي على العمليات الحربية شخص من غير الأسرة المالكة في هذه الحالة[145].

وكان قائد قواد الغالب هو علي بن مسعود بن شقرة[146] (ت 984هـ 1575م)، وقائد جند الأندلس في أيامه ثم في عهد المعتصم هو سعيد بن فرج الدغالي ، ومن قواد المعتصم الذين قادوا حملة وادي المخازن : أبو علي القوري ، والحسين العلج الجنوي وعلي بن موسَى. وأحمد بن موسَى ومحمد أبو طيبة[147] ورضوان العلج .

أما أحمد المنصور فأبرز قواده من الترك والعلوج ، ومنهم جؤذر باشا ، ومحمود

(142) Deverdun, Marrakech 1, 441

(143) عبد الرحمن السعدي : تاريخ السودان ، ص 138.

Mercier, l'Afrique Septentrionale, 3, 131 - 134

(144) نزهة . ص 69.

(145) الاستقصا . 5 . 42.

(146) ابن القاضي . درة الحجال ، رقم 1280.

(147) الاستقصا . 5 . 83.

باشا ، والأول كان قائد جيش الأندلس في أيام المنصور قبل أن يقود حملة السودان ، وعمار الفتى وكان قائد جيش السوس ، وشارك أيضاً في حملة السودان ، كما مثل كلا من المنصور وزيدان كقائد بها سنة 1599 و 1618م . وعمار هذا من أصل برتغالي[148] ، وعلوج قائد جيش العلوج ، وبختيار وبغا وهما تركيان . ومن قادة الجيش المشهورين في عهد المنصور ، أيضاً محمد بن ابراهيم بن بجة ، ومحمد بن بركة .

أما حملة المنصور إلى توات وتيكورارين ، فقادها كل من أحمد بن بركة وأحمد الحداد الغمري المعقلي[149] .

ومن قواد زيدان ، القائد عبد الصمد ومحمد السنوسي ، ويونس الأيسي ، وأخوه عبد الله بن المنصور ، والعلج مصطفى باشا . كما اعتمد عدد من ملوك فاس كعبد الله بن المامون على قواد من العلوج كمامي الذي قاد جيوش هذا الأمير .

وعلى العموم فالقواد من أصل بربري أو عربي قلما تسند إليهم قيادة حملات هامة ، وهكذا فإن جل ملوك السعديين قد اطمأنوا في أهم العمليات العسكرية إلى الأتراك والعلوج خاصة .

وكانت المراكز التي تساند بعض الثوار يؤخذ أهلها بمنتهى الشدة ، حتى لتستباح أموالهم ودماؤهم جزاء على خروجهم عن طاعة السلطة المركزية[150] .

ولم تهمل الدولة أمر الأسطول حتى أوائل فترة انهيارها . وبقطع النظر عن جهود محمد المهدي في إنشاء القطع الأولى لهذا الأسطول ، فقد عززها عبد الملك بمزيد من الوحدات في كل من العرائش وسلا[151] حيث استصلحت الترسانة الموحدية لتواصل أداء مهمتها .

وقد شارك الأسطول الحربي في حملة السودان ، ومهمته كانت حمل سكان الجزر الصغيرة المنبثة في حوض النيجير الذي طالما توهمه القدامى يكوّن جزءاً من النيل[152] ، على الدخول في طاعة الدولة . وكان عدد البحرية والطبجية لا يتجاوز

---

(148) Caillé, La petite histoire du Maroc

(149) نزهة ، ص 154.

(150) نزهة ، ص 173 ، استقصا ، 6 ، 51.

(151) م. مجهول ، تاريخ الدولة السعدية ، ص 53.

(152) ابن القاضي ، درة الحجال رقم 858.

بضعة آلاف ساهم في غزو السودان منها ألفان[153] ، وربما كان زيدان آخر عاهل سعدي اهتم بإنشاء قطع إضافية للأسطول ، ومن جملة مشترياته أربع وحدات حربية صنعت في هولندا[154].

وللأسطول الملكي قائد عام من أصل أندلسي أو من العلوج غالباً . ومن قواده في عهد المتوكل ، القائد علي بن عبد الله[155] ، وفي عهد المنصور ، محمود بن علي زرقون[156] ، وهو أيضاً ، القائد العام في حملة السودان ، والرايس شعبان والرايس إبراهيم الشط[157].

وإذا كانت العناية بأمر الأسطول بدأت تضعف أيام زيدان نفسه ، فقد تولى مهمة إنشاء القطع الجهادية ، الموريسكيون في كل من الرباط وسلا وتطوان . ولعب العلوج دوراً فعالاً في قيادة أساطيل المجاهدين والسهر على الأشغال التقنية الخاصة بها ، فقد كان أغلب الرؤساء منهم ، وعدد العلوج لدى الموريسكيين بالرباط لا يقل عن 300 حسب تقدير أحد المسيحيين سنة 1635م . ومن أشهرهم الرئيس مراد[158]. وقد كانت الرباط والعرائش أهم مراكز الأسطول السعدي أيضاً .

ووصفت بواخر حركة الجهاد البحري الشعبي بأنها أسرع من البواخر الأوروبية ، سواء منها التجارية أو العسكرية ، وأغلب المحاربين على ظهرها كانوا من الأندلسيين ، ومعهم الأسرى المسيحيون[159].

وكانت هذه البواخر تصنع غالباً في هولندا وأنجلترا ، وفي معظم الأحيان لم يكن أصحابها يتجاوزون سواحل المحيط القريبة ، ولا يدخلون البحر الأبيض المتوسط ، ولا يبادرون إلى القتال ، بل يوهمون مراكب المسيحيين أنهم إخوان لهم فيرفعون راية دولة صديقة ، حتّى لقد عرفت صواري سفنهم مختلف رايات الدول

(153) الزياني . ترجمان . ص 354.

(154) De Castries. Hollande, T.1

(155) محمد بن تاويت . مجلة تطوان . 1 . 53.

(156) درة الحجال . رقم 858.

(157) Mission scientifique, Villes et tribus. Rabat, 1, 133

(158) الفشتالي . مناهل . ص 244.

(159) ن . م. ص 134.

الأوروبية ، وبذلك تنخدع المراكب المسيحية فلا تشتغل بالاستعداد للمقاومة حتَّى يفاجئها المجاهدون ويصعدوا على متنها[160].

وظلت ترسانة أبي رقراق تواصل عملها بفضل مساعدة الفنيين الأندلسيين والأجانب ، وفيها تتم عملية الترميم والتركيب ، وأحياناً تصنع فيها قطع كاملة.

أما مجموع جيش الدولة فمن الصعب تحديده في أي وقت ، فهناك الجيش النظامي الذي يتكون من عدة عناصر كما سلف ، والمتطوعة الذين يزداد عددهم أو ينقص حسب الحاجة والولاء للدولة. وهكذا استطاع السعديون أن يتوفروا أثناء حصار آسفي على ما يربو على مائة ألف مقاتل فيهم فرسان ومشاة ومدفعيون ، وهذا تقدير رواية مسيحية ينبغي أن يؤخذ ببعض التحفظ[161].

وحسب تقدير شاهد عيان أجنبي أيضاً ، فإن مجموع الجيش النظامي يحتوي على أربعين ألف مقاتل ، بما فيهم أربعة آلاف من العلوج ، ومثلها من جند الأندلس ، و 1500 من زواوة. أما عدد المتطوعة والجيش الاحتياطي فقد يصل إلى مائتي ألف[162] ، وحتَّى حملة السودان على غزارة ما كتب عنها نسبياً ، فلا يعرف على التحقيق عدد الجيش الذي اشترك فيها ، فقد أورد الزياني 22 ألفاً ، وطيراس 8500 ، وجوليان 3000.

وذكر صاحب «تاريخ الدولة السعدية»[163] أن قوات محمد المامون ولي عهد المنصور ، بلغت 22 ألفاً من النظاميين ، فكم يكون مجموع جيش الدولة والحالة هذه ؟. وقدر مرمول الحرس الخاص بخمسين ألفاً ، وهو تقدير مبالغ فيه.

ومن البديهي أن ينحط عدد القوات الملكية في مرحلة انهيار الدولة ، فإن عدد جيش زيدان لم يتجاوز 1500 عام وفاته[164] في الوقت الذي كان يتوفر فيه بعض

---

(160) ن. م. ص 135 — 136 . ومن المراجع عن حركة الجهاد البحري :
· **Coindreau, Les corsaires de Salé. Caillé, La petite histoire du Maroc. Bernard Dubreuil. Hespéris. 3, 1960**
De Castries, Sources inedites,

(161) **R. Ricard, Hespéris, 4/1937**

(162) **Terrasse, Histoire du Maroc 2, 193**

(163) م. م. تاريخ الدولة السعدية . ص 73.

(164) ناصري ، استقصا ، 6 ، 70.

الزعماء المحليين على قوات كبيرة العدد ، فابن عيسَى النقسيس حاكم تطوان مثلاً كان يتوفر على عدة قبائل تناصره وهي مسلحة باستمرار : 400 فارس و 3000 راجل في قبيلة أنجرة . أما في جبل الحبيب فتحت تصرفه 2000 فارس و 8000 من المشاة أغلبهم بالأسلحة النارية ، وفي نواحي أصيلا 10000 من المشاة و 3000 فارس أغلبهم بالاسلحة النارية ، وفي نواحي القصر الكبير 60000 فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة معظمهم بالأسلحة النارية أيضا(165) . ولو صدقنا عشر مجموع هذه الأعداد لكان شيئاً كثيراً يفوق جيش السلطان المغلوب على أمره!

وكان علَم الدولة الأكبر يدعى باللواء المنصور ، وهو أبيض اللون يرفع على رأس الملك من خلف ، ويكون دليلاً للجيش يتوجه باتجاهه . وقد استعمل منذ عهد الملوك الأولين . وهناك رايات أخرى مختلفة الألوان يختص كل فريق من الجيش ببعضها(166) . وبياض العلم الأكبر سبق اختياره من لدن الدولة الموحدية كما مر .

وقد اعتاد كبار ملوك الدولة أن يخبروا بانتصاراتهم في المعارك والفتوح الكبرى ولاة الأقاليم وملوك الدول ، ويكون ذلك مجالاً لاحتفالات شعبية ورسمية حيث تزين الشوارع والأزقة ، ويستقبل الملك تهانيء السفراء وكبار رجال دولته كما حدث بعد معركة وادي المخازن وحملة السودان(167) .

النـظام المالي :

لجأ أبو عبد الله القائم بأمر الله الى طريقة طريفة في إحصاء السكان الذين ساندوا دولته ، حتّى يتمكن من فرض ضريبة مخففة عليهم لتزويد جيشه بما يلزمه من عتاد وغيره . وهكذا فرض على كل أسرة بيضة ، حتّى إذا جمع من البيض على قدر الأسر طالب كلاّ منهم بأداء درهم ، وسمي ذلك نائبة . وظل هذا النظام معمولاً به في عهد خلفائه إلى أيام أحمد المنصور الذي ارتفعت الضرائب في أيامه ، ثم تفاحشت بعده من غير طائل(168) .

---

(165) R. Ricard, Hespéris, 4/1937

(166) الافرني ، نزهة ، ص 198 ــ 199 . الفشتالي مناهل ، ص 166 ، الناصري ، استقصا ، 5 ، 43 ، الجراري ، الغاية من رفع الراية ، ص 14.

(167) نزهة ، ص 145 ، 167 ، 178. R. Ricard, Sources inédites, Espagne, 2, 449

(168) نزهة ، ص 74.

وقد تقدم في سياسة المهدي الداخلية أنه جعل مبلغ النائبة صحفة شعير وعشرين مداً من القمح عن كل دار، وصاع سمن وكبشاً عن كل أربع نوائب أو أسر، ويبدو أن خلفاءه عادوا إلى النظام الذي أحدثه القائم، بينما أحدث المنصور ضرائب إضافية غير النائبة. وكانت في أول دولته عينية ثم حولها إلى ضريبة نقدية تعادل قيمتها.

ومن موارد الدولة في عهد المنصور، الخراج وأموال الفداء عن أسارى وادي المخازن، ودخل السودان الذي عاد على الدولة بثروة طائلة، بالإضافة إلى مستفاد مصانع السكر والتجارة الخارجية والجمرك، بما في ذلك جمرك سبتة الذي كان له جابٍ خاص يقيم عند مدخل المدينة[170]. كذلك كانت تفرض الغرامات الباهظة على الثوار الذين تتغلب عليهم الدولة[171].

وفي هذا العهد كان الجباة يعينون مباشرة من لدن الملك، من غير أن تشملهم سلطة العمال، وكانوا يُختارون من ذوي الثراء حتَّى لا يطمعوا في مال الدولة[172]. وبينهم من اشتهروا بالكفاءة الإدارية والعسكرية.

أما أمانة بيت المال فتسند غالباً إلى أشخاص من ذوي العلم بالفقه والفرائض والحساب، فضلاً عما يقتضيه منصبهم من نزاهة وحسن تدبير. وممن تولى هذا المنصب، عبد العزيز بن عبد الله الدمناتي أحد أساتذة الأسرة المالكة[173]، وسليمان بن إبراهيم، وكلاهما كان أستاذاً لأحمد المنصور[174].

وكانت عملة السعديين في أواسط القرن 10هـ 16 م من الذهب والفضة، ووحدتها الأساسية هي الريال الذهبي. على أنه توجد ثلاث وحدات: المثقال، وهو عشرة ريالات، ونصف المثقال وهو خمسة ريالات، وربع مثقال وهو ريال وربع. كما كانت العملة تتألف أيضاً من ثلاث وحدات، ويستعمل الميزان لوزن هذه الوحدات بواسطة معايير خشبية صغيرة[175].

(169) ابراهيم الحساني، ديوان قبائل سوس، ص 169.
(170) التمكروتي، النفحة المسكية، ص 196.
(171) نزهة، ص 173.
(172) التمكروتي، م. س. ص 196. الفشتالي، مناهل، ص 18. الناصري، استقصا، 5. 181.
(173) ابن القاضي، درة الحجال، رقم 1057.
(174) ن. م. رقم 1384.
(175) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 47, 48

واكتشفت بُعَيد الاستقلال بناحية أبي الجعد في قبيلة أولاد يوسف 35 قطعة فضية ، و 84 ذهبية ، ومن هذه القطع دنانير يزن أحدها 80، 3غ من عهد محمد المسلوخ «المتوكل» ، وأثقلها دينار يبلغ 91 ، 4غ من عهد زيدان . وهذا يدل على أن قطع العهد السعدي لم تكن دائماً من نفس الوزن . ومن بين هذه القطع 39 من ضرب أحمد الذهبي و 31 من ضرب زيدان ابنه ، و 5 لأبي فارس ، وأخرى باسم أبي حسون وأبي محلي(176).

ومن مراكز ضرب السكة ، مراكش وفاس وكتاوة «من إقليم درعة» ، وسجلماسة ودرعة وسوس والمحمدية .

وقد ارتفعت قيمة العملة الذهبية المغربية في عهد السعديين ، إلى درجة أن التجار المسيحيين بالمغرب كانوا يعملون على تهريبها إلى الخارج(177) ، وعلى الرغم مما تذكره كل المصادر تقريباً ، من أن لقب «الذهبي» قد أضيف إلى المنصور على إثر انتشار عملة الذهب ، نتيجة لحملة السودان ، فمن المرجح أنه حمل هذا اللقب قبل غزو البلاد المذكورة(178) ، خصوصاً بعد معركة وادي المخازن التي درت على الخزينة أموالاً ضخمة من الفداء وإن كانت موارد الذهب فيما بعد أضخم منها .

ومن نماذج العملة السعدية قطع ترجع إلى عهد عبد الله الغالب ، نقشت كما يلي(179) .

— في الوجه الأول : نقش بين الإطار والمربع الداخلي :
عمل بمدينة مراكش.

وفي وسط المربع

بسم الله الرحمن الرحيم
عن أمـر الله الغـالب
بالله أميـر المؤمنيـن

---

(176) Deverdun. Hespéris, 3, 4 - 1958
تقابل هذه المعلومات بما جاء في : «مظاهر الحضارة المغربية» 1 . 76 ، للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله .

(177) درة الحجال ، 2 ، ص 451.

(178) ابراهيم الحساني . ديوان قبائل سوس ، ص 166 . 215.

(179) Julien, Histoire de l'Afrique du Nord 2,215. 451

– في الوجه الثاني بين المحيط والمربع

سبعة وستين بعد تسعمائة

وبداخل المربع :

أبو عبد الله بن أمير
المؤمنين أبي عبد الله
محمد الشريف الحسني

وفي العملة التي سكها أبو محلي سمى نفسه أبا العباس خليفة الله ، ومع هذا كانت تروج عملات أجنبية كالبرتغالية والإسبانية ، ولكن قيمتها كانت منخفضة عن السكة الوطنية .

ومن المؤكد أن خملة السودان ساعدت المنصور على أن يسك هذه المقادير الضخمة من العملة الذهبية على ارتفاع قيمتها . فقد ذكر تاجر إنجليزي سنة 1594م 1003هـ ، أن جؤذر باشا عاد من السودان بثلاثين جملاً محملة كلها تبراً . ولم تجف مناجم الذهب إلا بعد سنين طويلة من مقام السعديين بالسودان[180] ، خلافاً لما ذكره جوليان من أن المنصور اكتسب موارده الضخمة من مفاداة الأسرى في حرب وادي المخازن فحسب ، وأنه لم يجد بالسودان ذهباً يستحق الذكر ، وأهم من ذلك ، فقد عدّد مرمول في وصفه لإفريقيا أسماء المدن التي كان السعديون يستخرجون منها الذهب بالسودان[181] .

* * *

(180) Walckenaer, Recherches géographiques, p. 43

باذل دافيد ، افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص 180 – 181.

(181) Walckenaer, op. Cit. p. 40

2 – الحياة الاجتماعية

السكـان :

ما كادت تمر سنوات قلائل على وفاة أحمد المنصور ، حتَّى تقاطرت على المغرب وأقطار إسلامية أخرى أفواج عظيمة من الموريسكيين ، وحظيت تطوان والرباط وسلا بعناصر نشيطة وثرية منهم ، وقد زاول كثير منها أعمال الجهاد البحري ، كما ساهم الموريسكيون بوفير حظ في الإنعاش الاقتصادي لإفريقيا الشمالية ، خصوصاً المغرب وتونس . وهكذا استقبل هذا القطر حوالي 60 إلى 80 ألفاً منهم سنة 1018هـ 1609م حيث انبثوا في أجزاء كثيرة من البلاد التونسية كسهل مجردة وكرمبالية والسلوكية وناحية تونس وغيرها ، فشقوا الطرق ، وأنشأوا البساتين ، وأدخلوا زراعات وصناعات جديدة[1] ، كما عملوا سواء بالمغرب أو تونس على تنشيط التجارة مع الدول ، عن طريق البواخر التي كانت في ملكهم الخاص ، غير أن نشاط حركة الجهاد البحري كان أكثر أهمية بالنسبة لأي قطر إسلامي آخر في هذا العصر.

أما في مراكش ، فقد حلت فئات من العلوج من مختلف الأجناس ، وهم نصارى يدخلون في الإسلام طواعية أو عن طريق الإغراء ، ليتمكنوا من العمل في خدمة الدولة ، وكان تأثير الاسبان منهم بالغاً ، حتَّى لقد ساهموا في تقرير غزو السودان ، وانتشرت اللغة الاسبانية بمراكش إلى درجة أنها ظلت حتَّى أواخر القرن 11هـ 17 م تداني العربية في انتشارها[2] .

على أن الرماة الأربعة آلاف من هؤلاء العلوج في حملة السودان لم يلبث أن اعتنق الكثير منهم الاسلام تلقائياً وأحياناً بضغط من السعديين ، وكانت أجورهم جيدة ، بل كانوا يتمتعون بوضعية استثنائية بالعاصمة ، مما أدى إلى أن يكرههم المغاربة وحتَّى اليهود والنصارى ، وكان يمنع عليهم أن يتجاوزا ما وراء أربعة فراسخ

---

(1) J. Pignon, Initiation à la Tunisie, p. 103

(2) Deverdun, Marrakech, 1, 442

من العاصمة ، إذ يعرضون أنفسهم في حالة المخالفة إلى العقاب الشديد بما في ذلك الإعدام ، وكانت لهم بمراكش مقبرة خاصة[3] ، وعلى العموم فقد كانت لهم يد طولى في إقرار الأمن بمراكش .

ويعتبر الأسرى المسيحيون أيضاً ، من العناصر التي ساكنت المغاربة تحت مراقبة الدولة أو الحكام المتمتعين باستقلال ذاتي . وكان مقام الكثيرين منهم يطول سنوات عديدة في انتظار مفاداتهم عن طريق قناصل بلادهم ، وقسم كبير منهم يضطر الى اعتناق الاسلام ليتخلص من الأسر ، وإلا احتفظ بوضعيته كأسير . وتنبغي الإشارة هنا إلى أن طريقة معاملة المغاربة للأسارى تختلف عن معاملة الأوروبيين لهم لأن هؤلاء كانوا يعاملونهم في الغالب بكيفية خالية من الروح الانسانية .

وكان عدد الأسرى المسيحيين يبلغ حوالي ثلاثة آلاف في مراكش وحدها في أواسط القرن 16م (أوائل القرن 10هـ) ، وهم الذين أحدثوا كما هو معلوم ، انفجار حي القصبة سنة 978هـ 1569م الذي انشقت له جدران المسجد والصومعة ، وقد ظلت آثار الانفجار ظاهرة إلى وقت قريب من فجر الاستقلال .

وكان للأسرى المتزوجين العاملين في خدمة القصر حي خاص قريب من الترسانة داخل القصبة[4] . ويروي بعض التجار الفرنسيين الذين أقاموا طويلاً في مراكش في أوائل القرن 17 م أن هذه المدينة تداني في عظمتها باريس[5] . وقدّر جان موكي سكانها حينئذ بنحو ثلاثمائة الى أربعمائة ألف ، وهو أول سائح فرنسي دخل المغرب[6] ، ومن رأيه أن مراكش أكبر من العاصمة الفرنسية ، وكانت زيارته لها سنة 1015 هـ 1606م.

وكانت قبيلة الرحامنة ، وهي من بني معقل تستقر قرب مراكش وتساهم مع الشبانات في تعريبها ، وكان أغلب السكان بمراكش من أصل بربري أو ممن يتحدثون بالبربرية إلى جانب بعض القبائل العربية ، كما كان يعيش في درعة بين المغاربة عدد من السودان المجلوبين والمهاجرين[7]

---

(3) Op. Cit, pp. 444-445

(4) Op. Cit, p. 449

(5) Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 136

(6) Op. Cit, p. 119

(7) Deverdun, Marrakech, 1, 440

ووصف موكي هذا حالة الأسرى بمراكش ، حيث لاحظ جماعة منهم مقيدين ، وهم إنجليز يقطنون قريباً من الملاح والديوانة ، حيث يسكن النصارى ، بما فيهم مبعوثو الدول الأوروبية وسفراؤها .

وكانت منازل السكان واطئة مبنية بالطين غير محكمة البناء ، أما مساكن القواد فمن الحجر ، وتعلو سطوحها ابراج ، وهي واسعة الفناء ، كما أعجب هذا السائح بقصر البديع ذي الأعمدة الرخامية ، ولاحظ بإعجاب قنوات الماء التي تجتذب مياه الأطلس إلى البساتين والسقايات ، كما لفت نظره كثرة الفواكه وجودة اللحم والصيد بالبلد[8] . غير أن الأزقة لم تكن مبلطة ، إذ يرتفع غبارها صيفاً ، وتصير موحلة في الشتاء .

أما فاس ، فقد زارها رحالة إنجليزي اسمه وليام ليتكو (كاف مثلثة) سنة 1609م ، فأعجب بروعة فنادقها ولاحظ بها دور البغاء ، أما مساجدها فقد قدّرها بنحو 460 غير القرويين ، كما قدر سكانها بنحو المليون ، ودورها بمائة وعشرين ألفا[9] . ولا خفاء في مبالغة تقدير الدور والسكان كما نبه إلى ذلك بعض الكتاب الأجانب أيضاً .

وفي تارودانت استقر عدد كبير من اليهود قدرهم مرمول بنحو ألف ، وكان بهذه المدينة أيضاً «ديوانة» أو فندق جمركي يقطن به النصارى ، وكان في الأصل مقراً لسكنَى السعديين وهو أول ما بنوه بها[10] .

أما في تطوان فقد استقرت عائلات أندلسية كثيرة لا يزال هناك أعقابها حتّى الآن ، وكثير منها يحمل أسماء أفرنجية تسمَّى بها عائلات مسيحية بإسبانيا[11] . ونجد نفس الظاهرة بالنسبة لأعقاب الموريسكيين بالرباط .

وهكذا فإن أهم العناصر التي انضافت الى المغرب في هذا العهد هم : 1 — الموريسكيون . 2 — العلوج . 3 — عناصر سودانية وقليل من الأتراك .

وعرف المغرب خلال القرنين العاشر والحادي عشر 17/16م كوارث عديدة

(8) Champion, Le Maroc et ses villes d'art, p. 110
وقد تحدث عن تعاطي أهل مراكش للصيد : 49

(9) Champion, Op. Cit, p. 277

(10) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 154

(11) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 1 ، 429.

حيث تسلط على المدن والقرى مجاعات وأوبئة وكوارث طبيعية . وعلى سبيل المثال فقد انتشر الوباء سنتي 964 و 965هـ في عامة أرجاء المغرب ومات منه خلق كثير ضمنهم شخصيات مثقفة كالشيخ علي الفحل وقاضي تطوان أبي عبد الله الكراسي(12) ، ومفتي مراكش أبي عبد الله الحساني(13) وغيرهم .

وفي سنة 987هـ 1579م ، ارتفعت أثمان المعيشة وحدثت مجاعة عظيمة حتَّى أكل الناس الحشائش وانتشر زكام وبائي يسميه المغاربة بـ «الكحيحة» وهلك منه كثيرون(14) .

وحوالي 1104هـ 1595م تسلط الوباء على المغرب فكان يخرج من الموتَى يومياً نحو ألف من فاس وألفين من مراكش(15) .

وانتشر الوباء مرة أخرى ابتداء من 1007 إلى 1016هـ ، وساعد على انتشاره بفاس فيضان عظيم خرب المنازل والقناطر والأسواق حتَّى وصل الماء إلى باب البرادعيين(16) . وجاء ذكر الوباء في رسالة وجهها أحمد المنصور إلى ابنه أبي فارس(17) سنة 1011هـ . وبهذا الوباء الجارف توفي المنصور سنة 1012هـ 1603م ، ثم صاحب هذا الوباء مجاعة عظيمة حدثت سنة 1014هـ 1605م.

وفي أيام الثورة الأهلية الداخلية بفاس ارتفعت أثمان المعيشة إلى درجة مهولة حدثت معها مجاعة سنة 1022هـ ، وهلك من أجلها آلاف عديدون وكثر النهب وخربت أطراف البلد وخلت المداشر من أهلها(18) . وقد أحصَى صاحب مارستان فاس نحو 4600 ميت في ظرف أربعة أشهر .

وعاد الوباء يجتاح هذه المرة أوروبا متجهاً نحو المغرب ، بينما كانت الدولة السعدية تلقى مصيرها المحتوم . وأهلك هذا الوباء بضعة ملايين في المغرب وحده إذ لم ينقطع أثره إلا سنة 1681م(19) .

---

(12) ن. م. ص 124

(13) عباس المراكشي ، اعلام . 4 ، 171.

(14) محمد العربي الفاسي ، مرآة المحاسن ، ص 160 ، الافرني ، نزهة ، ص 263.

(15) **Fagnan Extraits inédits, p. 448**

(16) **Ibid.** نزهة الحادي ، ص 305.

(17) نزهة . ص 300.

(18) الاستقصا ، 6 ، 54.

(19) عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة ، 1 ، 106.

والواقع أن الوسائل الصحية من وقاية وعلاج كانت معدومة في جل أنحاء البلاد ويكاد يقتصر الاهتمام على مراكش وفاس ، حتّى إن أهم عمل قام به السعديون في الميدان الصحي هو بناء مستشفَى كبير بمراكش بالطالعة ، في عهد عبد الله الغالب ، ووقف عليه أوقافاً ينفق منها على المرضَى والأطباء والقومة ، ثم خصص بعد ذلك للمجانين ، وصار سجناً للنساء بعد السعديين[20]. ولا يزال موقعه معروفاً ، وقد خرب كلياً منذ سنوات كثيرة .

كما بنَى عبد الملك المعتصم للأسرى المسيحيين مستشفَى خاصاً لعلاجهم وتغذيتهم الصحية ، حتّى لقد كانت هذه المبرة موضع قصيدة مدح من لدن أحد الرهبان[21] .

وكانت الأوقاف التي بلغت أوجها في هذا العهد[22] بعد أن تراجعت في أواخر العهد المريني وأيام الوطاسيين تمثل أهم مورد للدولة في ميدان النشاط الاجتماعي ، غير أنه لم تكن توجد مؤسسة مركزية لإدارة الأحباس على الصعيد الوطني ، فلكل مجموعة من الأملاك ناظر خاص[23]. وأهم نظارة بالنسبة للطبقة الفقيرة هي نظارة احباس الضعفاء والمساكين في المدن الكبرى كفاس ، حيث كان لا يولاها إلا الفقهاء المشهود لهم بالنزاهة[24] ، مثل يحيَى بن محمد السراج الخطيب المفتي (ت ، 1008هـ) ومحمد بن قاسم القصار الخطيب المفتي (ت ، 1002هـ).

وكما استقبل المغرب هجرات الوافدين عليه من مختلف الأجناس والبلاد فقد عرف أهله أيضاً بحب المغامرة والتنقل بين أقطار العالم . فالإضافة إلى وجود العنصر المغربي في أقطار إفريقيا الغربية ، بما في ذلك غانا[25] وصل المغاربة إلى الهند كتجار فنالوا هنالك ثراء وحسن ذكر[26]. وهذا التكيف الاجتماعي هو الذي جعلهم يتقبلون بترحاب وحسن معاشرة وجود اليهود بين ظهرانيهم حتّى في الجهات الصحراوية من المغرب ، حيث كان هؤلاء يتوفرون في قرية تكاوست على مصاغات يزاولون فيها صناعتهم بكل حرية .

---

(20) الكانوني . مجلة المغرب . ربيع ، جمادي ، 1355هـ.

(21) Deverdun, Marrakech, 1, 447

(22) Milliot, Démembrement des habous, p. 39

(23) Op, Cit, p. 46

(24) عبد الله كنون . النبوغ المغربي ، ص 247 ــ 248.

(25) باذل دافيد . افريقيا . ص 190.

(26) ن.م. ص 275.

ولما كان للصحراء من أهمية اقتصادية داخلية وكمعبر إلى السودان فضلاً عن غنَى شواطئها الغنية بالسمك ، فقد بدأت أطماع الاسبان تتجلّى في الصحراء الغربية في وقت مبكر حيث كان المغامرون منهم يقومون برحلات واتصالات استطلاعية في الساقية الحمراء[27].

ويعتبر جزء كبير من سكان جزر الخالدات من أصل مغربي ؛ فقد كان الاسبان يجلبون إليها كثيراً من أسراهم المغاربة الذين كان بعضهم من الأغنياء ، فيعتبرون بذلك مورداً ضخماً للإسبان بهذه الجزر ، وسائر الأسرى يجبرون على التنصر. وقد عدهم مهندس إسباني بحوالي 1500 سنة 1595م.

ومع ذلك فقد وصل المجاهدون المغاربة إلى سواحل هذه الجزر التي اهتزت مراراً لهجماتهم ، ابتداء من سنة 1565م ، وكان المغاربة الذين يكرهون على التنصر يمدون إليهم يد المساعدة. وقد استمر إزعاج المجاهدين لجزر الخالدات مدة ثلاثين سنة[28].

اللبـــاس :

احتفظ السعديون في رسمياتهم بالبياض شعاراً ، وهو تقليد تبناه المغاربة عن أهل الأندلس منذ قديم ، خلافاً للدولة العباسية ذات الشعار الأسود الذي نقله عنها المرابطون ، ولا يزال كثير من سكان الصحراء حتَّى يومنا هذا يرتدون ثياباً زرقاء أو سوداء.

ومن جهة أخرى فقد استعمل اللون الأزرق في البرانس حتَّى أصبح هذا اللون من الثياب الوطنية يستعمل إلى جانب البياض كما مر[29].

وعلى الرغم من أن الدولة تبنت الزي التركي كلباس للجيش ، وأن عبد الملك المعتصم كان يرتدي لباساً على الطريقة التركية ، فإن خلفه المنصور اتخذ زياً خاصاً أدخل فيه القفطان والمنصورية التي نسبت إليه[30]. وصار هذا الزي يتخذه بعده الملوك والفقهاء ، كذلك اتخذ الخاصة الحرير في لباسهم ، كما كانوا يغطون رؤوسهم بطواقي حمراء أو قلانس ، وكانت نعالهم عالية.

(27) Robert Ricard, Hespéris, 1, 2-1935, p. 90

(28) Op. Cit, pp. 95-102

(29) Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 76

(30) Op. Cit. الحساني . ديوان قبائل سوس . ص 169 ، المقري ، نفح ، 9 .

ويرتدي العامة قميصاً من الثوب مع سراويل وأردية متينة تنزل إلى أقدامهم[31] . أما النساء فلهن أقمصة فضفاضة تنزل إلى ما دون الركبتين ، وسراويل واسعة تنزل إلى وسط الساق . وفي الصيف يرتدين فساتين من الحرير . أما في الشتاء فيتخذنها من القرمز أو الملف الرقيق ؛ وفوق الفستان ثوب طويل من الحرير أو الصوف يلقين به على جيدهن ، ويعقدنه على الصدر بحلقات من ذهب أو فضة أو معدن آخر ، كما يتخذن حلي الذهب والفضة ، والأقراط والقلائد ، ويعلقن عليها الريال الاسباني ، والأساور التي قد يستعملنها في أرجلهن[32] .

وكانت هناك أزياء محلية كما هو الأمر اليوم ، وقد تحدث مصدر برتغالي عن نساء بني حسن ، فأتى بمعلومات غريبة في الموضوع ، حيث ذكر أنهن يرتدين زي الغاليسيات (إسبانيا) ، وأن هذا الزي يرجع إلى عهد الغوط ، وأن سكان هذه المنطقة يعرفون عند أهل تطوان بالغاليسيين أيضا (؟) . وزعم نفس المصدر أنهن يحتفلن كل سنة بعيد مولد القديسة جان بابتيست **Jean Baptiste** حيث يغتسلن في البحر ويرقصن في شوارع تطوان بلباسهن المذكور . وذكر هذا المصدر أن الغاليسيين المشار إليهم لا يشاركون في الحرب ضد برتغال سبتة[33] .

المرأة :

ظلت نظرة المجتمع المغربي إلى المرأة في هذا العهد محافظة بكل معنَى الكلمة ، فهي على العموم لا تغادر بيتها إلا لضرورة ملحة ، وعلى الخصوص إلى الحمام . ونظراً لاختلاط العناصر في هذا العهد وتوارد الأجانب بكثرة من الخارج ، فإن الرجال المحافظين كانت لهم غيرة شديدة على نسائهم ، حتَّى لاحظ مرمول بهذا الصدد ، أن للمرأة في المنزل خصياً يحرسها[34] (!). ورفض أهل سلا مساكنة الموريسكيين حتَّى لم يقبل كثير منهم إكراءهم منزلاً أو أرضاً فلاحية ، لأن نساءهم كن سافرات[35] .

ومع ذلك فقد ظهر في هذا العهد عدد من العالمات الصالحات كعائشة بنت أم

(31) Marmol, Histoire des chérifs, p. 49.

(32) Op, Cit.

(33) Marmol, Op, Cit, p. 50.

(34) R. Ricard, Hespéris, 1937

(35) Mission Scientifique, Villes et tribus, Rabat, 1, 62.

أحمد بن عبد الله الإدريسية والدة ابن عسكر ، وقد تلقت عن أبي محمد الغزواني وأبي محمد الهبطي وأبي الحسن بن عثمان الشاوي وغيرهم[36] ، وتوفيت سنة 969هـ ، وزهرة بنت عبد الله الكوش ، وهي أيضاً من ذوات الثقافة والصلاح ، ولم تتزوج قط ، وقد دفنت بمراكش في حومة الكتبيين بعد 1020هـ[37].

على أن المرأة استطاعت في إطار هذا المجتمع المحافظ على تقاليده أن تساهم أحياناً بدور مرموق سواء في الميدان السياسي أو غيره من ميادين الحياة . وتقدم في الحديث عن أنظمة الدولة أن العريفة بنت خجو قامت بدور رئيسي في تغيير وتنظيم عوائد الملوك الداخلية بالقصر . كذلك فإن سحابة الرحمانية أم عبد الملك المعتصم كان لتدخلها لدى السلطان سليم العثماني أثر حقيقي في استرجاع الملك المغربي لعرشه ، حيث وفدت عليه مع ابنها هذا وربيبها أحمد المنصور . وكانت أول من بشر السلطان العثماني بفتح تونس من لدن الجيش التركي .

وفي قصبة مراكش اعتصمت مريم أخت عبد الملك مع ثلاثة آلاف رام من جيش عبد الملك ، بينما تمكن ابن أخيه المتوكل من الاستيلاء على المدينة لأمد وجيز حتَّى استرجعها عبد الملك ، وأظهرت مريم في اعتصامها هذا ثباتاً عظيماً ، حيث لم تُمَكن المتوكل من القصبة .

وقامت عودة (مسعودة) الوزكيتية والدة المنصور بجهد عظيم في العمران والإحسان ، ولا تزال بعض مبراتها قائمة كجامع باب دكالة ومدرسته ، وكانت وفاتها سنة 1000هـ . وكانت عابدة ناسكة ، عنيت كثيراً ببناء ديار لمبيت القوافل في الطرق ، وشيدت أو رممت عدداً من القناطر وغيرها من المباني العمومية[38].

وفي هذا العهد بدأ صنع الزرابي التركية على يد الطبقة الشعبية من النساء[39].

الغنـاء

عُني السعديون بالمحافظة على أصول الطرب الأندلسي ، حتَّى لقد كان أثرهم مباشراً في تشجيع ونشر هذا النوع من الموسيقَى العربية ، مع تنميته وتحسينه ،

(36) ابن عسكر ، دوحة الناشر ، مخطوط خزانة عامة د 560 ، الرباط ، ورقة 23 .
(37) الافرني ، صفوة من انتشر ، ورقة 80.
(38) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1141.
(39) Marmol, Histoire des Chérifs, p. 50

وهكذا استنبط الحاج على البطلة (بفتح الطاء) من أهل فاس طبع الاستهلال في عهد عبد الله الغالب[40].

وفي الواقع طلع نجم المغنين في هذا العصر بشكل لم يسبق له مثيل ، وعلى الخصوص رجال الملحون الذي كان أحمد المنصور يتذوق منه على الخصوص قصائد عبد العزيز المغراوي[41].

ويروي القاضي أبو مالك عبد الواحد الحامدي أنه «وفد على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء ، فلما انصرفوا من الحضرة ، جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقَى وأصحاب الأغاني من أهل فاس ، وقد كانوا وفدوا أيضاً على المنصور على سبيل العادة ، فأخرج بعضهم شبابة من الإبريز مرصعة أعطاه إياها المنصور ، وبعضهم قال : أعطاني كذا ، وقال الآخر : أجازني بكذا ، مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء ، فقال القاضي : لئن بلغت فاساً لأردن أولادي إلى صنعة الموسيقَى ، فإن صنعة العلم كاسدة ، ولولا أن الموسيقَى هي العلم الغزير ما رجعنا مخفقين ، ورجع المغني بشبابة الإبريز»[42].

وذكر الفشتالي في «مدد الجيش» أزيد من ثلثمائة موشح أنشأها المنصور أو قيلت في مدحه . وقد نقل المقري بعضها في «نفح الطيب»[43].

وإذا كان الملحون والآلة أو الطرب الأندلسي تحظى به المدن التي حلت بها جاليات أندلسية أو التي يوجد بها هواة لهذا الفن ، فإن البوادي ظلت تحتفظ كذي قبل ، بالطابع الأصيل للبيئة المحلية ليس فقط في الغناء أو الزي ، بل في كل ما يندرج في الفولكلور الذي ليست بعض الرقصات الحالية كأحواش وحيدوس إلا نماذج قديمة منه .

الحفلات والأعياد :

أهم الاحتفالات ذات الطابع الشعبي والرسمي معاً هو الاحتفال بعيد المولد الذي احتفل به لأول مرة بالمغرب بنو العَزفي بسبتة ، ثم عممه المرينيون . ولكن

---

(40) عبد الله كنون . النبوغ المغربي ، ص 244.

(41) Deverdun, Marrakech, 1, 434.

(42) نزهة . ص 258 . استقصا . 5 . 189.

(43) المقري . نفح . 9 . 278.

السعديين خصوه بمظاهر وتقاليد معينة ظل بعضها معمولاً به بعدهم. ووصف الأفرني وغيره، الطريقة التي تمر عليها احتفالات عيد المولد والتي أعدت تنظيماتها على يد أحمد الذهبي[44]. وهكذا كان العاهل يوجه دعواته إلى فقراء الصوفية من المؤذنين من سائر أنحاء البلاد منذ فاتح ربيع الأول، بينما يعهد إلى الشماعين بصنع الشموع والعناية بترصيعها مثلما نرى ذلك في هذه المناسبة حتَّى الآن. وفي ليلة عيد المولد عند قرب الغروب يحملها الصحافون على رؤوسهم على مشهد من آلاف المتفرجين، ثم يذهبون بها إلى القصر الملكي فينصبونها على منصات خاصة، حتَّى إذا طلع الفجر صلَّى السلطان بالمؤمنين، وقعد على مشهد من المدعوين وحوله الشموع المذكورة. ويضيف صاحب «النفحة المسكية[45]» في وصف إحدى الحفلات:

«لما استوفى الناس بالدخول من معروف ومجهول، وامتلأت بالازدحام الساحة والعتبة، واجتمع الأجناد والطلبة، وسكنت بعد حين الجلبة، وركزت ضخام الشمع المزوق، وامتلأت القبة والساحة بأخلاط الناس وأصناف القبائل على أجناس، أتي بأنواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني التركية والهندية، فأكل الناس مختلف أنواع الأطعمة والفواكه والحلواء، ثم أتي بالطسوت والأباريق، ونشفت الأيدي بالمناشف المطرزة، ونصبت في المجلس مباخر الجاوي والعنبر والعود، ورش على القوم ماء الورد وماء الزهر، ثم أنشد الناس قصائد في مدح النبي ﷺ، مع ذكر أمير المؤمنين الذي يختم الحفل بالدعاء له».

ويضيف صاحب «مناهل الصفا» من جهته، أن المنصور يرتدي البياض في هذه المناسبة شعاراً للدولة، كما يذكر أن أول من يفتح المجلس هو الواعظ الذي يعدّد جملة من شمائل النبي ﷺ، وأخيرا، يأتي دور أهل الذكر من الصوفية المادحين ويتخلل ذلك نوبة المنشدين للبيتين، ثم يأتي دور كبار الشعراء الرسميين فينشدون قصائدهم، وهم القاضي الشاطبي، والمفتي أبو مالك عبد الواحد الشريف، والوزير أبو الحسن علي بن منصور، فأبو فارس الفشتالي ومحمد الفشتالي، فالأديب محمد الهوزالي، فالفقيه علي المسفيوي[46]. وأخيراً، تقام وليمة يحضرها القوم من مختلف الانتماءات الاجتماعية.

---

(44) الفشتالي. مناهل. 221 — 241. الافرني، نزهة، ص 237.

Caillé, La petite histoire, 1, 105

(45) التمكروتي، النفحة المسكية، ص 168.

(46) أورد صاحب مناهل الصفا، والمقري في «روضة الآس» عدداً من هذه القصائد.

وفي سابع عيد المولد يقام احتفال فخم أيضاً ، إذ هو يوم عقيقة النبي ﷺ ؛ كما كان المنصور ينظم الاحتفال بعيد عاشوراء ، حيث يختتن عدد كبير من أطفال الطبقة الشعبية ، وتوزع عليهم بعض الملابس والمواد الغذائية ، ومبلغ من النقود .

ويعتبر الاحتفال بالشموع المزخرفة في عيد المولد من التقاليد العثمانية التي نقلها أحمد المنصور إلى المغرب وكان قد أقام بتركيا مدة[47] .

وفي شهر رمضان كان أحد كبار القضاة يسرد صحيح البخاري بتتابع حتَّى يختمه يوم سابع العيد مع مناقشته مع الحاضرين ، ولا تزال عادة الاحتفال بيوم العيد وسابعه جارية في الأوساط الشعبية القروية إلى يومنا هذا .

الطعام والمسليات

شاع استعمال العصيدة على الخصوص يوم عيد المولد ، وإن كان لا يعرف على التحقيق متَى وأين بدأ اتخاذ هذا الطعام المخصص لمناسبة دينية معينة[48] . كذلك نجد القريشلات (أو القراشل) في هذا العهد ، بل قبله بكثير[49] ، وهي حلوى من العجين والسمن والسكر تعجن على شكل خبزات صغيرة .

وقد دخل التبغ لأول مرة إلى المغرب سنة 1001هـ 1592م على يد جماعة من السودان قدموا بفيل إلى المنصور . وكان لدخوله إلى المغرب وعرضه بمراكش وفاس احتفالات رائعة . وقد صحب هؤلاء السودان معهم هذه المادة التي كانوا يتعاطونها تدخيناً ، فانتشرت عن طريقهم بكل من درعة ومراكش وغيرهما ، وكانت مثار سخط شديد من الجهات المحافظة ، وعلى الخصوص الفقهاء والمفتين الذين أفتى كثير منهم بتحريمها[50] ، وفيهم من اتخذ موقفاً وسطاً . أما «الكيف» أو الحشيش فكان معروفاً قبل هذا العهد ، بينما قد يكون «السبسي» أو الغليون البلدي المغربي من ابتكار هذا العصر إذا صح أن يعد ابتكاراً .

(47) ويلاحظ معاصر أن الاحتفال الرسمي بعيد المولد في تونس تأخر إلى القرن 13 — 19م، بعد أن مضي على سنه بالجزائر والمغرب عدة قرون .
(Hady Roger Idriss, Initiation à la Tunisie, p. 163)
لكن الحقيقة أن الحفصيين نقلوا الاحتفال بالمولد عن بني مرين.

(48) Op. Cit.

(49) الاستقصا ، 5 ، 11.

(50) الافرني ؛ نزهة ، ص 264 ؛ محمد المكي الناصري ، الدرر المرصعة ، ص 127 ، عباس المراكشي ، أعلام ، 2 ، 105. Deverdun Marrakech, 1. 438

كذلك ابتدأ المغاربة أو بعض أوساطهم بتعاطي لعبة «الكارطة» عن طريق بعض العلوج أو الأندلسيين على ما يرجح . فقد لاحظ السائح «جان موكي» حراس باب القصر الملكي بمراكش يلعبون «الكارطة» بمهارة فائقة ، وكان ذلك في أوائل القرن 17م(51) . ولا يعرف مصدر هذه اللعبة . ولكن يرجح أن أصلها من الشرق (الصين أو الهند أو إيران) ، وقد دخلت إلى المغرب عن طريق عرب إسبانيا(52) . وعلى العموم فقد انتشرت في أوائل القرن 15 م في أوروبا بعد أن مر على ظهورها في الشرق زمن طويل .

وقد بدأ الخمر ينتشر تعاطيه بسبب كثرة اليهود والأجانب المسيحيين ، وكان يصنع ببعض جهات المغرب حيث نجد «جان موكي» يتذوق الخمر المغربي بصفة خاصة(53) !.

---

(51) Caillé, La petite histoire, 1, 122

(52)

(53) Charles Pellat, Recueil de textes, p. 24

3 – الحياة الاقتصادية

إن أهم عنصر يميز الحياة الاقتصادية خلال القرن 10هـ 16 م هو رواج التجارة مع الخارج بشكل لم يعرف المغرب له نظيراً من قبل. وعلى العموم فيعد هذا القرن أحسن فترات الازدهار الاقتصادي بالمغرب على الرغم من الازمات والكوارث التي تخللته كما سبق.

وفي أواخر العهد السعدي تأثرت مناطق الجنوب بالثورات المستمرة التي نشبت بها، وضعفت الحركة التجارية تبعاً لذلك. فسكان أقا لم يكن لهم من مورد غير التمر، وفي درعة كان كثير من السكان لا يجدون غير دقيق الشعير مادة لغذائهم[1]. لكن منطقة تارودانت ظلت غنية بحكم مركزها الرئيسي في منطقة سوس، وبقيت تستقبل خيرات النواحي المجاورة، من خرفان ودجاج وصوف وزيت وزيتون، فضلاً عن العنبر وريش النعام[2] الذي كانت تجارته رائجة مع الخارج[3]، وكان سكان الجنوب يربونه قطعاناً كالماشية.

وعلى العموم، فقد لاحظ الأجانب من سواح وتجار وغيرهم، رخاء المعيشة بالمغرب، وذكر مرمول أثمان رؤوس الماشية والدواجن، فالثور مثلاً، كان يساوي حوالي 6 مثاقيل، والبقرة 4، والخروف 6 ريالات، والدجاجة نصف ريال. ولاحظ مرمول أيضاً، كثرة الفواكه الطرية والجافة، وغزارة السمك والزيت والزيتون.

الفـلاحة :

كانت عدة مناطق تنعم بالخصب وجودة الإنتاج، بالرغم من الثورات العابرة

(1) Marmol, l'Afrique, pp. 9-10 وكانت ناحية درعة آهلة بالسكان كثيرة القرى كما ذكر الفشتالي (مناهل. ص 68).

(2) Marmol. Histoire des Chérifs, p. 155

(3) Rousseau, le Mausolée des Saâdiens, p. IV

او المستمرة التي حدثت بعد وفاة أحمد المنصور. وهكذا ظلت منطقة زرهون من أخصب بقاع المغرب منذ عهد سابق للغزو الروماني، وسجل مرمول أن هذه المنطقة لم يكن بها في عهده قيد أنملة غير مغروس أو مزروع[4].

واستغرب السيد «برتيي» كيف سلمت هذه المنطقة من الخراب والنهب من بين مناطق المغرب الذي وصفه بأنه بلد فوضي. ثم اهتدى إلى أن لبركة أولياء الناحية فضلاً في هذه النعمة[5]!

والواقع أن منطقة زرهون لم تعرف وحدها هذا الخصب في الفترة التي نحن بصددها، فقد كانت ضواحي فاس كلها تدر الخيرات على اختلافها حتّى لقد اعتبرها مرمول من أخصب بلاد العالم[6].

وكانت ناحية تارودانت تنعم بمغروساتها المختلفة من كروم وزيتون وفواكه وخضر، فضلاً عن مراعيها الكثيرة المخصصة للخيل والإبل، وكذا معادنها من فضة ونحاس، وحيواناتها الوحشية من أسد وخنازير و «حلاليف»[7].

وكان نهر تانسيفت الذي تعلوه قناطر ضخمة، قد مدت منه القنوات إلى مراكش لتدير المطاحن وتسقي البساتين، وتصل إلى القصور الملكية والدور الشعبية[8].

وكان سكان تافيلالت أغنياء بمواشيهم العديدة، حيث لا تكثر الماشية إلا مع الخصب، وكانت لهم تجارة مع الخارج، حتّى إن التمر الذي كان يروج في إسبانيا لا يجلب إلا من هذه المنطقة[9].

وتحدث رحالة إنجليزي زار المغرب سنة 1018هـ 1609م عن المغرب الشرقي الذي قال إنه لم يصادف فيه إلا قطعاناً من الضأن والمعز[10]. وهذا الرحالة هو ليتكو

---

(4) Berthier, Histoire du Massif de Moulay Idriss, p. 153

(5) Op. Cit, p. 154

(6) Marmol, l'Afrique, p. 22

(7) Op. Cit, p. 155

(8) Op. Cit, p. 48

(9) Marmol, Histoire Des Chérifs, p. 131

(10) R. Lebel. Hespéris, 4-1922, p. 276

الصناعـة

أهم صناعة ازدهرت بالمغرب في هذا العصر هي صناعة السكر التي لها ارتباط بالميدان الفلاحي . وبقطع النظر عن المعلومات القيمة التي عرفناها عن زراعة قصب السكر وصناعته في القرون الماضية من خلال ما كتبه البكري والعمري وغيرهما ، فإن لبول بيرتي دراسة وافية في الموضوع ، أي فيما يهم القرن 10هـ / 16م . وهكذا فإن السيد بيرتيي اكتشف أخيراً أن «المغرب القديم كان يتوفر على قطاعات قوية بقيت مجهولة إلى الآن ، ويمكن أن ندرك من خلالها نفوذه السياسي في (بعض) مراحل تاريخه[11].»

وكانت أهم مزارع السكر في الجهات التالية :

1 — وادي القصوب قرب الصويرة .
2 — وادي تانسفت قرب «زاوية سيدي الشيكر» بناحية شيشاوة .
3 — في سهل سوس : وادي تامري ، ماسة ، ناحية تارودانت ، بالإضافة إلى ناحية القصابي .
4 — في الشمال : طنجة وسبتة .

أما المصانع ، فقد عثر منها على أربعة عشر مصنعاً ، أربعة منها بالصويرة القديمة وسيدي الشيكر وشيشاوة ، وعشرة بسوس قرب تارودانت وأولاد تايمة ، وقد وصف الفشتالي في «مناهل الصفا» بعض هذه المصانع وصفاً جيداً .

ويعثر الزائر اليوم على بقايا قوالب السكر قطعاً متناثرة من الفخار ، وأحجامها ضخمة في الغالب ، وتوجد في منطقة المصانع القديمة .

وانتقلت زراعة قصب السكر وصناعته إلى بلدان أخرى ، خصوصاً القارة الأمريكية بعد اكتشافها ، كما انتقلت الى جزر الخالدات عن طريق بعض المغاربة القاطنين هناك ، وعلي يد بعض الغينيين الذين عاشوا من قبل بالمغرب[12].

وبدأت عناية السعديين بصناعة السكر وإحداث منشآته الأولى في عهدهم ،

(11) بول بيرتيي ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، عدد 1 — 1383هـ 1964م . وانظر أيضا :
P. Berthier, Les Anciennes surcreries du Maroc, Rabat, 1966

(12) 2 R. Ricard, Hespéris, 1,2-1935, P. 82

على يد محمد الشيخ المهدي بحاحا وشيشاوة . وأتم المنصور بناء هذه المنشآت بعده[13] . كما عمل على تنمية زراعة قصب السكر حتّى رخص ثمنه وتوقف تصديره بسبب مزاحمة البرازيل وجزر الأنتي ، أيام انهيار الدولة السعدية .

ومن أهم الصناعات اليدوية التي راجت في هذه الفترة ، صناعة الزرابي التركية ، وإن كانت النماذج المحلية معروفة منذ قديم ، كما كانت تنسج الثياب والأغطية في كثير من أنحاء المغرب .

وفي ميدان الصناعات الثقيلة ، كان جل اعتماد البلاد على الخارج ، بما في ذلك صناعة السفن الحربية التي كان يعهد بها لمؤسسات في بلاد هولندا غالباً ، كما كان المغرب يستورد كمية من الأسلحة الأجنبية .

وإذا كانت صناعة البناء قد نفق سوقها أيضاً ، فإن كل ما تبقى من آثار هذا العهد ذو طابع عمراني أو ديني بوجه عام ، ودون أن يحدث في الفن المعماري ابتكار أو تغيير يستحق الذكر .

وفي هذا العهد بدأ المغرب يصنع مدافعه لأول مرة في ترسانة مراكش التي كانت توجد بالقصبة[14] ، ويرجع إنشاؤها إلى أيام الموحدين . وكان يعمل بها في ظل الحكم السعدي عدد كبير من الاسرى المسيحيين تحت إمرة أتراك وعلوج : وفيها يذوب النحاس لصنع المدافع ، وقد اكتشف معدن النحاس المخصص لهذا الغرض سنة 946هـ 1539م بجبل تنزار . وأول من قام بصنع المدافع من البرونز بمراكش علج من مدريد دخل الإسلام . وفي ذات الوقت اكتشف سوسي من جزولة ، سر صناعة القنابل ، وهو ما لم يكن أحد من قبل يستطيع أن يفعله ، كما يقول مرمول . وقد تخلف من هذا العهد مدفع نقشت عليه كتابة بالعربية .

ولأحمد المنصور مؤلف في الشؤون السياسية والعسكرية ضمّنه أسرار صناعة المدافع وطرائقها[15] ، ولا يزال هذا المؤلف في حكم المفقود .

ومما صنع للمنصور خصيصاً ، قصر متنقل وصفه كل من صاحب النفحة المسكية ، ومناهل الصفا ، ونزهة الحادي ، وكان القصر يدعى بالسياج ، وهو من

---

(13) الافرني ، نزهة ، ص 264 .

(14) الفشتالي ، مناهل ، ص 246 Deverdun, Marrakech, 1. 386

(15) الفشتالي ، ن . م . ص 215 .

خشب يمكن طيه ، ويحيط به سرادق من نسيج الكتان المزخرف ، وبداخل القصر قباب منقوشة وملونة وينفذ من السرادق إلى القصر من أبواب وتعاريج ودهاليز ، وكان للوطاسيين قصر مشابه من النسيج .

التجـارة

سيطر اليهود على التجارة المغربية ، واحتكروا موارد الجمرك وتجارة السكر والحشيش وملح البارود والتبغ ، وكانوا موضع حقد التجار الأوروبيين فضلاً عن المسلمين المغاربة ، ولم يكن ينافسهم إلا الإنجليز الذين أسسوا بمراكش مركزاً لشركتهم Barbary Company (الشركة البربرية ، أو المغربية).

وأهم ما كان يروق الأجانب من منتجات المغرب : السكر والتمر والنحاس الأحمر والذهب مسكوكاً أو مصوغاً ، ويتم تصديره مهرباً أو مباحاً ، ثم الصمغ والعنبر والشمع والخيل والجلود والمواشي . أما حاجيات المغرب من الخارج فالأسلحة والرماح والملف وبعض قطع السفن الرئيسية والقصدير .

وقبل أن يحتل الإسبان والبرتغال المعمورة ، كان التجار الأوروبيون يشحنون السلع من هذا المركز بأثمان زهيدة ، وخاصة الماشية[16] التي كان المغرب يتوفر على أعداد وافرة منها . وكان المغرب يروج أعظم حركة تجارية بالشمال الإفريقي ، فقد كانت الجزائر قليلة الموارد[17] ، وكانت تونس لا تزال تعاني من نكسة الاقتصاد الذي أثرت فيه غارات البدو والغزوات الأجنبية .

ومن أكثر الدول تعاملاً مع المغرب في هذه الفترة ، انجلترا التي كانت تصدر إليه الملف وبعض الثياب الحريرية والزعفران وبعض المصنوعات النحاسية ، فضلاً عن بعض البضائع السرية المهربة ، نظراً للموقف العدائي الذي كانت تتخذه حيالها بعض الدول الأوروبية ، خصوصاً إسبانيا والبرتغال . ومن هذه السلع المهربة ، المدافع والبنادق وأشفار السيوف والبارود والرصاص والقنابل . وتستورد انجلترا من المغرب السكر بمعدل ألفي صندوق سنوياً ، وملح البارود والذهب والجلود والشمع والنحاس والتمر واللوز وريش النعام والنيلة ، وغير ذلك[18] .

---

(16) Masson, Histoire des établissements...p. 67

(17) Op.Cit, p. 84

(18) Caillé, La petite histoire du Maroc, 1, 76

وقد فتنت الثَّرَوات المغربية الأوروبيين الذين تقاطروا عليه تجاراً وصناعاً وسماسرة وجواسيس ومجندين ومغامرين يبحثون جميعاً عن الكسب ، وطلبت كل من هولندا وهنري الثالث سلفات ضخمة ، بينما حاول فيليب الثاني الاسباني المتعصب للمسيحية ، أن يتودد إلى المنصّور عن طريق الهدايا الفاخرة[19] . وكانت الموانئ التجارية التي تحط فيها البضائع الاسبانية أو تشحن منها المنتجات المغربية إلى إسبانيا هي بليونش وتطوان وسبتة وأكادير وآسفي . وقدر مبلغ الصادرات سنوياً بثمانين ألف دوقة[20] .

أما سلا فكانت قد فقدت نشاطها الاقتصادي وذهب كثير من عمرانها في ظل الحكم الوطاسي حتَّى القرن 10هـ 16م ، ثم استرجعت نشاطها في القرن التالي وبدأت تستقبل سفن البندقية وجنوة وإنجلترا محملة بالثياب وغيرها من منتجات أوروبا كما تشحن منها الحبوب والجلود وغير ذلك[21] . وإنما عادت هذه الحركة بتعاون مع الموريسكيين الذين استقر معظمهم بالرباط وقسم منهم بسلا .

وكان ميناء آسفي منفذاً لمراكش ، تحمل إليه السفن الأوروبية الثوب والملف والذخائر الحربية وحتَّى «الكمنجات» للجوق الملكي والتوراة لليهود ، والساعات والعطور والسوائل الكحولية[22] .

وشهدت مراكش أعظم مظاهر نشاطها الاقتصادي في تاريخها حتَّى هذه الفترة . فقد كان بها مقر أهم «ديوانة» بالمغرب ، وهي عبارة عن جمرك ومستودع لبضائع التجار الأوروبيين ، مع مصرف مالي . وكان يجري عليها تفتيش قبل أن تستخلص عنها حقوق الجمرك التي هي 10 في المائة عند الدخول ، وتتفاوت نسبتها التي قد تبلغ 30 في المائة عند الخروج . وكان مقر هذا الجمرك بالقصبة ، بينما كانت هناك ديوانة أخرى أكبر منها بساحة جامع الفنا ، هذه الساحة التي كانت أوسع جداً مما هي اليوم . والديوانة الكبرى من بناء محمد المهدي الشيخ سنة 1547م ، ولا يعرف لها أثر اليوم . وكانت تحتوي على 23 حجرة في الطابق السفلي ومثلها في الطابق العلوي ، ويحرسها بواب مسلم ، ومعه جابٍ لاستخلاص الحقوق . ثم اتخذ التجار الأوروبيون منها فندقاً سنة 1034هـ 1624م ، حيث كانوا يمارسون به

---

(19) Rousseau, Mausolée des Saâdiens, p. IV.

(20) R. Ricard, Sources inédites, Espagne, 2, 54

(21) محمد بن علي الدكالي ، اتحاف اشراف الملا ، ورقة 8.

(22) Deverdun, Marrakech, 1, 439

طقوسهم الدينية أيضاً . وما كادت الدولة السعدية تلفظ أنفاسها حتّى انتقلت الديوانة إلى آسفي سنة 1064هـ 1653م حيث تستخلص الأعشار في عين المكان[23] .

وبالنسبة للسودان فيبدو أنها لم تستفد شيئاً يذكر في الميدان الاقتصادي من التدخل السعدي بالنظر لأزمة الحكم داخل المغرب وبعد الشقة . كما أن تومبوكتو فقدت أهميتها الثقافية ، إلى جانب كاو وجن[24] ، وربما بدأ ذلك قبيل التدخل السعدي مباشرة . ومنذ سنة 997هـ 1588 بدأت تظهر طلائع المغامرين الإنجليز في سائر إفريقيا الغربية والوسطَى[25] كما بدأت طلائع الاسبان تظهر في الصحراء الغربية . وينبغي أن يؤخذ هذا العامل بعين الاعتبار في مبادرة المنصور إلى فتح السوادن .

وفيما يرجع إلى موارد حركة الجهاد البحري فقد كانت تقتسم كما يلي :

– عشرة في المائة لديوان سلا والرباط .
– خمسة وأربعون في المائة لصاحب المركب .
– خمسة وأربعون في المائة للبحارة والضباط والربان وقائد المدفعية والجراح ،

وفي الأحوال التي يخضع فيها المجاهدون للرقابة المباشرة للسلطان يأخذ العاهل الخمس ثم نصف الباقي بوصفه صاحب المركب ، أما النصف الباقي فيتقاسمه الضباط والبحارة . أما الملابس فيسمح للبحارة بنهبها ، إلا ملابس الربان فيأخذها الرئيس[26] .

ومن مظاهر نشاط الملاحة التجارية بالمغرب ، أن فاس كانت فيما مضَى ميناء تجارياً نهرياً . فمنذ عهد الموحدين كانت تصنع بها مراكب نقل تعبر وادي فاس وسبو لتصل إلى المحيط . وكانت ترسانة فاس بـ «الحبالة» قريباً من ملتقَى وادي سبو بوادي فاس . وقد أمر أبو عنان بصنع مركبين بقرية خولان (سيدي حرازم) ، أحدهما ذو شراعين لمائة وعشرين مقاتلاً ، والثاني لستين جندياً . وقد أبحر المركبان إلى المهدية سنة 756هـ 1355م.

---

(23) Op, Cit. pp. 451-452

(24) بازل دافيد . افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص 161.

(25) Walkenaer, Recherches géographiques. p. 44

(26) Coindreau, Les corsaires de Salé, p. 64

وفي سنة 968هـ 1560م وفدت بعثة من نافاريا فوصلت إلى فاس من أكادير براً ، ورجع رئيسها عن طريق ميناء فاس . وفي الوقت ذاته ، قدمت سفينة تجارية إلى هذا الميناء رأساً من مرسيليا .

ومما كان يساعد على إنشاء السفن هناك ، غابات بني يازغة والبهاليل حيث يتوفر خشب البلوط والأرز ، كما تقدم مادة الزفت . وكان بفاس ، كثير من صناع الخشب والحديد ، وعملهم أساسي في صناعة السفن . وكانت قبيلة بني يازغة تتعاطى زراعة القنب[27] ، إذ لا تخفَى ضرورة الحبال للسفن حتَّى العصرية منها .

(27) Charles Pellat, Recueil de textes. p. 54 نقلا عن جريدة السعادة بالرباط .

4 – العمران وهندسة البناء

نظرة عامة

يمكن اعتبار الفن المعماري في القرن الحادي عشر ، والعاشر قبله(15 ـ 16م) استمراراً للفن المعماري في العصر المريني ، سيما في نقش الخشب والجبس وشكل المباني الدينية ، وإن تميز الفن السعدي بأن فيه مزيداً من الهرب من الفراغ ، كما يقتبس من الفن الغرناطي في مراحله الأخيرة ، حيث تأخذ الآيات الكريمة وقصائد برمتها أو أبيات مختلفة ، مكاناً بارزاً في النقش ، كما نعرف ذلك من بقايا نقوش قصر البديع ، ومن الضريح السعدي .

وعلى الرغم من المآخذ التي يمكن أن تلاحظ على فن البناء السعدي ، خصوصاً التحجر وقلة الذوق في بعض مظاهره[1] ، فإن من التجني على هذا الفن أن نحكم عليه بصورة قطعية في وقت لا نتوفر فيه من الوجهة الفنية إلا على أمثلة محدودة لا تتجاوز خصة القرويين بالإضافة إلى ما سبق ذكره .

كذلك كان أثر الموريسكيين قوياً في البناء والفنون ، ولا أدل على ذلك من الأبواب المنقوشة في دور سلا والرباط ، وهي في الغالب على شكل عقود أو أقواس موتورة ، تمثل الفن الأندلسي في عصر النهضة[2] . أما التأثير التركي فلا يمكن تحديد مداه إلا من خلال هندسة ضريح مراكش التي تستمد تعدد العقود في القبة الرئيسية من هذا التأثير ، كما يمكن أن تكون بعض قباب قصر البديع قد أخذت عن الهندسة التركية البيزنطية ، خصوصاً وأن هذا القصر لم يتم بناؤه إلا بعد زيارة المنصور للقسطنطينية ، وقبل أن يتولّى العرش[3] .

---

(1) Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 234

(2) Op. Cit, p. 222ومن جهة أخرى ظهر التأثير الموريسكي في فن التطريز التقليدي الذي لا تزال بقاياه في الرباط وسلا والشاون وأزمور وتطوان((Op. Cit, p.223)

(3) الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 356.

وفيما يرجع إلى الحصون والأبراج ، فالأثر البرتغالي فيها ملحوظ ، إذ تغيرت هندستها كلياً منذ أواخر القرن التاسع 15م بسبب استعمال المدفعية والاسلحة الثقيلة التي تتطلب مزيداً من الحذر عن طريق الاستكثار من الاهراء للذخيرة مع تخصيص سطوحها للمدافع ، كما صار من اللازم تمتين البناء الذي تدخل الآجر في سقوفه بكثرة ، ولو أننا لا نلمس جهداً يذكر ، في كل تاريخ المغرب الوطني من حيث العدول عن الأحجار الصغيرة والاستكثار من الطين في بناء الأسوار والحصور والمباني الرئيسية دون الأحجار الضخمة والمنحوتة ، التي تخلد المباني قروناً متطاولة كما نلمسه في البناء الروماني والغوطي والمحلي الموروث عن هذين في أوروبا ، وإن كان للفن الإسلامي عموماً ميزاته الخاصة .

المــدن :

جل المدن والقرى الرئيسية والقصبات التي شادها السعديون تتركز في منطقة السوس والجهات المجاورة . وقد بنيت في الغالب لأسباب دفاعية أو سياسية ، أو لوقوعها في المناطق التي يوجد بها أهم أنصار الدولة ، وبعضها شيد الأغراض صناعية . ولم يبذل أي جهد لإعادة بناء المدن التي هجرها السكان خلال العهد الوطاسي بسبب الزحف البرتغالي أو هدمها البرتغال كالشرقية والغربيه وتيط (وهذه تخربت قبل العهد المذكور).

تارودانت[4] .

من أقدم مدن المغرب ، بناها بربر جزولة وهشتوكة قبل الإسلام ، وقد لعبت دوراً بارزاً في تاريخ المغرب الإسلامي ، غير أنها فقدت كثيراً من أهميتها أيام بني مرين وبني وطاس ، إذ كان ازدهارها يرتبط بازدهار مراكش ، ولذلك أعاد محمد المهدي الشيخ بناءها وسمح للسكان الأولين في المدينة المجددة بتملك الأراضي التي شادوا عليها بناءاتهم ، ومن المؤكد أنها كانت تحتوي على عدد من المباني الرائعة ، وكان بها عدد كبير من البساتين ، بدليل سورها الذي يبلغ محيطه 7 كيلو مترات ، وحولها تمتد جنات من الزيتون والزرع والخضر والفواكه ، وكانت مركزاً لصناعات كثيرة ، كالأسلحة وماعون المنزل والحلي وغير ذلك ، سماها محمد المهدي السعدي بالمحمدية (نسبة إليه)، ولكن هذا الاسم سرعان ما تُنوسي عند ضعف الدولة .

---

(4) الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 183 ، الفشتالي ، مناهل ، ص 182 ، الكانوني ، آسفي وما إليه ، ص 56.

وكان اختطاطها سنة 945هـ . وقد اتبع فيها نظام محكم للري ، ولكن ، من المؤسف أن معظم آثار هذه البلدة قد اندثرت .

أكاديـــر : [5]

بني رؤساء حاحا قبل الإسلام قلعة أكادير التي احتلها البرتغال في عهد الوطاسيين سنة 911هـ 1505م ، ثم شادوا مكانها على ما يبدو حصن فونتي الذي طردهم منه محمد المهدي نهائياً بعد أقل من أربعين سنة ، وترك المهدي الحصن قائماً مكانه ، بينما شاد ميناء على مقربة منه ، وقد لعب دوراً تجارياً وحربياً عظيماً في عهد السعديين ، ولم يبق شيء من بناءات المهدي التي شملت المدينة وقصبتها فضلاً عن الميناء . على أن القصبة ظلت آهلة بالسكان إلى أن خربها زلزال أكادير سنة 1960م ، ولم يبق قائماً منها غير السور والباب المرمم .

وقد فقدت أكادير أهميتها كلياً منذ اختطاط الصويرة في عهد محمد الثالث ، إلى أن كان عهد الحماية الفرنسية . فاهتم بها الحكام الفرنسيون خصوصاً قبل الاستقلال بسنوات . وقد أعيد اختطاطها كلياً بعد الزلزال المذكور .

أمسكرود[6] :

قرية بدائرة انزكان (منطقة أكادير) ، حيث أقام المنصور الذهبي في صباه مدة . اختطها السعديون سنة 948هـ 1541م ، وأهميتها فلاحية قبل كل شيء .

الصويرة القديمة[7] .

تبعد عن الصويرة الحديثة بـ 17 كم ، وهي قصبة مربعة ، بدأ بناءها محمد المهدي الشيخ ، وقد خلفت قصبة حاحية بنيت قبل الإسلام ، وأكمل بناء القصبة بعد المهدي ابنه المنصور ، وكانت من المراكز الرئيسية لزراعة السكر وصناعته ، وتقع شمال وادي حاحا الذي يوجد مصبه قرب الصويرة الحالية .

قصبة مراكش[8] :

عرفت القصبة قبل حدودها الحالية تطوراً عظيماً ، فقد بنَى المنصور الموحدي

(5) الأفرني ، نزهة ، ص 76 . الكانوني . ن . م. ص .
(6) الحساني ، م . س . ص 183.
(7) الكانوني ، م. س . ص 55.
(8) Henry Koehler, Hespéris, 1940. Deverdun, Marrakech, 1, 384

مدينة خاصة به وبحاشيته خارج مراكش. سماها تمراكشت، وموقعها جنوب العاصمة حيث لا تزال أطلالها قائمة، وقيل إنها كانت أجمل مدينة عرفها المغرب في تاريخه، وإنما ضاهتها فاس المرينية فيما بعد. وكانت تحتوي زيادة على القصر الملكي، على ترسانة وحدائق وثكنات للجيش وسائر المرافق. وفي القصر نزل أبو العباس أحمد الأعرج سنة 928هـ 1521م، وظل مقراً ملكياً إلى أن بنَى المنصور السعدي قصبته الشهيرة، وكان موقعه وراء جامع المنصور تحيط به الحدائق ويمتد إلى جدار الملاح، وفي هذه الحدائق، وعلى أنقاض القصر القديم بني قصر البديع.

وعثر هنري كولير على تصميم كامل للقصبة السعدية، بالإسكوريال، وهو في حالة جيدة، إذ يمثل جميع المباني الرئيسية، بل وحتَّى المسافات بينها بالمقياس البرتغالي. وقد وضع هذا التصميم شاهد عيان برتغالي سنة 993هـ 1584م، ويعد من أنفس المراجع، وكان القصد منه كما يقول دوفردان أن يبيّن بدقة، الأماكن التي يرقد فيها رفات شهداء البرتغال في السنة المذكورة.

ويمتد سور القصبة شمالاً نحو 600م، وشرقاً إلى 550م. ومدخل القصبة الرئيسي هو باب «أكناو» الذي كان يسمَّى باب السقيف أو باب القصر، ويطل على ساحة باب الرّب الحالية، ويقابله باب الطبول. ويفصل بين المدخلين، زقاق طويل بقي على حاله خلال الحكم السعدي كما تركه الموحدون، ومسافته 180م تقريباً، كما تبقى السور الموحدي أيضاً.

وكان بجنوب القصبة بستان المسرة، وهو تجديد للبستان الذي غرسه عبد المومن وأبو يعقوب يوسف الموحديان، ولا يعرف موقعه ولا امتداده على التحقيق، وكان به قصر قد يكون هو خرائب «دار الهنا» حسب استنتاج دوفردان، أو مكان المستشفَى الأكبر حسب دوكاستري.

وكان من بقايا آثار الموحدين أيام السعديين، السجن القديم الذي لا تزال آثاره قائمة غربي جامع المنصور، وكذا الكنيسة الموحدية والدير، وقد أدخلت على الكنيسة تحسينات كثيرة في العهد السعدي، ثم خربت المنشأتان معاً في عهد كروم الحاج سنة 1071هـ 1660م. وقد اختفت كل الدور والمرافق التي تعود إلى العهد السعدي في القصبة، ماعدا الضريح الملكي وبقايا قصر البديع. وعلى العموم فإن السعديين لم يسلكوا سياسة الموحدين في تخريب مباني سابقيهم والبناء على أنقاضها، بل حافظوا على بقايا قصبة مراكش التي رمموها وأضافوا إليها مباني أخرى.

القصبة الوليدية[9]

كانت توجد مكانها قصبة قديمة . ذكر الزياني في الترجمان المعرب أن ابن قنفذ القسنطيني سبق أن زارها سنة 763هـ ، وكانت فيما بعد . من المراكز التي احتلها البرتغال .

وعندما أقصي السلطان زيدان عن مراكش سنة 1022هـ 1613م بسبب ثورة ابن أبي محلي التجأ إلى آسفي . وبينما كان جيشه يقيم بناحية دكالة ، اكتشف جندي أندلسي موقع الوليدية وأخبر به الفرنسي «سان ماندريّي» الذي حث زيدان على أن يجعل منها ميناء بحرياً بعد تعبيد لسانها الصخري ، وأثناء ذلك رغبت شركة فرنسية بباريز في استغلال المكان باتفاق مع السلطان بعد أن أخبرها الدبلوماسي الفرنسي «كلود دوماس» بجودة الموقع للصيد والملاحة ، ولكن المشروع لم يتم ، لأن مبعوث الشركة لم يصل إلى المغرب . وعن طريق اليهودي بالاش وجه زيدان إلى هولندا يطلب دراسة مشروع إنشاء الميناء ، فجاء الهولندي «ألبرت رويل» إلى المغرب من غير طائل ، إذ لم يُسمح إلا لعاملين صحباه بزيارة المكان . كما أن «بالاش» كان يكيد لرويل ، وحينئذ بدأ السلطان يستعد بوسائله الخاصة لبناء الميناء . فوضع مشروع بناء القصبة أولاً ، ولم ينجز إلا في عهد ابنه الوليد سنة 1044هـ 1634م ، أما الميناء نفسه فلم ينجز منه شئ يذكر .

وكان يسكن بالمنطقة عائلة سوسية من سملالة ، وبينهم عدد من المثقفين . وبخارج القصبة زاوية عبد السلام الغواص اليمني . وكان بكل من الزاوية والقصبة مدرسة ومسجد من أهم المراكز الثقافية بالمغرب .

الحصون :

من بناءات المنصور الذهبي بفاس حصنان ، أحدهما خارج باب عجيسة والآخر بمواجهة باب الفتوح ، وبتازا قلعة حصينة ، وبالعرائش حصنان دعي أحدهما حصن الفتح ، أما قصبة مراكش فقد حصنت بالأبراج الضخمة لتتحمل المدافع الخفيفة ، كما كانت الأسوار عالية ولكنها من طين على طريقة الفن الإسباني الموريسكي الذي يرجع إلى القرون الوسطى كما يقول طيراس . وكانت المواقع الساحلية أكثر المراكز حاجة إلى التحصين بسبب خطر العدو الخارجي الذي كان مع

(9) الكانوني . آسفي وما إليه . ص Caillé, La petite histoire du Maroc, T1.41

ذلك يرابض في عين المكان كما في سبتة والجديدة . وكان محمد الشيخ أول من قام بيناء حصون جديدة بين سلاطين السعديين ، وذلك بتشييده حصن أكادير .

وبنى المجاهد العياشي برجين على شاطئ سلا لا يزالان قائمين .

كذلك تبقى من تحصينات البرتغال آثار كثيرة كما في آسفي والجديدة والمهدية .

القنــاطــر :

شيدت القناطر في معظمها على وادي سبو وفروعه ، ووادي ام الربيع وفروعه ، وذلك لتسهيل تنقلات الجيوش والقوافل والأفراد ، وهكذا بنَى محمد الشيخ المهدي قنطرة على وادي سبو وجسراً عظيماً على وادي أم الربيع [10] ، وبنت مسعودة بنت أحمد الوزكيتي والدة المنصور قنطرة وادي أم الربيع بطريق مراكش ، وتدعى قنطرة حواتة . كما رممت أخرى بوادي فاس بطريق زواغة [11] . وأسهم الدلائيون في بناء القناطر ، فبنَى محمد الحاج الدلائي ثلاثة جسور على وادي أم الربيع [12] . وساهم الخواص في هذا العمل أيضاً ، ومنهم عمر الشاوي أحد الصلحاء وقد بنَى قنطرة ابن طاطو خارج فاس .

قصــر البديــع [13]

يقول الزياني في الترجمان المعرب : إن المنصور سما أمله إلى ما شاهده بالقسطنطينية من التأنق في مبانيهم ، فأمر بتأسيس «البديع» وجمع له أهل الهندسة والصناع من أقطار المغرب ، وجلب له الرخام من بلاد الروم ، ورسمه للمعلمين على شكل لم يتقدم .

كذلك يفهم من كلام الفشتالي في المناهل أن المنصور رغب أن يخلد أثراً ممتازاً خاصاً بالدولة يفوق أروع ما خلده سابقوه . وقد استغرق العمل فيه 16 سنة دون توقف من 986 إلى 1002هـ (1578 ــ 1594م)، وشارك في بنائه إلى جانب

---

(10) ابن القاضي ، المنتقى المقصور ، ورقة 16.

(11) ابن القاضي ، لقط الفرائد ، ودرة الحجال ، رقم 1141.

(12) عبد الودود التازي ، نزهة الأخيار ، ص 103.

(13) الفشتالي ، مناهل ، ص 168 . المقري ، نفح ، 8 ، 157 . الزياني ، الترجمان المعرب ، ص 356 . الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 134 . الأفرني ، نزهة ، ص 179.
Champion, Le Maroc et ses villes d'art, p. 91.H. Koeler
Hespéris, 1940. Deverdun, Marrakech,1,392

الفنيين والعمال المغاربة . صناع من أوروبا خصوصاً من إيطاليا . ويستمد القصر هندسته من قصر الحمراء . وهو على هيئة مربعة ، وتوجد به أربع قباب رئيسية متقابلة سطحها بالقرميد . ويحيط بوسط الدار أروقة بأعمدة رخامية . وأجمل هذه القباب . الشمالية منها ، وفي كل زاوية صهريج مرخم . بالإضافة إلى الصهريج الأوسط . وهو أكبرها . وتتوسطه قبة من المرمر .

ويتنوع الرخام ما بين أسود وأبيض ومجزع ، وقد استعمل إلى جانب الزليج الملون في تفريش الأرض . كما استعمل الجبس منقوشاً في السقوف والجدران . مموهاً بخالص الذهب ، ويتخلل ذلك قصائد وأبيات وآيات كريمة . وذكر من ذلك نماذج كثيرة في المناهل والمنتقى وروضة الآس والنفح وغيرها .

والقصر يقع بقصبة مراكش ، وتحيط به حديقة وساحة عظيمة ، وكانت توجد أمامه المدرسة الملكية التي تفصلها عنه ثكنة حرس السقيف .

وكانت القبة الكبيرة مسورة بالحائطي الرائع . وهو قماش مزخرف على شكل عقود ابتكره أحمد المنصور . ويبلغ طول القبة خمسين ذراعاً بالقياس المعاصر . وكان حول كل من القباب الكبرى المذكورة قباب أخرى أصغر ، إلى جانب قصور ومساكن ملحقة . وكانت تيجان الأعمدة مغطاة بالذهب مذوباً أو صفائح دقيقة .

وقد خرب مولاي إسمعيل العلوي هذا القصر العظيم الذي طالما استقبل كبار السفراء والمبعوثين . وكان موضوع وصف رائع من لدن كبار الشعراء ، وكان تخريبه سنة 1119هـ 1710م . لأسباب وصفها الأفرني بأنه يطول شرحها ، ولكنه لم يذكر منها شيئاً ، وقد نالت عدة مراكز من المغرب قطعاً من هذا الأثر المحطم .

وكما يتجلَّى الأثر الموريسكي الأندلسي في بناء القصر ، وهو العنصر البارز ، كذلك يلاحظ تأثير جزئي لبعض فنون الشرق ، كما في أشكال التوريق الصينية ، بما في ذلك الأوراق الطويلة والمسننة والقرنفل . إلى جانب بعض الزخارف المستمدة من الفن السوري[14] .

وتملأ الأشكال الهندسية ، الفن الأندلسي على العموم . أكثر من الزخارف النباتية . ومع ذلك لم يكن قصر البديع بملحقاته السكنية يشغل حيزاً كبيراً . وإنما الذي يميزه كأثر عظيم . هو روعة فنه وحسن ذوق بانيه .

Terrasse, Histoire du Maroc, 1, 196 (14).

وتطلب بناء القصر أموالاً باهظة أداها الشعب ضرائب . وكان المنصور يؤدي للعاملين فيه أجوراً حسنة ، ويهتم شخصياً برعاية أولادهم حتَّى يتفرغوا كلياً لأعمالهم في بناء القصر.

المدارس

يظهر أن السعديين لم يستكثروا من بناء المدارس لسببين : أولاً ، لوفرة المدارس المرينية التي واصلت مهمتها في هذا العهد مع بعض الفوارق . ثانيا : لأن عدداً كبيراً من الخواص في مراكز كثيرة كسوس والقصر الكبير ودكالة أقبلوا على بناء المدارس والزوايا لأغراض تثقيفية . لكن مراكش حظيت ببناء المدرسة الملحقة بمسجد علي بن يوسف[15] ، والتي لم تكن ترميماً لمدرسة أبي الحسن المريني ، بل هي إعادة بناء شاملة من عهد عبد الله الغالب ، سنة 972هـ 1564م.

وتستمد هذه المدرسة خطوطها الهندسية من المدرسة البوعنانية الفاسية ، وفناؤها رحب وأرضها مبلطة بالرخام الأبيض ، يتوسطها صهريج مستطيل ، شأن أكثر المدارس المرينية ، ويكسو أعمدتها الزليج الملون ، وتعلوها سواكف من خشب الأرز الذي نقشت عليه كتابة رائعة . والمسجد الملحق بالمدرسة يحتوي على أسكوبين تزينهما أعمدة رخامية ، أما المحراب فتكثر زخارفه النباتية والنوافذ التي تعلوه بين النقوش .

ومن مدارس مراكش ، المدرسة الملكية بالقصبة ، والمدرسة الملحقة بجامع باب دكالة ، وأخرى بحومة ابن صالح ، وفي تارودانت : المدرسة الملحقة بالجامع الأعظم .

أما المدارس الخاصة فتمتاز ببساطتها وعدم تأثرها بغير الطابع المحلي ، وقد شيدت أساساً للدراسة ، على عكس مدارس الدولة التي تخصص لسكنَى الطلبة أيضاً .

ومن المدارس الخاصة بسوس[16] .

1 — مدرسة آقا ، وقد أسست قبل السعديين ولكنها نشطت أيامهم .

---

(15) Champion, OP, Cit, p. 87. Deverdun, Op, Cit, p. 373.

(16) محمد المختار السوسي ـ سوس العالمة ـ ص 156.

2 ــ مدرسة الحسن بن عثمان التاملي بتيوت (تارودانت) وهو تلميذ الونشريسي وابن غازي.
3 ــ مدرسة بعقيلة، من بناء آل عمرو.

ومن الشروط التي تتوفر في طالب المدرسة كما أثبتها الونشريسي في «المعيار»، أن لا يسكن بالمدرسة إلا من بلغ عشرين سنة على الأقل، وأن يشتغل بالدراسة أو التدريس وحضور الحزب صباحاً ومساء، ودروس القرآن باستمرار على الأستاذ المختص، وكل طالب لم يظهر نبوغه العلمي بعد مقامه عشر سنوات يطرد، حتّى لا يضر بقاؤه في المدرسة بالوقف المخصص للطلبة. ومن جهة أخرى فإن ساكن البيت لا يضع به من المواد الغذائية الا مؤونته الخاصة.

المساجد

1 ــ الجامع الأكبر بتارودانت من بناء محمد المهدي. مساحته 2500م². ومساحة فنائه 1160م². ويشتمل بيت الصلاة على خمسة أساكيب، والصومعة ذات معينات بارزة ومزينة بالفسيفساء، وارتفاعها 27م. كما أن النقوش في سقف المسجد والتي تعود إلى عهد أحمد المنصور، تضفي عليه روعة وجمالاً، ويعد من أعظم جوامع المغرب. وكان قد وصل إلى درجة يرثى لها من الإهمال. إذ كانت نقوشه الخشبية قد امحت كلياً أو كادت. وقد وقع ترميم هذا الجامع خلال مدة تجاوزت عشر سنوات حتّى عام 1959م حيث أعيد إليه رونقه.

2 ــ جامع المواسين بمراكش[17]، من بناء عبد الله الغالب سنة 970هـ 1562م وكان يدعى جامع الأشراف، إذ بقربه كانت تسكن عائلة من الأشراف تحمل لقب المواسين الذي أطلق على الجامع والحي المجاور. ولاحظ «دوفردان» أن الجامع يتوفر على مجموعة بنائية لا تشبه في شيء المنشآت الدينية السابقة، وإلى جانب المسجد والمنار، هناك سقاية وميضأة وحمام وكُتاب ومساكن للقومة. وحسب هذا الباحث، فإن الفكرة استقاها الغالب من مماليك مصر عن طريق الحجاج المغاربة. والحقيقة أنه لا يوجد في هذه الفكرة جديد بالنسبة للمغرب من حيث المبدأ، إذ لا يخلو جامع كبير في تاريخه من هذا التجميع الذي يمثل وحدة

---

(17) الأفرني، نزهة، ص 93. Deverdun, Marrakech, 1, 377

متكاملة تستجيب للحاجة ولتعاليم الإسلام في وقت واحد. أما السقاية. فقد كانت من الأهمية بحيث تتزود منها أحياء المدينة[18].

ويتألف الجامع من سبع بلاطات. والبلاطة الوسطى أعرضها. وله ثلاثة أبواب غير مدخل المنبر والإمام. أما المحراب. فنسخة من محراب جامع القصبة. بما في ذلك نقوشه وحروفه الكوفية. وأقواسه جميلة ذات شكل حدوي. وكان يحتوي على خزانة عظيمة ذكر دوفردان أن بقاياها نقلت على يده إلى خزانة ابن يوسف[19].

3 — جامع باب دكالة[20]

من إنشاء مسعودة بنت أحمد الوزكيتي الورززي والدة المنصور الذهبي. وكان إنشاؤه سنة 965هـ 1557م بباب دكالة أحد الأحياء الرئيسية بمراكش. ويحتوي بيت الصلاة على سبع بلاطات. والصحن غير مربع تماماً. ومساحته 38×36م. والبلاطات تفصل بينها أعمدة ضخمة. وتنتهي بعقود حذوية. ويمتاز الجامع بقبتين تعلوان طرفي بلاطتين محاذيتين للصحن من جهة بيت الصلاة. ويستمد المنار هندسته من منار جامع القصبة. وهو من الآجر الأصفر الرائق.

4 — جامع الفنا[21]

كان المنصور قد شرع في بناء هذا الجامع باسم جامع الهنا بمراكش. وكان الوباء في هذا الوقت يفتك بالسكان فتكاً ذريعاً. ومات المنصور والمسجد لما يكمل. فأطلق عليه جامع الفنا بسبب الوباء المذكور[21]. وقد حملت الساحة التي يوجد بها هذا الاسم أيضاً.

5 — جامع أبي العباس السبتي[22].

نسب إلى عبد الله الغالب وأبي فارس أيضاً. وقد بني الجامع بجوار ضريح أبي العباس السبتي. وألحقت به خزانة كبيرة.

---

(18) عبد الحفيظ الفاسي. مجلة المغرب. ربيع — جمادى. 1355هـ.

(19) دوفردان باحث ومستشرق فرنسي له اطلاع واسع على آثار مراكش وتاريخها. وهو من أساتذة صاحب هذه الدراسة.

(20) Champion. Op. Cit. p.88. Deverdun. Op. Cit. p. 413

(21) عبد الرحمن السعدي. تاريخ السودان. ص 205.

(22) عبد الحفيظ الفاسي. م. س. الناصري. استقصا. 6. 5.

ومن الجوامع الرئيسية بمراكش أيضاً ، جامع حومة ابن صالح ، ومناره مزخرف بالزليج الأخضر المركب بالمسامير . ويمكن فكه .

ومن أهم الجوامع التي وسعت بمساهمة ميزانية الدولة ، جامع شفشاون الذي كان أصلاً من بناء أبي عبد الله محمد بن راشد في أواسط القرن العاشر/16م. وكانت الزيادة فيه على يد القاضي بشفشاون أحمد بن الشريف العلمي سنة 1012هـ . وتشكل الزيادة أربع بلاطات تزيد طولاً عن البلاطات القديمة . كما أن العقود أوسع وأكثر ارتفاعاً ، وقد ألحقت بالجامع خزانة ومدرسة لعبت دوراً هاماً في حقل التعليم[23] .

ومن الإضافات بالقرويين قبة الخصة الموجودة أسفل المنارة بوسط الصحن[24] ، وهي من بناء عبد الله بن الشيخ المامون بن المنصور ، أما الخصة (الفسقية) نفسها فشيدت في عهد أحمد المنصور سنة 996هـ ، ولها كرسي من المرمر يدعى (بيلة) ، وقد بلغ وزنهما معاً مائة قنطار[25] . وبنَى السعديون أيضاً ، جناحين بجامع القرويين . وجناحاً هاماً بخزانته .

وساهم الدلائيون وغيرهم في بناء المساجد ، لا سيما مساجد الزاوية الدلائية[26] .

الزوايا

الزوايا في هذا العهد أكثر من أن تحصَى ، ودورها يختلف من ديني إلى سياسي أو علمي ، وقد تجمع بين الثلاثة كزاوية الدلاء . وتعد المناطق التي تواجه الخطر الأجنبي من أكثر جهات البلاد زوايا فيما يخص ذات الدور السياسي والحربي الذي لعبته الرباطات فيما مضَى . ومن زوايا القرنين : العاشر- الحادي عشر هـ :

1) زاوية الشيخ عبد الوارث اليالصوتي (ت 971هـ) أسسها ببني زروال على وادي أوضور .

---

(23) انظر عن جامع شفشاون ومرافقه . دراسة للسيد سعيد اعراب . بمجلة «دعوة الحق» أكتوبر 1962.

(24) الاستقصا . 6 . 59.

(25) نزهة الحادي . ص 261.

(26) عبد الودود التازي ، نزهة الأخيار ، ص 104.

2) زاوية أولاد خزاز ، بنيت على يد أحمد الشريف العلوي ببني زروال أيضا[27].

3) زاوية تمكروت ، أسسها الشيخ عمر بن أحمد الأنصاري (ت 983هـ)، وجدد بناءها الشيخ محمد بن ناصر فنسبت إليه ، وصارت منذ أواخر القرن العاشر من أكثر الزوايا أنصاراً وأنشطها في الميدان التثقيفي ، وبلغت مخطوطاتها المتبقية بعد الاستقلال نحو عشرة آلاف ، معظمها من الكتب النفيسة.

4) زاوية السيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي ، بتطوان ، بنيت سنة 1103هـ[28].

5) زاوية الشيخ السعيدي بتطوان ، من بناء الشيخ قاسم الحاج ، أوائل القرن 11هـ 17م[29].

6) الزاوية الدلائية ، وقد مر الحديث عنها في فصل سابق.

وتتوفر الزوايا عادة على أوقافها الخاصة ، كما تعتمد على تبرعات وهبات المريدين والعاطفين ، وكثير منها تابع لزوايا رئيسية ، وتحتوي على مساكن القومة ، بالإضافة إلى حجرات لاستقبال الغرباء والوافدين ، كما تشتمل على قاعة للصلاة ، وقد تكون مجرد فناء بالزاوية.

وقد تتوفر الزاوية على مقبرتها الخاصة ، ويدفن فيها عادة ، أفراد عائلة شيخ الطريقة وغيرهم. ولعبت الزوايا دوراً بالغ الأهمية في نشر الحركات الصوفية وإنشاء الحركات السياسية ، سواء منها المناوئة للدولة والتي تتبنى حركة المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي.

ضريح السعديين[30]

أروع أثر بقي سليماً من عهد السعديين ، ويقع بقصبة مراكش. وقد بدأ بناؤه

---

(27) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص 19.

(28) محمد داود ، تاريخ تطوان ، 1 ، 307.

(29) ن. م. ص 322.

(30) المقري ، روضة الآس ، ص 153.

Marçais, L'architecture musulmane, p. 393. Champion, Op, Cit, p. 100. Rousseau, le mausolée des princes saâdiens, pp.65-68. Benoît, l'Afrique Mediterranéenne, p. 73. Marçais, Manuel d'arts musulmans, pp. 751-755. Terrasse, Les arts decoratifs, p.85. Deverdun, Marrakech, 1,360.

في عهد عبد الله الغالب ، وتم في عهد أحمد المنصور . ويتألف من ثلاث قاعات تتصل إحداها بالأخرى ، وأكبرها ترتكز على اثني عشر عموداً من الرخام ، والثانية خصصت للصلاة ، ولها محراب جميل ، أما الثالثة فتستند إلى جامع القصبة .

وكان الضريح قبل بنائه مقبرة لأسر ملكية سابقة ، بالإضافة إلى أمراء هنتاتة وغيرهم ، كما دفن به أفراد من الأسرة العلوية ، كقبر زوجة السلطان محمد الثالث وخمسة من أبنائه ، فضلاً عن قبر تنسبه العامة إلى السلطان الأكحل .

وجدار القبة الكبرى مزخرف بالزليج إلى نحو مترين علواً ، وما بين السقف والزليج نقشت به أشكال رائعة وآيات قرآنية . وفي هذه القبة يرقد أحمد المنصور وابناه زيدان ومحمد الشيخ . وحول هذه القبور الثلاثة قبر زوجة المنصور وعبد الملك ابن زيدان وأمه وعدد من أولاد محمد الشيخ وقائد أندلسي غرناطي ، وقبر الوليد ابن زيدان الذي يقع في ركن منعزل. أما قبر عبد الله بن محمد الشيخ ، فيوجد في القبة الثانية .

وفي خارج القاعات تحطمت النقوش الا من بعض القبور . وهناك قبر الغالب والمهدي وأم المنصور وقبر أحد أنجال أبي يعقوب الموحدي .

وكثير من القبور كتبت عليها آيات وأشعار ، وقد كتب على قبر المنصور :

«وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيه لغوب ....إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً وكأساً دهاقاً لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ، جزاء من ربك عطاء حساباً ...جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون ، كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً ، إن الله عنده أجر عظيم ...

هذا ضريح من غدت به المعالي تفتخر   أحمد منصور اللوا[31] لكل مجد مبتكر
يارحمة الله أسرعي بكل نعمّى تستمر   وباكر الرمس بما من رضاه منهمر
طيبي ثراه من ند كذكره العطر   وافق تاريخ الوفاة دون تفنيده ذكر
مقعد صدق داره عند مليك مقتدر

(31) هذا النظم رجز نُقل هنا كما هو.

أما المحراب في القبة الثانية ، فيزينه باب حذوي ، وقاعته مهدمة تحتوي على أربعة أعمدة وفناء لا سقف له . ويزين المحراب أيضاً ستة أعمدة صغيرة مطعمة بحجر اليصب الأخضر المزخرف ، وبجداره كتابة كوفية جميلة . أما سقفه فقد طعمت خلاياه المنقوشة بألوان ذهبية وزرقاء وخضراء . أما القبة الثالثة التي تضيئها فتحتان مربعتان في السقف ، فهي أصغر القباب الثلاث ، وبها تخاريم على الجبس الذي تصطف فيه النقوش على درجتين .

ومما تمتاز به هذه القباب دقة نقشها وتمويهها بالذهب وتعدد الألوان في زخارفها ، وتجمع بين الإيحاء بالوحشة والتأمل والعظمة في آن واحد .

☆

5 – الحركة الفكرية

بالرغم من المآخذ التي اتسم بها العمل السياسي للدولة السعدية بوجه عام، وبقطع النظر عن إخلاص الكثيرين منهم للقضايا الوطنية والدينية، فإن نشاطهم الثقافي وتكوينهم الدراسي كثيراً ما أفادهم في فرض شخصيتهم السياسية والمذهبية بصورة مباشرة. فمحمد المهدي مثلاً كان معروفاً بمقدرته على إقناع الفقهاء والمستشارين لديه، بوجهة نظره. وأحمد المنصور خدم الحركة الفكرية لا بفضل نفوذه كملك، ولكن بفضل ثقافته الواسعة أيضاً. وزيدان عرف في النهاية كيف يقنع الزعيم الشعبي المثقف يحيَى بن عبد المنعم بضرورة تخليصه من مجابهة ابن ابي محلي. وللحجج الدينية والفكرية التي أبداها زيدان أثر في العون المباشر الذي أسداه إليه الزعيم المذكور.

وللملوك السعديين عامة ولع بفنون الأدب. فكان محمد المهدي الشيخ يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب[1]. وكان أحمد المنصور مشاركاً في معارف عصره، وله شعر غزير تميز بالأصالة والرقة. أما محمد المامون ففضلاً عن ثقافته الأدبية والفقهية كان ذا معرفة بالطب أيضاً[2].

ورغبة في إدراك مزيد من بعد الصيت في المشرق، استجاز أحمد المنصور بعض أساتذة مصر كبدر الدين القرافي وأبي عبد الله محمد البكري. وشملت دراسات المنصور الحديث والفقه والنحو واللغة والفرائض والهندسة والجبر وغير ذلك[3]. أما شيوخه فكثيرون، منهم: محمد بن يوسف الدرعي، وأحمد المنجور، وأحمد القدومي النحوي، والمفتي شقرون بن هبة الله الوهراني، والمفتي يحيَى السراج، والفقيه إبراهيم الدمناتي. وكان المنصور يستشيره كبار القضاة ويصحح أخطاءهم، كما لم يكن يجد غضاضة في أن يصحح معلوماته باستشارة

(1) محمد المختار السوسي، ص 60.
(2) الاستقصا، 6، 23.
(3) نزهة الحادي، ص 218.

المختصين[4]. ألف كتاباً في الشؤون السياسية والعسكرية، ووضع عدة تعاليق على كتب مختلفة في الحديث والتفسير وغير ذلك. وكان في نيته وضع مصنف أو ديوان جامع لقصائد الشعراء من أهل البيت[5]؛ وقد كلف ثلة من المثقفين بوضع كتب عديدة منها شرح للألفية في مجلدين كبيرين، أمر المنصور، أحمد المنجور بأن يلخص فيه بتركيز مختلف الشروح المتداولة للاستغناء عنها[6].

وكان لكثير من ملوك السعديين عطف خاص على المثقفين[7]؛ وقد يحضر بعضهم جنازة من يتوفى من النابهين من ذوي الفكر؛ فمحمد المتوكل مثلاً. حضر جنازة أبي القاسم الدكالي؛ ومحمد المامون بن المنصور حضر جنازة عبد الواحد الحميدي قاضي فاس[8].

واشتهر المنصور بجمع الكتب وتحبيسها، ولا تزال القرويين تتوفر على عشرات من المخطوطات المحبسة باسمه؛ وتعد خزانة زيدان الشهيرة التي سطا عليها الإسبان وضمتها قاعات الإسكوريال حتَّى اليوم، من بعض ما تخلف من كتب والده. وكان زيدان قد كلف الراهب الايرلندي «أنطوان دوسانت ماري» بترجمة كتبها اللاتينية إلى الإسبانية التي كان يتقنها معظم ملوك السعديين؛ ثم ترجمها أحد العلوج إلى العربية[9].

وكانت توجد خزانات طافحة بالكتب ألحقت بالجوامع الرئيسية كجامع للاعودة (باب دكالة) وجامع أبي العباس السبتي، وجامع المواسين[10].

وشهدت مراكش مقام عدد كبير من شخصيات الفكر بها كأبي فارس الفشتالي وابن القاضي ومحمد شقرون مفتي مراكش والشيظمي من الأدباء المقربين إلى البلاط. وفي هذه المدينة أيضاً، كان يتركز نشاط الأجانب من تجار وفنيين

---

(4) ن. م. ص 220.

(5) انظر حول ثقافة المنصور وشيوخه: أبو فارس الفشتالي. مناهل، ص 188. ابن القاضي، درة الحجال، ج 1 الافرني، نزهة. ص 216 و 224. القادري، نشر المثاني، ج 1. محمد بن عثمان، مجلة المغرب، ربيع، جمادي 1 1355هـ.

(6) نزهة. ص 225.

(7) نزهة، ص 212؛ استقصا، 6، 82.

(8) الكتاني، سلوة الأنفاس، 2. ص 60، و 129.

(9) Deverdun, Marrakech, 1,434

(10) Op, Cit.

ودبلوماسيين وغيرهم ، وكان بعضهم يقيم بها سنين طويلة ، فيخالط أهلها ويتعلم لهجة البلاد ، حتَّى إن أول مستعرب في نظر بعض المستشرقين ، يعد من معاصري السعديين ، وقد درس العربية بمراكش سنة 1598م ، واسمه إتيان هوبير[11] Etienne Hubert ، وكان أول أستاذ للغة العربية بكلية الطب بباريس حيث كانت لا تزال تدوي شهرة ابن سينا وابن رشد .

كذلك كانت منطقة سوس مقراً لعديد من الأسر القائمة على تنشيط المعرفة بفضل المدارس والخزائن التي تتوفر عليها[12]. وقد كانت سوس منطلقاً للدولة السعدية في عصرها الأول ، وبها كانت حاضرتها لفترة معينة ، وهي تارودانت ، كما أن بعض الزعماء المحليين كانوا من أرباب الفكر والمشجعين لنشره ، بل كانت الزعامة في هذه المنطقة لا يكاد يظفر بها إلا فقيه أو صوفي ، وهكذا كانت الحركة الثقافية نشيطة في إيليغ وتارودانت وتامنارت وأكلو وتازروالت وتازمورت وغيرها . واعتنَى أهل سوس خاصة بالفرائض والفقه والأدب ، وكان لهم فيها مجال السبق في هذه الفترة ، وإذا كانت الفتن والثورات التي شهدتها الحقبة الأخيرة من الحكم السعدي قد أثرت سياسياً على إقليم سوس ، فإن الحركة الفكرية ظلت دائبة في سيرها تجد إقبالاً واسعاً في الزوايا والمساجد والمدارس المتواضعة .

وقد أصبح التعليم في القرنين العاشر والحادي عشر هـ 16 ــ 17م أقرب ما يكون إلى الديموقراطية حيث عم عدة مدن صغرى ومراكز قروية في شتَّى جهات البلاد . وكان بنو مرين قد بذلوا من قبل جهداً طيباً في هذا الميدان . ومن المراكز الثقافية غمارة وسجلماسة وتادلا ودرعة والقصر الكبير[13] والزاوية الدلائية[14] الخ ...

(11) Op, Cit, p. 436

(12) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص.168 . ولهذا المؤلف كتب كثيرة تعالج نشاط الأصقاع السوسية في الميدان الفكري عبر التاريخ ، كموسوعته : المعسول ، وخلال جزولة ، الخ ..

(13) كان يعرف أيضا بقصر كتامة أو قصر عبد الكريم . أما القصر الكبير ، فتمييزاً له عن القصر الصغير الذي يعرف أيضا بقصر مصمودة ، أو قصر الجواز . وكانت الناحية التي بها القصر الكبير لكتامة فسميت بها . وكان عبد الكريم من رؤسائهم ولعله عبد الكريم ابن عبد الرحمن بن العجوز الكتامي من فقهائهم . وكان معاصراً لظهور دولة المرابطين . (انظر : مرآة المحاسن ، لمحمد العربي الفاسي ، ص 138).

(14) عالج الأستاذ محمد حجي نشاط الزاوية الدلائية في دراسة قيمة له بعنوان : الزاوية الدلائية (وقد سبقت الإشارة إلى هذه الدراسة).

ولربما كانت الزاوية الدلائية قد قامت في ميدان الإشعاع الفكري بجهد يفوق في مردوده ما قامت به الدولة السعدية التي اهتمت بالعمل السياسي بصورة خاصة. وتمثل كتب التراجم والفهارس التي صنفت في هذا العهد أصدق تمثيل ما كان للمراكز المذكورة وغيرها من إسهام في نشر المعرفة وتكوين الأطر والعناصر المثقفة.

الأدب

كانت كل العوامل والظروف تشجع على ازدهار الحركة الأدبية فهناك مراكز ثقافية متعددة، وظروف المقاومة والاستنفار التي كان يعيشها سكان الشواطىء المغربية، بالإضافة إلى وجود أدب شعبي متنوع يعد الملحون من أبدع فنونه، كما أن كثيراً من الملوك والأمراء كان لهم ذوق أدبي من شأنه أن يشجع الشعراء والكتاب على الإبداع ولو في إطار المدح والمناسبات الدينية والانتصارات.

وظل المدح أخصب فنون الشعر، يتقرب به إلى الملوك وكبار رجال الدولة ويحصلون به على عطاياهم وصلاتهم. وفي الواقع لم يشذ الفن عما عرف في التنويه بمزايا خلفاء الإسلام الماضين ووصفهم بحماة الإسلام والقائمين على الشريعة وما إلى ذلك مما لا يكون مطابقاً للحقيقة أحياناً.

ومهما يكن من أمر، فلم تكن أوصاف الممدوح في جملتها تبلغ حد الإفراط كما شاهدنا غالباً في عهد الانحطاط بالمشرق. وتعد انتصارات الملوك من أخصب موضوعات المدح التي برز فيها أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، ومحمد الهوزالي وأبو محمد عبد الواحد الشريف وغيرهم[15]. ومن النماذج الرائعة في هذا الباب قصيدة لسعيد بن علي الجزولي أحد شعراء الدولة الأولين. ومما جاء فيها[16]:

إذا اشتكى الجفن مني وحشة السهر	شكا الفؤاد بما جنَى من النظر
لقد أرتنا الليالي كنه عزتها	وعرفتنا حباً أيامها الأخر
لا تسألني عن البيض العتاق وسل	عن العتاق وبيض الهند والسمر
فتلك سحب عميد الدين عامدة	روضاً من النصر بين الفتح والظفر

* * *

(15) مناهل الصفا، ص 225. والمجموعة الشعرية الملحقة به، ص 263.
(16) م. م. المجموعة الشعرية، ص 283 (ملحق بمناهل الصفا).

وذات خدر كبدر بالقنا برزت لضيغم من ليوث الغيل منخدر
ظلت تساجل أترابا لها قذفت من الجفون عيوناً من دم هدر

وفي المولوديات يجمع بين مديح الرسول ومدح الخليفة(17). وعلى العموم فقد خلا المديح من التملق المفرط والأوصاف الزائفة، وساهم شعراء الملحون بوفير حظ في المديح النبوي(18). وكان أطولهم باعاً عبد العزيز المغراوي الذي كان يقول عنه مثل دارج لا ريب أنه من صنع هواة الملحون: كل طويل خاوي، غير النخلة والمغراوي(19)!

وكان لزعماء الكفاح ضد الاحتلال الأجنبي كالعياشي وزعماء الإمارات المستقلة كالدلائيين حظ كبير من إعجاب الشعراء وتقديرهم، ومما جاء في قصيدة لأحمد الدغوغي بعد انتصار العياشي على الشراقة وهم طائفة اتهمت بالانحراف في العقيدة(20).

واقطع حبال كل معارض ومعاند للحق غير ملائم
وليبشر الإسلام منك وأهله بحماية ورعاية ومغانم

ولما كانت الدولة السعدية قد قضت فترة هامة من نشاطها في الصراع ضد الاحتلال الأجنبي ومقاومة حركات التمرد في الداخل. فقد كان لها شعراؤها الخاصون الذين يتغنون بأنصارها ويشيدون بكفاحها(21).

أما شعر الرثاء فتسوده مسحة من الرقة وصدق العاطفة، كما نرى الملوك والأمراء يعنون بتسجيل أبيات على قبور موتاهم تستغفر الخالق لهم وتذكر الأحياء بدار البقاء.

وامتاز الفن الأدبي في هذه الفترة بالتراسل بالشعر والنثر الفني، وهي ظاهرة لم تكن جارية من قبل بشكل فاش(22).

---

(17) المناهل، ص 263.
(18) محمد الفاسي، مجلة البحث العلمي، 1 ص 57 سنة 1383 ـ 1964.
(19) ن. م. وص.
(20) أبو املاق، الخبر عن ظهور الفقيه العياشي، ورقة 7.
(21) الفشتالي. مناهل. ص 103. عباس المراكشي، اعلام. 4. 172. محمد المختار السوسي. سوس العالمة. ص 68. عبد الله كنون النبوغ المغربي، ص 698.
(22) انظر نماذج في الاستقصا. 5. 56. ابن تاويت الأدب المغربي. ص 368.

أما الغزل والنسيب فلا ريب أن أرق ما قيل فيه كان من نظم بعض الملوك والأمراء لتوفر أسبابه ومناخه كما في بعض قصائد المتوكل والمنصور وزيدان[23]. وللمنصور موشحات بعضها في الغزل تدل على أصالة ورقة شعور[24].

ووجد الوصف مجالاً واسعاً في المباني الفاخرة المقصورة على طبقة محدودة من الحكام والأغنياء، والبساتين الرائعة التي أنشأها هؤلاء وأولئك. ولا جرم أن قصر البديع قد حظي بأوفر سهم من هذا الفن الشعري، كذلك نقشت على جدران هذا القصر وغيره من المباني الملكية جملة من القصائد والقطع الشعرية كثير منها نظمه أبو فارس الفشتالي[25].

وبلغ النثر الفني ذروته في هذه الفترة، بينما كان يشهد بالمشرق أسوأ حقبة مر بها من الركاكة والانحطاط.

أما أسلوب الظهائر والمراسلات الرسمية فعلى الرغم من كونه أسلوباً إدارياً، فقد كان يحرر بمنتهى العناية من غير تنميق، ومع الاختصار، والتزام ما قل ودل[26].

كذلك نرى أن الجدل يدخل أحياناً أسلوب المراسلات بين الملوك وبعض المخالفين والثائرين، وقد سجل الناصري بعض مراسلات زيدان في هذا الباب، وهي تمثل أروع أساليب الاحتجاج والإقناع، فضلاً عن سلاسة تركيبها وترابط فقرها ومعانيها[27].

وامتاز أسلوب المؤلفات برصانته، لا سيما أسلوب ذوي الثقافة الناضجة، ولعل ابرعهم في هذا المجال أبو فارس الفشتالي الذي يتأثر إلى حد كبير بأسلوب ابن خلدون في «العبر». وأحسن نماذجه بهذا الصدد كتابه مناهل الصفا[28].

---

(23) الفشتالي، مناهل، ص 207. المقري، نفح، 9، 282. المحبي، خلاصة الأثر، 1، 223. كنون، النبوغ، ص 743.

(24) نفح، 9، 280.

(25) نفح، 8، 159، استقصا، 5، 136.

(26) محمد البشير الفاسي، قبيلة بني زروال، ص 56 و 68.

(27) الناصري، الاستقصا، 5، 136.

(28) انظر تعليقاً لحركات على جزء «مناهل الصفا» الذي نشره الاستاذ كنون، في مجلة البحث العلمي، عدد 8، الرباط. وقد نشر الدكتور كريم نفس النسخة مع زيادات ومقدمة له.

وقد ولد أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم الفشتالي سنة 952ـ 956هـ بفشتالة ، وهي مكان وقبيلة بناحية فاس ، وإليها ينسب أيضاً ، محمد بن علي الفشتالي من شخصيات البلاط المنصوري وأحد الأدباء البارزين . وكان أبو فارس يلقب بوزير القلم الأعلى بوصفه رئيس ديوان الإنشاء وكاتب الخليفة الخاص ، وكان فقيهاً أديباً ، درس على أحمد المنجور وعبد الواحد الشريف وغيرهما من فقهاء فاس ، ومن إنتاجه :

1 ـ مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا في بضعة مجلدات . وقد نشر الجزء الثاني منه مختصراً بعض الشيء بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون سنة 1384هـ 1964م .

2 ـ مدد الجيش ، ذيل به كتاب جيش التوشيح لابن الخطيب ، وضمنه مجموعة من الموشحات المغربية .

3 ـ مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم ، ألفه بأمر المنصور .

4 ـ شرح مقصورة المكودي .

وفي نفح الطيب ومناهل الصفا جملة من رسائله ونثره . كما نشر السيد كنون بعض ما حرر من مراسلات رسمية ضمن 33 رسالة وظهيراً بعنوان «مجموعة رسائل سعدية» وهو في الأصل مخطوط بالخزانة العامة بالرباط .

وكان أبو فارس مكرماً لدى المنصور الذي كان يقول عنه : نفتخر به على الملوك ونباهي به لسان الدين بن الخطيب . وقد علق المحبي على هذا التنويه بقوله : «ناهيك بمثل هذا القول من مثل هذا الملك . وهو شاهد بفضل كمال المقول فيه ».

والفشتالي أديب حتَّى في كتابته للتاريخ ، ويتناول شعره موضوعات كثيرة ، كالوصف والمديح النبوي والملكي والحماسة وغير ذلك ، وفي ترسله يجمع بين القدرة على السجع من غير مبالغة في الصور البلاغية، وبين السلاسة والأسلوب المطبوع الذي تسوده الرصانة .

وكانت وفاة أبي فارس الفشتالي أيام السلطان زيدان[29] سنة 1032هـ ـ 1622م .

---

(29) انظر حول ترجمة أبي فارس وأدبه : ابن القاضي ، درة الحجال . المقري ، نفح الطيب ، 8 ، 158 . المحبي ، خلاصة الأثر ، 2 . 325 . الافرني ، نزهة الحادي ،

ومن كبار الأدباء أيضاً محمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة . وهو أحد شعراء الدولة السعدية في بلاط المنصور . وتوفي سنة 1012هـ . وقد جمع بين الأدب والفقه . وكان يتولى قضاء المحمدية[30] . وله شرح على ديوان المتنبي . وسعيد الحامدي . ومحمد بن علي الفشتالي (ت 1021هـ). ومحمد بن عمرو الشاوي . وكل هؤلاء من رجالات البلاط السعدي . وعبد الخالق بن محمد بن أبي بكر الدلائي الذي اشتهر بعلم البديع[31].

ومن كتب الأدب المؤلفة في هذا العهد غير ما تقدم :

1) طلائع اليمن والنجاح لمحمد بن عبد العزيز التاملي (ت 1030هـ) في مدح المامون السعدي . ذكر المختار السوسي أن منه نسخة بخزانة العابد الفاسي[32].

2) شرح مقصورة المكودي لأبي بكر التاملي .

3) ديوان سعيد بن علي الحامدي .

4) مجموع نثر وشعر لمحمد المحاولو .

5) ديوان محمد بن عبد العزيز الرسموكي . وكل هذه المؤلفات أوردها المختار السوسي في «سوس العالمة».

العلـوم الدينية :

بلغ الاهتمام بالعلوم الدينية حداً فائقاً . حيث أقبل الطلاب على تلقي علم القراءات وتعددت كتب النوازل . كما صارت دراسة العقائد تتخذ طابعاً إلزامياً . فمن المؤكد أن مساكنة العناصر الأجنبية للمغاربة . خاصة في المدن الرئيسية . بالإضافة إلى حركة المقاومة والصوفية . جعلت طبقات الشعب تحمل ابناءها على التشبع بالروح الدينية كرد فعل للتدخل المسيحي . بالإضافة إلى أن دور العلوم الدينية في الحياة الإدارية وشغل المناصب ما فتئ يعظم على قدر تشجيع الدولة وحاجيات الأمة .

= ص 267 . م. م. مجموعة شعرية (ملحق بالمناهل) . رسائل سعدية . لعبد الله كنون . عبد العزيز الفشتالي من سلسلة كنون .

(30) انظر حول ترجمته وأدبه : الفشتالي . مناهل . ص 236 . م. م. مجموعة شعرية . ص 301 . عباس المراكشي . أعلام . 4 . 20 عبد الله كنون . النبوغ . ص 263.

(31) عبد الودود التازي . نزهة الأخيار . ص 115.

(32) محمد المختار السوسي . سوس العالمة . ص 224.

وكانت دراسة علم القراءات، تساير دراسة الفقه وتلازمها . وممن برع فيها : محمد بن أبي المحاسن يوسف الفاسي من مواليد القصر الكبير سنة 959هـ . وقد توفي بفاس 998هـ ودفن بالكغادين[33] . ومحمد بن يوسف التدغي تلميذ أبي نعيم رضوان الجنوي وأبي عبد الله الخروبي[34] . وأبو فارس عبد العزيز الزياتي (ت 1055هـ). وأحمد بن قاسم القدّومي الغساني[35] (ت 992هـ).

ومن الكتب المؤلفة في القراءات :

1) إتقان الصنعة . في قراءة السبعة . لأحمد بن شعيب (ت 1015هـ).
2) شرح مورد الظمآن في علم رسم القرآن لابن عاشر.
3) تقييد وقف القرآن . لمحمد الصماتي (بضم الصاد) الهبطي المتوفى بفاس (930هـ) . وعليه جرى أهل المغرب في وقف القرآن كما يقول الأستاذ كنون.

كما كانت ميزة العصر . الاعتناء بتفسير القرآن . وتعدد المفسرين الذين من بينهم : الحاج محمد الشطيبي (ت 963هـ). صاحب اللباب في حل مشكلات الكتاب . وعبد الرحمن العارف (ت 1036هـ) وله : تفسير الجلالين . وعلي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي (ت 1054) . وقد نسب إلى المنصور الذهبي حاشية على تفسير الزمخشري .

كما يعد من كبار المفسرين أيضاً أبو القاسم بن إبراهيم الدكالي المشترائي (ت 978هـ) . وهو من أئمة القراءات السبع[36] .

أما الفقه فيعد المبرزون فيه والمتعاطون له بالمئات . على أن ميزة الفقهاء المتضلعين في هذا العصر . هي تصدر عدد منهم للفتوى ووضع كتب في النوازل . وهي ذات قيمة اجتماعية وقانونية كبيرة . خصوصاً بالنسبة للأوضاع المحلية .

وبما أن ظاهرة العصر كانت هي الجمع بين عدة معارف في نفس الوقت . فقد كان في الفقهاء من يجمع بين العلوم الدينية والأدبية . أو بينها وبين العلوم الرياضية .

---

(33) عبد الرحمن زيدان . اتحاف اعلام الناس . 4 . 34.
(34) ابن القاضي . ذرة الحجال . رقم 624.
(35) محمد البشير الفاسي . قبيلة بني زروال . ص 64.
(36) الكتاني . سلوة . 2 . 128.

ومن أبرز الشخصيات الفقهية غير الذين سبق ذكرهم في موضوع القضاء :

1) أبو العباس أحمد بن علي المنجور[37] (ت 995هـ) ، وقد وصفه أحمد بابا بأنه آخر الأئمة بالمغرب ومحققيهم ، وهو أستاذ أحمد المنصور الذهبي ، وابن القاضي وأحمد بابا والأفرني ، وكان يجمع بين الفقه والأصول والأدب والتاريخ والبلاغة والقراءة والفرائض والحساب ، وكان حسن الأخلاق متقشفاً في حياته متشدداً في اتباع السنة . ومن مؤلفاته : شرح قواعد الزقاق ، وشرح المنهج المنتخب الى قواعد المذهب ، وخلاصة لشروح ألفية ابن مالك .

2) عبد الواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصاري[38] (ت 1040هـ) درس على القصار والجنوي وأبي عبد الله الجنان وغيرهم ، وجمع بين الثقافة الدينية والرياضية ، ومن مؤلفاته : نظم المرشد المعين في مبادىء الفقه والتوحيد ، وقد نال شهرة فائقة تداني شهرة الأجرومية في النحو ، وحاشية على شرح مختصر خليل للتتائي ، ومحاذاة مختصر خليل ، وهو أستاذ ميارة الذي شرح له «نظم المرشد» (صغير وكبير).

وأكثر ما ألف في هذا العصر من كتب الفقه والعقائد حواش وشروح ، ومن أهم كتب النوازل : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة في نحو 500 صفحة من القطع الكبير لعبد العزيز الزياتي ، وتوجد منه بالمغرب عدة نسخ ، ونوازل المسناوي (ط . حجري ، فاس 1345هـ)، والفتاوي لميارة ، وجمع نوازل إبراهيم بن هلال لعلي بن أحمد التامنارتي .

أما علم الكلام ، فأكثره منظومات أو شروح على السنوسية ، وعلى العموم فقد كان تدريس هذه المادة عقيماً في طريقته ونتائجه بسبب الجدل الفلسفي الغامض الذي يصطبغ به مع كثرة الشروح والأراجيز .

وقد عني بعض علماء التصوف بوضع كتب ورسائل في التصوف ، على شكل عظات وتوجيهات إلى المريدين ، أو مختصرات أو شروح لبعض المنظومات . وهناك

---

(37) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 186 . أحمد بابا ، نيل الابتهاج ، ص 38 . الافرني ، صفوة ، ورقة 2 . اللكوسي . مناقب ورقة 12 . عبد الرحمن زيدان . اتحاف ، 1 ، 319.

(38) المحبي ، خلاصة الأثر ، 3 ، 96 ، القادري ، نشر المثاني ، ج 1.

بعض نقاد التصوف كعلي بن ميمون ، وآخرون اشتغلوا بوضع تراجم الصوفية كالتادلي .

ومن ألفوا في التصوف وما يتصل به من نقد اجتماعي :

1 ــ عبد الوارث اليالصوتي : صاحب المسلك القريب الموصل إلى حضرة الحبيب[39] .

2 ــ أبو العباس أحمد الشعبي التادلي الصومعي (نسبة إلى الصومعة بتادلا) ، وقد توفي سنة 1013هـ ، ومن مؤلفاته : شرح الحكم العطائية في أربعة مجلدات .

3 ــ محمد بن أحمد المسناوي : فوائد في التصوف .

4 ــ محمد بن علي النيجي الزروالي (1030هـ) : شرح صلاة القطب عبد السلام بن مشيش .

5 ــ عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي (ت 963هـ) : ألفية في ذم البدع المتفشية في أيامه .

أما علوم الحديث فمن المؤلفين فيه :

1 ــ أبو العز عبد الرحمن بن محمد القصري[40] (ت 1036هـ) وله حاشية على شرح البخاري .

2 ــ الشرقي بن أبي بكر الدلائي من شراح الشفا للقاضي عياض ، وهم يعدون بالعشرات .

3 ــ محمد اليستيثني (ت 959هـ).

علوم اللغة :

شهدت هذه العلوم إقبالاً واسعاً سيما في الأوساط البربرية على الرغم من أن طرق التعليم وأدواته لم تتقدم عما كانت عليه من قبل ، فقد ظلت الألفية والأجرومية بمختلف شروحها تتصدران بل تستبدان وحدهما تقريباً بعناية الطلاب والأساتذة . وفي الواقع طغت المنظومات والشروح في سائر المواد بشكل لم يتقدم له نظير ، أما

---

(39) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال . ص 54.
(40) المحبي ، م. س ، 378.

محاولة تقرير كتب معينة للدراسة ومراجعة النظر في شروح الألفية التي أمر بها أحمد المنصور فإنها لم تخلف صدى بعده على الأقل.

وعلى العموم فإن الذين تخصصوا في النحو أو اللغة وحدها قليلون بالقياس إلى ذوي التخصص المزدوج والمتعدد. ومن أشهر النحاة واللغويين:

1 — محمد بن الحسن بن عرضون قاضي شفشاون وصاحب الوثائق المشهورة[41].

2 — يوسف التدغي[42].

3 — أبو الحسن الزبير السجلماسي[43] (ت 1035هـ).

4 — محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي المعروف بالمرابط وقد وصفه اليوسي بأنه كان خاتمة النحاة[44].

ومن أهم كتب اللغة والنحو:

1 — حديقة الأزهار في شرح ماهية العشوب والعقار لأبي القاسم الغساني رئيس الأطباء في عهد المنصور. وقد وضع ملخصاً له بعنوان: كشف الرموز. وهو يتناول المفردات الطبية وشرحها. وبذلك يكون كتاب لغة وطب معاً. وقد أنجز طبعه منذ سنوات.

2 — فتح اللطيف في علم التصريف لمحمد المرابط الدلائي (ط. حجري بفاس)

3 — حاشية على شرح المرادي للقدّومي.

4 — مقصورة في الثاء والذال والظاء في القرآن.

5 — نتائج التحصيل في شرح التسهيل. لمحمد المرابط.

أما المعاجم فمساهمة المغاربة فيها ضعيفة لأن مصادر الفصحَى سواء المباشرة منها أو غير المباشرة هي بالبلاد العربية الشرقية. ويدخل في هذه المصادر القبائل ذات

---

(41) ابن القاضي درة الحجال. رقم 679.

(42) ن. م. رقم 624

(43) المحبي. خلاصة. 1. 116.

(44) اليوسي. فهرست. ص 135.

اللغة الفصيحة . والخواص . ممن أفادوا العربية بمعلوماتهم الفطرية والمكتسبة إلى غير ذلك . ومن بين المعاجم التي وضعت بالمغرب «كشف الرموز» السابق ذكره ، ومعجم لاتيني عبراني للحسن الوزان الذي عاصر كلاً من الوطاسيين والسعديين .

ولما كان الخط من وسائل تعليم اللغة . فقد خصص له السعديون بعض الكراسي على غرار ما كان معروفاً بالمشرق[45].

التـاريخ :

بقطع النظر عن عدم مساهمة المغاربة في التاريخ العام مساهمة ذات أثر فإن العناية بالتاريخ المحلي بدأت تبرز أكثر فأكثر من أيام المرابطين . لكن القرنين العاشر والحادي عشر هـ 17/16م كان الاهتمام بتاريخ أحداثهما من نصيب مؤرخين أغلبهم ذوو حظوة لدى البلاط أو كلفوا رسمياً بوضع تاريخ للدولة . غير أن «مناهل الصفا» للفشتالي والذي يعد أهم كتاب عن السعديين حتّى نهاية عصر المنصور لم يصلنا منه حتّى الآن إلا جزء واحد أو ملخص له . وعلى العموم فإن تاريخ المغرب في القرنين المذكورين يضم :

1 — تاريخ الحكم السعدي .
2 — تاريخ الدلائيين .
3 — تاريخ جمهورية أبي رقراق .
4 — تاريخ سوس في ظل حكم أبي حسون السملالي .
5 — تاريخ حكم الشبانات بمراكش .
6 — تاريخ ثورة ابن أبي محلي .
7 — تاريخ النشاط الاستعماري .
8 — حركة العياشي .

وأما المصادر التي يمكن الاستفادة منها فهي إما كتب تاريخ سياسي أو تراجم أو فهارس شيوخ أو كتب أنساب أو تقارير أجنبية .

ومن بين المؤلفات عن العصر السعدي :

1 — مناهل الصفا لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي في بضعة مجلدات .

(45) ابن القاضي . م . س . رقم 1058.

2 ــ الجُمَان في تاريخ الزمان للحاج محمد الشُّطيبي (ت 963هـ) ومنه نسخة ببني زروال.

3 ــ الممدود والمقصور من سنا أبي العباس المنصور لأبي عبد الله محمد بن عيسَى الذي نكبه المنصور ومات في نكبته (990هـ).

4 ــ تقييد في أخبار دولة الشرفاء السعديين لأبي زيد عبد الرحمن السعدي (خ، عامه، الرباط).

5 ــ تقييد في بعض حوادث الدولة السعدية لإبراهيم الورياغلي[46] (ت 1047هـ 1637م).

6 ــ المنتقَى المقصور على مآثر مولانا المنصور لأحمد بن القاضي (خ. ع. الرباط).

7 ــ تاريخ السودان لعبد الرحمن بن عبد الله السعدي (ت 1066هـ 1655م) وقد نشره هوداس وترجمه (1901م).

أما عن تاريخ الدلائيين فلم توضع إلا كتب متأخرة، سيما «البدو الضاوية لسليمان الحوات» وألف محمد المهدي بن سودة كتاباً مطولاً في ستة مجلدات عن الدلائيين، ولكن لا يعرف مصيره. كذلك إذا استثنينا الوثائق التي جمعها دوكاستري ومن بعده عن حركة جمهورية أبي رقراق والتي تعود إلى عصر هذه الجمهورية، فليس هناك تاريخ مستقل لهم أو معاصر على الأقل. ونفس الشيْ تقريباً عن حركة ابي حسون والشبانات. أما حركة ابن أبي محلي فقد ألف هو نفسه في الدفاع عنها كتباً سبق ذكر بعضها.

وأخيراً فإن تاريخ النشاط الاستعماري المعاصر لكل الحركات المذكورة يوجد في وثائق وكتب وتقارير برتغالية وفرنسية وإنجليزية وغيرها، بينما وضع كتاب متأخر عن نشاط العياشي لأبي أملاق.

وتتناول كتب التراجم أشخاصاً أو أسراً أو بلداً معيناً، ومن أهمها:

1 ــ جذوة الاقتباس، ودرة الحجال، وكلاهما لابن القاضي.
2 ــ دوحة الناشر لابن عسكر.

(46) ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب، 1، 144.

3 — مرآة المحاسن لمحمد العربي الفاسي.
4 — غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض لأحمد بن القاضي؛ وهو من كتب التراجم القليلة التي خصصت للحيسوبيين.
5 — الدرر المرصعة في أخبار أعيان درعة، لمحمد المكي الناصري ومؤلفه من معاصري القرن 12هـ 18م؛ ولكن كتابه هذا تضمن تراجم كثير من رجالات درعة وأحداثها في القرنين السابقين.

ومن كتب الفهارس (فهارس الشيوخ والكتب):

1 — فهرست شيوخ المنصور، وضعها المجور أستاذه.
2 — الفوائد الجمة لعبد الرحمن التامنارتي؛ وهو مطبوع ومترجم إلى الفرنسية.
3 — فهرس ابن يعقوب الأيسي من معاصري المنصور.
4 — فهرس البوسعيدي، (ت 1060هـ)، واسمه: بذل المناصحة.
5 — فهرس عبد الواحد الشريف.

وعلى الرغم من أن بعض المغاربة ظلوا يتوجهون إلى المشرق لمتابعة دراستهم، خصوصاً إذا كان هدفهم كذلك أداء مناسك الحج، فهم قلما عنوا بتدوين رحلاتهم على غرار ما كان يفعله أسلافهم. بيد أن أبا الحسن التمكروتي الجزولي (ت 1003هـ 1594م) سجل في رحلته: «النفحة المسكية في السفارة التركية[47]» وصفاً ممتعاً ومدققاً لمشاهداته بشمالي إفريقيا والبلاد التركية، وقد وصف مسجد أيا صوفيا وصفاً رائعاً، كما أعجب بالتزام الدولة بالتشريعات المكتوبة، فقد كانت تركيا أول بلد قنن التشريعات المدنية والدينية. وصحب التمكروتي في هذه السفارة الكاتب محمد بن علي الفشتالي، حيث سلما إلى السلطان مراد سليم هدية من أحمد المنصور. واستغرقت الرحلة سنتين إلى عام 999هـ، وتبلغ صفحات الرحلة المدونة حوالي 330 صفحة[47].

الطب

أكثر الذين ينتسبون إلى الطب من الشخصيات ذات الثقافة العامة، كعبد الواحد بن عاشر وأبي القاسم الغول الفشتالي، وأحمد بن عبد الله بن يعقوب

(47) التمكروتي، النفحة المسكية، مخطوط الرباط، د 795.

السملالي وابن سعيد المرغيثي . إلا أن مؤلفات هؤلاء في الطب كثيراً ما تكون ذات قيمة . ومع ذلك فقد تراجع الطب التجريبي كثيراً عما كان عليه في العصر المريني الذي تميز أيضاً بنشاط الدولة في بناء المستشفيات وعلاج مختلف الأمراض الشائعة .

غير أن القرنين العاشر والحادي عشر شهدا نشاطاً خاصاً في المؤلفات الطبية ، بالإضافة إلى ظهور بعض الأطباء البارزين على قلتهم ، إذ كان البلاط المغربي يستقدم أطباء أجانب ككيوم بيرار في عهد عبد الملك المعتصم ، وقد كان قنصلاً لفرنسا بالمغرب ، وأرنول دوليل في عهد المنصور وزيدان[48] .

ويعد أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني[49] أبرز أطباءَ العهد السعدي ، وهو أندلسي الأصل ، وكان والده طبيباً أيضاً ، ومن مؤلفاته :

1 — حديقة الأزهار في شرح ماهية العشوب والعقار . وقد مر ذكره كمعجم طبي ، وألف سنة 994هـ ، وهو في تسع كراريس ، ويتناول وصف الأعشاب كما في عنوانه .

2 — شرح منظومة ابن عزرون في الحميات ، ومنه نسخة بالخزانة العامة بالرباط . ووصف ابن القاضي هذا الطبيب الذي كان وزيراً أيضاً ، بكونه اختص من بين الأطباء بسلامة الاعتقاد ، أي أنه لم يشتغل بالفلسفة شأن الأطباء القدامى ، وقد نظم الغساني في الموشحات أيضاً .

ومن أطباء هذا العصر أيضاً :

1 — عبد الغني بن مسعود بن الحسن الزموري تلميذ أبي القاسم[50] . وله كتاب بعنوان «القانون المفيد في علاج الحصا بقول سديد» وتتوفر الأوقاف على نسخة منه .

---

(48) Caille. La petite histoire du Maroc, 1, 44

(49) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1347 . المقري ، روضة الآس . الكانوني ، مجلة المغرب — ربيع — جمادى 1355هـ . عبد العزيز بنعبد الله . الطب والأطباء ، ص 57.
Deverdun, Marrakech, 1, 335

(50) الكانوني ، مجلة المغرب ، ربيع — جمادى ، 1355هـ . دعوة الحق ، يناير ، 1966 . ص 137.

2 ــ أبو القاسم الغول الفشتالي (ت 1059هـ) ومن مؤلفاته : «حافظ المزاج ، ولافظ الأمشاج بالعلاج» وهو أرجوزة في 1410 بيت ، ومنها نسخة بالخزانة الملكية بالرباط[51] .

3 ــ محمد بن علي البعقيلي، وله مجموعة في الطب بعنوان : «طب البعقيلي[52] . وممن برزوا في الطب : أحمد بن عبد المراكشي المعروف بالمريد[53] (ت 1048هـ)، وأبو عبد الله محمد الطبيب[54] ، وقد عالج المنصور من مرض خطير سنة 987هـ .

الرياضيات والهيئة

كان الإقبال على الرياضيات والهيئة إقبالاً منقطع النظير ، فلم يسبق أن شهد المغرب مثل هذا الحماس في دراسة الرياضيات والهيئة ، فالأولى احتاج إليها في المواريث وهندسة المباني خاصة ، وبالنسبة للأخيرة كانت الحاجة إليها في إعداد أطر التوقيت . ويعتبر تأليف ابن القاضي لكتاب في طبقات الحيسوبيين والفرضيّين دلالة على كثرة الإطارات الرياضية في هذا العهد .

وممن تعاطوا للرياضيات

1 ــ محمد بن محمد بن أحمد بن أبي العافية المكناسي[55] (ت 981هـ)، وهو والد ابن القاضي مؤلف الجذوة ودرة الحجال وكان هو أيضا رياضياً قديراً .

2 ــ محمد بن أبي القاسم ، وهو ابن أخي صاحب الجذوة ، وتلميذه ، كما درس على الحافظ المقري والعربي الفاسي وغيرهما ، وكات حيسوبياً فرضياً منجماً ومؤقتاً ، ومن مؤلفاته :

1 ــ البرق الوامض ، في الحساب والفرائض .
2 ــ محاذي على قصيدة ابن ليون في التكسير .

---

(51) محمد الفاسي ، البحث العلمي ، 6ـ 1385هـ 1965م ص 31.
(52) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص 53 ، 184 ، 187.
(53) عباس المراكشي ، اعلام ، 2 ، 114 ، وقد ذكر أن الحضيكي وصاحب الصفوة قد ترجما له .
(54) الافراني ، نزهة ، ص 146 . الناصري ، الاستقصا ، 5 ، 92.
(55) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 698.

3 — محاذي على الروضة في التوقيت[56]، وقد توفي سنة 1040هـ.

3 — أبو عبد الله محمد بن أحمد السالمي أستاذ المنجور، وقد توفي بين 999 — 1002هـ.

4 — الرسموكي محمد بن أحمد الجزولي الذي درس بمراكش ثم تعاطى التدريس بتامنارت، وتوفي سنة 1020هـ.

5 — محمد بن سعيد الطنجي[57] (ت 992هـ) ويعرف بابن سليمان.
6 — عمر بن علي بن أحمد الحصيني اللجائي[58].
7 — إبراهيم بن عبد الله الصنهاجي[59].

ومن علماء الهيئة

1 — أحمد التقليتي، وكان يجمع بين الرياضيات والتعديل، حتّى كان يعد في هذه العلوم شيخ الجماعة بمراكش[60]، وهو معاصر لابن القاضي.

2 — أحمد بن محمد الولتي الطاطائي المراكشي (ت 1061هـ) وهو أستاذ ابن سعيد المرغيثي، وكان يعتبر إماماً في التعديل والأزياج والحدثان[61]، وقد درس هو نفسه على والده، وتولى كلاهما مهمة التوقيت بجامع الحرة بمراكش.

3 — أبو زيد عبد الرحمن البعقيلي الجزولي (ت 1006هـ)، صنع الساعة الرخامية بالجامع الأعظم بتارودانت، وأخرى بمسجد القصبة، ومن مؤلفاته: شرح روضة الأزهار وشرح السيارة[62]، وكان المنصور يلقبه بالجرادي (نسبة إلى الجراد)، وقد رويت في ذلك قصة ذكرها كل من التمنارتي في «الفوائد الجمة» والأفرني في «نزهة الحادي»، وقد عرف عن المنصور الذهبي أنه هو نفسه كان مولعاً بالرياضيات إلى درجة أنه قد استطاع أن يدرس كتاب إقليدس ويفك غوامضه بنفسه.

---

(56) عبد الرحمن زيدان، اتحاف، 4، 40.
(57) ابن القاضي، لقط الفرائد، ص 180. درة الحجال، رقم 659.
(58) درة الحجال، رقم 1161.
(59) محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص 180.
(60) درة الحجال.
(61) الأفرني، صفوة ورقة 80.
(62) الأفرني، نزهة، ص 221. محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص 51.

وفي هذه الدراسة عن الحركة الفكرية لم تذكر إلا أمثلة قليلة لرجال الأدب والعلم والتكوين الديني ، الذين ساهموا في تنشيط الحركة الثقافية وكانوا موضع اهتمام مؤلفي التراجم .

كذلك لا تتعرض هذه الدراسة إلا بإشارات للأساتذة الوافدين على المغرب من جهات أخرى ، كأحمد بابا الصنهاجي من السودان والخروبي من ليبيا والمقري من المغرب الأوسط ، وقد كان لهم ولأمثالهم تأثير لا ينكر في إشاعة المعرفة بالمغرب ، كما تعرفوا بدورهم على الإمكانيات الثقافية لهذه البلاد .

المصادر والمراجع

ابن أبي زرع (راجع ابن عبد الحليم صالح).

ابن الأحمر إسمعيل بن يوسف 761هـ 1360م :

-- روضة النسرين في دولة بني مرين : باريز 1917م.

ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي 779هـ 1377م :

رحلة ابن بطوطة . القاهرة . 1377هـ 1958م.

ابن تاويت محمد (التطواني) :

وثيقة تاريخية عن تطوان . مجلة تطوان . 1956م.

-- وثائق سعدية لم تنشر . مجلة تطوان 1958 — 1959م.

-- الأدب المغربي . دار الكتاب اللبناني . بيروت 1960م.

ابن الحاج أبو عبد الله محمد العبدري الفاسي 737هـ 1336م :

— المدخل إلى علم التصوف . المكتبة التجارية . القاهرة . 1348هـ 1929م.

ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد بن عبد الله 776هـ 1374م :

— معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار . م . خ . ع . الرباط . د 972 .

— اللمحة البدرية في الدولة النصرية . تحقيق محب الدين الخطيب . م . السلفية . القاهرة . 1347هـ 1928م.

ابن خلدون عبد الرحمن . 808هـ 1406م :

— المقدمة . المطبعة البهية بمصر (بدون تاريخ).

— كتاب العبر . وديوان المبتدأ والخبر . دار الكتاب اللبناني . بيروت . 1956 -- 1959م.

— التعريف بابن خلدون . ملحق المجلد السابع من كتاب العبر . الطبعة المذكورة.

ابن الزبير أبو جعفر أحمد . 808هـ 1406م :

— صلة الصلة . تحقيق ليفي بروفنصال . الرباط . 1938م.

ابن زيدان عبد الرحمن 1365هـ 1946م :
– إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس . م. الوطنية . الرباط . 1347 ــ 1352هـ 1929 – 1933م.
ابن سودة عبد السلام المُرّي (مُعاصر) :
– دليل مؤرخ المغرب الأقصى . ج . 1 . دار الكتاب. الدار البيضاء . 1960م
ابن عاشر أحمد الحافي . 1163هـ 1750م :
– تحفة الزائر ببعض مناقب الحاج أحمد بن عاشر . م . خ . ع . الرباط . د 533.
ابن عبد الحليم صــالح
– الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب ومدينة فاس . تحقيق محمد الهاشمي الفيلالي . شركة النشر المغربية . م الوطنية . الرباط . 1355هـ 1936م . طبعة فاس (ط . حجري).
وقد أثبت المحقق كنون الذي راجع مؤلف هذا الكتاب حججه والتفاصيل التي أوردها غيره . أن مؤلف الأنيس المتداول حتّى الآن هو لصالح بن عبد الحليم وليس لابن أبي زرع الذي يرد اسمه في ثنايا الأنيس نفسه .
ابن عسكر أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر 976هـ 1578م :
– دوحة الناشر . م . خ . ع . الرباط . 764.
ابن علي الدكالي محمد 1364هـ 1945م :
– إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا . م . خ . ع . الرباط . د 11
– الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين . م . خ . ع . الرباط . د 1320.
ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي . 1089هـ 1678م :
– شذرات الذهب في أخبار من ذهب . مكتبة القدسي . القاهرة . 1351هـ 1932م .
ابن عيشون أبو عبد الله محمد بن محمد الشراط . 1109هـ 1697م.
– الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس . م . خ . عامة . الرباط . د 1246.
ابن غازي المكناسي محمد بن أحمد 919هـ 1513م :
– الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون .

ابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي 1025هـ 1616م.
— جذوة الاقتباس . م . خ . ع . الرباط ، ك 1242و. ك 589.
— درة الحجال في غرر أسماء الرجال ، تحقيق علوش ، الرباط ، 1934م.
— لقط الفرائد من حقائق الفوائد ، م . خ . ع . ك 270 ، ضمن مجموع ، ابتداء من ص 136.
— المنتقى المقصور على مآثر مولانا الخليفة المنصور . م . خ . ع . الرباط ، د 764.
ابن مرزوق التلمساني أبو عبد الله محمد بن أحمد 781هـ 1380م :
— المسند الصحيح الحسن ، في مآثر مولانا أبي الحسن . م . خ . ع . الرباط ، ق 111.
— منتخبات من المسند الصحيح لبروفنصال . مجلة هسبريس 1 ، 1925 ، الرباط .
أبو أملاق عبد القاهر بن محمد ، قرن 13 هـ 19م :
— الخبر عن ظهور العياشي بهذه البلاد وذكر قيامه بوظيفة الجهاد ، م . خ . ع . الرباط . د 91.
أحمد باب الصنهاجي السوداني .
— نيل الابتهاج بتطريز الديباج . م . خ . ع . الرباط ، د 766.
— تحفة الفضلا ببعض فضائل العلما . م . خ . ع . الرباط ، د 1641.
الأفرني (أو اليفرني) محمد الصغير المراكشي 1140هـ 1728م.
— صفوة من انتشر في أخبار القرن الحادي عشر . م . خ . ع . الرباط ، د 671.
— نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، منشورات إرنست لوروكس ، ترجمة هوداس (إلى الفرنسية) ، أنجز ، 1888م .
الأنصاري محمد :
— اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار . مجلة هسبريس ، 1931 ، الرباط .
البادسي عبد الحق :
— المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف . م . خ . ع . الرباط ، د 1853.

باذل دافيدسن :
— إفريقيا تحت أضواء جديدة . ترجمه عن الإنجليزية ، جمال م . أحمد . بيروت .
بروكلمان كارل 1956م :
— تاريخ الشعوب الإسلامية ، تعريب نبيه أمين ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1953 — 1956م.
البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز 487هـ 1094م:
— المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (قطعة من المسالك والممالك) ، مكتبة أمريكا والشرق ، باريز 1965م.
البناني فتح الله بن أبي بكر :
— إتحاف أهل العناية الربانية ، المطبعة العامرية ، القاهرة ، 1324هـ 1906م.
بوجندار محمد 1345هـ 1926م :
— مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح . م . خ . ع . الرباط ، د 1044.
بيرتيي بول (معاصر) :
— صناعة السكر بالمغرب ، مجلة البحث العلمي . 1 ، الرباط ، 1383هـ 1964م.
التادلي أبو زيد عبد الرحمن الصومعي ، ق 10هـ 16م :
— التشوف إلى رجال سادات التصوف ، م . خ . ع . د 1103 . الرباط .
التازي عبد الهادي (معاصر) :
— ساعة مائية آلية بمدينة فاس ، تعريب وتعليق على بحث لدي صولا برايس الأمريكي ، مجلة المغرب ، الرباط ، عدد 1966/8م.
التازي عبد الودود بن عمر 1247هـ 1831م:
— نزهة الأخيار المرضيين في مناقب العلماء الدلائيين البكريين . ألفه سنة 1220هـ ، م. خ . ع . الرباط ، ك 1264.
التمكروتي أبو عبد الله محمد بن علي 1003هـ 1594م :
— النفحة المسكية في السفارة التركية ، م . خ . ع . الرباط ، د 795.
الجراري عبد الله (معاصر)
— الغاية من رفع الراية ، م . الأمنية . الرباط ، 1372هـ 1953م.

الجزنائي علي :
ـ زهرة الآس في بناء مدينة فاس . م. مبتور . د 773 . الرباط .
الحجوي محمد المهدي
ـ حياة الوزان الفاسي وآثاره . م . اقتصادية . الرباط . 1354هـ 1935م .
حركات إبراهيم
ـ كتاب العبر كمصدر تاريخي . مجلة آفاق . 1 . الرباط .
الحساني إبراهيم بن علي :
ـ ديوان قبائل سوس . نشره الكولونيل جوستينار في مجلة الوثائق المغربية . عدد 1933/29م.
الحسني الشريف محمد بن أحمد 760هـ 1358م :
ـ رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة . م . السعادة . القاهرة . 1344هـ 1925م.
الحوات الشفشاوي سليمان بن محمد :
ـ البدور الضاوية . م . خ . ع . الرباط . د 261 و د 1454.
الدباغ محمد بن عبد العزيز (معاصر) :
ـ ابن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة . دعوة الحق . صفر/يوليوز . 1382هـ 1962م.
دعوة الحق : (المخطوطات الحبسية). رمضان/يناير . 1385هـ 1966م
الزركشي محمد بن إبراهيم (ت 894هـ) :
ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تحقيق محمد ماضور . تونس 1966م.
الزياني أبو القاسم 1242هـ 1833م :
ـ الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب . م . خ . ع . الرباط . د 658 .
ـ الترجمانة الكبرى التي جمعت أخبار العالم براً وبحراً . م . خ . ع . الرباط . د 659.
ـ تقييد عن البلديين بفاس (أو قصة المهاجرين البلديين...) . م . خزانة عامة . الرباط . د 1115.
السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن 902هـ 1497م :
ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . مكتبة القدسي . القاهرة . 1353هـ 1934م.

– إفادة المرتاد بالتعريف بالشيخ ابن عباد ، م. خ. ع. الرباط ، د 984.
السعدي عبد الرحمن بن عبد الله عمران 1066هـ 1656م :
– تاريخ السودان ، نشره هوداس . باريز 1898م.
سعيد أعراب (معاصر) :
– جامع شفشاون . دعوة الحق . أكتوبر 1962هـ . الرباط .
السوسي محمد المختار :
– سوس العالمة . م. فضالة . المحمدية . 1380هـ 1960م.
السيوطي جلال الدين :
– حسن المحاضرة . في أخبار مصر والقاهرة . مطبعة إدارة الوطن . القاهرة . 1299هـ 1881م.
الشوكاني محمد بن علي 1250هـ 1834م :
– البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . م . السعادة . القاهرة . 1348هـ 1929م .
الصومعي التادلي عبد الرحمن : (أنظر التادلي) .
عبادي أحمد مختار (د.) :
– العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجري . (ضمن كتاب : جامعة القرويين في ذكراها المئوية بعد الألف). وزارة التربية الوطنية . الرباط 1379هـ 1960م.
العبدري أبو عبد الله (قرن 7هـ 13م) :
– رحلة العبدري ، م . خ . ع . الرباط . د 1012.
عبد العزيز بنعبد الله (معاصر) :
– مظاهر الحضارة المغربية ، دار السلمي . الدار البيضاء . 1957 – 1958م.
– معطيات الحضارة المغربية . دار الكتب العربية ، الرباط . 1963م.
– الطب والأطباء بالمغرب . م . الاقتصادية . الرباط . 1380هـ 1960م.
عمار علي سالم :
– أبو الحسن الشاذلي ، م . دار التأليف ، القاهرة 1951م.
الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله 714هـ 1314م.
– عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة ببجاية . م . الثعالبية . الجزائر ، 1328هـ 1910م.

الفاسي العابد (1396هـ 1976م :

– ابن عبد الملك المراكشي ، دعوة الحق ، يناير ومارس 1959م ، الرباط .

الفاسي عبد الحفيظ :

– العصر الذهبي لمدينة مراكش ، مجلة المغرب ، ربيع ، جمادي ، 1355هـ 1936م.

الفاسي عبد الكريم أبو محمد بن المجذوب :

– تذكرة المحبين في وفيات الأعيان وحوادث السنين . م . خ . ع . الرباط . ك 270 ، ابتداء من ص 185.

الفاسي محمد (معاصر) :

– محاضرة حول الموسيقى المغربية الأندلسية ، جريدة العلم . 11 و 12 يناير 1962م . الرباط .

– نظرة عن الأدب الشعبي بالمغرب ، مجلة البينة . عدد 1382/4هـ 1962 . الرباط .

– الرحلات السفارية المغربية ، مجلة البينة . عدد 1382/7هـ 1962م.

– الأدب الشعبي المغربي الملحون ، مجلة البحث العلمي ، عدد 1 ، الرباط ، 1384هـ 1964م .

– الخزانة السلطانية وبعض نفائسها ، مجلة البحث العلمي . عدد 6 . 1385هـ 1965م . ودعوة الحق . عدد 1385/10هـ 1965م.

الفاسي محمد البشير :

– قبيلة بني زروال . منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط . 1962م .

الفاسي محمد العربي :

– مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن . طبع حجري ، فاس ، 1324هـ 1906م.

الفاسي محمد المهدي ، 1109هـ 1697م :

– ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع . ط . حجري ، فاس 1313هـ 1895م.

الفشتالي أبو فارس عبد العزيز بن محمد 1032هـ 1622م :

– مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا . تحقيق عبد الله كنون . المركز الجامعي للبحث العلمي ، م. المهدية ، تطوان ، 1384هـ 1964م.

القادري محمد بن الطيب ، 1187هـ 1773م.
– نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، ط . فاس 1310هـ 1892م. و م. خ. ع. الرباط .
قشطيليو محمد :
– نظرة على تاريخ الموريسكوس ، مجلة تطوان ، 1956/1 ، الرباط .
القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي 831هـ 1418م :
– صبح الأعشَى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، القاهرة .
الكانوني محمد العبدي :
– آسفي وما إليه قديما وحديثاً . م . مصطفَى محمد ، القاهرة ، 1353هـ 1934م .
– الطب وآثاره بعاصمة مراكش ، مجلة المغرب ، ربيع – جمادى ، 1355هـ ، 1936م .
الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس 1323هـ 1906م :
– سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ، فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، ط . ح . فاس 1916م.
الكراسي محمد :
– منظومة حول الوطاسيين ، تاريخ تطوان لمحمد داود ، ج 1 (انظر محمد داود).
كنون (كاف مثلثة) عبد الله (معاصر) :
– مؤلف الذخيرة هو مؤلف القرطاس ، مجلة تطوان ، 1957.
– النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1961م.
– ابن الحاج الفاسي (سلسلة مشاهير المغرب) ، بيروت .
– عبد العزيز الفشتالي (سلسلة مشاهير المغرب) ، بيروت .
اللكوسي محمد الجزولي ، 1269هـ 1852 :
– مناقب الحضيكي (محمد بن أحمد ، ت 1189هـ 1775م)، م. خ. ع. الرباط ، د 1124.
مؤلف مجهول :
– تاريخ الدولة السعدية التاكمادارتية ، نشره ج . كولان . الرباط 1934.

م. مجهول :
— الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية . تحقيق محمد بن أبي شنب . الجزائر . 1339هـ 1920م.
م. مجهول
— ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم ، م. خ. ع. الرباط ، د 1394.
م. مجهول :
— مجموعة شعرية لأدباء مغاربة من عهد السعديين (ملحق بمناهل الصفا للفشتالي ، انظر : الفشتالي).
المحبي محمد 1111 هـ 1700 م :
— خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، م. الوهبية، القاهرة، 1284هـ 1867م .
محمد داود (معاصر) :
— تاريخ تطوان ، معهد مولاي الحسن . تطوان ، 1379هـ 1959م.
مخلوف محمد بن محمد :
— شجرة النور الزكية ، في طبقات المالكية ، م السلفية ، القاهرة ، 1349هـ 1930.
المسناوي الدلائي محمد بن محمد بن أبي بكر :
— نتيجة التحقيق في بعض أهل الشرف الوثيق . ط. ج . فاس .
المقري أحمد بن محمد التلمساني . 1041هـ 1632م :
— نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، م . التجارية ، القاهرة . 1369هـ 1949م.
المنوني محمد (معاصر)
— نظم الدولة المرينية . مجلة البحث العلمي . عدد 2 . 3 . 4 . 1384هـ 1964م . الرباط .
— علاقات المغرب بالشرق في العصر المريني . مجلة دعوة الحق . أبريل . مايو . 1965م . الرباط .
— كراسي الأساتذة بجامعة القرويين . دعوة الحق . عدد 4 . 1385 هـ 1966م . الرباط .

الناصري أحمد بن خالد . 1315هـ 1897 م:
– الاستقصا . لأخبار دول المغرب الأقصى . دار الكتاب . الدار البيضاء . 1954 - 1956م.
الناصري محمد المكي الدرعي (قرن 12هـ 18م):
– الدرر المرصعة . بأخبار أعيان درعة . م. خ. ع . د 265 . الرباط .
النيفر محمد الشاذلي :
– مساهمة القرويين في اللقاح العلمي بين المغرب وتونس (كتاب جامعة القرويين . انظر : عبادي).
الهلالي محمد العربي :
– الجامع الأعظم بتطوان . دعوة الحق . 1 . 1382هـ 1962م . الرباط .
الوزان الحسن : (انظر ليون الإفريقي في المراجع الأجنبية).
اليفرني = الافرني.
اليوسي أبو علي الحسن بن مسعود . 1102هـ 1690م :
– الفهرست . م. خ. ع. الرباط . د 1234.
– المحاضرات . ط. ح. فاس . 1317هـ 1899م.

L'Abbé (J.J.L) Bargès :
Tlemcen Ed. Benjamen Duprat et Challamel Aîné — Paris 1859
Auguste Cour :
—La Dynastie Marocaine des B'ni Wattas Imp. de Braham-Constantine 1920
—L'Etablissement des Dynasties des Chorfa au Maroc Ed. Ernest Leroux. Paris 1904
Bargès (voir l'Abbé Bargès)
Beaumier (A) :
—Raoud Al Qirtas (traduct.française) Paris 1860
Bernard Dubreuil :
—Les pavillons des Etats musulmans, Hespéris 3 — 1960, Rabat
Berthier (Paul) :
—Histoire du Massif de Moulay Idriss Ed. Félix Moncho — Rabat — 1938
Castonnet des Fosses (H) :
—Les Portugais au Maroc — Paris, 1937
Caillé (voir Jaques Caillé)
Champion (Pierre) :
—Le Maroc et Ses Villes d'Art Lib. Renouard. Paris 1927
Charles Pellat :
—Recueil de textes de la presse arabe : Lib. d'Amérique et d'Orient Paris 1958

Coindreau (voir Roger Coindreau)
Cour (voir Auguste Cour)
De Castries (Henry) :
— Sources Inédites de l'histoire du Maroc (Plusieurs volumes), Paris
— Sources Inédites de l'Histoire du Maroc (plusieurs volumes), Paris
— Les signes de validation des Chérifs saâdiens L. Larose Paris 1921
De Cenival (voir Pierre de Cenival)
De Chénier (M):
— Recherches historiques sur les Maures T.2 — Paris, 1787
De Cossé Brissac (P.H) :
— Robert Blake et la Barbary company
Hespéris 1,2 — 1946 — Rabat
Delafosse (M) :
— Les relations du Maroc avec le Soudan à travers les âges
Hespéris 2 — 1924 — Rabat
Deverdun (Gaston) :
— Marrakech des origines à 1912 Ed. Techniques Nord-Africaines — Rabat 1959
— Découverte d'un trésor (Hespéris)
Encyclopédie de l'Islam :
Première édit. Paris
Fagnan (E) :
— Extraits inédits relatifs au Maghreb Im. Jules Carbonel — Alger 1924
Georges Marçais :
— Tlemcen Lib. Renouard — Paris 1950
Georges Pianel :
— Les préliminaires de la Conquête du Soudan par Moulay Ahmed al-Mansour
Hespéris 1,2 — 1953
Hady Roger Idris
— Initiation à la Tunisie Lib. d'Amérique et d'Orient — Paris 1950
Henri Basset et Lévi Provencal :
— Chella Ed. Emile Larose — Paris 1922
Henry Koeler :
— La Casba saâdienne de Marrakech d'après un plan manuscrit
Hespéris 1940 — Rabat
Hoeffer (M.F) :
— L'Univers (Afrique Australe + Le Maroc) : Ed. Firmin Didot Frères — Paris 1848
Houdas (voir al. Yefrani en Arabe)
Jaques Caillé :
— La Petite histoire du Maroc Ed. Casablanca
— Hespéris, 1953
Julien Ch. André :
— Histoire de l'Afrique du Nord, Payot — Paris 1952
La Nation Africaine
Quotidien de Rabat — 3 Oct. 1963

Lavoix (Henri) :
— Catalogue des monnaies musulmanes (Espagne et Afrique) — Imp. Nationale, Paris. 1891
Le bel (Roland) :
— Les voyageurs français du Maroc Lib. Coloniale et orientale Larose — Paris 1936
— Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais Hespéris 4/1929
Léon l'Africain (Jean) :
— Description de l'Afrique Traduit de l'Italien par A. Epaulard Lib. d'Amérique et d'Orient — Paris 1956
Léon Paliacov :
— Du Christ aux Juifs Ed. Calmann — Lévy — Paris 1961
Le Tourneau (Roger) ;
— Notes sur les lettres latines de Nicolas-Clénard relatant son séjour dans le Royaume de Fès
Hespéris — Rabat 1934
Manuel L. Ortega :
— Los Hebreos en Marruecos :
Editorial Hispano Africaina — Madrid 1919
Marçais (voir Georges Marçais)
Marino Arribas Palau :
— Cartas de recomendacion cursadas al Sultan Abî Saîd. Utman III Hespéris 3 — 1960 — Rabat
Marmol :
— L'Afrique Paris 1657
— Histoire des Chérifs et des Royaumes du Maroc traduct. du Duc d'Angloutisme — Paris
Masson (voir Paul Masson)
Mercier Ernest :
— Histoire de l'Afrique septentrionale Edit. Ernest Leroux, Paris 1891
Milliot (Louis) :
— Démembrements des Habous Edit. Ernest Leroux — Paris 1918
Mission Scientifique du Maroc :
— Villes et tribus du Maroc Rabat et sa région — Tanger — Ernest Leroux — Paris 1915
Paul Masson :
— Histoire des établissements du Commerce français dans l'Afrique Barbaresque — 1560 — 1793 Lib. Hachette, 1903
Pellegrin (A) :
— Histoire de la Tunisie Ed. Lib Namura — Tunis 1948
Pérès (Henri) :
— La Poésie andalouse en arabe au XIe siècle Lib. d'Amérique et d'Orient — Paris, 1953
Pierre de Cenival :
— L'Eglise Chrétienne de Marrakech au XIIIe siècle, in Hespéris 1.1927 Rabat
Pignon (J) :
— Initiation à la Tunisie (voir Hady Roger)

Raymond Mauny :
—Notes sur les grands voyages de Léon l'Africain
Hespéris 3 et 4 — 1954 Rabat

Robert Ricard :
—Recherches sur les relations des îles Canaries et de la Berbérie au XVI siècle — Hespéris 1 et 2/1935 — Rabat
Hespéris 4.1936
—Les Portugais et l'Afriqué du Nord sous le régime de Jean III, Hespéris 4.1937
—La relation portugaise de la bataille de Salado
Hespéris 1.2.1956
—Le Maroc a la fin du XVIe siècle
Hespéris 3.4.1957

Robert Ricard et Chantal De la Véronne :
— Sources Inédites de l'histoire du Maroc (Espagne-Tome II) — Paris

Robert Ricard et Jaques Caillé :
—Salé-Le-Vieux et Salé le Neuf,Hespéris 4.1947

Roger Coindreau :
—Les Corsaires de Salé 1948 — Paris
—Antoine de Sallettes, Hespéris 3.4.1947

Rousseau Gabriel :
—Le Mausolée des Princes Saâdiens à Marrakech, Librairie Orientaliste — Paris 1925

Terrasse (Henri) :
—Histoire du Maroc Edit. Atlantides - Casablanca 1949

Walckenaer (C.A) :
— Recherches géographiques sur l'intérieur de L'Afrique Septentrionale
Imp. de Firmin Didot — Paris 1821

الفهـــارس

فهرس الأعلام الشخصية

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الجماعات

(ب)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس الأماكن

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الموضوعات

بنو مرين

الحضارة على عهد بني مرين

بنـــو وطـــاس

الحضارة في عهد الوطاسيين

الســعــديـــون

الحضارة في عهد السعديين

الفهارس :



الإيداع القانوني رقم 1984/614